

مدام بوفاري

جوستاف فلوبير

ترجمة : محمد مندور

« ... ثم تبدأ رقصة ـ على نغمات « الفالس » المنبعثة من أرغن يديره الرجل ـ في صالون دقيق صغير ، لا يتجاوز كل راقص فيه حجم الإصبع ! ... يدورون ويدورون بين المقاعد الوثيرة و الأرائك و الموائد ، و تنعكس حركاتهم مراراً في مرايا التصق بعضها إلى بعض بشريطٍ من ورقٍ مذهب ... و الموسيقى الحزينة المتباطئة تارةً ، و المرحة تارةً أخرى ، تنبعث من صندوقه خلال ستارة من « التافتاه » وردية اللون ، عُلقت بمشجب نحاسي ذي زخرف عربي . وكانت هذه الموسيقى بالذات تعزف فوق المسارح ، أو في الصالونات حيث يدور الرقص على وقعها في السهرات ، وتحت الثريات المتلألئة ، فكانت بمثابة أصداء تصل إلى « إيما » من المجتمعات الراقية التي تهفو إليها ! »

دار شرقيات للنشر و التوزيع

مدام‌بوڤاری

هذه ترجمة لرواية
Madame Bovary
تأليف
Gustave Flaubert

الطبعة العربية الأولى

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ شارع صدقى ، من هدى شعراوى
باب اللوق ـ القاهرة ت ٣٩٣٠٣٣٥

الغلاف والاشراف الفنى على الكتاب :
محيى الدين اللباد

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة
القاهرة

جوستاف فلوبير

مدام بوفارى

ترجمة: محمد مندور

دار شرقيات للنشر والتوزيع

القسم الأول

الفصل الأول

كنا في حجرة الدراسة، عندما دخل الناظر يتبعه تلميذ جديد لا يرتدي الزي المدرسي، وفراش يحمل قمطراً كبيراً، فاستيقظ من كان نائماً، وانتصب كل منا واقفاً، وكأنه فوجئ على حين غرة برقيب على عمله!

وأشار إلينا الناظر بالعودة إلى الجلوس، ثم التفت إلى المدرس قائلاً في صوت خفيض: «مسيو روجيه، هذا تلميذ أوصيك به. لقد التحق بالسنة الخامسة، ولكن إذا بدا عمله وسلوكه مرضيين فسوف ينقل إلى الفرق العليا التي تناسب سنه».

وفي الزاوية الواقعة خلف الباب، حيث لا يكاد يرى، لاح التلميذ الجديد. كان عملاقاً ريفياً في نحو الخامسة عشرة من عمره، أطول قامة منا جميعاً. وكان شعره منسقاً ومستوياً فوق جبهته، كمغني القرية، وقد ظهر عليه التحفظ والارتباك. وبالرغم من أنه لم يكن عريض المنكبين، فإن سترته الخضراء ذات الأزرار السوداء كانت تضايق حركاته، وقد انحسر كماها عن معصميه اللذين ألفا العري، كما كانت قدماه - اللتان يكسوهما جوربان أزرقان - تبرزان من بنطلون أصفر، تشده الحمالة شداً قوياً، وفي طرفيهما حذاءان سيئا التلميع، تنتشر فيهما المسامير بكثرة ملحوظة.

وبدأ اختبار التلاميذ فيما لديهم من دروس، فأخذ التلميذ الجديد ينصت إليهم بكل جوارحه، وكأنه يصغي إلى موعظة في الكنيسة، دون أن يجسر حتى على أن يضع ساقاً على ساق، أو أن يتكئ بمرفقيه على القمطر! وعندما دق الجرس في الساعة الثانية، اضطر المدرس إلى أن ينبهه كي يتخذ مكانه في الصف!

وكان من عادتنا، إذا ما دخلنا حجرة الدرس، أن نلقي بقلنسواتنا أرضاً، كي تتحرر أيدينا لأداء الصلاة، فكنا نقذف بها تحت المقاعد بمجرد بلوغنا عتبة الباب، وبقوة تجعلها تصطدم بالحائط فتثير كثيراً من الغبار، وكانت هذه الحركة من «الأصول المرعية» التي نتباهى بها!

غير أن التلميذ الجديد لم يلاحظ هذه الحركة، أو لعله لاحظها ولكنه لم يجرؤ على اتيانها، فانتهت الصلاة وقلنسوته ما تزال على ركبتيه. وكانت قلنسوة من طراز معقد، تجمع بين «الطاقية» ذات الوبر، و«اللبدة»، والقبعة المستديرة، وقلنسوة الفراء، والطاقية القطنية! وبالجملة، كانت من تلك الأشياء المزرية التي يحمل قبحها الصامت من التعبيرات العميقة ما يحمله وجه الأبله! كانت بيضاوية، يرفع جوانبها هيكل مضلع في داخلها يكسبها الشكل المنتفخ، وتبدأ بثلاث كريات صغيرة، تتلوها قطع من المخمل ومن فراء الأرنب على شكل «المعين» الهندسي، يفصل بينها شريط أحمر، ويعقب ذلك شيء يشبه الكيس، ينتهي بقطعة من الورق المقوى متعددة الأضلاع، تكسوها رقعة مطرزة بأشرطة

معقدة الأشكال، ويتدلى منها حبل طويل جد رفيع، في نهايته صليب صغير من خيوط مذهبة يشبه «الشرابة»! كانت قلنسوة جديدة ذات حافة براقة!

وقال الأستاذ للفتى: «قف!» فوقف. وسقطت القلنسوة، فانفجر التلاميذ جميعاً ضاحكين، بينما انحنى هو فالتقطها، ولكن جاره أسقطها مرة أخرى بضربة من مرفقه، فعاد الفتى إلى التقاطها من جديد. وكان المدرس حاضر النكتة، فقال له: «تخلص يا أخي من خوذتك!».

وانطلق التلاميذ في ثورة من الضحك المجلجل، أربكت الفتى المسكين، حتى لم يعد يدري أيحتفظ بقلنسوته في يده، أم يلقيها على الأرض، أم يضعها على رأسه. وأخيراً، جلس ووضعها على ركبتيه.

وعاد الأستاذ يقول له: «قف! ما اسمك؟» وتمتم التلميذ الجديد باسم غير مفهوم، فهتف الأستاذ: «أعد!» وكرّر التلميذ المقاطع ذاتها، في تمتمة طغت عليها قهقهة زملائه جميعاً. فصاح الأستاذ: «ارفع صوتك! ارفع صوتك!».

واستجمع التلميذ الجديد كل عزيمته، وفغر فاهاً مترامي الأبعاد، وعبأ رئتيه ثم قذف باسم «شار بوفاري» وكأنه ينادي شخصاً!

وانفجر التلاميذ في ضجيج صاخب، حاد، مضطرد، فأخذوا يصيحون وينبحون، ويدقون الأرض بأقدامهم مرددين: «شار بوفاري، شار بوفاري!»، في نغمات مسترسلة، لم تكن تهدأ - بعد مشقة بالغة - إلا لتعود في ناحية من حجرة الدراسة، أو في صف بأكمله من صفوف التلاميذ، تتخللها - هنا وهناك - ضحكة مكتومة، كصاروخ لم يخمد بعد تماماً.

وأخيراً، عاد الهدوء إلى حجرة الدراسة رويداً، بعد وابل من العقاب، وتمكن الأستاذ من التقاط اسم «شارل بوفاري»، بعد أن طلب إلى صاحبه أن يوضحه كتابة، وهجاء، وتلاوة! ثم أمر المسكين بأن يذهب فيجلس على «مقعد الكسالى» تحت حافة المنصة مباشرة، فشرع صاحبنا يتحرك. بيد أنه تردد قبل أن يبرح مكانه، فسأله الأستاذ: «عم تبحث؟».

وأجاب التلميذ الجديد وهو يتلفت حوله بنظرات قلقة:

«قلنسو...»! ولم يتم كلمته، إذ انفجرت العاصفة من جديد، فصاح الأستاذ في غضب هادر: «على كل منكم أن ينسخ خمسمائة بيت من الشعر». وكانت صرخته أشبه بصيحة «نبتون» - إله البحار - التي أطلقها متوعداً الرياح إذ ثارت دون أمر منه، على ما جاء في الأساطير! وما لبث أن أضاف وهو يجفف جبينه بمنديل أخرجه من بين ثنايا ردائه المهلهل: «كفى! الزموا السكون!» ثم التفت إلى التلميذ الجديد قائلاً: «أما أنت، فعليك أن تنسخ لي عبارة «أنا مضحك» عشرين مرة. ثم أردف في صوت أكثر رقة:

«لسوف تجد قلنسوتك، فإن أحداً لم يسرقها»!

وعاد كل شيء إلى هدوئه، وانحنت رؤوس التلاميذ فوق الأدراج، بينما ظل التلميذ الجديد ساعتين في جلسة مثالية، وإن أخذت تنطلق - بين وقت وآخر - كرة من الورق الملوث بالمداد لتلطخ وجهه. وكان يمسح المداد بيده، ويستأنف جلسته بغير حراك، وهو منكس البصر!

وفي حجرة الاستذكار - في المساء - أخرج من درجه الكُميّن الأسودين اللذين يُلبسان لصيانة كمي السترة وقت العمل، ورتب أدواته البسيطة، وأنجز في عناية كتابة العبارة التي فرضها عليه الأستاذ كعقاب، ثم عكف على عمله في اخلاص، باحثاً في القاموس عن جميع الكلمات، غير مدخر جهداً. ولا شك أن هذه الإرادة الطيبة هي التي حالت دون نقله إلى فرقة دراسية أدنى من التي ألحق بها! ومع أنه كان ملماً بقواعد اللغة إلى حد ما، إلا أنه لم يؤت رشاقة التعبير، فقد كان قس قريته هو الذي بدأ تلقينه اللاتينية، إذ أرجأ أهله إرساله إلى المدرسة أطول فترة ممكنة، اقتصاداً للنفقات!

كان أبوه «شارل دني بارتلومي بوفاري» مساعد جراح سابق في الجيش، تورط في بعض المسائل المتصلة بالتجنيد في سنة ١٨١٢، واضطر إلى ترك الخدمة. بيد أنه كان قد وفق في استغلال مواهبه الشخصية، فظفر بصداق - «دوطة» - قدره ستون ألفاً من الفرنكات، حملته إليه ابنة صاحب مصنع للقبعات عشقت هيئته! فقد كان فارع القوام، يحسن التهريج والشنشنة بمهْمازيه، وقد أرسل لحية متصلة بشاربيه، واعتاد أن يزين أصابعه دائماً بالخواتم، وأن يتخير لملابسه الألوان الصارخة! وكان له مظهر الرجل الشجاع، مع خفة المندوب الكثير الأسفار. وقد ظل يعيش - بعد الزواج - عامين أو ثلاثة على ثروة زوجته، ينعم بالغذاء الطيب، ويستيقظ متأخراً، ويدخن في غلايين كبيرة من الخزف، ويتردد على المقاهي، ولا يعود إلى منزله في كل مساء إلا بعد أن تغلق المقاهي أبوابها. حتى إذا مات والد زوجته، أحنقه أن الرجل لم يخلف ثروة تذكر، فحاول أن يدير المصنع من بعده، لكنه خسر بعض المال، فآثر الانسحاب الى الريف حيث حاول أن يعمل في الانتاج الزراعي. غير أنه لم يكن أكثر دراية بالزراعة منه بالصناعة، وكان يمتطي الخيل بدلاً من أن يرسلها للحرث، ويشرب النبيذ بالزجاجة بدلاً من أن يبيعه بالبرميل، ويأكل خير ما في حظيرته من دواجن، ويؤشر حذاءي الصيد بشحم خنازيره، فلم يلبث أن تبين أن من الخير له أن يتخلى عن استثمار ما بقي له من مال.

واستطاع أن يجد في إحدى القرى المتاخمة لمقاطعتي (كو) و (بيكاردي)، مسكناً - يشبه دور الفلاحين بقدر ما يشبه دور السادة - مقابل مائتي فرنك في العام، فاحتبس فيه نفسه منذ كان في الخامسة والاربعين من عمره، وقد استبد به الغم، وأخذ الندم ينهشه، وراح يسب القدر، ويحسد الناس، ويعلن أنه قد سئم البشر أجمعين، وقرر أن يعيش في هدوء!

وكانت زوجته في البداية مدلهة في هواه، فأبدت له من مظاهر الاستكانة والخضوع ما زاده منها نفوراً! وكانت في فجر شبابها مرحة، منطلقة، تفيض نفسها حباً، فأمست بمضي الأعوام عصبية المزاج، كثيرة الصياح، ثائرة، وكأنها النبيذ الذي تخلخل غطاء دنه فاستحال إلى خل!

كانت قد تحملت أشد الآلام في باديء الأمر، دون أن تشكو من جريه وراء عاهرات القرية، ليعود إليها في المساء - بعد أن تلفظه عشرات المواخير - وريح الخمر تهب منه! فلما ثارت كبرياؤها، لم تملك سوى أن تكتم الغضب في صدرها، ولاذت بنوع من الصمت الفلسفي لازمها حتى الموت! وكانت دائمة الحركة، تذهب إلى موثقي العقود، وتسعى إلى العمدة، وترقب مواعيد استحقاق الصكوك فتسعى لارجاء دفعها واستمهال الدائنين. أما في البيت، فكانت تنهمك في الكي والحياكة والغسيل، وتراقب العمال، وتنقدهم أجورهم، في حين لم يكن السيد يعبأ بشيء، بل كان يستغرق في اغفاء عابس واجم، لا يفيق منه إلا ليوجه إليها عبارات جارحة، ثم ينصرف إلى التدخين بجوار المدفأة، باصقاً بين الفينة والفينة على رمادها!

وعندما أنجبت طفلاً، اضطرت إلى أن تعهد به إلى مرضعة، حتى إذا عاد «المحروس» إلى ابويه، أسرفا في تدليله كما لو كان أميراً. فكانت الأم تغذيه بالحلوى والمربى، وكان الأب يتركه يرتع حافي القدمين، ويتعلل - متفلسفاً! - بأن طفله قادر على أن يظل عارياً كصغار الحيوانات! وكان الأب - على العكس من اتجاهات الأم - يتخيل في ذهنه صورة لما ينبغي أن تكون عليه رجولة الطفل، فحاول لتحقيقها - أن ينشئ ابنه نشأة خشنة على غرار الطريقة «الاسبرطية»، فكان يرسل الطفل إلى الفراش دون ما نار تدفئ حجرته، ليقوي بنيته! وكان يعوده على تناول جرعات كبيرة من «الروم»، ويلقنه السخرية من الطقوس الدينية! بيد أن الطفل كان هادئا بفطرته، فلم يستجب لهذه التوجيهات.

وكانت أمه تجره خلفها دائماً، وتصنع له من الورق المقوى لعباً، وتروي له القصص، وتؤثره بأحاديث لا نهاية لها، يمتزج فيها المرح بالكآبة والمناجاة والتدليل. وفي تلك العزلة التي كانت تعيش فيها، صبت في مخيلة الطفل كل ما كان يخالج نفسها من طموح مشتت، كانت تطمع في أن ترضي به كبرياءها المحطمة. كانت تحلم له بأرفع المناصب، وتتصوره وقد كبر، وغدا جميلاً، حاضر البديهة، متربعاً في احدى مناصب مصلحة الطرق والجسور، أو في أحد مراكز القضاء. ومن ثم تولت تعليمه القراءة، ولقنته اغنيتين أو ثلاثاً، كانت تعزف له ألحانها على معزف قديم تملكه.

على أن مسيو «بوفاري»، لم يكن يحفل كثيراً بالثقافة، فلم ير في كل هذه الجهود شيئاً ذا قيمة. كان كل ما يعنيه هو التفكير فيما اذا كان سيقدر لهما يوماً أن يجدا ما يكفل لهما تعليم الطفل في مدارس الحكومة، أو ما يمكنهما من أن يبتاعا له مكتباً أو

متجراً. وكان – فوق ذلك – يعتقد أن الانسان يستطيع أن ينجح في الحياة بالصفاقة! أما مدام «بوفاري» فكانت تعض شفتيها حنقاً، وهي ترى ابنها يتسكع في القرية، إذ كان يحلو للطفل أن يتبع المزارعين في حرثهم وأن يطارد الغربان بالطوب، وأن يقتطف التوت من فوق الأشجار، ويرعى الديكة الرومية بقصبة طويلة، ويتولى في أوقات الحصاد، تقليب الحزم لتجف، ويرتع في الغابة، ويلعب «الحجلة» في فناء الكنيسة في الأيام المطيرة! وكان يتوسل إلى خادم الكنيسة ليتركه يدق الأجراس في الأعياد الكبيرة، فيتعلق كل جسمه بالحبل الضخم، وينعم بالإحساس بنفسه محمولاً على الهواء والحبل يتأرجح به!

وهكذا نشأ الصبي نشأة طبيعية، كشجرة البلوط، فأوتي يدين قويتين، ولوناً بديعاً!

وإذ بلغ الثانية عشرة من عمره، ألحت أمه في ان يبدأ دراسته، فتعهده قس القرية، غير أن الدروس كانت من القصر وعدم الانتظام بحيث لم يكن يرجى منها نفع كبير. فقد كان القس يلقنه هذه الدروس في مخزن الكنيسة، كلما سنحت له فرصة عابرة بين صلاة تعميد وصلاة جناز! وكان الطفل يتلقاها وهو واقف على قدميه. بل أن القس كان يرسل في استدعاء تلميذه – في بعض الأيام – عقب فراغه من صلاة الغروب، إذا لم يكن لديه ما يدعوه للخروج. فكانا يصعدان إلي حجرة القس، ويجلسان للدرس على ضوء مصباح يحوم حوله الذباب وفراشات الليل، وكان الجو الحار يغري الصبي بالنوم، كما يغفو القس ويداه فوق بطنه، فلا يلبث أن ينبعث الغطيط من فمه المفتوح! كذلك كان القس أثناء عودته من تقديم البركة لأحد المرضى في قرية مجاورة يلتقي أحياناً بشارل وهو يتسكع في الحقول، فيدعوه إليه، ويقضي ربع الساعة في وعظة تحت شجرة، ثم ينتهز الفرصة ليحمله على تصريف الفعل الذي كلفه باستذكاره. وكثيراً ما كان يقطع عليهما الدرس سقوط المطر، أو مرور أحد المعارف. وكان القس – بعد ذلك – يبدي رضاءه عن الصبي، بل أنه كان يقول إن له ذاكرة قوية!

ولم يكن لشارل أن يكتفي بهذا القدر من الدراسة، إذ كانت امه قوية في اصرارها على تعليمه. ولم يشأ الوالد أن يقاوم، إذ غلبه الخزي. أو – بالأحرى – التعب. ولكنهما تريثا عاماً آخر، ريثما يتاح للصبي أن يتناول «القربان المقدس» الأول في حياته. وما أن انقضت ستة أشهر على ذلك، حتى تقرر نهائياً إرساله إلى مدرسة (روان)، وصحبه أبوه بنفسه في أواخر شهر أكتوبر، إبان موسم «القديس رومان».

✦✦✦

يستحيل على أحد منا أن يتذكر الآن شيئاً عن «شارل بوفاري». على أنه عادي المزاج والطابع، يلعب في فترات الفراغ، ويستذكر في الحجرة المخصصة لذلك، ويصغي

بانتباه في حجرة الدرس، ويأكل في المطعم، وينام في «العنبر»، شأن أي تلميذ آخر! وكان ولي أمره في (روان) تاجراً يبيع الحديد والخردة بالجملة، في شارع (جانتيري)، وقد اعتاد أن يسمح له بالخروج من المدرسة في يوم واحد من أيام الآحاد في كل شهر. فكان يفد - بعد أن يغلق متجره - ليصحبه إلى النزهة ومشاهدة السفن في الميناء، ثم يعود به إلى المدرسة في الساعة السابعة، قبيل موعد العشاء. وفي مساء كل يوم خميس، كان الصبي يكتب لأمه خطاباً طويلاً بالمداد الأحمر، يغلفه جيداً، ثم يستذكر دروس التاريخ، أو يقرأ في كتاب قديم - عن رحلة «أنا كارسيس» - يعثر به مهملاً في غرفة الدرس. كما كان يحلو له - أثناء «الفسحة»- أن يتحدث إلى الخادم الذي كان من أبناء الريف مثله!

واستطاع بفضل اجتهاده أن يحتفظ دائماً بترتيب متوسط بين تلاميذ الفرقة. بل أنه وفق مرة إلى الحصول على جائزة في التاريخ الطبيعي، بيد أن والديه ما لبثا أن سحباه من المدرسة، وهو لم يزل بعد في الفرقة الثالثة، ليحملاه على دراسة الطب فقط، إذ كانا يؤمنان بقدرته على أن يستكمل دراسته دون ما معونة!

واختارت له أمه حجرة في الطابق الرابع من منزل يطل على ترعة (روبيك)، عند رجل من معارفها يشتغل بالصباغة. وبعد أن دبرت أمر اقامته، حصلت له على بعض أثاث تمثل في منضدة ومقعدين، كما أحضرت من دارها سريراً قديماً من خشب الكريز. وابتاعت قرص مدفأة من الحديد الزهر، وكمية من الأخشاب لتدفئة صغيرها المسكين! ثم رحلت في نهاية الاسبوع، بعد أن أزجت اليه مئات الوصايا بأن يحسن السلوك، بعد أن غدا طليقاً بغير رقيب.

على أن «شارل» كاد يصعق، حين رأى برنامج الدراسة في لوحة الاعلان. كانت هناك دروس في التشريح، ودروس في علم الأمراض (الباثالوجيا)، ودروس في علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا)، ودروس في الصيدلة (الفارماكوبيا)، ودروس في الكيمياء، وفي النبات، وفي التشخيص، والعلاج، عدا علم الصحة، وعلم الطب... أسماء كان يجهل اشتقاقاتها ومعانيها جميعاً، فبدت له كأبواب هياكل تكتنفها الظلمات!

ولم يفهم من هذه الدروس شيئاً! بل أنه لم يستطع - رغم إصغائه في انتباه تام - أن يدرك لها مغزى! وكانت لديه كراسات مجلدة واظب على تدوين دروسه فيها باجتهاد، ولم يتخلف يوماً عن الطواف بأسرة المرضى في المستشفى. كما كان يؤدي واجباته اليومية على نحو ما يفعل حصان الطاحونة، إذ يدور في مكانه وهو معصوب العينين، لا يعرف عن نوع الحبوب التي يسخر لطحنها شيئاً!

وكانت أمه ترسل إليه في كل اسبوع قطعة من اللحم المشوي، فكان يتناول منها غداءه -إذا ما عاد من المستشفي- وهو جالس ينقر الحائط بحذائه، ثم لا يلبث أن يعود إلى الدروس في قاعة الجراحات أو «عنابر» المستشفى. حتى إذا أفل النهار، عاد إلى داره سالكاً الطريق الطويل عبر البلدة، فيتناول ما يقدمه له صاحب المنزل من عشاء ثم يصعد

إلى حجرته ليعكف على الاستذكار أمام المدفئة والبخار يتصاعد من ملابسه المبللة.

وفي أمسيات الصيف الجميلة، حين تقفر الطرقات الحارة من المارة، وتلهو الخادمات بكرات من الفلين أمام الدور، كان «شارل» يفتح نافذته، ويتكئ بمرفقيه على حافتها، ليطل على الترعة، التي تجعل من هذا الحي من أحياء (روان) ما يشبه مدينة (بندقية) صغيرة، متواضعة. وكانت الترعة تنساب تحت بصره بين القناطر والأسوار، تنعكس على صفحتها الألوان الصفراء، والبنفسجية، والزرقاء، وقد جثا العمال على حافتها يغسلون أذرعهم بمائها.

وعلى أسطح المنازل المقابلة، كان يرى ضفائر غزل القطن وقد علقت إلى عصي طويلة لتجف. وخلف تلك الأسطح، كانت السماء الصافية تمتد، والشمس تجرر أذيالها نحو الغروب. لكم كان الجو يبدو له جميلاً، والهواء منعشاً، في ظلال الأشجار. فكان يفتح طاقتي أنفه بشدة، ليجتذب على البعد روائح الريف التي لم تكن تترامى إليه!

وأخذ جسمه ينحف، وقده يستطيل، واكتسى وجهه وجوماً ساجياً أضفى عليه شيئاً من الجاذبية! وبدأ حماسه للدرس يفتر، فكان من الطبيعي أن يتحلل من العهود التي قطعها على نفسه، وفي اليوم التالي تخلف عن احدى المحاضرات. وشيئاً فشيئاً، استساغ الكسل حتى انتهى به الأمر إلى الانقطاع عن الدروس تماماً! وأدمن ارتياد المقاهي، وشغف بلعب «الدومينو». وخيل له أن في احتباس نفسه هكذا، كل مساء، في حانة قذرة، حيث يقرع رخام المناضد بقطع «الدومينو» المصنوعة من عظام الخراف وقد حفرت فيها نقط سوداء، خيل إليه أن في هذا العمل مظهراً للحرية يرفع من تقديره لنفسه! كان هذا - في نظره - مقدمة للحياة الدنيا، وسبيلاً إلى اللذات المحظورة! فكان يشعر عندما يضع يده على مقبض الباب - بعد عودته إلى غرفته في المساء - بنشوة تكاد تشبه اللذة الحسية.

وتفتحت نفسه عن أشياء كثيرة كانت مكبوتة، فحفظ عن ظهر قلب بعض الأغنيات التي كان يستقبل بها الزائرات، وتحمس لبيرانجيه، مؤلف الأشعار الغنائية، وتعلم كيف يمزج أنواع الكحول، وأخيراً، عرف الحب!

وبفضل هذه الأعمال التحضيرية، كان رسوبه في الامتحان شنيعاً، بينما كان والداه يرتقبانه في دارهما ليحتفلا بنجاحه!

✦✦✦

وعاد «شارل» سائراً على قدميه، حتى إذا بلغ مدخل القرية، توقف وارسل في طلب امه، وقص عليها ما أصابه. فالتمست له الأعذار، وعزت رسوبه إلى ظلم الممتحنين، وأولته بعض التشجيع، آخذة على عاتقها تدبير الأمور! ولم يعلم مسيو «بوفاري» بالحقيقة إلا بعد خمس سنوات، وكانت قد فقدت جدتها، فتقبلها في تسليم، وإن لم يتصور أن من

الممكن أن يكون في سلالته ابن خائب!

على أن «شارل» تحول إلي الجد مرة اخرى، فاقبل يراجع دروسه بغير توان، واستظهر جميع المواد، ففاز في الامتحان النهائي بدرجة لا بأس بها. وما كان أسعد امه يوم نجاحه! فلقد أولمت يومذاك وليمة كبيرة!

والآن، ترى أين يباشر مهنته؟ أفي (توست)؟ لقد كان هناك طبيب طاعن في السن تتوقع مدام «بوفاري» موته منذ أمد طويل، فلم يتريث «شارل» حتى يودع الشيخ الحياة، بل استقر في مواجهته كخليفة له!

ولكن الأمر لم ينته بتربية الابن، وتعليمه الطب، واتخاذ (توست) مقراً يزاول فيه مهنته، اذ كان لابد له من امرأة! ووجدت له امه الزوجة المنشودة، أرملة أحد محضري (دييب)، لها من العمر خمس وأربعون سنة، ومن الدخل ألف ومئتا فرنك!

ومع أن مدام «دوبيك» هذه كانت دميمة، عجفاء كالوتد، تملأ البثور وجهها كما تنتشر البراعم في الأشجار في فصل الربيع، إلا أن فرص اختيار الزوج كانت واسعة أمامها، مما حدا بالأم «بوفاري» إلى أن تجاهد كي تتغلب على الساعين للفوز بيدها! وبالفعل، استطاعت أن تحبط ألاعيب قصّاب كان رجال الدين يؤازرونه!

وكان «شارل» يخال أن الزواج سيمكنه من تحسين حاله، فيغدو أكثر حرية وقدرة على التصرف في شؤونه الشخصية والمالية. بيد أن زوجته لم تلبث أن غدت صاحبة الأمر والسلطان، حتى لقد كانت تملي عليه ما ينبغي أن يقول أمام الناس وما يجب أن يمتنع عن قوله! وفرضت عليه أن يصوم أيام الجمعة، وان يرتدي من الثياب ما تحب هي، وان يلح في مطالبة العملاء الذين لا يدفعون اتعاباً! بل انها كانت تفتح خطاباته، وتراقب حركاته، وتسترق السمع خلال ثقوب الباب، إذا ما حضرت إلى العيادة بعض السيدات لاستشارته!

وفضلاً عن هذا، كانت في حاجة إلى كوب من «الكاكاو» كل صباح، والى أنواع من الرعاية لا حصر لها، وكانت دائمة الشكوى من اعصابها، وصدرها، ومفاصلها! يؤذيها وقع الأقدام، وتثقل عليها الوحدة اذا غادرها، فاذا سعى أحد إلى جوارها، ظنت أنه لم يأت إلا ليشهد احتضارها! وكانت اذا ما عاد «شارل» في المساء، تخرج من تحت أغطية الفراش ذراعيها العجفاوين لتطوق رقبته، وما أن يجلس على حافة الفراش، حتى تنطلق تبث همومها: فهو ينساها، ويحب غيرها! ولقد تنبأوا لها بأنها ستشقى! ثم تنتهي من فيض الهموم والهواجس إلى أن تسأله زجاجة من دواء يقوي صحتها، وقدراً أكبر من الحب!!

الفصل الثاني

حوالي الساعة الحادية عشرة من إحدى الليالي، استيقظ «شارل» وزوجته وخادمهما على وقع حوافر جواد مسرع، لم يلبث أن وقف أمام باب دراهم. وفتحت الخادم نافذة المخزن، وتبادلت حديثاً قصيراً مع رجل كان تحت النافذة. وإذ انبأها بأنه حضر لاستدعاء الطبيب، وانه يحمل رسالة اليه، هبطت درجات السلم وهي ترتجف من البرد، وفتحت الأقفال ثم رفعت المزاليج تباعاً.

وترك الرجل جواده، وسار خلف الخادم مقتحماً المخدع دون انتظار، ثم اخرج من قلنسوته الصوفية ذات «الشرابات» الرمادية، رسالة ملفوفة في اطواء قطعة خلقة من القماش، وقدمها بأدب الى «شارل» الذي اتكأ بمرفقيه على الوسادة ليقرأها، بينما وقفت «نستازي» - الخادم - إلى جوار السرير تحمل الضوء. ودفع الحياء زوجة الطبيب إلى أن تظل مولية وجهها نحو الحائط، وظهرها إليهم.

وتضمن الخطاب - الذي كان مغلقاً بخاتم صغير من الشمع الأزرق - رجاء ضارعاً إلى السيد «بوفاري» كي يبادر فوراً إلى مزرعة (برتو) ليجبر ساقاً مكسورة. وكانت المسافة بين (توست) و(برتو) تزيد على ستة فراسخ، في طريق زراعي تمر بكل من (لونجفيل) و(سانتا فيكتور)، وكان الليل حالكاً، والسيدة الزوجة تخشى أن يحل بزوجها أي مكروه. لذلك استقر الرأي على أن يرحل الرسول، ثم يتبعه «شارل» بعد ثلاث ساعات - حين يشرق القمر - على أن يوفد الرجل غلاماً للقائه فيرشده إلى المزرعة، ويرفع ما قد يكون في طريقه من حواجز.

وفي الساعة الرابعة صباحاً، بدأ «شارل» رحلته إلى (برتو)، متدثراً بمعطفه. ولم يكن قد تخلص تماماً من سلطان الكرى ودفء السرير، فترك دابته تحمله في خطوات هادئة تؤرجحه، حتى إذا وقفت من تلقاء نفسها عند الحفر المحاطة بالأشواك - التي كان الفلاحون يحفرونها على حدود المزارع - استيقظ من اغفائه منتفضاً، وتذكر صاحب الساق المكسورة، فأخذ في استعراض كافة أنواع الكسور التي عرفها.

وما لبث المطر أن كفّ عن السقوط، وأخذ النهار يدنو. وعلى غصون أشجار التفاح العارية، وقفت العصافير جامدة، وقد نفشت ريشها لريح الصباح الباردة. وكان الريف يمتد على مرمى البصر، ومجموعات الأشجار المحيطة بالمزارع تبدو كبقع بنفسجية داكنة على الفضاء الرمادي الشاسع الذي كان يختلط عند الأفق بظلمة السماء.

وكان «شارل» يفتح عينيه بين الفينة والفينة، يلبث النعاس أن يغلبه، ويستسلم لسنة حالمة يختلط فيها حاضره بذكرياته، حتى لقد خال لنفسه شخصيتين في وقت واحد: فهو طالب، وزوج معاً، وهو نائم على فراشه كما كان منذ هنيهة، ثم هو يجوس في قاعة

الجراحات كما كان يفعل أيام الدراسة، واختلطت في رأسه رائحة العقاقير بأريج الخضرة الندية، وبحفيف حلقات الستائر وهي تنزلق على قضبان السرير، وزوجته تغط في نومها!

وإذ بلغ (فاسونفيل) لمح فتى صغيراً يجلس على العشب، عند حافة حفرة.

وهتف الغلام إذ رآه: «أأنت الطبيب؟»

وإذ أجابه «شارل»، خلع الغلام نعليه وأمسك بهما بين يديه، وانطلق يعدو أمامه ليرشده إلى الطريق.

وأدرك الطبيب من دليله اثناء سيرهما، أن ساق مسيو «روو» - الذي كان ولابد من أثرياء المزارعين - قد كسرت مساء اليوم السابق، وهو عائد من حفل لدى أحد جيرانه، وأن زوجة هذا السيد قد توفيت منذ عامين، وليس له الا إبنة تساعده في شئون المنزل.

وتخللت الطريق آثار عجلات اخذت تزداد عمقاً إذ اقتربا من (برتو) وما لبث الغلام أن اختفى خلال فرجة في سياج المزرعة، ليعود بعد هنيهة إلى الظهور عند نهاية السياج، فيفتح الباب. وسار الحصان وحوافزه تنزلق على العشب المبتل، واحنى «شارل» رأسه ليتجنب الأغصان، وإذ دخل الضيعة، أخذت كلاب الحراسة تنبح وتشد السلاسل التي تربطها إلى مآويها، فأجفل الجواد في فزع شديد.

كانت ضيعة بديعة. ومن خلال الأبواب المفتوحة، كانت ثمة خيول ضخمة للحرث تأكل مطمئنة في مذاود جديدة، بينما تكدست على طول الجدران أكوام السماد التي تتصاعد منها الأبخرة. وبين الدجاج والديكة الرومية، بدت خمسة طواويس أو ستة تلتقط الحبوب، وينم مظهرها على أنها حقيقة مفخرة حظائر متقاطعة (كو).

أما حظيرة الأغنام فكانت طويلة، والمخزن عالياً مصقول الجدران. وتحت المظلة، كانت ثمة عربتان كبيرتان، وأربعة محاريث كاملة بأسواطها، وأطواقها، وسروجها التي اتسخ كساؤها الصوفي الأزرق، لفرط ما كان يتساقط عليها من غبار المخازن. وكان الفناء يرتفع تدريجياً، وقد تخللته أشجار غرست على ابعاد منتظمة، ومن ناحية البحيرة، انبعثت أصوات الاوز.

ولاحت لدى عتبة باب المنزل سيدة شابة في ثوب من الصوف محلى بثلاثة أفواف (كرانيش)، فاستقبلت السيد «بوفاري» وقادته إلى المطبخ، حيث كانت ثمة نار كبيرة يغلي فوقها طعام الفطور، في قدور من جميع الأحجام. وإلى أحد جانبي المدفأة، كانت ثمة ملابس مبتلة نشرت لتجف على الوهج، وبدت المجرفة وقابضة الجمر والمنفاخ ضخمة الحجم، تلمع كالصلب المصقول، بينما رصت على طول الجدار أدوات للطهو كثيرة العدد، انعكس عليها لهب الموقد، تخالطه طلائع أشعة الشمس التي أخذت تنساب خلال زجاج النوافذ.

وما لبث «شارل» أن صعد إلى الطابق الأول من الدار، ليرى المريض، فألفاه في فراشه ينضح بالعرق تحت الغطاء، وقد ألقى طاقيته القطنية جانباً.

كان رجلاً بديناً، قصيراً، في الخمسين من عمره، أبيض البشرة، أزرق العينين، أصلع مقدم الرأس، ويزين أذنيه بقرطين! وعلى مقعد قريب منه كانت ثمة قنينة خمر أخذ برفعها الى فمه بين الفينة والفينة، ليشد من عزمه، ويرفع من روحه المعنوية!

ولم يكد الرجل يرى الطبيب حتى خفف من هياجه، وبدلاً من أن يمضي في سيل الشتائم التي كان يطلقها بسخاء منذ اثنتي عشرة ساعة، تحول يئن أنيناً خافتاً.

وكان الكسر بسيطاً، لم تصحبه أية مضاعفات، بل أن «شارل» لم يكن يطمع في كسر أسهل منه! وتذكر لفوره مسلك أساتذته بجوار أسرة الجرحى، فأخذ يشجع المريض بكل ما يعرفه من الكلمات الطيبة، وبما تعلمه عن الجراحين من مواساة لطيفة تشبه الزيت الذي يدهنون به مباضعهم (مشارطهم)!

وأخذ أهل المريض يبحثون في المخزن حتى جمعوا حزمة من السدابات الخشبية ليتخذوا منها جبائر، فتناول شارل واحدة منها شقها الى قطع عكف على صقلها بلوح مكسور من زجاج النوافذ، بينما كانت الخادم تمزق بعض الملاءات ليتخذوا منها أربطة. والآنسة «إيما» - ابنة الرجل - تحيك وسادات صغيرة، وكانت قد اضاعت وقتاً طويلاً في البحث عن صندوق أدوات الحياكة، فلما استحثها والدها لم تجبه ببنت شفة، وإنما أقبلت على الحياكة، وكانت كلما شكت الإبرة أصابعها، ترفع هذه الأصابع إلى فمها وتمصها! واعجب «شارل» ببياض أظافرها اللامعة، الدقيقة الأطراف. كانت أكثر نصوعاً من عاج (دييب)، وقد قصت على شكل اللوز! على أن يدها لم تكن - رغم ذلك - جميلة، ولعل بشرتها كانت أقل صفاء مما ينبغي، كما كانت بادية الجفاف عند مفاصل الأصابع. كانت يداً مسرفة في الطول، يعوزها شيء من ليونة التثني! ولكن جمال الفتاة كان يتركز في عينيها العسليتين اللتين كانت اهدابهما تضفي عليهما صبغة السواد، واللتين كانت تنبعث منها نظرات توحي للمرء بالصراحة المشوبة بالسذاجة الجريئة!

وإذ انتهت عملية التجبير، دعا مسيو «روو» الطبيب إلى بعض الطعام قبل رحيله، فهبط «شارل» إلى بهو الطابق الأرضي، حيث ألفى المائدة معدة لشخصين، إلى جوار سرير كبير ذي غطاء من قماش محلى برسوم تمثل أشخاصاً من الأتراك. وكان المكان يتضوع بشذى زهر السوسن، وقد بدت بعض الملاءات النظيفة في صوان من خشب البلوط في مواجهة النافذة. وفي الأركان، رصت جوالات الحنطة التي ضاقت بها جنبات المخزن المجاور المتصل بالبهو بثلاث درجات حجرية.

وكان يزين البهو رأس لمنيرفا [1] رسم بالقلم الأسود، واحيط باطار مذهب كتب تحته بالحروف القوطية: «إلى أبي العزيز»، وقد علقت الصورة إلى مسمار في وسط الحائط الذي تساقط طلاؤه الأخضر بفعل الرطوبة.

✦✦✦

(١) الهة الحكمة عند القدماء.

وجلست الفتاة إلى المائدة مع «شارل»، وجرى الحديث: عن المريض - أولاً - ثم عن الجو وموجات البرد القارس، والذئاب التي تعدو خلال الحقول في الليل. وكانت الآنسة «روو» لا تستطيب الإقامة في الريف، لا سيما بعد أن غدت تضطلع وحدها - تقريباً - برعاية شئون المزرعة، وكانت ترتجف اثناء تناول الطعام، لفرط رطوبة الصالة، مما كشف قليلا عن شفتيها المكتنزتين اللتين اعتادت أن تعضهما في أوقات الصمت.

كانت رقبتها تظهر خلال ياقة مزدوجة، وضفيرتاها السوداوان الناعمتان تبدوان - لفرط نعومتهما - قطعة واحدة، تنشق إلى شعبتين - عند منتصف الرأس - بخط مستقيم يتبع استدارة الرأس، ثم تعود الشعبتان إلى الالتقاء خلف الرأس في كعكة سميكة تنحدر منها خصلتان نحو الصدغ، لا تكاد أذنا الفتاة تبينان خلالهما. وكانت هذه أول مرة يرى الطبيب الشاب فيها شعراً منسقاً بهذا الشكل! أما وجنتا الفتاة فكانتا متوردتين، وكانت ثمة عوينة في إطار من الصدف تتدلى من زرين في صدارها، على نحو ما يفعل الرجال!

وصعد «شارل» ليودع الأب - «روو» - ثم هبط إلى البهو ثانية، فإذا الفتاة واقفة إلى النافذة، وقد اسندت إليها جبهتها، وأخذت تتأمل الحديقة، حيث أطاحت الريح بالعصي الخشبية الصغيرة التي كانت تسند شجيرات الفاصوليا.

وحين شعرت به، التفتت إليه متسائلة: «أتبحث عن شيء؟» فأجاب: «سوطي، من فضلك!».

وراح يبحث فوق السرير، وخلف الأبواب، وتحت المقاعد غير أن السوط كان قد سقط على الأرض بين الجدار والجوالات. وما لبثت «إيما» أن لمحته، فانحنت فوق جوالات القمح لتلتقطه، ودفعت الشهامة «شارل» إلى أن يسرع فيمد ذراعه ليلتقطه قبلها، فإذا به يحس بصدره يمس ظهر الفتاة المنحنية أمامه. وبادرت هي إلى الاعتدال وقد تضرج وجهها، ثم التفتت إليه من فوق كتفها وهي تناوله سوطه المصنوع من عصب الثور.

وبدلاً من أن يعود «شارل» إلى (برتو) بعد ثلاثة أيام كما وعد، جاء في اليوم التالي مباشرة، ثم أخذ يتردد على الضيعة مرتين في الاسبوع بانتظام، عدا الزيارات غير المتوقعة التي كان يقوم بها من آن إلى آخر، وكأنها محض مصادفات!

وسارت الأمور على ما يرام، وتم شفاء المريض. وعندما رؤي الأب «روو» - بعد ستة وأربعين يوماً - يحاول السير وحده في بيته العتيق، اعتبر الناس مسيو «بوفاري» نطاسياً بارعاً، لا سيما حين أخذ الأب «روو» يردد أنه ما كان من الممكن أن يحظى بعلاج من أكبر أطباء (ايفتو) - أو (روان) - يفوق العلاج الذي حظي به على يد مسيو «بوفاري»!

ولم يفكر «شارل» في أن يسائل نفسه عن سر المتعة التي يستشعرها في التردد على (برتو). ولو أنه حاول التساؤل لما كان ثمة شك في أن يعزو هذا الاسراف الى خطورة

حال المريض، أو إلى الكسب الذي كان يرتقبه. ولكن، أحقاً كان هذا هو السبب في أن زيارته لتلك الضيعة كانت تبدو - خلال شواغل حياته - كأحداث غير عادية ذات جاذبية وفتنة؟

◆◆◆

كان في أيام تلك الزيارات يستيقظ مبكراً، ويرحل في عجلة مستحثاً دابته، حتى إذا ترجل أمام الدار، مسح نعليه بالحشائش، ولبس قفازيه الأسودين قبل أن يلج. وكان يحس بالنشوة، إذا ما بلغ الفناء، وشعر بباب السياج يدور بجوار كتفه ليسمح له بأن يدخل، وحين يسمع صياح الديكة فوق الجدار، ويرى الأولاد مقبلين لاستقباله! وأحب الأب «روو» الذي كان يربت يده ويدعوه بمنقذه! كما أحب وقع حذاءي «إيما» على أرض المطبخ النظيفة. كان كعباها العاليان يضيفان طولاً الى طولها، وكان النعل الخشبي يرتفع - إذا ما سارت أمامه - ليصطك بجلد الحذائين في صوت مكتوم.

وكانت الفتاة ترافقه دائماً عند انصرافه حتى بداية السلم الخارجي، ثم تظل واقفة ريثما يحضر جواده، وكانا يظلان صامتين - إذ يكونان عادة قد تبادلا تحية الوداع من قبل - والهواء الطلق يهب حولهما فيبعث ببعض خصلات الشعر الحائرة على عنق الفتاة، ويهز طرفي حزام مرولتها على ردفيها فيرفرفان كما ترفرف الأعلام.

وحدث في إحدى المرات أن ذاب الجليد - وهي تقف عند مدخل الدار - فبلل الماء المنساب جذوع الأشجار، وأخذ يتساقط من أسطح مباني الضيعة، فتحولت «إيما» إلى الداخل واحضرت مظلتها ففتحتها. وكانت المظلة من الحرير المموج المتعدد الألوان، المعروف باسم «رقبة الحمامة». فلما نفذت خلاله أشعة الشمس، عكست على بشرة الفتاة الناصعة أطيافاً متأرجحة من الضوء، وانبسطت أسارير وجهها وهي تستمرئ الدفء الذي بعثته الشمس في جسمها، بينما كانت قطرات الماء تتساقط على حرير المظلة المشدود، محدثة طرقات متتابعة.

وكانت زوجة «شارل» لا تغفل - في الفترات الاولى لتردده على (برتو) - السؤال عن المريض، بل أنها افردت لمسيو «روو» صفحة بيضاء، بديعة، في مفكرة الحسابات التي كانت تحتفظ بها.

بيد أنها لم تكد تعرف أن له ابنة حتى أخذت تتحرى، فعلمت أن الآنسة «ايما»، التي نشأت في رعاية راهبات «الأورسلين»، قد حظيت بما يسمونه «تربية راقية»، ومن ثم فهي على دراية بالرقص والجغرافيا والرسم، كما تحذق التطريز والعزف على «البيانو»، وتلك كانت الطامة!

وأخذت الزوجة تردد لنفسها: «هذا إذن مبعث كل هذا الاشراق الذي يتجلى على

وجهه كلما ذهب لزيارتها! وهو السبب في حرصه على ارتداء صداره الجديد، مجازفاً بتعريضه للمطر الذي قد يتلفه! آه، هذه المرأة! هذه المرأة!...» وكرهتها بالغريزة!

وقد كانت في بداية الأمر تسري عن نفسها بتلميحات لم يفهمها «شارل»، ثم باشارات عارضة كان يتجاهلها خشية العاصفة، ثم - أخيراً - باستجوابات مباغتة لم يكن يدري كيف يجيب عليها. «لماذا يتردد على (برتو) ما دام مسيو «روو» قد شفي، وما دام القوم لم ينقدوه بعد اتعاباً؟ آه!... لابد أن ذلك يرجع إلى وجود شخص هناك، شخص يحسن الحديث ويحذق تنميقه، شخص لبق حاضر البديهة، وهذا هو ما يجتذبه، إنه يتوق إلى فتيات المدن!»

وتمضي في مساجلتها قائلة: «وهل ابنة الاب «روو» من فتيات المدن؟.. هذا غير معقول! لقد كان جدهم راعي غنم، ولهم ابن عم أوشك أن يقدم إلى المحاكمة لاشتراكه في نزاع مشين، ففيم إذن التعالي، وفيم إذن ارتداء الحرير للذهاب إلى الكنيسة في أيام الآحاد، وكأنها كونتة؟ لولا محصول اللفت لعجز أبوها المسكين عن سداد ديونه في العام الماضي!».

وسئم «شارل» هذه النغمة البغيضة، فكف عن التردد على (برتو)، لا سيما بعد أن حملته «هلويز» - زوجته - على أن يقسم بالكتاب المقدس على أن لا يعود إلى تلك الزيارات، وبعد أن غمرته بفيض من النحيب والقبلات في ثورة عاتية من الحب! بيد أن الرغبة القوية لم تلبث أن تمردت على استكانته وخنوعه. وفي نوع من الرياء الساذج، أخذ يؤول قسمه، فحظر رؤيته الفتاة لا يجرده من الحق في أن يحبها، لا سيما وان زوجته عجفاء، كبيرة الأسنان، لا تتخلى قط - وفي جميع فصول السنة - عن الشال الاسود الصغير، الذي كانت أطرافه تتدلى بين لوحي كتفيها، وكان قدها محشوراً دائماً في ثوبها وكأنه مغيب في غمد! ثم أن أثوابها كانت قصيرة، تكشف عن ساقين معروقتين، غاب قدماهما في جوربين رماديين عقدت فوقهما سيور حذاءيهما.

وكانت أم «شارل» تفد لزيارتهما بين آن وآخر، ولكنها لم تلبث أن أحست - بعد زمن - أن زوجة ابنها أخذت تستثيرها ضده، إذا أصبحت المرأتان كسكينين تنحرانه بملاحظاتهما وتأنيباتهما. فهو مخطئ اذ يلتهم كل هذا الطعام! ثم لماذا يقدم الشراب لكل وافد! ولماذا يركب رأسه ويرفض باصرار ارتداء الفانلات؟!

✦✦✦

وحدث في مستهل الربيع، أن هرب أحد وكلاء الأعمال من (انجوفيل)، حاملاً معه كل ما كان مودعاً في مكتبه من أموال، ومن بينها جل ثروة الأرملة «دوبيك». على أن «هلويز» وإن ظلت تمتلك دارها الخاصة في شارع (سان فرانسوا)، فضلاً عن حصة في

إحدى السفن تقدر بستة آلاف فرنك، إلا أن هذه الثروة المزعومة - التي كان لها دوي عال - لم يبد من آثارها في بيت الزوجية سوى بعض الأثاث والملابس الخاصة.

ولم يكن بد من مناقشة هذا الأمر واستجلائه، بعد هرب وكيل الأعمال. فإذا بالمنزل قد استغرقه الرهن، وإذا مصير ما كان مودعاً لدى وكيل الأعمال قد بات لا يعمله الا الله وحده، وإذا نصيبها في السفينة لا يعدو - في الحقيقة - ألف فرنك! إذن فقد كذبت السيدة الفاضلة! وفي سورة الغضب، هشم مسيو «بوفاري» الأب مقعداً على البلاط، واتهم زوجته بأنها كانت السبب في شقاء ابنهما، إذ ربطته إلى تلك الفرس العجفاء التي لا يفضل سرجها جلدها! وكان الأبوان قد وفدا على (توست) لبحث هذا الموضوع، فدارت معارك ارتمت «هلويز» خلالها على صدر زوجها وهي منهمرة الدمع، تناشده أن يحميها من أبويه، فلما اراد «شارل» أن يدافع عنها، غضب والداه ورحلا.

غير أن الصدمة كانت قد أحدثت أثرها. فبينما كانت «هلويز» تنشر الغسيل في صحن الدار - بعد ثمانية أيام - اصابتها نوبة جعلتها تبصق دماً، وفيما كان «شارل» منهمكاً في اسدال الستار على النافذة - في اليوم التالي - وظهره نحوها، هتفت: «آه يا إلهي!»، وأرسلت زفرة غابت بعدها عن الوعي، وماتت! ويا للعجب!

وإذ انتهت كل مراسم الدفن، عاد «شارل» إلي المنزل، ولم يجد أحداً بالطابق الأرضي، فصعد إلى الطابق الأول، وولج غرفة النوم، حيث رأي ثوب زوجته الراحلة معلقاً بجانب الفراش. واسند رأسه إلى مكتبه مستغرقاً في حلم حزين حتى المساء، فلقد كانت تحبه على أية حال!!

الفصل الثالث

أقبل الأب «روو» ذات صباح يحمل إلى «شارل» أجر علاج ساقه: خمسة وسبعين فرنكاً من القطع فئة الأربعين سنتاً، وديكاً رومياً! وكان قد علم بمصابه فراح يواسيه ما وسعه، قائلاً وهو يربت كتفه: «إنني أدرك مدى مصابك، فقد مرت بي نفس التجربة لقد كنت أنطلق في الحقول - بعد أن فقدت زوجتي المسكينة - لأخلو إلى نفسي، فأجثو عند ساق إحدى الأشجار أبكي وأنادي الله، وأهرف له بأقوال سخيفة!.. وكم وددت لو أنني أصبحت مثل آكل الحشرات المعروف باسم «الخلد»، الذي أراه على الأغصان والديدان تتلوى في بطنه! بل لقد ذهبت إلى حد أن تمنيت لو انني نفقت كالدابة! وكنت إذا ما ذكرت أن سواي من الأزواج يضمون بين أذرعهم - في تلك اللحظة - زوجات لطيفات صالحات، أدق الأرض بعصاي في عنف! كنت شبه مجنون، حتى لقد أمسكت عن الطعام. وكان مجرد التفكير في الذهاب إلى المقهى يثير اشمئزازي! لعلك لا تصدق! على أن الأيام تتابعت، يطرد كل منها الآخر في رفق، واقبل ربيع في أعقاب شتاء، وخريف في ذيل صيف، وما لبث كل شيء أن تسرب رويداً وزايلني قطرة أثر قطرة، أو بالأحرى، رسب في أعماقي، إذ لابد من أن يبقى شيء في أغوار النفس، أو لابد - كما يقولون - من أن يبقى فوق الصدر ثقل جاثم! على أننا يجب أن لا نسلم أنفسنا لليأس، أو نطلب الموت، إذا ما مات أحد من أحبابنا، ما دام هذا مصيرنا جميعاً! فانفض الحزن عن نفسك يا مسيو «بوفاري» تجده يفارقك! وتعالى لزيارتنا! أتعلم أن ابنتي تفكر فيك بين وقت وآخر، وتتساءل: «أهكذا نسيني؟» ها هو ذا الربيع مقبل عما قريب، وسنشركك معنا في اصطياد الأرانب لتسرى عن نفسك قليلاً!»

وأخذ «شارل» بالنصيحة، فذهب لزيارة (برتو)، حيث ألفى كل شيء على ما كان عليه قبل خمسة أشهر، وكانت أشجار الكمثرى قد أزهرت، واستطاع الأب «روو» أن يسير على قدميه، فكان يغدو ويروح باعثاً الحياة في المزرعة ورأى الرجل أن من واجبه أن يبالغ في اكرام الطبيب إلى أقصى حد، نظراً لنكبته المحزنة، فطلب إليه ألا يرفع قبعته، وأخذ يتكلم إليه بصوت خفيض - وكأنه يتحدث إلى مريض - بل انه أظهر غضبه لأنهم لم يعدوا للزائر شيئاً أخف من المعتاد، كقدور القشدة والكمثرى المطبوخة. وأخذ يروي له النوادر، فإذا بشارل ينسى نفسه ويضحك، ثم لا يلبث أن يذكر زوجته فيعود إلى وجومه. وعندما قدمت لهما القهوة، لم يعد يفكر فيها!

وأخذ تفكيره فيها يتضاءل كلما ازداد اعتياده على الحياة بمفرده. بل أن لذة الحرية التي عادت إليه حديثاً، جعلته أكثر احتمالاً لحياة الوحدة، فقد أصبح في وسعه أن يغير مواعيد طعامه، وأن يخرج ويدخل دون أن يضطر إلى تقديم حساب عن حركاته، وأن يمد

أطرافه على طول السرير وعرضه إذا ما شعر بالتعب. وهكذا أخذ يعنى بنفسه ويدللها، ويستمرئ ما كان يوجه إليه من عبارات التعزية!

ولقد عاد عليه موت زوجته - فوق كل هذا - بنفع في مهنته ليس بالقليل، إذ ظل الناس شهراً بعد وفاتها يرددون: «يا للشاب المسكين! ويا لنكبته!» وذاع اسمه، فازداد عملاؤه، كما أصبح يذهب إلى (برتو) كلما شاء، كان لديه أمل بغير ما هدف واضح، وفي نفسه سعادة غامضة! وأخذ يلاحظ، كلما سوى لحيته بالفرجون أمام المرآة، أن وجهه يزداد سماحة!

✦✦✦

وفي ذات يوم وصل إلى (برتو) حوالي الساعة الثالثة، والقوم في الحقول، فدلف إلي المطبخ، ولم يفطن في البداية إلى أن «إيما» كانت هناك، إذ كانت النوافذ مغلقة. ومن خلال المصاريع، كانت الشمس تلقي على الأرض خيطاً من اشعتها طويلاً، دقيقاً، يتكسر على زوايا قطع الاثاث، ويتذبذب على السقف. وكان الذباب يتسلق جدران الأكواب الزجاجية التي كانت موضوعة على المائدة، ويرسل طنيناً وهو يغرق في بقايا التفاح المتخلفة فيها. وكان الضوء المنساب من المدخنة يضفي على بقايا الفحم - المتخلفة على قرص المدفأة المعدني - لمعة مخملية، ويخلع على الرماد البارد غلالة زرقاء.

وكانت «إيما» تجلس بين النافذة والمدفأة، وهي منهمكة في الحياكة. ولم تكن ترتدي وشاحها، فلا حظ «شارل» أن قطرات دقيقة من العرق تنتشر على كتفيها العاريتين.

وعرضت عليه - كعادة أهل الريف - أن تأتيه بشيء من الشراب، فتمنع، وألحت، ثم دعته اخيراً - ضاحكة - إلى أن يتناول معها كأساً من الخمر. وأحضرت من الصوان زجاجة بها شراب خفيف وكأسين صغيرتين، ملأت إحداهما حتى الحافة، بينما لم تكد تسكب في الأخرى شيئاً، وقدمت إليه الأولى، وبعد أن قرعتها بالثانية، رفعت هذه إلى شفتيها.

وإذا كانت الكأس شبه فارغة، فقد اضطرت إلى أن تطوح رأسها إلي الوراء، لترشف ما بها من قطرات. وأخذت تضحك - وهي على هذا الوضع، وشفتاها ممدودتان إلى الأمام، ورقبتها مشدودة - إذ لم تكد تشعر بشيء من الشراب في فمها، بينما امتد لسانها من بين اسنانها الدقيقة ليعلق ما في القاع!

وعادت إلى الجلوس، مستأنفة عملها في رفو جورب أبيض من القطن، وقد نكست رأسها، وكفّت عن الكلام. وظل «شارل» صامتاً هو الآخر. وكان الهواء ينساب من أسفل الباب، حاملاً بعض الغبار، فأخذ يرقب تموجاته، وهو لا يسمع سوى وجيب النبض في رأسه يختلط بنقنقة دجاجة تضع بيضة في مكان ما بأقصى الفناء. وكانت «إيما» ترطب وجنتيها

- بين آن وآخر - بكفيها اللتين كانت تبردهما على حديد المدفأة الخامدة.

وكانت منذ أوائل الموسم تعاني دواراً، فسألت «شارل» عما إذا كان الاستحمام في البحر يفيدها، ثم تطرقت إلى الحديث عن الدير الذي تعلمت فيه، فتحدث «شارل» بدوره عن مدرسته. وهكذا اتصل الحديث بينهما. وما لبثا أن صعدا إلى غرفتها، حيث اطلعته على كراساتها الموسيقية، والكتيبات التي نالتها كجوائز، والتيجان المجدولة من أوراق البلوط التي كانت تحتفظ بها في قاع صوان، كما حدثته عن أمها، وعن المقبرة، بل لقد أرشدته - في الحديقة - إلى الحوض الذي كانت تجمع منه الزهور في يوم الجمعة الأول من كل شهر، لتضعها على قبر أمها، بيد أن البستاني الذي يعنى بالحديقة، لم يكن ليفهم عن الأزهار شيئا، كذلك كان الخدم جميعاً، أغبياء، لا تجني من ورائهم إلا المتاعب!

وكانت تتمنى أن تعيش في المدينة، ولو خلال الشتاء - على الأقل - وإن كان نهار الصيف الطويل قد يجعل الريف أكثر مللاً في هذا الفصل منه في الشتاء. وكان صوتها يتغير تبعاً لما تقول: فهو تارة صاف، وأخرى حاد. وقد يسري فيه فجأة خمول ينتهي به إلى ما يشبه الهمس حين تخاطب نفسها، ثم إذا به بعد لحظة قد انقلب مرحاً. وعيناها! كانتا تحدقان في براءة، ثم إذا بهما في نصف إغماضة، إذ يشرد فكر صاحبتهما أو تغرق في السآمة!

وأخذ «شارل» - أثناء عودته في المساء - يستعيد عباراتها واحدة إثر واحدة، يحاول أن يتذكرها، وأن يربط بعضها ببعض، ليستكمل صورة واضحة للحياة التي كانت تحياها قبل أن يعرفها. غير أنه لم يستطع قط أن يتمثلها في صورة تغاير تلك التي رآها عليها في اللقاء الأول، أو تلك التي تركها عليها في الوادع القريب. وساءل نفسه عما قد تصير إليه إذا ما تزوجت، ثم، بمن تتزوج؟ وا أسفاه! إن الأب «روو» واسع الثراء. وهي! كم هي جميلة!

وكان وجه «إيما» لا يلبث أن يعود في اصرار ليستقر أمام عينيه. واخذ يتردد في أذنيه صوت رتيب، في طنين مستمر لحوح: «هب أنك تزوجت! نعم، ماذا لو تزوجت!»

✦✦✦

ولم يجد إلى النوم سبيلاً في تلك الليلة كان يحس بضيق وظمأ وما لبث أن نهض ليشرب من الأبريق، وفتح النافذة، وراح يتطلع إلى السماء المليئة بالنجوم، كان النسيم دافئاً، وتناهى إليه من بعد نباح الكلاب، ثم ادار رأسه في اتجاه (برتو).

وخطر له أنه لن يخسر شيئاً على أية حال. فمنى نفسه بالتقدم لطلب يدها عندما تسنح الفرصة. غير أن تهيبه وحيرته في اختيار العبارة المناسبة، كان يعقدان لسانه كلما واتته الفرصة.

ولم يكن ليضير الأب «روو» أن يتخلص من ابنته التي لم تكن ذات نفع كبير في بيته، وكان يلتمس لها - في قرارة نفسه - العذر، إذ يدرك أنها أذكى من أن تشتغل بالزراعة، تلك الحرفة التي لعنتها السماء، حتى أن أحداً لم يصبح - باشتغاله بها - من أصحاب الملايين! لقد كان يخسر كل سنة، بدلاً من أن يجني من ورائها ثراء، فالبرغم من تفوقه في المساومة، والمامه بأساليب التجارة الماكرة، كانت الزراعة بمعناها الكامل - وبما تنطوي عليه من فنون إدارة المزارع - أقل ملاءمة له منها لبقية الناس. فما كان ليخرج يديه من جيوبه ويشمر عن ساعديه طواعيه واختياراً. وكان في انفاقه بعيداً عن الاقتصاد، حريصاً على الغذاء الطيب، والمسكن الدافيء، والفراش الوثير. كان يحب نبيذ التفاح، والافخاذ المحمرة، والشاي الممزوج بالخمر مزجاً جيداً. وكان يتناول وجباته في المطبخ وحيداً، أمام المدفأة، على منضدة صغيرة تعد مقدماً ثم تحمل إليه، كما يحدث على المسرح!

وإذ لاحظ أن وجنتي «شارل» كانتا تتوردان كلما اقترب من ابنته، توقع أن يطلب منه يدها يوماً ما، فأخذ يتدبر الأمر بأكمله مقدماً، كان يراه وضيعاً بعض الشيء، لا يتمثل فيه الصهر الذي كان يتمناه. غير أنه كان يعرف عنه حسن السلوك، والاقتصاد، وكان متعلماً ويلوح أنه لن يساوم كثيراً فيما يتعلق بالصداق الذي سيقدمه الأب لابنته! وإذ كان مضطراً إلى أن يبيع اثنين وعشرين فداناً من أرضه، ليتخفف من دين كبير عليه للبناء والنجار، ولاصلاح دولاب المعصرة، فقد اسر لنفسه قائلاً: «لسوف اعطيه «إيما» إذا طلبها!»

✦✦✦

وذهب «شارل» إلى (برتو) ليقضي ثلاثة أيام، في عيد القديس ميخائيل. وانقضى اليوم الأخير كسابقيه، في تردد وارجاء فلما تأهب للرحيل، رافقه الأب بعض المسافة، وسلكا طريقاً كثير الحفر، حتى إذا أوشكا على الافتراق، دار بخلد «شارل» أن الساعة قد حانت، إذ كان قد حدد لنفسه مهلة تنتهي عند السياج الخارجي للضيعة. ولم يكد يجاوره، حتى تمتم قائلاً: «مسيو روو... اريد أن أفاتحك في أمر» ووقف السيد، ولكن «شارل» اخلد الى الصمت!

وقال الأب ضاحكاً في رافق: «حدثني بأمرك. أو تظن أنني لم أدرك كل شيء؟»

فتمتم «شارل» قائلاً: «أيها الأب روو، أيها الأب روو!»

وواصل المزارع حديثه قائلاً: «إنني شخصياً لا أتمنى أفضل منك. ولكن للبنية رأيها، ولابد من سؤالها، فابطئ في مشيتك ريثما أعود إلى البيت، وليس من الضروري أن ترجع - اذا ما أجابت بالقبول - حتى لا يفطن الناس إلى شيء، وحتى لا يشتد بالفتاة الانفعال

ولكن، لا تقس على اعصابك، سأدفع مصراعي النافذة الى الجدار، وافتحهما على وسعهما، اشارة بذلك وتستطيع أن تتبين هذه الاشارة من الخلف اذا ما انحنيت على السياج».

وابتعد الأب.

وربط «شارل» جواده إلى شجرة، وهرع إلى الطريق الخلفي الضيق، وأخذ ينتظر وانقضى نصف ساعة، واحصى بعده تسع عشرة دقيقة، وفجأة، سمع صوت ارتطام بالجدار، فقد فتح مصراعا النافذة، وظلا يهتزان أثر اصطدامها بالحائط!

ولم تحن الساعة التاسعة من الصباح التالي، حتى كان في المزرعة! وتضرج وجه «إيما» حين دخل الدار، وإن حاولت أن تضحك قليلاً لتبدو متمالكة لنفسها. وقبل «شارل» صهر المستقبل، ثم أخطوا يتحدثون في المسائل المالية، وإن كانت أمامهم فسحة من الزمن، إذ لم يروا ان يتم الزواج قبل أن ينتهي حداد «شارل»، أي حوالي ربيع العام التالي.

وانقضى الشتاء في ترقب، وشغلت الآنسة «روو» بجهازها الذي أرسل في طلب بعضه من (روان). وحاكت لنفسها أقمصة وقلنسوات للنوم على نماذج استعارتها، وكانوا - خلال زيارات «شارل» للمزرعة - يتحدثون عن تدابير العرس، ويتساءلون عن القاعة التي ستقام فيها وليمة الزفاف، ويحملون بأصناف الطعام التي ستقدم، ويتناقشون في الصنف الذي ستفتتح به المائدة!

وكانت «إيما» تفضل أن يتم الزفاف في منتصف الليل، على ضوء المشاعل. بيد أن الأب «روو» لم يستسغ هذه الفكرة.

وهكذا أقيمت وليمة العرس أخيراً، فحضرها ثلاثة وأربعون شخصاً، ظلوا حول المائدة ست عشرة ساعة، ثم استأنفوا الوليمة في اليوم التالي، والأيام التي اعقبته، إلى حد ما!

الفصل الرابع

أخذ المدعوون يتوافدون منذ ساعة مبكرة، في عربات متباينة، منها ذات المقعد الواحد والجواد الواحد، ومنها ذات العجلات الأربع والمقاعد المتقابلة، ومنها عربات عتيقة الطراز بغير مظلات، وعربات مقفلة بستائر من الجلد، ومن القرى المجاورة اقبل شبان في عربات نقل مكشوفة، اصطفوا عليها مستندين بأيديهم إلي حوافها الخارجية كي لا يسقطوا منها وهي تخب بهم مهتزة في عنف. وجاء مدعوون من قرى تبعد عشرة فراسخ عن المزرعة، مثل (جودرفيل) و(نورمانفيل) و(دو كاني)، إذ كان أهل العروسين قد دعوا جميع أقارب الاسرتين، ووصلوا ما انقطع بينهم وبين بعض الأصدقاء، وكتبوا إلى معارف لم يكونوا قد رأوهم منذ زمن طويل!

وكانت فرقعة السياط تسمع من وقت إلى آخر خلف السياج، فيفتح الباب، لتنفذ منه عربة تسير حتى الدرجة الأولى من سلم المدخل، حيث تقف فجأة، ويخرج ركابها من كل جانب يدلكون ركبهم، ويمطون أذرعهم، وقد توجت السيدات رؤوسهن بالقبعات الصغيرة، وارتدين أزياء المدن، وتحلين بسلاسل تنتهي بساعات ذهبية، واتشحن بحرامل تتقاطع اطرافها عند الحضور، أو بشيلان صغيرة ملونة تثبت أطرافها إلى الظهور بدبلبيس. وكان الأطفال في ثياب شبيهة بثياب الرجال، وقد لاح عليهم أنهم كانوا يضيقون بملابسهم الجديدة.. بل كان الكثيرون منهم يخطرون في أول زوج من الأحذية الجلدية حصلوا عليه في حياتهم! وسارت إلى جوارهم فتيات تتراوح أعمارهن بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة، لا شك فى أنهن اخواتهم أو بنات أعمامهم واخوالهم، وقد ارتدين ملابس حفلة «التناول» الأول، بعد ان أطيلت أطرافها لتصلح للمناسبة الراهنة! وكن يسرن صامتات، متوردات الخدود، مبهورات ولاحت شعورهن لزجة لما عولجت به من دهان معطر بالورد، كما بدا عليهن الحرص على أن لا يعرضن قفازاتهن للانساخ.

ولما لم يكن عدد السياس كافياً، فقد شمر الرجال عن سواعدهم، وباشروا بأنفسهم حل الخيل من العربات، رغم ثيابهم التى تباينت تبعاً لمراكزهم الاجتماعية - بين «ردنجوت»، وملابس سهرة، وبزات فاخرة أو عادية، وكلها من الملابس التي تعنى بها الأسرات فلا تخرجها من الخزانات إلا في المناسبات! وكانت بينها «الردنجوت» ذات الذيول الضافية تداعبها الريح، أو ذات الياقة الاسطوانية والجيوب الواسعة كأنهم الحقائب، وبينها بزات من الصوف السميك، يرتدي أصحابها قلنسوات احيطت حوافها باطارات من نحاس، ومعاطف قصيرة ثبت في خاصرتها من خلف زران متقاربان كأنهما عينان، وقد بدت ذيولها وكأنما سوتها بلطة نجار! وكان الرجال الذين سيجلسون في ذيل المائدة يرتدون «أقمصة المناسبات» ذات الياقة المسدلة على الكتفين، والثنيات الرفيعة في الظهر، وقد شدت تحت الخصر بحزام

مثبت في ثناياها، كما شدت فوق الصدور - بفعل النشاء والكي - فبدت كأنها دروع!

وظهر واضحاً أن الجميع قصوا شعورهم حديثاً، إذ كانت الآذان بارزة على جوانب الرؤوس.. كما كانت الذقون حليقة ناعمة. وكان بعضهم قد اضطر إلى أن يبدأ رحلته في مطلع الفجر، فلم تكن ثمة اضاءة كافية وهم يحلقون ذقونهم، مما ترك خدوشاً ممتدة تحت الأنف، أو جراحاً متسعة بحجم العملة فئة الفرنكات الثلاثة، وقد ألهبها نسيم الصباح البارد أثناء الطريق، فاذا الوجوه البيضاء المشرقة، تتناثر فيها بقع وردية!

✦✦✦

وكانت دار العمدة تقع على مسافة نصف فرسخ من المزرعة، فذهبوا إليها على الأقدام، وعادوا بالطريقة عينها بعد أن تم الاحتفال في الكنيسة. وكان الموكب متماسكاً في باديء الأمر، فبدا كأنه شال موشى بالألوان، يتموج على طول الطريق الضيق المتعرج بين الحقول الخضراء، ثم لم يلبث أن استطال، وتجزأ إلى مجموعات ألهاها الحديث عن اللحاق بغيرها.

أما العازف فكان يسبق الموكب بقيثارته التي حليت بالأشرطة، يتبعه العروسان، ثم الأهل، فالأصدقاء، دون ما ترتيب وفي المؤخرة، سار الأطفال يلهون بقطف زهور الشوفان، أو يلعبون فيما بينهم دون أن يفطن إليهم أحد.

وكان ثوب «إيما» مسرف الطول، فكان ذيله يتجرر خلفها، فتقف بين وقت وآخر لترفعه، ولتنزع عنه - باصابعها الدقيقة المكسوة بالقفاز - ما علق به من أعشاب خشنة وأشواك، بينما يقف «شارل» ساكناً في انتظارها!.. وكان الأب «روو» يرتدي قبعته الحريرية الجديدة، ومعطفه الأسود الذي بلغ كماه اظافر يديه، وقد تأبط ذراع السيدة «بوفاري» الأم. أما السيد «بوفاري» الأب - الذي كان يحتقر في قرارة نفسه كل هؤلاء الناس، والذي لم يرتد سوى «ردنجوت» ذات صف واحد من الأزرار، على نمط الملابس العسكرية - فقد أخذ يغازل ريفية شقراء آثرها بمداعبات ماجنة كانت وجنتاها تتضرجان لها، دون أن تدري بماذا تجيب! في حين انصرف بقية الحضور إلى الحديث في شؤونهم، أو إلى التغامز خفية - بعضهم على بعض - أو إلى استثارة المرح في أنفسهم تأهباً للحقل المرتقب.

وكانت أنغام العازف - الذي واصل العزف خلال الحقول - تعلو إذا ما جنحوا إلى الصمت.. فإذا ما أحس بأنه سبق الموكب بمسافة طويلة، وقف ليسترد انفاسه، وليعالج قوس قيثارته بـ «القلفونية» ليشد أوتارها، ثم يستأنف سيره رافعاً مقبض القيثارة تارة، وخافضة أخرى، والضجة المنبعثة تحمل الطيور الصغيرة على مبارحة مكانها.

ومدت المائدة تحت مظلة العربات، وعليها أربع قطع من «بيت الكلاوي»، وستة

أطباق من «صلصة» الدجاج، و «كباب الحلة» المصنوع من لحم العجول، وثلاث فخذات مشوية! وتربع في وسط المائدة خنزير صغير السن، بديع المنظر، جيد الشواء، تحيط به أربعة حبال من «سجق» الخنزير المطبوخ! وفي أركان المائدة، استقرت قوارير الخمر، بينما كانت زجاجات نبيذ التفاح الفائر تبعث زبداً كثيفاً حول سداداتها. واترعت الأقداح مقدماً بالنبيذ إلى حوافها، وكانت القشدة الصفراء تترجرج في أطباقها الكبيرة لأقل حركة تصيب المائدة، وقد نقشت عليها الحروف الأولى من أسمي العروسين في زخرفة عربية جميلة.

وكانوا قد عهدوا باعداد الحلوى والفطائر إلى صانع من (ايفتو) استقر بالبلدة حديثاً، فبذل عناية فائقة، حتى لقد احضر بنفسه كتلة مزينة بالزخارف، انتزعت صيحات الاعجاب من الحاضرين، إذ كانت لها قاعدة من الورق المقوى تمثل معبداً أروقة وأعمدة تحف بها التماثيل، وتناثرت في الفجوات نجوم صنعت من الورق المذهب، وفي الطابق الثاني منها، صنع الرجل برجاً من فطير «سافوا»، تحيط به تحصينات صغيرة من الحلوى واللوز والزبيب وفصوص البرتقال، وفوق سطح هذا الطابق، صنع من الحلوى ما يمثل حقلاً أخضر به صخور غارقة في بحيرات من المربى، تعلو سطحها زوارق من قشر البندق، وفي الحقل أرجوحة من الشكولاتة تعلق بها تمثال صغير للحب، وقد توج عامودا الارجوحة ببرعمين من الورد الطبيعي!!

وظل القوم يأكلون حتى المساء. وكلما أمضهم طول الجلوس، نهضوا يتمشون في الأفنية، أو يمارسون بعض الألعاب في المخزن، ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى المائدة! وغلب النوم بعضهم قبيل الختام، فتصاعد غطيطهم، بيد أن النشاط لم يلبث أن سرى فيهم من جديد حين تناولوا القهوة، فراحوا يرددون الأغاني، ويتبارون في ألعاب القوى وحمل الأثقال والحيل التي تعتمد على المهارة اليدوية، وتبارى بعضهم في رفع العربات فوق أكتافهم، وفي تبادل النكات، وتقبيل السيدات!!

وفي المساء، تأهبوا للرحيل. ولكن شد الخيول إلى العربات - بعد أن اتخمت بالشوفان - كان من أصعب العمليات، إذ راحت تركل، وتتمرد، وتكسر الأعنة، وأصحابها يسبون أو يضحكون وكنت ترى طوال الليل - وفي ضوء القمر - عربات انطلقت على طول الطريق، تعدو خيولها الجامحة، فتهبط بها في الحفر حيناً، وتقفز بها فوق أكوام الأحجار حيناً آخر.. ثم إذا بها تتسلق المنحدرات، وقد أطلت من جنباتها النساء يتشبثن بالأعنة!

✦✦✦

أما من بقي في (برتو) من ضيوف العرس، فقد قضوا الليل يشربون في المطبخ، بينما نام الأطفال تحت المقاعد.

وكانت العروس قد سألت أباها أن يجنبها المداعبات التي تعرض لها العرسان في ليلة الزفاف بيد أن سماكاً من أبناء عمومتها راح ينفث الماء من ثقب باب مخدع العروسين، رغم أنه لم يحمل إليهما هدية ما سوى زوج من سمك «موسي»!! على أن الاب «روو» أقبل في لحظة مناسبة ليصده عن المضي في تغث الماء، مبيناً له أن دقة الموت لا تسمح بمثل هذه الدعابة المستهجنة، ومع أن ابن العم انصرف عن دعابته، إلا أنه لم يقتنع تماماً بمنطق الاب «روو»، واتهمه في قرارة نفسه بالصلف والكبرياء. وما لبث أن انضم - في أحد الأركان - إلى أربعة أو خمسة من المدعوين كانت المصادفات قد ساقت إليهم أراداً قطعة من اللحم حملتها المائدة، فخيل اليهم أن ثمة تعمداً لاساءة اكرامهم، وراحوا يتهامسون مغتابين مضيفهم، متمنين له - في ألفاظ غير صريحة - كل شر!

أما السيدة «بوفاري» - الأم - فقد ظلت طيلة اليوم صامتة، إذ لم يحفل أحد باستشارتها بصدد ثوب العروس، أو اعداد الوليمة. وما لبثت أن أوت إلى فراشها في وقت مبكر.. وبدلاً من أن يتبعها زوجها، أرسل في طلب عدد من السيجار من (سان فيكتور)، وبقي حتى الصباح يدخن، ويحتسي مزيجاً من الخمور - «كوكتيل» - لم يكن مألوفاً لدى أهل الريف، مما رفع من شأنه في أعينهم!

وما كان «شارل» يوماً حاضر النكتة والفكاهة، ومن ثم لم يتألق في حفل عرسه، بل أنه كان يرد في غباء، على ما وجهه المدعوون إليه من غمزات وفكاهات ومجاملات ومداعبات منذ جمعتهم الوليمة.

على أنه لاح في اليوم التالي رجلاً آخر يناقض ذاك الذي كانه في الليلة السالفة، وكأنما كان ليلتذاك عذراء يلجمها الخفر!

أما المعروس، فلم يظهر عليها ما ينم عما كان يجول في نفسها، حتى أن أكثر الحاضرين فراسة لم يستطع أن يتكهن بشيء عن حالتها النفسية، واكتفوا بأن راحوا يمعنون في التحديق في وجهها كلما مرت على مقربة منهم!.. على أن «شارل» لم يعمد إلى شيء من التكلف، بل أخذ يدعوها بزوجته، ويخاطبها في غير كلفة، ويسأل عنها كل إنسان، ويبحث عنها في كل مكان - دون ما حرج - كلما افتقدها! وكثيراً ما كان يقتادها إلى الأفنية ودروب الحديقة، وكان يشاهد عن كثب وقد طوق خصرها بذراعه، أو وهو يسير إلى جوارها، وقد مال نحوها ورأسه يفسد استواء صدارها المكوي!

✦✦✦

ورحل العروسان بعد الزفاف بيومين، إذ لم يكن «شارل» ليملك أن يغيب عن مرضاه أمداً أطول مما غاب.

وصحبهما الاب «روو» في عربة حتى (فاسونفيل)، حيث قبل ابنته مودعاً، ثم عاد

ادراجه. ولم يكد يخطو مائة خطوة تقريباً حتى توقف، ثم التفت الى العربة، فلما رآها تبتعد وقد أخذت عجلاتها تثير الغبار، أرسل زفرة طويلة، وذكر عرسه، والأيام الخوالي، وارتدت إلى ذهنه ذكرى أول حمل لزوجته، وتصور ما كان عليها من سعادة وغبطة يوم جاء بزوجته من منزل أبيها إلى منزله، إذ ارادفها خلفه على جواده وانطلق على الجليد. فقد تم عقد القران في رأس السنة، والحقول مكسوة جميعها بالجليد الناصع، وكانت تتشبث به بإحدى ذراعيها، بينما أمسكت باليد الأخرى سلتها، والريح تداعب أشرطة شعرها - المنسق على طريقة أهل (كو) - فتدفع اطرافها لتلمس فمه. ومن آن لآخر، كان يلتفت إليها، فيلمح فوق كتفه وجهها الوردي الصغير، الذي أشرق بابتسامة صامتة، تحت قرص ذهبي ازدانت به قبعتها، وكانت تدس اصابعها في صدره بين الفينة والفينة، التماساً للدفء!

آه! لقد تلاشى كل ذلك في ادراج الزمان! لو أن طفلهما الأول عاش، لكان اليوم في الثلاثين من عمره!

والتفت خلفه فلم ير شيئاً في الطريق. وغشيته كآبة موحشة، وقد خيل اليه أن نفسه غدت كالبيت الخاوي المهجور! وامتزجت الذكريات العذبة بالذكريات الأليمة، في رأسه الذي اثقله الشراب. وأحس برغبة في أن يعرج على الكنيسة، بيد أنه خشي أن تزداد شجونه، فيمم صوب داره رأساً.

ووصل السيد «شارل» وزوجته إلى (توست) في نحو الساعة السادسة، فإذا الجيران في النوافذ يرتقبون الزوجة الجديدة لطبيبهم.

وتقدمت الخادم العجوز فحيتهما، واعتذرت لأن العشاء لم يعد بعد، ثم سألت السيدة أن تتفقد منزلها، ريثما تعد المائدة.

الفصل الخامس

كان المنزل مشيداً من الطوب، وواجهته نحو الطريق، وخلف الباب، كان ثمة معطف ذو ياقة صغيرة، معلقاً مع عنان جواد، وقلنسوة من الجلد الأسود، وعلى الأرض قبع في أحد الأركان زوج من أحذية الركوب ذات الرقاب الطويلة، يعلوه بعض الطين الجاف، والى اليمين، امتدت الردهة الوحيدة التي كانوا يأكلون فيها ويجلسون، وقد علقت إلى أحد الجدران الرديئة اللاء، ورقة صفراء اللون، وفي طرفها الأعلى باقة من الزهر الباهت اللون. وكانت الستائر القطنية البيضاء - المحلاة بشرائط حمراء - تتقاطع على النوافذ، بينما كان يلمع على حافة المفدفأة الضيقة، يندول ساعة يعلوه رأي «ابقراط» [1]، وقد قام إلى جانبيه شمعدانان من الفضة، تحت مظلتين بيضاويتي الشكل.

وفي الناحية الأخرى من المدخل، كان مكتب «شارل» حجرة صغيرة عرضها ست خطوات تقريباً، تضم منضدة وثلاثة مقاعد فضلاً عن مقعد خاص للمكتب، واحتل الأرفف الستة في مكتبة من خشب القرو، قاموس العلوم الطبيعية بأجزائه التي لم تفض صفحاتها بعد، رغم ما لحق بغلافاتها من تلف، بسبب عمليات بيعها المتتالية!

وكان عبير الطعام ينساب من المطبخ متسرباً خلال جدران غرفة المكتب أثناء فحص المرضى، كما كان سعال المرضى المنبعث داخل غرفة المكتب يسمع في المطخ، فضلاً عن قصصهم بحذافيرها!

وكانت تلي غرفة المكتب مباشرة، حجرة كبيرة، مهدمة تطل على الفناء الذي يضم الحظيرة. وكانت تحوي فرناً، غير أنها كانت تستخدم كمخزن للحطب، والأغذية، والمهملات، وقد امتلأت بقطع الحديد القديمة، والبراميل الفارغة، وآلات الزراعة المهملة، واكداس من أشياء أخرى مغبرة، كان من المستحيل التكهن بما تستخدم فيه.

أما الحديقة فكانت مستطيلة، يحدها جدران من الطين - حفت بهما أشجار المشمش - وتنتهي بسياج من الأشواك يفصل بينها وبين الحقول. وكانت تتوسطها «مزولة» - ساعة شمسية - من الاردواز، أقيمت على قاعدة حجرية، وأربعة أحواض من نبات «النسرين» تحيط - في انتظام - بحوض خامس زرعت فيه نباتات أكثر نفعاً، وتحت شجيرات السرو، في الطرف الأقصى للحديقة، قام تمثال من الجص يمثل قساً يقرأ في كتاب الصلوات!

وصعدت «إيما» إلى الطابق العلوي، فإذا بأولى حجراته تكاد تكون خالية من الأثلاث تقريباً! أما الحجرة الثانية - وهي مخدع العروسين - فكانت تضم سريراً من خشب

(١) ابقراط هو أبو الطب عند الاغريق.

«الأكاجو» داخل فجوة في الجدار أحاطت بها ستائر حمراء! وكان يزين خزانة الثياب صندوق من الصدف، وإلى جوار النافذة مكتب عليه آنية بها باقة من زهور البرتقال الجافة ضمتها أشرطة من «الستان» الأبيض، وكانت باقة عروس، العروس الأولى!!

ولاحظ «شارل» اتجاه نظرات «إيما» إلى الزهور، فتناولها وذهب بها إلى المخزن، وجلست «إيما» في مقعد مريح أثناء ترتيب حاجياتها، وقد سرح خاطرها إلى باقة عرسها التي وضعت في صندوق من الورق المقوى. وساءلت نفسها - وهي مسترسلة مع أحلامها - عما يمكن أن يحل بتلك الباقة، لو أنها ماتت بدورها!

✦✦✦

أنفقت «إيما» الأيام الأولى في تدبير التعديلات التي شاءت أن تجربها في البيت، فنزعت المظلات - «الاباجورات» - عن المشاعل والصقت بها كساء جديداً من الورق، وأعادت طلاء السلم، ووضعت حول المزولة - في الحديقة - بعض المقاعد. بل انها راحت تفكر في الحصول على نافورة وحوض تسبح فيه الأسماك!

وإذ كان زوجها يعلم أنها تحب النزهة في العربات، فقد وفق إلى عربة مستعملة، زودها بمصابيح جديدة، و«رفارف» من الجلد.

وأصبح «شارل» هانيء البال، لا يحمل هماً. حياته وجبات يتناولها مع «إيما»، ونزهات مسائية برفقتها في الطريق العام. وكان يستشعر متعة في العبث بضفائرها، وفي رؤية قبعتها الخصوصية معلقة إلى مزلاج النافذة، وفي كثير من الامور الشبيهة، التي لم يخطر له يوماً ببال أنها يمكن أن تكون مبعث سرور!

وكان، إذا ما استيقظ في الصباح وظل مستلقياً إلى جوارها على السرير، يزمل ضوء الشمس وهو يتخلل زغب وجنتيها البضتين اللتين كان جناحا قلنسوة النوم ينسدلان إلى منتصفيهما. وكان إذا حدق في عينيها عن قرب، خالها أكثر اتساعاً، لا سيما وهي تفتح جفنيها وتطبقهما مرات متتابعة، ريثما تألفان الضوء عند اليقظة! وكانتا تبدوان سوداوين في الظلال، وزرقاوين قاتمتين في ضوء النهار، بل لقد يخالهما تتألفان من طبقات متباينة من ألوان تبدو كثيفة في اغوار الحدقة، ثم تشف شيئاً فشيئاً كلما اقتربت من السطح!

وكانت نظراته تضل في أعماق هاتين العينين، عينيها! وكان يرى صورته - حتى الكتفين - تنعكس مصغرة على حدقتيهما، وقد لف منديلاً حريرياً حول رأسه، وترك صدر قميصه مفتوحاً.

✦✦✦

فإذا ما نهض وتهيأ للخروج، وقفت «إيما» عند النافذة تودعه، ثم تظل مستندة إلى حافتها بين آنيتين من زهور «الجيرانيوم»، وهي في ثوب فضفاض وبينما ينهمك «شارل» -وهو في الفناء- في تثبيت مهمازيه، رافعاً قدميه تباعاً إلى حافة السور، كانت تأخذ في الحديث إليه من أعلى، وهي تلتقط بفمها نتفاً من الزهر أو من العشب الأخضر، ثم تنفثها نحوه، فتتطاير في الهواء مرفوفة في حركة نصف دائرية كالعصفور، حتى تعلق بالشعر الاشعث المنتثر فوق عنق الفرس العجوز البيضاء التي تقف لدى الباب بلا حراك وما ان يعتلي «شارل» صهوة الجواد، حتى يرسل إليها قبلة في الهواء، فترد بايماءة، ثم تغلق النافذة، بينما يشرع هو في رحلته، فينطلق في محاذاة الجسر الذي ينبسط أمامه كشريط من غبار لا نهاية له، ويمضي في دروب بين الأشجار الوارفة، وأزقة ضيقة يرتفع القمح على جوانبها إلى الركبة، والشمس تستلقي على منكبيه، وهواء الصباح يملأ خياشيمه، وقد أفعم فؤاده بما ناله في ليله من لذات، وسرت الطمأنينة إلى نفسه، والراحة إلى جسده!

وكان يواصل السير وهو يجتر سعادته في تذوق من يتلمظ بعد الغداء بما خلفه «عش الغراب» في فمه من طعم! متى كانت الحياة رفيقة به كما هي الآن؟ أفي أيام الدراسة، حين كان محبوساً بين جدران المدرسة، وحيداً وسط زملاء يفوقونه ثروة واستيعاباً للدرس، ويسخرون من لهجته الريفية ومن ملابسه، ويعيرونه بأن احداً لا يزوره كما كانت أمهاتهم يفدن لرؤيتهم -في حجرة الاستقبال بالمدرسة- وقد حملن لهم الفطائر؟! أم في فترة دراسة الطب، عندما لم تكن حافظته تضم من النقود ما يمكنه من صحبة تلك العاملة الصغيرة التي كان من الممكن أن تغدو عشيقته؟! أم في الشهور الأربعة عشر التي عاشها زوجاً لتلك الأرملة التي كانت قدماها تستحيلان -في السرير- الى قطعتين من الثلج؟!

ما أبعد كل هذا عن خاطره، وقد أصبح يمتلك -ما عاش- هذه المرأة الجميلة التي يعبدها! لقد أصبح العالم في نظره لا يتجاوز محيط «جونلتها» الحريرية!

وكان يلوم نفسه إذ يخيل إليه أنه لا يحبها كما يجب! وما كان ليطيق عنها بعداً، فيتعجل العودة، ويصعد سلم الدار بقلب خافق، ثم يتسلل إلى حجرتها في هدوء ليفاجئها وهي تتزين، فيطبع على ظهرها قبلة قبل أن تحس بوجوده، فتصرخ جزعة!

ولم يكن يقوى على كبح يديه عن أن تتحسسا دوماً مشطها وخواتمها وشالها. وكان يطبع على وجنتيها أحياناً قبلات كبيرة، بملء فمه، أو يغطي ذراعيها بقبلات خفيفه من أطراف أصابعها حتى كتفيها، وهي تدفعه إلى مزيج من الضيق والابتسام، كما نفعل بالطفل إذ يتشبث بنا!

والواقع أن «إيما» كانت تعتقد قبل الزواج أنها قد وقعت في الحب. فلما لم تحصل على ما كانت تخاله مرتباً على هذا الحب من سعادة، توهمت أنها كانت على خطأ، وأخذت تسائل نفسها عما تعبيه عبارات النشوة والعاطفة والهيام التي كانت تقرأها في الكتب فتبهرها!

الفصل السادس

كانت قد قرأت قصة «بول وفرجيني»، فحملت بالبيت الصغير المقام على أعواد الغاب، وبالعبد «دومينجو» والكلب «أمين». كما أحست - بوجه خاص - بتلك الصداقة الرقيقة التي نلمسها في أخ صغير يسعى ليجتلب لنا فاكهة وردية من أشجار ضخمة يفوق ارتفاعها أبراج الكنائس أو يعدو على الرمال حافياً وقد حمل إلينا عش عصفور!

ولما بلغت الثالثة عشرة من عمرها، اصطحبها أبوها إلى المدينة ليلحقها بالدير. فنزلا في فندق بحي (سان جرفيه)، حيث قدم لها العشاء في صحاف موشاة برسوم تمثل حياة «مدموازيل دي لافاليير». وكانت التفصيلات الخرافية - التي تناهت إلى أذنيها خلال صليل السكاكين عن حياة تلك الآنسة - تنطوي على تمجيد البلاط الملكي، واظهاره في إطار من التدين، ورقة المشاعر، وأبهة المنظر!

ولم تستشعر سأماً من حياتها بالدير - في الأيام الأولى - بل انها استطابت صحبة الراهبات الطيبات، اللاتي كن يعملن على التسرية عنها تلعب في أوقات الفراغ الا نادراً، إذ كانت تحرص على استذكار اصول الدين عن ظهر قلب، حتى غدت تنفرد دائماً بالإجابة على الأسئلة الصعبة الدقيقة التي كان القس يوجهها الى الفتيات!

وهكذا عاشت في جو حجرات الدراسة الدافيء لا تجاوزه، وبين أولئك السيدات الناصعات البياض، ذوات المسابح التي تتدلى منها الصلبان النحاسية. وفي رفق ولين، أخذت تستسلك لذلك الاسترخاء التصوفي الذي ينبعث من عطور المذبح، واحواض مياه التبرك، وأضواء الشموع! وكانت تشغل عن تتبع القداس بتأمل الصور الدينية المحوطة باطار سماوي اللون، في كتاب الدين، فأحبت (الحمل المريض)، و(القلب المقدس) الذي تخترقه السهام، والمسيح المسكين الذي يسقط، وهو سائر، تحت الصليب. وكانت تحاول أن تصوم عن الطعام يوماً بأكمله لتروض روحها، وتجهد رأسها في ابتداع ألوان من النذر لتعمل على تحقيقها!

وكانت حين تذهب إلى «كرسي الاعتراف» تبتكر خطايا صغيرة تزعمها لكي تطيل في فترة ركوعها في الظلال، فتصغي إلى همس القس، ويداها مضمومتان، ووجهها أمام السياج المحيط بالكرسي!! وكانت الأوصاف المجازية التي تتناول «الخطيب»، و«الزوج»، و«العاشق الالهي»، و«الزواج الأبدي»، والتي كانت تتردد في المواعظ وتثير في أعماقها نشوة غريبة!

وفي المساء، كانت الفتيات يقرأن في قاعة الاستذكار - قبل الصلاة نصوصاً دينية، كن يخترنها في أيام الاسبوع من بعض ملخصات التاريخ المقدس، أو من محاضرات الراعي «فراياسينوس» أما في أيام الآحاد، فكن يقرأن فقرات من «عبقرية المسيحية»

على سبيل الترويح وكم كانت تنصت في البداية للمراثي الربانية المفعمة بالكآبة والشجن العاطفي، والتي كانت أصداؤها تتردّد بين الأرض والابدية!!

ولو أنها عاشت طفولتها في جوف حانوت بحي تجاري، لتفتحت نفسها لنغمات الطبيع الخلابة، التي لا تسري إلينا عادة الا إذا ترجمها لنا الكتاب. ولكنها عاشت تلك الطفولة في الريف، فعرفت ثغاء القطعان، والالبان، والمحاريث! ولما كانت قد ألفت المناظر الهادئة، فقد أخذت تتجه الى نقيضها، الى المناظر المثيرة! ومن ثم لم تعد تحب في البحر إلا أنواءه، ولا تعجب بالخضرة الا منتشرة وسط الخرائب. كان لابد لها من الحصول على منفعة شخصية من الأشياء، فلم تكن ترى نفعاً لما لا تجد فيه غذاء مباشراً لقلبها، اذا كان مزاجها حسياً عاطفياً، أكثر منه فنياً. وبعبارة واحدة: كانت تبحث عن العاطفة أكثر مما تبحث عن المنظر!!

✦✦✦

وكانت تفد على الدير عانس تقضي أسبوعاً من كل شهر، تعنى خلاله بكل ما يتعلق بالملابس والأغطية. ولما كان المطران يرعاها لانتمائها إلى أسرة عريقة من أسرات النبلاء التي حطمتها الثورة، لذلك كانت تتناول الطعام في القاعة المخصصة لذلك مع الراهبات، ثم تجاذبهن الحديث قبل أن تصعد إلى عملها. وكثيراً ما كانت التلميذات يتسللن من قاعة الاستذكار الى حيث تعمل، إذ كانت تردد في همس - وهي تحرك إبرتها في القماش - بعض اغنيات غرامية من القرن الماضي، تحفظها عن ظهر قلب! وكانت تقص انوادر، وتروي الانباء، وتقضي الحاجات من المدينة، وتعير التلميذات الكبيرات - سراً - روايات كانت تحتفظ بها دائما في جيب مرولتها. ولا تكف عن «التهام» فصول طويلة منها، بين فترات عملها! وما كان أمثال الروايات ليدور إلا عن الحب والمحبين، ونساء معذبات يغُمى عليهن في خلوات منعزلة، وسياس يقتلون في كل رحلة، وخيل تنفق في كل صفحة، وغابات مظلمة، وشجون تفعم القلوب، وعهود، وزفرات، ودموع، وقبلات، وزوارق في ضوء القمر، وبلابل في الخمائل، وسادة في شجاعة الأسود ووداعة الحملان، اوتوا من الشهامة قدراً لا مثيل له، محتفظين باناقتهم دائماً، ويبكون، فتسيل دموعهم كالسيل الهتون!

وهكذا ظلت «إيما» خلال أشهر ستة من عامها السادس عشر، تنفض باصابعها الغبار عن تلك الروايات العتيقة. ثم ارشدها «والتر سكوت» - بعد ذلك - إلى التاريخ، فراحت تحلم بالاثاث والرياش، وقاعات الحرس، والشعراء الذين يغنون أشعارهم على القيثارة. وكانت تتمنى لو أنها عاشت في أحد تلك القصور القديمة التي كانت تقرأ عنها، كأولئك النبيلات ذوات الصدار الطويل، اللاتي كن يقضين أيامهن تحت الأقواس ذات الطراز القوطي، وقد اعتمدن بمرافقهن على الأحجار، واسندن ذقونهن إلى راحات أيديهن، وسرحن

البصر يرقبن مقدم فارس ذي ريشة بيضاء يركض بن الحقول على صهوة جواد أسود!.
وأنزلت «إيما» الملكة الانجليزية «ماري ستيوارت» من نفسها منزلة القداسة، وأكبرت - في حماس - النساء الشهيرات، المنكوبات: فكانت «جان دارك»، و«هليويز»، و«آنييس سوريل»، و«فيرونيير» الفاتنة، و «كليمانس هيزور». كل أولئك كن - في نظرها - كواكب في ظلمات التاريخ اللانهائية! وكانت تبرز لها من جوف الظلمات صور أخرى غامضة، مبهمة، لا رابط بينها، تمثل «سان لويس» وبلوطته التي كان يجلس تحتها، واحتضار «بايار»، وفظائع لويس الحادي عشر ولمحات من «سان بارتلمي»، وغطرسة «كونت بيارين» ثم - ودائماً - ذكرى الصحاف التي نقشت عليها صور تمجد لويس الرابع عشر!

ولم يكن في الاغنيات - التي كانت تغنيها أثناء دروس الموسيقى - سوى ملائكة صغار، بأجنحة ذهبية، وعذارى مقدسات، وقنوات يسبح فيها الجندول اغان ساذجة كانت تلمح - خلال اسلوبها الركيك وموسيقاها الضعيفة - صوراً متلاحقة للحقائق الحسية. وكانت بعض الزميلات يحمان إلى الدير ما يهدى إليهن في عيد رأس السنة من كتب أنيقة، كان اخفاؤها مشكلة عويصة!

وكن يقرأنها في «عنبر» النوم، فكانت «إيما» تقلب بين يديها - في رفق - تلك الكتب المغلقة بالحرير، ثم تقف ببصرها عند أسماء المؤلفين المجهولية الذين كان يسبق توقيعاتهم - في نهايات القصص - لقب «كونت» أو «فيكونت» وكانت تعتريها رجفة حين تنفخ في رفق لترفع الورق الشفاف عن الصور، فلا يلبث أن يتثنى ثم ينزلق مستوياً عل الصفحات!

كان بين الصور منظر يمثل سور شرفة وقف خلفه شاب في معطف قصير، يضم بين ذراعيه فتاة في ثوب أبيض، ثبتت إلى حزامها كيس الصدقات كما كانت هناك صور بعض الانجليزيات المجهولات، ذوات الشعور الشقراء، اللاتي يرمقنك من تحت قبعات الحوص المستديرة، بأعين واسعة صافية، وقد اضطجع بعضهن في عربات تنساب وسط الحدائق، يقود خيولها سياس في سراويل بيضاء، وتجري أمامها كلاب الصيد الرشيقة، بينما استقلت أخريات على الارائك مستغرقات في الأحلام، وإلى جوارهن رسائل غرام مفتوحة، وقد سرحت أبصارهن نحو القمر الذي يطل خلال نافذة أخفت نصفها ستارة سوداء! كما كانت بعض الصور تمثل فتيات ساذجات يطعمن اليمام خلال قضبان اقفاص من الطراز القوطي، وقد سال الدمع على وجناتهن، وأخريات يبتسمن وقد ملن برؤوسهن على أكتافهن، وأخذن ينثرن أوراق زهر المرجريت بأصابعهن المدببة التي تشبه مناقير الصقور!!

هذا، فضلاً عن صور تبين سلاطين يدخنون الغلايين الطويلة، وقد استلقوا تحت الخمائل مخدورين بين احضان الراقصات، ثم السيوف والرماح التركية، والقلنسوات اليونانية، وأخيراً تلك المناظر الباهتة التي تمثل بلاداً يسودها جو شاعري، فتريك في وقت

واحد النخيل وأشجار الصنوبر، ونمراً إلى اليمين، واسداً إلى اليسار، ومآذن التتر عند حافة الأفق، وخرائب الرومان في المقدمة، وابل «انيحت» بين هذه وتلك، وقد أحاطت بالجميع غابة عذراء، اجهد الرسام نفسه في ابدائها نظيفة! وقد سقط شعاع عمودي من الشمس، وأخذ يترجرج على صفحة الماء التي صبغت بلون رمادي كلون الفولاذ، وقد غشيتها خدوش بيضاء على مسافات متباعدة، تمثل البجع العائم!

وكان المصباح المعلق إلى الحائط فوق رأس «إيما» يضئ كل هذه اللوحات التي تمثل مناظر الدنيا، فتتابع أمام بصرها، و«عنبر» النوم غارق في صمت، يعكره في بعض الأحيان ضجيج يتناهى من بعيد، منبعثاً من عربة تذرع الطريق، بعد أن تقدم الليل!

وقد بكت «إيما» كثيراً في الأيام الأولى لوفاة أمها، وأوصت بصنع لوحة حزينة مطرزة بخصلة من شعر «الفقيدة». وارسلت خطاباً إلى (برتو) مليئاً بأفكار قاتمة عن الحياة، طلبت فيه أن تدفن - إذا ما حان أجلها - في المقبرة التي ضمت أمها. وجزع أبوها إذ ظنها مريضة فبادر بزيارتها، وأحست «إيما» في أعماقها بالرضى، إذ رأت نفسها تقفز فجأة إلى ذلك اللون الباهت من الحياة المثالية النادرة، التي لا تتطلع إليها النفوس التافهة!

وهكذا، ألفت نفسها تنزلق إلى ألوان الخيال «اللامارتينية» - أي التي كانت تسود مؤلفات «لامارتين» - فتنصت إلى القيثارات على البحيرات، وأناشيد البجع المحتضر، وإلى صوت سقوط الأوراق الذابلة، ورفرفة العذارى الطاهرات الصاعدات إلى السماء وإلى صوت الله يتردد في الوديان!!

وما لبث أن ملت كل هذا، ولكنها لم تشأ في البداية أن تعترف بالملل، بل استمرت في هذه الخيالات - بحكم العادة، في أول الأمر، ثم بدافع من الزهو بعد ذلك! - ولكنها وجدت السكينة تغمرها في النهاية، فلا حزن في الفؤاد، ولا تجاعيد في الجبين!

وكانت دهشة الراهبات - اللاتي أحسن الظن باستعدادها - بالغة، إذ لاحظن أن الآنسة «روو» قد أخذت تفلت من رعايتهن. والواقع أنهن كن قد سخون عليها بالطقوس والخلوات والمواعظ، واسرفن في تلقينها التبجيل الواجب نحو القديسن والشهداء، وفي إزجاء النصائح التي تستهدف اخضاع الجسد وخلاص الروح، حتى أصبحت الفتاة كالفرس التي تسحب بالعنان، ثم قدر لها أن تقف وأن يخرج العنان من بين أسنانها!

ذلك لأن تلك الروح الايجابية التي نمت في جوانحها وسط هذا النشاط الديني، تلك الروح التي أحبت الكنيسة من أجل زهورها، والأغاني بسبب كلماتها العاطفية، والأدب من أجل مثيراته الحسية. هذه الروح لم تلبث أن تمردت على أسرار الايمان، كما تمردت على ذلك النظام الذي كان يتعارض مع مزاجها، حتى أن أحداً لم يأسف لرحيلها حين سحبها أبوها من الدير. بل أن الرئيسة شكت من أنها غدت في الأيام الأخيرة قليلة الاحترام لراهبات الدير!

ووجدت «إيما» في الفترة الأولى التي تلت عودتها إلى البيت - لذة في أن تصدر الأمواكر إلى الخدم. بيد أنها لم تلبث أن ابغضت الريف، وحنت إلى الدير مرة أخرى!

وعندما وفد «شارل إلى (برتو) لأول مرة، أحست بخيبة أمل، إذ لم يسفر ظهوره عن جديد تتعلمه أو تحس به! بيد أن شوقها الملهوف إلى شيء جديد، والقلق الذي ساورها لتغير ظروفها - أو لعله الاضطراب الذي بعثه ظهور هذا الرجل - كانا كافيين لكي يحملاها على أن توقن بأنها قد أصابت أخيراً تلك العاطفة الخارقة، التي كانت تتراءى لها - حتى ذاك الحين - كعصفور كبير ذي ريش وردي، يحلق ببهاء في سماوات الشعر، عاطفة الحب! وما استطاعت حينذاك أن تتصور أن تلك السكينة الناعمة التي كانت تعيش فيها، هي، السعادة التي كانت تحلم بها!

الفصل السابع

على أنها كانت تخال أحياناً، أن الأيام المقبلة هي أجمل أيام حياتها، أيام شهر العسل، كما يسمونه! بيد أنها كانت ترى لزاماً - لكي تتذوق حلاوة ذلك «العسل» كاملة - أن ترحل إلى البلاد ذات الأسماء الرنانة، التي تتسم فيها فترة ما بعد الزواج بلذة الدعة والاسترخاء والتي يصعد المرء فيها - على مهل - طرقاً وعرة، في عربات ذات ستائر زرقاء، وهو ينصت إلى أنشودة السائس ترددها قمم الجبال، ويختلط بها رنين الأجراس الملتفة حول أعناق الماعز، وخرير الماء المتساقط، ومع غروب الشمس، يتنسم المرء - عند حواف الخلجان - عبير أشجار الليمون، حتى إذا أرخى الليل سدوله، خلا العروسان إلى نفسيهما في الشرفة يحدقان في النجوم وقد اشتبكت أصابعهما، وأخذا يرسمان الخطط للمستقبل!!

بل لقد خيل إليها أن في الدنيا بقاعاً تنبت السعادة، كما لو كانت السعادة شجرة لا تنبت إلا في تربة معينة لا نمو لها في غيرها!

ولطالما ساءلت نفسها: لماذا لم يقدر لها أن تتكيء على حافة شرفة منزل خشبي على جبال سويسرا، أو أن تحبس شجونها في كوخ باسكتلندا، مع زوج يرتدي حلة من المخمل الأسود ذات ذيل سابغ، وحذائين طريين، وقبعة مدببة، واكماماً منشاة؟! لكم تمنت لو تفضي لأحد بهذه الخواطر جميعاً ولكن، كيف السبيل إلى الافصاح عن ذلك الضيق الذي يتعذر التعبير عنه، والذي تتبدل صوره كالسحاب، ويعصف بنفسها كالرياح؟ وهكذا، كانت تعوزها الألفاظ، كما اعوزتها الفرصة والجرأة!

ومع ذلك آه، لو أراد «شارل»، لو خطر بباله، لو التقت نظراته مرة بخواطرها، إذن، لتفتح قلبها - فيما تحسب - عن فيض مفاجيء، كما تتساقط الثمار الناضجة عن الأشجار بمجرد أن تمسها الأيدي! بيد أن الأمر كان يجري على النقيض من ذلك. فكلما ازدادت الألفة بينهما، ازداد شعورها بانطواء روحي، واتسعت الهوة التي تفصلها عنه!

كان حديث «شارل» سطحياً، كسطح افريز الطريق، تمر عليه آراء الناس في لباسها العادي، فلا تثير فيه انفعالاً، أو ضحكاً، أو خيالاً! فهو لم يحس بحب الاستطلاع - كما كان يقول - يدفعه لأن يذهب الى المسرح لمشاهدة الممثلين الباريسيين، أيام كان يقيم في (روان) ولا كان يعرف السباحة، ولا استخدام السلاح، ولا اطلاق الرصاص، وعجز مرة عن أن يفسر لها عبارة من مصطلحات الفروسية، صادفتها في إحدى الروايات!

ألم يكن من الواجب أن يسير الأمر على العكس من ذلك، فيعرف الرجل كل شيء، أن يكون مبرزاً في كثير من نواحي النشاط ليدرب زوجته عليها، أن يبصر المرأة بخبايا العواطف ومتع الحياة، وبكل الأسرار؟! لقد كان «شارل» على العكس من هذا كله، فلا هو

بصرها بشيء، ولا كان يعرف شيئاً، بل أنه لم يكن يطمح إلى شيء!!

كان يظنها سعيدة، وهي في الواقه تنقم عليه هذا السكوت الخامل، وذلك الركود المطمئن، بل تنقم عليه أن حظى بتلك السعادة التي أتاحتها له!

وكان يحلو لها أحياناً أن ترسم، فكان «شارل» يجد تسلية ممتعة في أن يقف جامداً يتأملها وهي عاكفة على لوحتها، أو وهي تنعم النظر إلى الرسم وقد ضاقت حدقتاها إمعاناً في الدة، أو هي تبعث بقطعة من لباب الخبز تكورها بين أصابعها أما إذا عزفت على «البيانو»، فكان اعجابه يزداد كلما ازدادت حركات أناملها سرعة! كانت توقع النغمات في ثقة، وتجري أصابعها على المفاتيح من أعلى إلى أسفل دون توقف، فتهز أوتار الآلة القديمة، حتى ليصل صوتها إلى أقصى القرية إذا كانت النافذة مفتوحة. وكثيراً ما يحدث أن يكون محضر القرية ماراً في الطريق، فيتوقف عن السير، ويأخذ في الاصغاء وهو عاري الرأس، وأوراقه في يده!

✦✦✦

وكانت «إيما» - من ناحية أخرى - تحسن تدبير المنزل، وتكتب للمرضى رسائل لبقة تذكرهم فيها بأتعاب الاستشارات الطبية، دون أن يشتموا منها رائحة المطالبة! وعندما يصادف وجود ضيف من الجيران على مائدة الغداء - في أيام الآحاد - كانت تنتهز الفرصة لتعرض بعض آيات الأناقة في تقديم أصناف الطعام - كأن ترص أهرامات من البرقوق لى ورق العنب، أو تصوغ الحلوى في قوالب تصبها على الأطباق، بل انها أخذت تعرب عن رغبتها في شراء «سلاطين» تملأ بالماء، لتغمس فيها الأصابع بعد تناول الحلوى! وكان كل هذا مدعاة إلى رفع شأن أسرة «بوفاري» في انظار الناس!

وانتهى الأمر بشارل إلى أن ازداد تقديره لنفسه إذ وفق إلى مثل هذه الزوجة! وكان يطلع زائريه مزهواً على لوحتين صغيرتين رسمتهما «إيما» بالفحم، وصنع لها اطارين عريضين، وعلقهما إلى الحائط بشريطين اخضرين. وكثيراً ما أصبح يرى واقفاً أمام باب منزله - بعد مبارحة الكنيسة - وفي قدميه خفان بديعا التطويز يختال بهما فخوراً!

وكان في بعض الأحيان يعود إلى المنزل متأخراً - في الساعة العاشرة، وربما في منتصف الليل - فيطلب الطعام، بينما تكون الخادم قد أوت إلى فراشها، وعند ذاك كانت «إيما» تتولى اعداد المائدة له، فيخلع سترته لكي يتناول عشاءه في ارتياح، وينطلق في سرد اسماء جميع من قابل من الناس، وما زار من قرى، وما وصف لمرضاه من أدوية، ثم يأتي - وهو راض عن نفسه - على ما تبقى أمامه من «يخنى»، ويعقب بقطعة من الجبن، ثم يأخذ في قضم تفاحة، وفي افراغ ابريق النبيذ في جوفه، ولا يلبث أن يذهب إلى السرير فينطرح عليه، ويمضي في الغطيط!

وكان قد عدل عن «الطاقية» القطنية التي اعتاد لبسها في السرير، وألف أن يلف حول رأسه وشاحاً لا يكاد يستقر على أذنيه، فيصحو في الصباح وشعره متهدل، مبعثر على وجهه، وقد علق به بعض حشو الوسادة التي تكون اشرطتها قد انحلت أثناء الليل.

كذلك مان يرتدي في النهار حذاءين كبيرين، لكل منهما رقبة عالية، تعلو سطحها ثنيتان سميكتان تنحرفان نحو كعب القدم، أما وجه الحذاء فكان دائماً مستوياً في خط مستقيم، وكأنه مشدود على خشب. وكان يردد دائماً: «هذا هو النوع المناسب للريف»!

وكانت أمه تؤيده في هذا الاقتصاد، إذا ما جاءت لزيارته - كلما اشتبكت في خلاف مع زوجها - كما كانت تفعل أيام الزوجة الأولى! وكانت تبدو برمة بالزوجة الجديدة أيضاً، إذ كانت ترى اساليبها مدعاة لاسراف يفوق مستوى ثرائهم. فالخشب والسكر والشموع تستهلك بكميات تعادل ما يستهلك في البيوت الكبيرة، وكمية الجمر التي كانت تحرق في المطبخ تكفي لطهو عشرين صنفاً من الطعام! وكانت تعمد إلى ترتيب «بياضات» زوجة ابنها في الصوان، وتعلمها كيف تحاسب الجزار إذا ما أحضر اللحم، فكانت «إيما» تتقبل بصبر ما تجود به الأم من دروس! وكانت كلمتا «ابنتي» و«أمي» تتبادلان طوال النهار، مصحوبتين برعشة في الشفاه، إذ كانت السيدتان تلفظان أعذب كلمتين، بلهجة تهتز بالغضب!!

كانت الأم العجوز تشعر في عهد مدام «دوبيك» بأنها مازالت الأثيرة المفضلة لدى ابنها أما الآن، فقد بدا لها حب «شارل» لإيما بمثابة فرار من حنانها، أو عدوان على ما كان لها، فأخذت ترقب سعادة ابنها في صمت كئيب، كإنسان أفلس فراح ينظر خلال زجاج النوافذ إلى أغراب احتلوا داره القديمة. وكانت تروي له مشقاتها وتضحياتها - على سبيل الذكرى - وتقارنها باهمال «إيما» عسى أن يستنتج أن ليس من الحكمة أن «يعبد» السيدة الشابة، على هذا النحو الذي يملك عليه كل عواطفه!

ولم يكن «شارل» يدري كيف يتصرف فهو يحترم أمه، كما يحب زوجته حباً لا حدّ له وكان يعتبر أمه معصومة من الخطأ، ولكنه - مع ذلك - لم يكن يرى في مسلك زوجته مدعاة للوم! وكان يستجمع جرأته - بعد أن ترحل مدام بوفاري - فيردد في استحياء - وبنفس ألفاظ أمه - بعضاً من أهون المآخذ التي يكون قد سمعها منها. ولكن «إيما» كانت - بكلمة واحدة - تقنعه بأنه على خطأ، وترسله إلى مرضاه! ومع ذلك فقد ظلت تحاول أن تقنع نفسها بأنها تحبه وفقاً للنظريات التي كانت تؤمن بها! كانت تردد على مسمعه - في الحديقة، وفي ضوء القمر - ما كانت تحفظه عن ظهر قلب من الشعر الملتهب، وتغني له - وهي تتنهد - بعض الألحان المشجية، بيد أنها كانت تجد نفسها بعد ذلك ساكنة العواطف، كما أن «شارل» لم يكن يبدو أكثر حباً ولا انفعالاً مما كان قبل الشعر والغناء!

وهكذا لم تلبث - بعد أن قدحت زناد قلبها فلم تنبعث منه شرارة - ان انساقت إلى اقناع نفسها بأن حب «شارل» خال من الحرارة! فقد أصبحت أوقات انطلاقه وتحلله منتظمة، وهو يقبلها في «مواعيد» معينة، وكأنه يمارس «عادة» من العادات! أو كأنه يتناول حلوى

مرتقبة بعد عشاء ممل!!

وحدث أن عالج الطبيب أحد الحراس من التهاب رئوي، فأهدى الحارس زوجته كلبة ايطالية صغيرة أخذت تصحبها في نزهاتها، إذ كانت تخرج احياناً كي تخلو إلى نفسها، وحتى تريح بصرها بعض الشيء من النظر إلى تلك الحديقة العتيقة، والطريق المتربة! كانت تمضي حتى غابة الزان عند «بنفيل»، على مقربة البناء المهجور الذي تؤلف جدرانه زاوية عند منعطف الطريق المفضية الى الحقول. وهناك، وسط الأعشاب النامية في الخندق، وأعواد البوص ذات الأوراق الحادة، كانت تتأمل ما حولها لتتبين ما إذا كان قد ألم بالمكان أي تغير عما كان عليه في آخر مرة جاءته، فكانت ترى زهور «الريجتيالا» والقرنفل في نفس منابتها، والنباتات الشوكية تحيط بالأحجار الكبيرة، والطحالب على طول النوافذ الثلاث - في المبنى المهجور - التي كانت مصاريعها مقفلة باستمرار، يتسرب خلالها التراب ليتراكم على قضبانها الحديدية التي علاها الصدأ.

وكانت أفكارها لا تلبث أن تهيم غاية، مثل كلبتها التي كانت تجري في حلقات خلال الحقول، وترسل نباحها خلف الفراشات الصفراء، وتطارد الجرذان أو تعضعض الخشخاش النامي على حافة حقل القمح. ثم تأخذ أفكارها في التركيز شيئاً فشيئاً، فتردد لنفسها وهي تفترش الحشائش التي كانت تعبث بها بطرف مظلتها: «يا إلهي! لماذا تزوجت؟!»

وكانت تسائل نفسها: «أو لم تجد المصادفات طريقاً آخر تدفعها خلاله لتلقي برجل آخر؟» ثم تمضي في تخيل الأحداث التي كانت تترتب علي ذلك، الأحداث التى ل تقع، والحياة التي تغاير حياتها الحالية، والزوج الذي لم تعرفه فلا مراء في أن الأزواج ليسوا جميعاً مثل زوجها! كان من الممكن أن يكون زوجها جميلاً، مرحاً، أنيقاً، جذاباً، مثل أولئك الأزواج الذين ولابد قد حظيت بهم زميلاتها في الدير! ترى ماذا تفعل أولئك الزميلات الآن في المدينة، وسط ضجيج الشوارع، وأضواء المسارح، وصخب المراقص؟ إنهن ولا ريب يحظين بحياة يتفتح بها القلب، وتنتعش الحواس. أما هي، فإن حياتها باردة كالمخزن الذي أوتي نافذة شمالية!

والملل؟! ذلك العنكبوت الصامت الذي كان يعزل نسيجه في الظلال، في كل ركن من أركان قلبها!

وتذكرت أيام توزيع الجوائز -أثناء الدراسة- حين كانت تصعد إلى المنصة لتتسلم نصيبها من التيجان الصغيرة، وقد بدت بديعة بشعرها المجدول، وثوبها الأسود، وحذاءيها الصوفيين الخفيفين. وكان السادة ينحنون ليسمعوها عبارات التهنئة، إذا ما عادت إلى مكانها، ويطلون من نوافذ العربات التي تملأ صحن الدير ليودعوها عند انصرافها! كما كان مدرس الموسيقى يحييها إذ يمر بها حاملاً قيثارته. أواه! لكم أصبح كل هذا بعيداً آه، شد ما بعد!

◆◆◆

وكانت تنادي كلبتها «جالي» فتضعها على ركبتيها، وتمر بأصابعها فوق رأسها الصغير، وتهمس لها: «هيا قبلي سيدتك! قبليها يا من لا تثقل الهموم قلبها!»

وتأخذ في تأمل وجه هذا الحيوان الرشيق، الواجم، الذي يتثاءب في بطء، فيلين قلبها، وتروح تقارن بين نفسها وهذا الحيوان، وتحدثه بصوت مسموع، وكأنها تعزي شخصاً منكوداً!

وكانت الريح تهب أحياناً قوية، تأتي من ناحية البحر فتكتسح هضبة (كو) بأسرها، وتحمل إلى الحقول المترامية رطوبة ملحة، فيصدر من البوص صفير خافت، وهو يميل على سطح الأرض وبين أغصان الزان تسري رعشة سريعة، بينما ينبعث على قممها همس عميق، فتشد «إيما» شالها حول متفيها وتنهض منصرفة.

وكان ضوء النهار ينبعث خلال أوراق الشجر، مستعيراً لونها الأخضر، فينعكس على العشب القصير الذي يئن في رفق تحت قدميها ولا تلبث الشمس أن تجنح للمغيب، فتحمر السماء إذ تلوح بين الغصون، وتبدو جذوع الأشجار النامية بانتظام في خط مستقيم، كأنها أعمدة قائمة على صفحة من الذهب وتسري الرهبة إلى نفس «إيما» فتنادي كلبتها «جالي»، وتسرع إلى (توست)، ثم تستلقي على مقعد مريح، وتظل صامتة بقية الليل!

✦✦✦

واعترض حياتها - في أواخر سبتمبر - حادث غير عادي. فقد دعيت الى (فوبيسار) لزيارة مركيز «أندرفيلية»! ولما كان المركيز قد تولى الوزارة من قبل - عند عودة الملكية - فإنه أخذ يتطلع للعودة الى الحياة السياسية، وبكر بالتمهيد لترشيح نفسه لمجلس النواب. فكان في الشتاء يوزع الحطب، وكان في مجلس المقاطعة يطالب متحمساً باصلاح الطرق في دائرته، فلما جاء الصيف بحره اللافح، أصيب بدمل في فمه، استطاع «شارل» أن يريحه منه - بما يشبه المعجزة - بحركة من مبضعه على وجهه في الوقت المناسب!

وعندما عاد المندوب الذي أرسله المركيز إلى (توست) ليدفع أتعاب الطبيب، ذكر لسيده أن في حديقة الطبيب نوعاً ممتازاً من «الكريز» الذي نمو بذوره متعذراً في حدائق (فربيسار)، فطلب المركيز بعض «العقل»، وعني بأن يذهب بنفسه إلى الطبيب ليشكره وهناك وقع بصره على «إيما»، فلاحظ قوامها الأهيف واسترعى انتباهه أنها لا تنحني بالتحية كالفلاحات، ولم ير أي مغالاة في التواضع أو أي خرق للتقاليد، في دعوة الزوجين الشابين إلى قصره!

وفي الساعة الثالثة من أحد أيام الأربعاء، رحل السيد والسيدة «بوفاري» إلى (فربيسار) في عربة شدت إلى سطحها حقيبة كبيرة، ووضع أمام مقعدها صندوق

للقبعات، فضلاً عن أن «شارل» حمل على فخذيه صندوقاً من الورق المقوى.

ووصلا عند هبوط الليل، عندما كانت مصابيح الحدائق تضاء، لتنير الطريق للعربات.

الفصل الثامن

كان القصر مبنياً على الطراز الايطالي الحديث، يمتد منه جناحان، وله ثلاثة مداخل تفضي إلى شرفات ذات درجات. وكان يقوم في نهاية مرج واسع ترعى فيه بعض الأبقار، بين مجموعات متباعدة من الأشجار الضخمة، التي بسطت أوراقها المتفاوتة الخضرة على أحواض الورد، وأحواض الزهر المسمى بكرات الجليد، والتي انتثرت على طول الطريق الرملي المتعرج. وكان هناك جدول يجري تحت قنطرة، ومن خلال الضباب كانت تلوح مبان مفروشة بالقش، تنتثر في المروج التي حفت بها هضبتان تنحدران انحداراً هيناً، وتكسوهما الغابات. وعلى البعد، بدا وسط الأحراش صفان متوازيان من المخازن والحظائر، هما كل ما تبقى من القصر القديم المتهدم.

ووقفت عربة «شارل» أمام السلم الأوسط. فظهر الخدم، وتقدم المركيز فأعار زوجة الطبيب ذراعه وقادها إلى البهو، الذي رصفت أرضه ببلاط من الرخام، وارتفع سقفه إلى علو شاهق، فكان يتردد لوقع الأقدام والأصوات فيه صدى كالذي يتردد في الكنائس. وفي أقصى البهو يوجد سلم مستقيم، وإلى اليسار كانت ثمة شرفة تطل على الحديقة، وتؤدي الى قاعة «البلياردو» التي كانت أصوات ارتطام الكرات العاجية تنبعث خلال بابها.

وبينما كانت «إيما» في طريقها الى قاعة الاستقبال، وقع بصرها على رجال تبدو عليهم سماء الوقار والعظمة، وقد استقرت ذقونهم فوق أربطة رقابهم العالية، وكانوا جميعاً يحملون الأوسمة، ويبتسمون في صمت وهم مكبّون على مائدة «البايادرو» وفوق الخشب الداكن الذي يكسو الجدران، كانت ثمة اطارات مذهبة، نقشت على حوافها السفلى أسماء بحروف سوداء، فرأت «إيما» منها «جان انتوان دواند فيليبيه دي ايفربونفيل، كونت دي فربيسار، وبارون دي فريناي، الذي قتل في موقعة (كوترا) في ٢٠ أكتوبر سنة ١٥٨٧». وقرأت تحت اطار آخر: جان انتوان هنري جي دي اندفيليبيه دي فوبيسار، اميرال فرنسا، وحامل وسام فروسية القديس ميشيل، الذي جرح في موقعة (هوج سان فاست) في ٢٩ مايو سنة ١٦٩٢، ومات في (فوبيسار) في ٢٣ يناير سنة ١٦٩٣». أما بقية الأسماء، فلم يسهل على «إيما» تبينها، إذ كانت اضواء المصابيح المنعكسة من مائدة «البلياردو» الخضراء تلقي ظلالاً قاتمة حول القاعة، وعلى اللوحات الافقية، فتظهر التشققات التي كانت تتخلل سطحها كخطوط دقيقة. ومن خلال هذه المربعات الكبيرة السوداء، المحاطة باطارات من ذهب، كانت تبدو هنا وهناك أجزاء أكثر وضوحاً في اللوحة: جبهة شاحبة، أو عينان حادتان، أو شعر مستعار يتهدل على الأكتاف فوق ملابس حمراء، أو عقدة ربطة الساق فوق الربلة.

وفتح المركيز باب الصالون، فنهضت إحدى السيدات - وهي المركيزة نفسها -

واستقبلت «إيما » وأجلستها في مقعد إلى جوارها ، ثم أخذت تؤثرها بحديث ودي، كما لو كانت تعرفها منذ زمن بعيد! كانت سيدة في نحو الأربعين، أوتيت كتفين بديعتين، وانفاً حاداً، وصوتاً ليناً وكانت تطرح فوق شعرها الكستنائي - في ذلك المساء - شالاً من «الدانتيلا»، ينسدل على ظهرها في شكل مثلث، والى جوارها ، كانت تجلس شابة، في مقعد عالي الظهر، ورجال حليت عرى ستراتهم بورود صغيرة، وقد اشتبكوا في الحديث مع السيدات حول المدفأة.

✦✦✦

وأعد الطعام في الساعة السابعة، فجلس الرجال - وكانوا أكثر عدداً من السيدات - حول المائدة الأولى في قاعة الطعام، بينما جلست السيدات حول المائدة التي كان يرأسها المركيز والمركيزة.

وأحست «إيما » عند دخولها القاعة بجو دافيء: مزيج من أريج الزهور، والملابس الجميلة، وأبخرة اللحم، ورائحة «عش الغراب» وشموع المشاعل التي انعكست ألسنة لهيبها الطويلة على الأواني الفضية والأكواب البلورية المضلعة التي احاطتها الأبخرة بغلالة خفيفة ينبعث خلالها بريق باهت. وتناثرت الزهور على طول المائدة، واستقرت المناشف - التي طويت على شكل قلنسوات رجال الدين - على الأطباق ذات الحواف العريضة، وبرزت خلال ثناياها ارغفة بيضاوية صغيرة ورصت الفاكهة الكبيرة الحجم بعضها فوق بعض طبقات، على فراش من العشب الأخضر داخل سلال مفتوحة الجوانب، والأبخرة تتصاعد، القصير، ورباط رقبته الأبيض، وقميصه الذي وشي صدره بالدنتيلا - يمر بالطبق بين اكتاف المدعوين في وقار القضاة، ويغمزة واحدة من ملعقة بين اجزاء الصنف الذي يحمله - وقد قسمت من قبل - تقفز اليك القطعة التي تختارها! وفوق المدفأة الخزفية ذات القضبان النحاسية، كان ثمة تمثال لامرأة مدثرة حتى الذقن، تنظر في صمت من القاعة التي حفلت بالناس!

.. ولاحظت «إيما » أن كثيراً من السيدات لم يضعن قفازاتهن في أكوابهن[١]!

✦✦✦

وجلس في أقصى المائدة - وحيداً بين السيدات - شيخ انحنى على طبقه المليء وقد ربط منشفته إلى صدره كالطفل، واخذت قطرات «الصلصة» تتساقط من فمه وهو يأكل، وكانت عيناه محتقنتين بلون الدم ذلك كان والد زوجة المركيز: «دوق فردييره» المسن، الذي

(١) كانت هذه هي عادة سيدات المجتمع في فرنسا في القرن الماضي.

كان ذا خطوة لدى «كونت دارتوا» فيما مضى، أيام نزهات الصيد في (فودري) عند المركيز «دي كونفيان»، والذي قيل إنه كان عشيقاً للملكة «ماري انتوانيت» إلى جانب عشيقيها الآخرين «دي كويني» و«دي لوزون»!

وكان الدوق قد عاش حياة عربدية صاخبة، حفلت بالمبارزات والمرهنات، وبالنساء اللواتي كان يغويهن، وقد بدد ثروته، وازعج أسرته كلها!

وكان يقف خلف مقعده خادم يهتف في أذنه بأسماء الأطباق التي يشير إليها باصبعه مغمغماً في تهتهة. وأخذت عينا «إيما» ترتدان باستمرار - وبحركة تلقائية - إلى هذا الشيخ ذي الشفة المتدلية، لتحدقا فيه، وكأنه شخص فذّ جليل! كيف لا وقد عاش في البلاط الملكي، ونام في فراش الملكات!!

وكانت الكؤوس تترع بالشمبانيا المثلجة، التي كانت ترسل في جسد «إيما» كله رعدة، كلما مست شفتيها!! لم تكن قد رأت الرمان في حياتها من قبل، ولا أكلت الأناناس! بل أن مسحوق السكر الناعم بدا لها انصع بياضاً وأكثر نعومة منه في أي مكان آخر!

وما لبثت السيدات أن صعدن إلى حجراتهن ليتخذن اهبتهن للحفلة الراقصة. فعنيت «إيما» بزينتها في دقة الممثلة التي تستعد لليلة ظهورها الأول ونسقت شعرها وفقاً لنصائح الحلاق، وأخذت ترتدي ثوبها الصوفي الخفيف الذي كان مبسوطاً علي السرير، بينما كان «شارل» يشد بنطلونه إلى وسطه.

وقطع «شارل» الصمت قائلاً: «لسوف يضايقني السير الجلدي - الذي يشد الحذائين إلى البنطلون - أثناء الرقص».

فهتفت في استنكار: «الرقص؟!»

وإذ أجاب: «نعم»، قالت: «هل طاش عقلك؟ لسوف يسخرون منك! إلزم مقعدك!» ثم أردفت: «إن هذا أليق بمكانتك كطبيب»!!

ولزم «شارل» الصمت، وراح يذرع الغرفة ريثما تفرغ «إيما» من ارتداء ثيابها كان يراها من الخلف - على صفحة المرآة - بين مشعلين، وقد لاحت عيناها أشد سواداً مما عهدهما، وخصلات شعرها المتسدلة في تموج على أذنيها تلمع ببيريق أزرق، وقد ثبتت في لفافة تناثرت على أوراقها قطرات من الماء! أما ثوبها، فكان ذا لون أصفر شاحب، تحليه ثلاث باقات من ورد صناعي احيط بالخضرة.

وتقدم «شارل» فطبع على كتفها قبلة. وَرِدْ ذاك هتفت: «ابتعد عني لئلا تتلف اتساق ملابسي!»

✦✦✦

وسمعت «إيما» انغاماً من قيثارة، ودوي بوق، فهبطت السلم وهي تمسك نفسها بعناء عن الجري، وكانت حلقات الرقص الرباعي قد بدأت، وأخذ المدعوون يتدافعون، فجلست في مقعد مستطيل الى جوار الباب.. حتى إذا انتهت الرقصة، خلت الحلبة إلا من رجال أخذوا يتحدثون وهم وقوف، والخدم يروحون ويغدون في زيهم الرسمي وقد حملوا الصحاف الكبيرة. وعلى طول الصف الذي ضم النساء، كانت المراوح تهتز، وباقات الورد تحجب جانباً من الوجوه الباسمة، وقنينات العطر ذات الأغطية الذهبية تدار في الأيدي التي شفت قفازاتها البيضاء عن أناملها، وضغطت على معاصمها. وكان وشي «الدانتيلا» والمشابك الماسية، والاساور ذات الزوائد المدلاة، يتأرجح فوق الأثواب، ويلمع فوق الصدور وحول الأذرع العارية!.. وكان الشعر المصفف بعناية فوق الجباه، والمعقود في مؤخرات الرؤوس، يحمل زهور الفل او الياسمين أو الرمان أو البازلاء، أو السنابل التي عقدت على شكل تيجان أو عناقيد أو أغصان.. وكانت الأمهات يجلسن ساكنات بوجوه عابسة، تتوج رؤوسهن عمائم حمراء!

وخفق قلب «ايما» قليلاً عندما تقدمت تتخير لنفسها مكاناً في الصف، انتظاراً لحركة قوس عازف القيثار، ايذاناً ببدء الرقص، وقد أمسك زميلها بأطراف أناملها. وما أن انسابت الانغام حتى زايلها الانفعال، فتحركت إلى الأمام على إيقاع الموسيقى وهي تهز رقبتها هزاً خفيفاً، وأخذت ترتسم على شفتيها ابتسامة، تزداد اتساعاً كلما أبدع عازف القيثار، حين ينفرد بالعزف أحياناً وتكف الآلات الأخرى عن مشاركته!.. كانت نغماته رقيقة، هادئة، حتى ليمكن معها سماع رنين الجنيهات الذهبية على الجوخ الأخضر، فوق موائد الميسر في الغرفة المجاورة، ثم لا تلبث الفرقة الموسيقية أن تعود إلى العزف المشترك فجأة، ويرسل البوق أنغامه الزنانة، فتدق الأقدام في إيقاع، وترفرف اطراف «الجونلات» وتتلامس، بينما تتشابك الأيدي ثم تفترق، والعيون التي تغض عنك لا تلبث أن تعود الى التحديق في عينيك!

وكان ثمة نحو خمسة عشر رجلاً، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والاربعين، ينتشرون بين الراقصين، أو يتبادلون الأحاديث عند الأبواب، وقد امتازوا عن الباقين – على تباين أعمارهم وزيناتهم وأشكال وجوههم – بسماء عراقة الأصل! وكانت ثيابهم البديعة الصنع تبدو أرق نسيجاً من سواها، وشعورهم تنسدل على الاصداغ في تموجات، وهي تلمع بأطيب الدهون! وكانت لهم بشرة المترفين، بشرة بيضاء، يزيدها رواء ما ينعكس عليها من جو الحجرة وما فيها من خزف شاحب، وحرير يتموج، وأثاث جميل لامع! بشرة يضفي عليها رونق الصحة نظام دقيق في التغذية! وكانت رقابهم تتحرك في يسر فوق أربطة منخفضة. وكانوا يمسحون شفاههم بمناديل طرزت عليها حروف أسمائهم، وتتضوع بشذى مختلف العطور! وبينما كانت امارات الشباب تبدو على من ناهز منهم الشيخوخة، كانت وجوه الشبان منهم تتسم بمسحة من نضوج، أما نظراتهم غير المكترثة، فكانت تنطق بهدوء حدة الشهوات التي تجد كل يوم رأ واشباعاً! ومن خلال حركاتهم الرشيقة، كان ينبثق

ذلك الاعتداد الذي يولده اعتياد السيطرة على ما في اليد من أشياء، كما هو الحال في رياضة الخيل الأصيلة، ومصاحبة الغواني!

وعلى بعد ثلاث خطوات من «إيما»، أخذ أحد فرسان حلبة الرقص - وكان في ثياب زرقاء - يتحدث عن ايطاليا، إلى شابة شاحبة اللون تتحلى بالآلىء. وراحا يعبران عن اعجابهما بضخامة أعمدة كنيسة القديس برس، والتريفولي، وبركان فيزوف، والكاستلاماري، والكاسين، وورود جنوا، والكوليزيوم في ضوء القمر!

وبالاذت الثانية، أخذت «إيما» تنصت إلى حديث زاخر بألفاظ لم تكن تفقهها.. إذ أحاطت جماعة بشاب غض كان جواده قد فاز في سباق الاسبوع الماضي، وكسب ألفي جنيه في مباراة للقفز فوق حفرة في انجلترا وكان بعض أفراد الشلة يشكون من ازدياد أوزان بعض خيولهم، بينما كان فريق آخر يشكو من أخطاء مطبعية حرفت أسماء جيادهم في الصحف!

✦✦✦

ونقل جو المرقص، وأخذت أضواء المصابيح تخفت، والجمع ينصرف إلى قاعة «البليارد».. وصعد خادم فوق مقعد فكسر لوحين من الزجاج. واذ أدارت مدام «بوفاري» رأسها على الصوت، لمحت خلال النافذة وجوه الفلاحين في الحديقة تتطلع إلى ما يجري بداخل القصر، فتذكرت (برتو)، وعادت الى مخيلتها صور المزرعة، والبحيرة، وأبيها تحت أشجار التفاح مرتدياً قميصه! بل انها رأت نفسها - كما كانت في الماضي - تنتزع القشدة بأصابعها من قدور اللبن! غير أن حياتها الماضية - التي كانت واضحة المعالم حتى تلك اللحظة - سرعان ما تلاشت عن آخرها في بريق ساعتها الراهنة، حتى كادت ترتاب في أنها عاشتها يوماً! ولم تعد تعيش إلا في حلبة الرقص، بينما كانت الظلال تلف ما عداها. وأخذت تتناول المثلجات في كأس مطعمة بالذهب امسكتها بيسراها، وراحت تسبل جفنيها وهي ترفع الملعقة إلى فمها!

وكانت إلى جوارها سيدة تركت مروحتها تسقط، ثم قالت لأحد الراقصين وهو يمر بها: «هل لك يا سيدي أن تتفضل بالتقاط مروحتي التي سقطت وراء هذه الأريكة» وانحنى السيد، وفيما كان يلتقط المروحة، لمحت «إيما» السيدة تلقي في قبعته بشيء أبيض مطوي على شكل مثلث. وما لبث السيد أن قدم المروحة باحترام إلى السدة، فشكرته بهزة من رأسها، وتحولت تنشق عبير باقة من الزهور كانت تحملها!

وبعد وجبة العشاء - التي حوت الكثير من نبيذ اسبانيا، ونبيذ الراين، وحساء السمك، وحساء اللوز، وعصيدة جبل طارق، وشتى أنواع اللحم البارد المحوط بالجيلاتين - أخت العربات ترحل تباعاً، وأضواء مصابيحها تبدو - من خلف الستائر الحريرية -

مترنحة في جوف الظلام. وبدأت المقاعد تخلو، غير أن بعض المقامرين تخلفوا، وراح الموسيقيون يعلقون أطراف أصابعهم ليربطوها، واستسلم «شارل» إلى شبه اغفاءة وقد أسند ظهره إلى أحد الأبواب.

وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، بدأ رقص «الكوتيون». ولم تكن «إيما» على دراية برقصة «الفالس»، بينما راحت بقية الحاضرات - حتى مدموازيل دي اندفيلييه والمركيزة نفسها - يرقصنها، ولم يكن قد بقي غير اثني عشر شخصاً تقريباً هم نزلاء القصر. على أن أحد راقصي «الفالس» - وكان شاباً يرتدي صداراً واسع الفتحة يلتصق بصدره كالقالب، ويدعوه القوم بلقب «الفيكونت» - تقدم من مدام «بوفاري» يدعوها لمراقصته، مؤكداً لها أنه سيرشدها فلا تلبث أن تتقن الرقصة!

وشرعا يرقصان في بطء، ثم ازدادت السرعة. وأخذا يدوران فيدور معهما كل ما حولهما من مصابيح، وأثاث، وجدران، وارض! وعندما مرا على مقربة من ابباب، التف ذيل ثوبها حول بنطلونه، فتداخلت أرجلهما، وخفض بصره نحوها. ورفعت هي بصرها نحوه. وعلى الفور أحست بدبيب محذر يسري في أعصابها! وتوقفا عن الرقص لحظة، ثم استأنفاه. وإذا «الفيكونت» يقود «إيما» بحركة رشيقة إلى نهاية البهو، حيث اختفى معها. وكانت قد أوشكت أن تسقط لاهثة الانفاس، فأسندت رأسها هنيهة إلى صدره، عاودا الدوران في حركة أهدأ من ذي قبل، حتى عاد «الفيكونت» بها إلى مكانهما الأول، فتهالكت على مقعد بجوار الحائط، وغطت عينيها براحتيها!

وعندما فتحت عينيها من جديد، رأت سيدة تجلس على مقعد في منتصف الصالون، وقد انحنى أمامها ثلاثة من الراقصين يتنافسون على الفوز بها زميلة في الرقص. ولم تلبث السيدة ان اختارت «الفيكونت» وعادت القيثارة إلى العزف، واتجهت الانظار إلى الراقصين اللذين أخذا يروحان ويجيئان، وجسم السيدة ثابت في استقامته، وذقنها منكسة إلى اسفل. كذلك كان الفيكونت مشدود القامة، مقوس الذراع، وقد رفع رأسه. ولم يكن ثمة شك في أن السيدة تجيد «الفالس» وقد استمرا في الرقص وقتاً طويلاً حتى انهكا بقية الراقصين!

✦✦✦

وانتهى الرقص، ودار الحديث لبضع دقائق، ثم تبادل القوم تحيات الوداع، أو بالأحرى تحيات الصباح، ثم انصرف نزلاء القصر إلى مخادعهم.

وصعد «شارل» السلم وهو يجر نفسه جراً، وقد كادت ساقاه تعجزان عن حمله، بعد أن ظل واقفاً خمس ساعات متوالية يشاهد لعب الورق دون أن يفقه منه شيئاً! وتنفس الصعداء حين حرر قدميه من حذاءيهما!

أما «إيما»، فقد لفت كتفيها بالشال، وفتحت النافذة على حافتها.

كان الليل دامساً، والمطر يتساقط رذاذاً، وأخذت «إيما» تستنشق - في نهم - الهواء الرطب الذي أرسل فى كيانها انتعاشاً. وكانت موسيقى الرقص ما تزال تطن في اذنيها، وجهدت لتظل ساهرة، كي تمكن خيالها من أن ينعم، أول وقت ممكن، بالحياة المترفة التي لم يكن بد من تركها عما قليل!

وبزغ الفجر، فرمقت نوافذ القصر بنظرات طويلة، محاولة أن تتصور ما كان يجري في مخادع اولئك الذين لفتوا نظرها في الليلة السالفة، وكأنها تود لو عرفت حياتهم، وتسللت إليها! ثم فطنت إلى أنها كانت ترتعش من البرد، فخلعت ثيابها، واندست تحت الأغطية إلى جوار «شارل»، الذي كان قد استغرق في النوم!

وفي اليوم التالي، حضر الغداء عدد كبير، ولكن جلوسهم إلى المائدة لم يتجاوز عشر دقائق وادهش الطبيب أن لم تقدم خلال الوجبة من الخبز في سلة لتحملها إلى البجع في بركة الماء، بينما انصرف القوم للنزهة في البيوت الزجاجية التي اعدت لانماء نباتات المناطق الحارة! وكانت ثمة نباتات غريبة ملبدة بالزغب، صفت على شكل اهرامات، تحت اصص معلقة تشبه أوكار الأفاعي، تدلت من حوافها اشرطة طويلة من الورق الأخضر المتشابك. وكان بستان البرتقال القائم في طرف الحظائر يمتد في طريق مسقوف حتى مرافق القصر.

وقاد المركيز زوجة الطبيب الشابة الى حظائر الخيل، على سبيل التسلية وقتل الوقت وكانت ثمة لافتات من الخزف، فوق المذاود الشبيهة بالسلال، تحمل الخيول بحروف سوداء، وكانت كل دابة تتحرك في مأواها، وتقعقع بلسانها، عندما يمر أحد على مقربة منها، وبدت أخشاب أرض الحظائر لامعة كأنها أرضية صالون، وكانت اطقم العربات مصفوفة في الوسط فوق عامودين ملتفين، بينما رتبت الأعنة والسياط والسلاسل في خط مستقيم على طول الحائط.

وفي تلك الأثناء، ذهب «شارل» يرجو خادماً أن يعد عربته التي كانت قد اقتيدت إلى المدخل، حتى اذا حملت إليها الحقائب، قدم الزوجان «بوفاري» تحياتهما إي المركيز والمركيزة، ثم استقلا العربة عائدين إلى (توست).

✦✦✦

راحت «إيما» ترقب في صمت العجلات وهي تدور، بينما كان «شارل» يقود العربة وقد جلس على حافة المقعد منفرج الذراعين، والجواد الصغير يخب بين ذراعي العربة الخشبيتين، والعنان المرتخي يضرب عجز الحصان فيبتل بالزبد، بينما كان الصندوق الذي ربط خلف العربة يرتطم بجدارها في ضربات منتظمة.

وعندما وصلا إلى مرتفعات (تيبورفيل)، مر أمامهما فجأة عدد من الفرسان

يتضاحكون ولفافات السيجار في أفواههم، وخيل لإيما أنها تعرفت بينهم على «الفيكونت» فالتفتت، غير أنها لم تر في الافق سوى رؤوس تتحرك في ارتفاع وانخفاض، مع حركات الخيل في عدوها وخببها.

وما أن قطعا نصف الفرسخ حتى اضطر الى الوقوف، كي يصلا بالحبال ما انقطع من «السير» الذي يربط الجواد الى العربة. وفيما كان «شارل» يلقي نظرة أخيرة على الطاقم بعد أن أصلحه، لمحبين أقدام الجواد - على الارض - حافظة سيجار من الحرير الأخضر المطرز، يتوسطها شعار ينم عن أنها لشخص من ذوي الألقاب، فقال: «إن بها سيجارين، سأدخنهما بعد العشاء الليلة».

فتساءلت «إيما»: «اذن فأنت تدخن؟»

قال: «أحياناً. عندما تسنح فرصة لذلك».

ووضع «غنيمته» في جيبه، ثم هوى بسوطه على ظهر الجواد الذي اندفع بالعربة.

ولم يجدا العشاء معداً حين بلغا داراهما، فاحتدت «إيما» ولما اجابتها الخادم «نستازي» في قحة، صاحت بها:

- اخرجي من هنا! هذه وقاحة مشينة! أنت مطرودة من هنا! وتحولت تعد العشاء بنفسها، وكان يتكون من حساء بالبصل، وقطعة من لحم العجول. وجلس شارل أمام «إيما» يفرك يديه ويقول في غبطة: «ما امتع المرء أن يعود إلى داره!»

وتناهى إليهما صوت «نستازي» وهي تبكي، وكان «شارل» ينزل الفتاة المسكينة من نفسه منزلة طيبة، إذ شاطرته الأمسيات الطويلة التي مرت به أيام حزنه، كما كانت أول من عرفه من أهل المنطقة، حين بدأ يمارس مهنته فيها، فلم يلبث ان سأل زوجته: «أحقاً طردتها؟».

وردت «إيما» في حنق: «اجل، من يمنعني من ذلك؟!»

وبعد العشاء، التمسا الدفء في المطبخ، حيث أخذ شارل يدخن وهو يمط شفتيه ويبصق في كل لحظة، ويضطجع في استمراء عند كل نفثة دخان! فما لبثت «إيما» أن قالت له في استهجان: «لسوف تؤذي نفسك»! ومن ثم وضع السيجار جانباً، ثم جرى إلى المضخة - «الطلمبة» - ينشد كوباً من الماء البارز، وإذا ذاك تناولت «إيما» حافظة السيجار فقذفت بها في قاع الصوان.

✦✦✦

ولاح لها اليوم التالي طويلاً، فزخذت تتمشى في حديقتها الصغيرة جيئة وذهاباً، متوقفة من آن إلى آخر امام الأحواض أو عرائش الكروم او تمثال القش المصنوع من الجص،

تتأمل في دهشة هذه الأشياء القديمة التي ألفتها وعرفتها من قبل، لكم لاحت لها ليلة الرقص بعيدة! ترى منذا الذي أقام هذا الحاجز الكبير بين صباح أمسها ومساء يومها؟! لقد تركت رحلتها إلى (فوبيسار) ثغرة في حياتها كتلك الثغرات الواسعة التي تخلفها العاصفة في الجبال احياناً، في ليلة واحدة!

على انها تقبلت الواقع في استسلام، وطوت في وجوم ثيابها الجميلة داخل الصوان، وبينها حذاءاها الحريريان، وقد أصفر نعلاهما من أثر الشمع الذي كانت تنزلق عليه فوق أرض حلبة الرقص!. تماماً كما انطبع في قلبها - بعد احتكاكه بالثراء - أثر لا يزول!

وهكذا غدت ذكرى تلك الليلة الراقصة شغلها الشاغل، فكانت - حين تستيقظ في صباح الأربعاء من كل اسبوع - تهمس لنفسها: «آه! لقد انقضى عليها أسبوع، مضى اسبوعان، مرت ثلاثة أسابيع، منذ كنت هناك!» وشيئاً فشيئاً، أخذت معالم الحفلة تختلط وتتداخل في ذاكرتها، فنسيت ألحان الرقص، ولم تعد تذكر الملابس والحجرات في وضوح، فقد ذهبت بعض التفصيلات، وبقيت لها الحسرة!

الفصل التاسع

كثيراً ما كانت «إيما» تسعى إلى الصوان - إذا ما غادر «شارل» المنزل - فتخرج حافظة السيجار الحريرية الخضراء من ثنايا الثياب التي دستها بينها، وتروح تتأملها، وتفتحها، بل انها كانت تتنسم رائحة بطانتها التي جمعت بين العطر والتبغ! ترى لمن كانت تلك الحافظة؟ أتراها كانت للفيكونت؟! لعلها هدية من عشيقته نسجتها وطرزتها على إطار من خشب الورد، لتكون تحفة صغيرة يحتفظ بها بعيداً عن أعين الفضوليين جميعاً! ولعل الحائكة الحالمة شغلت بصنعها ساعات طوالاً، كانت خصل من شعرها تتهدل خلالها على النسيج، ولابد أن نسمة من الحب سرت بين خيوط الرقعة، والفتاة تثبت مع كل غرزة من إبرتها أملاً أو ذكرى! كأن الخيوط الحريرة في امتدادها وتقاطعها، انعكاس لما كان في فؤادها من هيام صامت! حتى إذا فرغت منها في النهاية، حملها «الفيكونت»! ترى فيم كان يدور الحديث حين كان يضع هذه الحافظة فوق المدفأة ذات الإطار العريض بين أصص الزهور وساعات «بمبادور» البندولية! وكانت «إيما» ترتد من هذا الحلم إلى التفكير في نفسها. ها هي ذي في (توست) و«الفيكونت» في باريس، بعيداً! ترى كيف تكون باريس؟ يا للاسم الضخم! وراحت تردده لنفسها هامسة، وهي تستشعر متعة في تكراره! كان يرن في أذنيها رنين ناقوس الكنيسة، بل بدا كما لو كان يبعث شعاعاً يترامى حتى يصل إلى البطاقات الصغيرة الملصقة على علب الدهان والمساحيق! وكان صيادو السمك يمرون في الليل تحت نوافذ الدار، وهم يرددون اناشيدهم، فكانت تستيقظ من نومها، وتصغي إلى قرقعة العجلات الحديدية حتى يتلاشى ضجيجها في النهاية، بعد أن تبارح العربات البلدة، وعندئذ تحدث نفسها قائلة: «لسوف يصلون إليها غداً!». وكانت تتابعهم بخيالها، وهم يصعدون الربى، ويهبطون الوهاد، ويجتازون القرى، وينسابون في الطريق العريض الممتد تحت أضواء النجوم، ولا تلبث، بعد مسافة لا تدري مداها، أن تجد نفسها في مكان غامض ينتهي عنده حلمها! وابتاعت خريطة لباريس، فكانت تتابع معالمها بأصبعها وتقوم بجولات وهمية في احيائها: تسير في الشوارع الكبيرة، وتقف عند الأماكن التي تتقاطع عندها خطوط الشوارع أمام المربعات البيضاء التي تمثل المنازل، حتى إذا كانت عيناها، اطبقت جفنيها، وإذ ذاك، كانت ترى على صفحة الظلام صور المشاعل والرياح تعبث بألسنتها، وأبواب العربات تفتح في صخب أمام ابهاء المسارح! واشتركت في صحيفة «لاكوربي» -النسوية- ومجلة «سيلف» أي «حوريات الصالونات» -الاجتماعية- وأخذت تلتهم ما كان ينشر فيهما، دون أن تغفل كلمة من انباء حفلات العرض الأول للمسرحيات، وحفلات السباق والسهرات. وكانت تهتم بظهور مغنية جديدة، أو بافتتاح متجر! وأخذت تتعرف على الأزياء الحديثة، وتحفظ عناوين أمهر الحائكين والحائكات، والأيام التي اعتاد المجتمع الباريسي أن يخرج فيها للنزهة في الغابة، أو

للسهر في الاوبرا. وراحت تدرس في «أوجين سوية» أوصاف الأثاث، وقرأت لبلزاك وجورج صاند وهي تنشد اشباعاً وهمياً لمطامعها الشخصية! وبلغ من شغفها هذا، أن كانت تحمل كتابها معها إلى المائدة وتقلب صفحاته، بينما يكون «شارل» منهمكاً في الأكل والحديث. وكانت ذكرى «الفيكونت» لا تفتأ تعاودها أثناء قراءاتها، فتقارن بينها وبين الشخصيات التي تصادفها في الروايات. على أن الدائرة التي كانت تحيط بشخصيته راحت تتسع شيئاً فشيئاً، وأخذت هالة الرواء، التي احاطته بها، تفارقه رويداً لتمتد إلى مسافات أبعد، حيث تضيء احلاماً أخرى! وهكذا باتت «إيما» ترى باريس أكثر اتساعاً من المحيط، وقد راحت تتألق أمام أعينها في جو قرمزي!

✦✦✦

على ان ألوان الحياة المصطخبة في هذا الخضم، كانت - عند «إيما» - مقسمة إلى أجزاء، ومرتبة في لوحات متباينة، ولم تكن «إيما» تتبين من العوالم التي تضمها باريس سوى اثنين أو ثلاثة تطغى على ما عداها، كما لو كانت الإنسانية برمتها تتمثل فيها وحدها: دنيا السفراء، يخطرون فيها فوق أرض لامعة، في صالونات كسيت جدرانها بالمرايا، ويجلسون حول موائد بيضاوية مغطاة بمفارش من المخمل المزركش بالقصب! وفي هذا العالم أثواب ذات ذيول جرارة، وأسرار خطيرة، ومآس تختفي وراء الابتسامات! ويلي ذلك عالم الدوقات، حيث تكتسي الوجوه شحوباً، ويستيقظ الرجال في الساعة الرابعة! وترتدي النساء - أولئك الملائكة المساكين - «جونلات» وشيت ذيولها بالنقوش المطرزة، بينما يمتطي الرجال - أولئك الذين أوتوا كفايات مجحودة تتوارى خلف مظاهر تافهة - جيادهم، ويندفعون بها، حتى الموت، في سبيل التسلية، ويذهبون إلى مصيف (باد) لقضاء فصل الصيف، ثم يتزوجون في النهاية - إذا ما بلغوا الأربعين - من النساء الوارثات! وفي قاعات المطاعم التي تقدم العشاء بعد منتصف الليل، يضحك - في ضوء الشموع - جمهور مختلط الألوان من رجال الأدب والممثلات، قوم مسرفون كالملوك، تمتلئ نفوسهم بأنواع الطموح المثالي، والهذيان الخارق! وتختلف حياتهم عن حياة الآخرين، فهي معلقة بين الأرض والسماء، في غمرة العواصف، حياة فيها شيء من السمو!

أما ما عدا هذه من عوالم، فقد كان في نظر «إيما» مضيعاً، تائهاً، لا مكان له ولا وجود!

وكانت «إيما» من أولئك اللاتي يزهدن في أقرب الأشياء إليهن. فكلما قربت الاشياء منها، ازدادت نفسها عنها أزوراراً. فكل ما يحيط بها مباشرة: من ريف ممل، وبورجوازية ضئيلة حمقاء، وحياة زرية... كل هذه كانت تلوح لها أشياء شاذة، ومصادقات خاصة «تورطت» فيها، بينما كان يمتد خلفها جميعاً - وإلى ما لا نهاية - عالم اللذات والانفعالات!

واختلطت في أحاسيسها لذات البذخ المادية بمسرات القلب، ورقي العادات برقة المشاعر، أفلا يحتاج الحب - كما تحتاج نباتات الهند - إلى تربة معينة ودرجة حرارة خاصة؟ فالزفرات في ضوء القمر، والعناق الطويل، والدموع التي تنهمر عل الأيدي المستسلمة، وحمى الجسد، ورقة الحنان... كل هذه أمور لا انفصال لها عن شرفات القصور الكبيرة المليئة بأوقات الفراغ، ولا عن المخادع ذات الستائر الحريرية، والطنافس السميكة، وأحواض الزهور، والأسرة المقامة على منصات مرتفعة عن سطح الأرض، وبريق الأحجار الكريمة، وأشرطة ازياء الخدم!!

✦✦✦

وكان السائس يفد كل صباح ليعنى بالفرس، فيعبر المدخل في حذاءيه الخشبيين الكبيرين - اللذين يضمان قدميه العاريتين - وسترته التي تتخللها الثقوب، وسرواله القصير الذي لم تكن ثمة حيلة سوى الاكتفاء به! فإذا انتهى من عمله، انصرف إلى حيث لا رجعة له بقية النهار، إذ أن «شارل» كان يتولى بنفسه - عند عودته - إيواء الفرس في الحظيرة، ورفع سرجها عنها، بينما تحمل إليها الخادم حزمة من القش ترميها في المذود كيفما اتفق!

وكانت «نستازي» قد غادرت (توست) أخيراً، وهي تذرف الدمع مدراراً، فاستعاضت «إيما» عنها بفتاة في الرابعة عشرة، يتيمة، مليحة القسمات. وحظرت عليها لبس «الطاقية» القطنية، وعلمتها كيف تخاطبها في احترام، ودربتها على أن تحمل كوب الماء في طبق، وأن تطرق الباب قبل الدخول، وأن تكوي الثياب وتكسبها بالنشاء استواء، وأن تساعدها على ارتداء ثيابها. كل ذلك لأنها أرادت أن تجعل منها وصيفة لها!

واعتادت الخادم الجديدة أن تطيع في غير تذمر حتى لا تطرد! وإذ كانت السيدة قد ألفت أن تترك المفتاح في «البوفيه»، فإن «فيليسيتيه» - الخادم - كانت في كل مساء تأخذ قطعة صغيرة من السكر لتأكلها، حين تخلو إلى نفسها في فراشها، بعد أن تؤدي الصلاة! أما في الفترات التي كانت السيدة تلتزم فيها مخدعها في الطابق العلوي - بعد ظهر كل يوم - فكانت الفتاة تسعى أحياناً إلى السياس الموجودين في المبنى المواجه للمنزل فتجاذبهم الحديث!

وكانت «إيما» في تلك الفترات ترتدي «روب دي شامبر» مفتوحاً، تكشف قلابات صدره العريضة عن صدار ذي ثنيات وثلاثة أزرار ذهبية، يضم أطرافه حول الخصر حزام كالحبل المجدول، ينتهي بكرات كبيرة ذات «شرابات». أما قدماها، فكانت تغيبهما في خفين - «بانتوفلي» - في لون الرمان، تنتشر على سطحيهما أشرطة عريضة.

وابتاعت أوراقاً للكتابة، وأوراق نشاف، وريشة، ومظاريف وورقاً للرسائل، وأن لم

يكن ثمة من تكتب إليه! وكانت تنفض الغبار عن الرف، وتتطلع في المرآة، ثم تتناول كتاباً فلا تلبث أن تراودها الأحلام بين سطوره فتشغل عنه ويسقط بين ركبتيها! وأخذت تتوق إلى القيام برحلات، أو إلى العودة للدير كي تعيش فيه! كانت تتمنى المتناقضات في آن واحد: أن تموت، وأن تعيش في باريس!

أما «شارل»، فكان ينطلق على جواده خلال الطرق الفرعية - المفضية إلى المزارع والقرى - تحت المطر والجليد، يأكل «العجة» على موائد الريف، ويدس يديه في الأسرة الرطبة التي يرقد فيها المرضى، ويتلقى على وجهه رشاش الدم الدافئ المنبثق من الفصاد، ويسمع الحشرجات، ويفحص البطون، ويرفع الثياب القذرة عن أجساد المعلولين! لكنه كان يجد في كل مساء ناراً مستعرة، ومائدة معدة، وأثاثاً مريحاً، وزوجة في أبدع زينة، تتضوع بأريج عطر كان يحار في التكهن بمكانه: أهو قميصها، أم بشرتها ؟!

وكانت تفتنه بمبتكراتها، التي كانت تتمثل حيناً في مظلات جديدة من الورق تصنعها لتضعها فوق الشمعدانات، وتتمثل حيناً آخر في ثنية تغير موضعها في ثوبها، أو في اسم مبتكر للون بسيط من الطعام اخفقت الخادم في صنعه، فلا يصد اخفاقها «شارل» عن التهام الصنف حتى يأتي عليه!

ورأت «إيما» في (روان) سيدات يحطن ساعاتهن بعقود من الحلي الزائفة، فابتاعت حلياً زائفة! ورأت أن تزين رف مدفأتها بآنيتي زهور كبيرتين من الزجاج الأزرق، لم تلبث أن ضمت إليهما صندوقاً من العاج لأدوات الحياكة، و«كستباناً» من العقيق! وكان «شارل» كلما ازداد عجزاً عن فهم كنه أسباب تلك الأناقة، ازداد انصياعاً لسحرها، إذ كانت تضفي على حواسه لذة، وعلى داره رواء، وكأنها غبار ذهبي ينتثر على طول طريق حياته الضيق!

وغدت صحته طيبة، ووجهه مشرقاً، وشهرته مستقرة منيعة! كان الريفيون يحبونه لأنه لم يكن متغطرساً بل كان يداعب اطفالهم! ولم يكن يغشى الحانات، وكان في خلقه - فوق ذلك - ما يوحي بالثقة والطمأنينة وقد نجح - بوجه خاص - في علاج نزلات البرد والأمراض الصدرية! والواقع أن «شارل» كان يخشى دائماً أن يقتل مرضاه، ولذلك لم يكن يوصي لهم إلا بالأدوية المهدئة للألم!! وكان يوصي - بين آن وآخر - بشراب مقيئ، وبحمام القدم، وباستخدام العلق (الدود) الذي يمتص الدم الفاسد، وكان يسرف في فصدهم بالعلق في سخاء، وكأنهم جياد! أما في اقتلاع الأضراس، فقد كانت له قبضة حديدية!

✦✦✦

وحتى يظل على دراية بما يستحدث في الطب، اشترك في مجلة «الخلية الطبية» بعد أن تسلم اعلاناً عنها. وكان يقرأ فيها بعض الوقت عقب العشاء، ولكن دفء الغرفة،

والاسترخاء الذي يدب في الجسم أثناء عملية الهضم، كانا لا يلبثان أن يسلماه إلى النوم بعد خمس دقائق، فيظل مسترخياً، وذقنه معتمدة على يديه، وشعره متهدل - كالعرف - حتى أسفل المصباح، و«إيما» ترقبه، ثم تهز كتفيها! لماذا لم تحظ بزوج ولو من أولئك الذين يقضون الليل بين الكتب، ويحملون في النهاية - إذا ما بلغوا الستين، سن «الروماتيزم» - وساماً على شكل الصليب، فوق بزاتهم السوداء؟ لكم كانت تشتهي أن يغدو اسم «بوفاري» ذائعاً، وأن تراه معروضاً عند باعة الكتب، تردده الصحافة، وتعرفه فرنسا بأسرها!

بيد أن «شارل» لم يكن يعرف الطموح ابداً!

ولقد حدث أن اهانة يوماً طبيب من (ايف تو) - اجتمع معه للتشاور - أمام فراش مريض، وعلى مسمع من أقاربه المحيطين بهما، فلما روى الحادث لإيما في المساء، ثارت في حنق على ذلك الزميل إلى درجة جعلت «شارل» يتأثر بالفعل، ويقبلها في جبينها وهو دامع العينين. ولكنها كانت تغلي لفرط احساسها بالخزي لما ناله، حتى لقد ودت لو تضربه! ولكنها لم تملك إلا أن تسير إلى الردهة فتفتح النافذة لتعب الهواء العليل حتى تهدأ سورتها، وأخذت تعض شفتها وتردد في صوت خفيض: «يا له من رجل مسكين! يا له من رجل مسكين!»

والواقع أن ثورتها كانت ضد زوجها بالذات، فقد أخذت حركاته وتصرفاته تغلظ بتقدم السن. كان يلهو - عند تناول الحلوى - بتقطيع سدادات الزجاجات الفارغة، وكان بعد الأكل يلعق أسنانه بلسانه، كما كان يرشف الحساء بصوت منكر، ولما كانت البدانة قد اصابته، فإن وجنتيه المنتفختين دفعتا بعينيه الصغيرتين إلى أعلى نحو الصدغين!

وكانت «إيما» تسوي له أطراف صداره الحمراء في بعض الأحيان، وتصلح من وضع رباط عنقه، أو تطوح جانباً بقفازين قذرين يهم باستعمالهما. والواقع أنها لم تكن تفعل ذلك من أجله - كما كان يخال - وإنما كانت تفعله من أجل نفسها، وبدافع من اثرتها وتوتر من أعصابها! وكانت تحدثه أحياناً عن شيء مما تقرأ، كفقرة من رواية أو مشهد من مسرحية جديدة أو حادث من أنباء الطبقة الراقية المنشورة في الصحف. فقد كانت ترى أنه - علي أية حال - إنسان، له أذن تسمع باستمرار، وله استعداد للموافقة دائماً على ما يسمع! بل أنها كانت تبوح بأسرارها لكلبها، ولحطب المدفأة، وبندول الساعة!

وكانت في هذه الأثناء كلها لا تني تنتظر في أعماق نفسها حدثاً ما! كانت، كالملاح المكروب، تسرح بصرها القانط في وحشة حياتها، بحثاً عن شراع أبيض في ضباب الأفق البعيد! وما كانت تدري كنه ذلك الحدث، ولا أي ريح ستسوقه إليها، ولا إلى أي شاطيء سيدفعها. وهل هو زورق، أو سفينة ذات ثلاثة طوابق، وهل يكون مفعماً بالأسى، أو طافحاً بالهناءة! ولكنها كانت إذا استيقظت في كل صباح تمنت لو يواتيها في يومها. كانت تنصت لكل صوت، وتقفز ناهضة تستجليه، ثم تشعر بصدمة لأن شيئاً لم يحدث! فإذا

جنحت شمس اليوم للمغيب، اشتد بها الأسى، وراحت تتمنى لو تعجل الغد وأقبل!

ووفد الربيع مرة أخرى، فغشيتها انقباضات من موجات الحر الأولى التي تهب حين تزهر أشجار الكمثرى، حتى إذا بدا شهر يوليو، أخذت تعد الأسابيع على اصابعها في ارتقاب شهر أكتوبر، راجية أن يقيم «المركيز دي اندفيلييه» حفلاً راقصاً آخر في (فوبيسار)! بيد أن شهر سبتمبر انصرم عن آخره دون ما خطابات أو زيارات!

✦✦✦

واحست مرة أخرى - بعد انقضاء المرارة التي خلفتها خيبة الرجاء - بفراغ في فؤادها. وبدأت من جديد سلسلة الأيام المتشابهة الرهيبة، التي لا تتغير، ولا تأتي بجديد! لقد كان يصادف حياة سواها - مهما تكن هذه الحياة خاوية مملة - حدث من الأحداث يتيح لها فرصة الخروج عن المألوف. ولقد تؤدي مغامرة واحدة - أحياناً - إلى سلسلة لا تنتهي من الأحداث التي تغير إطار الحياة، أما هي، فلم يكن يصادفها شيء، كما لو كانت تلك هي إرادة الله! كان المستقبل يمتد أمامها كسرداب مظلم ينتهي بباب محكم الاغلاق!

واهملت الموسيقى، فلماذا تعزف، ومنذا الذي يسمعها؟! لم يكن ثمة ما يدعو إلى بذل الجهد في المران، ما دامت لن تستشعر همس النشوة يتصاعد حولها كالنسيم وهي تمس بأناملها الرقيقة مفاتيح «البيانو» العاجية في حفل عام، وقد ارتدت ثوباً من المخمل قصير الكمين! كذلك ابقت لوحات الرسم وقطع التطريز في الصوان، إذ ما جدواها؟ وأي نفع منها؟ أما الحياكة، فقد أصبحت تثير أعصابها! حتى القراءة، انصرفت عنها قائلة لنفسها: «لقد قرأت كل شيء!»

وأخذت تضع الملاقط في النار لتحركها فتسهو عنها حتى تحمر، وترقب المطر وهو يتساقط بنظرات جوفاء! ولشد ما كان يجتاحها الأسى إذا ما دق الناقوس لصلاة المساء في يوم الأحد! كانت تصغى بذهن شارد إلى دقات الجرس المشروخ وهي تتتابع، بينما يخطر على سطح البنى القائم في مواجهتها قط أحنى ظهره لأشعة الشمس الشاحبة، والريح تثير غيوماً فوق الطريق الرئيسية، وقد ينبعث من بعد نباح أحد الكلاب والناقوس مسترسل في دقاته المملة، يرسلها في ايقاع رتيب، فلا تلبث أن تتلاشى فوق الحقول.

ثم يخرج الناس من الكنيسة: النساء في أحذية لامعة، والرجال في أقمصة جديدة، يتقدمهم الأطفال يقفزون ورؤوسهم عارية، ويأوى الجميع إلى منازلهم فيما عدا خمسة رجال أو ستة، كانوا دائماً يظلون - حتى يهبط الليل - أمام الحانة يمارسون فيها لعبة الفلين!

✦✦✦

ثم أقبل الشتاء قارساً، وأخذ الجليد يكسو زجاج النوافذ في كل صباح، فيبدو - إذ يخترقه الضوء - كالزجاج «المصنفر». وفي ذلك الجو المتجهم، كان لابد من اضاءة المصباح منذ الساعة الرابعة بعد الظهر.

وكانت «إيما» تهبط إلى الحديقة في الأيام الرائقة، فإذا الندى قد خلف فوق الكرنب وشياً من الفضة، تتخلله خيوط طويلة شفافة تمتد من كرنبة إلى أخرى، ولم تكن شقشقة العصافير تتردد، بل كان كل شيء يبدو مخلداً إلى النوم، والعرائش مكسوة بالقش، والكروم تمتد - كثعبان كبير مريض - تحت أقبية الجدران، حيث يرى الإنسان - إذا ما اقترب - الخنافس وهي تزحف! وإلى جوار السياج من ناحية غابة الصنوبر كان تمثال القس ذي القلنسوة ماضياً في قراءة كتاب الصلوات، وقد فقد قدمه اليمنى، بينما عبث الصقيع بطلائه فخلف على وجهه قرحاً بيضاء!

ولا تلبث «إيماء» أن تصعد إلى مخدعها فتغلق الباب، وتبسط الوقود، حتى ترسل المدفأة حرارة تخدرها، وتبعث في نفسها مللاً تخاله ثقلاً فادحاً يجثم على صدرها، فتود لو هبطت لتأتنس بالحديث مع الخادم لولا أن يمنعها الحياء!

وفي ساعة معينة من كل يوم، كان ناظر المدرسة ذو الطاقية الحريرية السوداء يفتح نوافذ منزله، ويمر حارس الحقول حاملاً سيفه فوق قميصه، وكانت خيل البريد تعبر الشارع - في الصباح والمساء - ثلاثة، ثلاثة، تسعى إلى البركة لترتوي. ومن وقت إلى آخر، يصلصل باب إحدى الحانات، فإذا هبت الريح، انبعث صرير من اللافتات النحاسية المعلقة على جانبي حانوت الحلاق، الذي كانت كل زينته تتمثل في صورة الصقت على لوح من زجاج النافذة، وتمثال نصفي من الشمع لامرأة ذات شعر زاه. وكان صاحب هذا الحانوت يندب - هو الآخر - موهبته التي تعطلت، ومستقبله الذي ضاع، ويحلم بحانوت في بلد كبير مثل (روان)، يقوم إلى جوار المسرح، مطلاً علي الميناء! وكان يقضي نهاره يتمشى جيئة وذهاباً بين دار البلدية والكنيسة، يرتقب العملاء في اكتئاب، فكلما أطلت مدام «بوفاري» ألفته في سيره هذا كديدبان في نوبته، وقد ارتدى ستره العمل التي لا يغيرها، وقلنسوة يونانية!

وكان يبرز - في أويقات العصر أحياناً - رأس رجل وراء زجاج البهو، رأس لفحته الشمس ويزينه شاربان اسودان، وقد أخذت أساريره تنفرج في تؤدة عن ابتسامة عريضة عذبة تكشف عن أسنان بيضاء، ثم تبدأ رقصة - على نغمات «الفالس» المنبعثة من أرغن يديره الرجل - في صالون دقيق صغير، لا يتجاوز كل راقص فيه حجم الإصبع! راقصون بينهم نساء بعمائم وردية، ورجال من أبناء «التيرول» في معاطفهم التقليدية، وقردة في ملابس سوداء، ورجال في سراويل قصيرة، يدورون ويدورون بين المقاعد الوثيرة والارائك والموائد، وتنعكس حركاتهم مراراً في مرايا التصق بعضها إلى بعض بشريط من ورق مذهب. وكان عازف الأرغن يدير يد الآلة وهو يجيل بصره يمنة ويسرة، ثم يتطلع الى

النوافذ. وكان يرفع آلته - من وقت إلى آخر - بركبته، بعد أن تعي كتفه حمالتها الغليظة، وهو يرسل قذائف طويلة من بصاق بني اللون على أحجار الطريق، والموسيقى الحزينة المتباطئة - تارة - والمرحة السريعة - تارة أخرى - تنبعث من صندوقه خلال ستارة من «التافتاه» وردية اللون، علقت بمشجب نحاسي ذي زخرف عربي، وكانت هذه الموسيقى بالذات تعزف فوق المسارح، أو في الصالونات حيث يدور الرقص على وقعها في السهرات، وتحت الثريات المتلألئة، فكانت بمثابة أصداء تصل إلى «إيما» من المجتمعات الراقية التي تهفو إليها! وفي مخيلتها، كانت تتتابع مواكب راقصة لا تكاد تنتهي! وكان تفكيرها يقفز مع النغمات - كالراقص فوق بساط من زهور - متنقلاً من حلم إلى حلم، ومن شجن إلى شجن!

وكان الرجل - بعد أن يتلقى في قلنسوته ما يجود به أهل الشارع من صدقات - يطرح فوق الارغن غطاء قديماً من الصوف الأزرق، ثم يحمله على ظهره وينصرف في خطى ثقيلة، و«إيما» ترقبه وهو يبتعد!

وكان جَلَدُها يغدو أقرب ما يكون إلى النفاد والانهيار في أوقات الوجبات، في تلك القاعة الصغيرة بالطابق الأرضي، حيث الموقد الذي لا ينفك عن إرسال الدخان، والباب الذي يبعث صريراً، والجدران المنداة، والأرضية الرطبة، كان يخيل لها إذ ذاك أن مرارة الحياة بأسرها تخالط طعامها! ومع بخار الحساء، كانت تتصاعد من أعماق روحها نفثات من الاعياء والضيق! ولما كان «شارل» بطيئاً في الأكل، فقد كانت تنفق الوقت في قرض بندقة، أو تعتمد بمرفقيها على المائدة وتتسلى برسم خطوط بسن سكينها على المفرش!

وأصبحت تهمل كل شيء في دارها، فلما أقبلت مدام «بوفاري» الأم إلى (توست) لتقضي بضعة أيام أثناء الصوم، راعها هذا التغير، فإن «إيما»، التي كانت فيما مضى شديدة العناية بنفسها، حريصة على أناقتها، أصبحت تمكث أياماً بطولها دون أن ترتدي ملابس زينتها، وهي تروح وتغدو في جوربين رماديين من القطن، كما أصبحت تقتصر على استخدام الشموع في إضاءة البيت، مرددة أن لابد من الاقتصاد لأنهم ليسوا من أهل الثراء! وكانت تضيف إلى هذا أنها سعيدة كل السعادة، راضية كل الرضى، وأن (توست) تروق لها وأمثال هذه العبارات الجديدة التي كانت تغلق فم حماتها عن اللوم!

على أن «إيما» اضحت - إلى جانب ذلك - تبدي عدم استعداد لتقبل ارشادات حماتها! وقد حدث مرة أن بدا لمدام «بوفاري» الأم أن تشير إلى أن من واجب المخدومين أن يعنوا بمراقبة احترام الخدم لشعائر الدين، فأجابتها «ايما» بنظرة تتقد غضباً، وابتسامة تفيض بروداً، مما حدا بالسيدة إلى أن تكف بعد ذلك عن كل احتكاك بها!

وأصبحت «إيما» حادة المزاج، كثيرة النزوات، غريبة الأطوار، فهي تطلب ألواناً معينة من الطعام ثم لا تقربها، وقد تصر يوماً على أن لا تتناول سوى اللبن الصافي، ثم تقبل في اليوم التالي على شرب عشرات من أقداح الشاي! وكانت تقرر أحياناً عدم الخروج

فتضيق انفاسها وتفتح النوافذ ثم ترتدي ثوباً خفيفاً! وكانت تعنف مع الخادم، ثم لا تلبث أن تسترضيها بالهدايا، أو ترسلها للنزهة لدي الجيران! كذلك كانت أحياناً تقذف للفقراء بجميع ما في كيسها من نقود فضية، رغم أنها لم تكن يوماً رقيقة القلب ولا سهلة التأثر بانفعالات الآخرين!

✦✦✦

وحوالي نهاية شهر فبراير، حمل الأب «روو» - بنفسه - إلى صهره ديكاً رومياً بديعاً، رمزاً لذكرى شفائه، وأقام في (توست) ثلاثة أيام، وإذ كان «شارل» في تلك الاثناء مشغولاً بمرضاه، فقد بات على «إيما» وحدها عبء مصاحبته، فأمضها منه أنه كان يدخن في الغرفة، ويبصق في المدفأة، ويتحدث عن الزراعة والعجول والابقار والدجاج والمجلس البلدي، حتى لقد عجبت من نفسها إذ أحست بشعور من الارتياح يداخلها حين أغلقت الباب خلفه عقب رحيله! والواقع أنها لم تعد تتحرج من أن تبدي احتقارها لشيء أو ازدراءها لأحد وكانت تصدر عنها أحياناً آراء غريبة، فتنتقد ما يرضاه الناس، وتحبذ أموراً لا تستقيم مع الأخلاق، الأمر الذي كان يترك زوجها مذهولاً!

وكانت لا تفتأ تسائل نفسها: أيلازمها هذا البؤس أبد السنين؟! أو ليس هناك من مخرج؟! إنها لا تقل عن أولئك اللاتي يعشن في سعادة، بل لقد رأت في (فوبيسار) دوقات أسوأ منها قواماً، وأقل رقة وتهذيباً! وأخذت تسخط على ظلم الأقدار، وتسند رأسها إلى الجدران لتبكي! كانت تحسد أولئك الذين يحظون بحياة صاخبة، ويقضون الليالي في حفلات تنكرية، وينعمون بتلك اللذات العنيفة التي يثير سماعها في نفسها مشاعر لا تدرك كنهها!

ومال لونها إلى الشحوب، واضطربت دقات قلبها، فأعطاها «شارل» دواء يهدىء أعصابها، ووصف لها حمامات الكافور، ولكن محاولاته لم تزدها إلا هياجاً! وكانت في بعض الأيام تثرثر في فيض محموم، ثم لا يلبث أن يعقب هذا الانطلاق ركود مفاجيء، لا تنطق خلاله بلفظ، ولا تأتي بحركة، ولم يكن ينعشها إذ ذاك سوى زجاجة من ماء «الكولونيا» تسكبها على ذراعيها!

وإذ أخذت تشكو من (توست) بلا انقطاع، فقد حدس «شارل» أن مرضها ناشيء عن سبب محلي، ورسخ في نفسه هذا الرأي، حتى أنه أخذ يفكر جدياً في أن يبحث عن بلد آخر يقيمان فيه.

ثم عمدت إلى شرب الخل لتزداد نحافة، فأصيبت بسعال بسيط جاف، وفقدت شهيتها إلى الطعام تماماً! وكان يعز على «شارل» أن يرحل عن (توست) بعد أن أقام بها أربع سنوات توطد خلالها مركزه، ولكنه مع ذلك لم يلبث أن خضع لاحكام الضرورة، عندما

صحبها إلى أستاذه القديم في (روان)، فتبين - بعد أن فحصها - أنها تعاني من مرض عصبي، لابد لعلاجه من أن تبدل الجو الذي تعيش فيه!

وأخذ «شارل» يتحرى هنا وهناك، حتى علم أن في مقاطعة (نيوشاتل) قرية كبيرة تسمى (أيونفيل - الدير) غادرها طبيبها - وكان من البولانديين اللاجئين - منذ اسبوع، فكتب إلى صيدلي القرية يسأله عن عدد سكانها، وعن المسافة التي تفصلها عن أقرب قرية بها طبيب، وعن الدخل الذي كان يصيبه سلفه في العام.. الخ. ووجد في الرد - حين جاءه - ما أرضاه، فقرر أن ينتقل إلى تلك القرية في الربيع التالي، إذا ظلت صحة «إيما» دون ما تحسن!

وفيما كانت «إيما» تستعد للسفر، أصيب أحد اصابعها بوخزة من سلك باقة زواجها، وهي ترتب أحد الأدراج ذات يوم. كانت براعم البرتقال - في الباقة - قد اصفرت لفرط تراكم الغبار عليها، وأخذت الأشرطة الحريرية ذات الحواف الفضية تنسل، ولم تحجم «ايما» عن إلقاء الباقة في نار المدفأة، فإذا بها تشتعل بأسرع مما يشتعل القش الجاف، وما لبثت النيران أن التهمتها، فراحت تتقلص ببطء وقد تفجرت حبيبات الورق المقوى، والتوت الاسلاك، وانصهرت الأشرطة المعدنية، وتيبست أوراق الزهر الصناعي، ثم أخذت اشلاؤها تتراقص فوق اللهب كالفراش الأسود، وما لبثت أن تطايرت خلال المدفأة!

وعندما غادر الزوجان (توست) في شهر مارس، كانت مدام «بوفاري» حاملاً!

القسم الثاني

الفصل الأول

أخذت قرية (ايونفيل - الدير) هذا الاسم عن دير قديم للرهبان الكابوشيين، لم يتبق منه حتى الأطلال. وتبعد تلك القرية ثمانية فراسخ عن (روان)، وتقع بين طريق (آبفيل) وطريق (بوفيه)، عند نهاية واد يرويه نهر (الريبول)، وهو فرع صغير يصب في نهر (الانديل) بعد أن يدير ثلاث طواحين قامت بالقرب من مصبه. وبه بعض السمك من نوع «البلطي» يصيده الغلمان بالشص في أيام الآحاد.

فإذا ترك المرء الطريق الرئيسية عند (بواسيير)، مضى في طريق مستوية حتى يصل إلى أعلى هضبة (لو)، حيث يشرف على الوادي، ويشق هذا الوادي نهر يشطره إلى قسمين مختلفي المعالم، فالشطر الممتد على الضفة اليسرى كله مراع، في حين أن الشطر المترامي على الضفة اليمنى كله حقول، وتمتد المراعي تحت سياج من التلال المنخفضة حتى تتصل في أقصاها بمراعي مقاطعة (بريد)، بينما يصعد السهل في رفق من الناحية الشرقية، ثم يأخذ في الاتساع. وتمتد على مرامي البصر حقول القمح الشقراء، والماء يجري في خط أبيض يفصل بين المروج من ناحية، والأرض المزروعة من ناحية أخرى. وكان المنظر - في مجموعة - عباءة كبيرة بسطت أمامك ياقتها التي صنعت من مخمل أخضر حف بشريط من فضة.

وعند نهاية الأفق، تبدو للرائي أشجار البلوط في غابة (ارجي)، ومرتفعات هضبة (سان جان)، تتخللها - في خطوط تمتد من أعلى إلى أسفل - مسارب طويلة حمراء غير متساوية من آثار المطر. أما اللون الأحمر الذي يميز هذه الخطوط الدقيقة خلال لون الجبل الرمادي، فناشئ عن توفر مادة الحديد، التي تفيض بها العيون العديدة المتناثرة في المنطقة المحيطة.

هناك تقع الحدود الفاصلة بين (نورمانديا) و(بيكارديا) و(ليل دي فرانس)، مقاطعة تضم سكاناً من عناصر شتى، ولا تمتاز لغتها بلهجة خاصة، كما لا تمتاز مناظرها بطابع خاص! وهناك أيضاً تصنع اردأ أنواع الجبن الذي يصنع في مقاطعة (نيوشاتل) بأسرها فضلاً عن أن الزراعة في هذه المنطقة تتطلب نفقات باهظة، لأنها تحتاج إلي كثير من الأسمدة لتخصب تلك التربة الهشة المليئة بالرمل والحصى.

ولم يكن في هذه المنطقة - حتى سنة ١٨٣٥ - طريق ممهد يفضي إلى (ايونفيل). بيد أن طريقاً ريفياً فرعياً انشيء في ذلك العام، فوصل بين طريقي (أبفيل) و(أميان)، وأصبحت تجري عليه أحياناً عربات النقل الذاهبة من (روان) إلى (الفلاندر).

على أن (ايونفيل - الدير) ظلت على حالها، بالرغم من الإصلاحات الجديدة. فبدلاً من أن ينشط أهلها لتحسين الزراعة بها، ظلوا متشبثين بالمراعي علي انخفاض دخلها

وقيمتها. وأخذت القرية الكسول تنفصل بالطبيعة عن السهل، وتتبع في اتساعها مجرى النهر، حتى أن الرائي يلمحها عن بعد راقدة على طول النهر، كقطيع من البقر يقيل على حافةالماء!

وفي نهاية جسر مقام على النهر - في أسفل الهضبة - يمتد طريق تحف بجانبيه أشجار الحور الصغيرة، يفضي بك مباشرة إلى طليعة منازل القرية، وهي بيوت تحيط بها أسوار، وقد أقيمت وسط ساحات تناثرت فيها المعاصر ومخازن العربات ومعامل التقطير، تحت الاشجار المتشابكة التي تستند إليها سلالم متنقلة، أو تعلق بأغصانها (الخطاطيف) والمناجل.

وكانت الأسقف المصنوعة من القش تشبه طاقيات الفراء المنزلقة على عيون لابسيها، إذ كانت تكاد تخفى ثلث النوافذ المنخفضة، التي كان زجاجها السميك المحدودب يتجمع عند وسطه في عقدة كقاع الزجاجة. وعلى الجدران المشيدة من الجص، والتي تمتد بين زواياها المتقابلة أعمدة خشبية سوداء، كنت ترى أحياناً شجرة من شجرات الكمثرى الهزيلة، وعند الباب الخارجي لكل دار، كان ثمة حاجز به باب منخفض ليصد الدجاج الذي يتسلل إلى عتبة البيت لالتقاط فتات الخبز المنقوع في نبيذ التفاح، وكلما تقدمت في السير نحو القرية، صغرت أفنية الدور، وتقاربت المباني واختفت الحواجز بينها، وقد ترى هنا حزمة من نبات «السرخس» تهتز في نهاية عصا مكنسة تحت إحدى النوافذ، وهناك حانوت بيطار، أو محل نجار سدت الطريق أمامه عربتان أو ثلاث عربات جديدة، وعبر مسافة من الفضاء يلوح بيت أبيض تمتد أمامه رقعة معشوشبة يزينها تمثال «كيوبيد» وإحدى أصابعه على شفتيه، وإلى جانبي قمة الدرجات الأمامية آنيتان من النحاس، وعلى الباب تلمع لافتتان تنمان عن أن هذا بيت موثق العقود، أجمل بيوت البلدة!

وعلى الجانب الآخر من الشارع، وعلى بعد عشرين خطوة، تقوم الكنيسة عند مدخل الميدان، تحيط بها مقبرة صغيرة، يحتضنها سياج في ارتفاع صدر الإنسان، وقد اكتظ بالقبور حتى أصبحت الاحجار القديمة في مستوى الأرض، تؤلف فيما بينها رصيفاً طويلاً، امتدت الحشائش خلاله تقسمه إلى مربعات، وكان مبنى الكنيسة قد جدد في عهد شارل العاشر، فأخذ سقفها الخشبي يبلى عند قمته، وفي المكان المخصص للأرغن - فوق الباب - أقيمت شرفة للرجال، تؤدي إليها سلم حلزونية تهتز تحت وقع الأقدام في نعالها الخشبية!

وكان الضوء الذي ينفذ خلال الزجاج غير الملون يسقط فى انكسارات على المقاعد المصفوفة بطول الجدران التي زينت - هنا وهناك - بحصائر من القش كتب عليها بحروف ضخمة «مقعد السيد فلان». وعلى مسافة قليلة، يضيق دهليز الكنيسة، ثم يقوم كرسي الاعتراف إلى أحد الجانبين، وإلى الجانب الآخر تمثال للعذراء في ثوب من الحرير، وعلى رأسها نقاب من التل مرصع بنجوم فضية، وقد طليت وجنتاها باللون الأحمر كما لو كانت وثناً من أوثان جزر «سندوتش»!! وأخيراً، تطل على المذبح المرتفع صورة «الأسرة المقدسة

– مهداة من وزير الداخلية»، بين أربعة شمعدانات. أما مقاعد المرتلين المصنوعة من خشب الصنوبر فقد ظلت بلا طلاء.

✦✦✦

وكانت السوق – أو بالأحرى السقف المصنوع من الآجر والمقام على عشرين عاموداً تقريباً – تشغل حوالي نصف الميدان العام في «ايونفيل» أما دار البلدية – التي شيدت وفقاً لرسم أعده مهندس من باريس – فكانت تشبه معبداً اغريقياً، وترسم مع حانوت الصيدلي شكل زاوية. وكانت في الطابق الأرضي ثلاثة أعمدة يونانية، وفي الطابق الأول بهو نصف دائري تعلوه قبة يشغلها تمثال «ديك الغال»، وقد اعتمد على ساق استقرت على وثيقة الدستور، بينما أمسك بقدمه الأخرى ميزان العدالة!

على أن أكثر ما كان يسترعي الانتباه، هو صيدلية السيد «هوميه» التي تقع في مواجهة فندق «الأسد الذهبي»، لا سيما في المساء حين يضاء المصباح فيرسل اشعته خلال القوارير الكبيرة الحمراء والخضراء، ثم يبعث عبر الشارع جدولين من الضوء الملون. وخلال هذا الضوء كان طيف الصيدلي وهو متكئ إلى مكتبه يبدو كما لو كان غارقاً في أضواء الصواريخ! وكانت داره مكسوة باعلانات كتبت بخط اليد أو بالحروف الكبيرة بحروف الطباعة: «مياه فيشي وسلتزر، وباريج، ومنقيات الدم، وعقار راسبيل، والمزيج العربي، و«باستيليا» دراسييه، وبلسم رينيو، وأربطة، وكمادات، وشيكولاته».. الخ. وفي مؤخرة الحانوت، وخلف النضد الذي حمل الميزان الكبير كانت كلمة «المعمل» تبدو على باب زجاجي تكرر على وسطه اسم «هوميه» بحروف ذهبية، فوق رقعة سوداء.

ولم يكن ثمة ما يشاهد في «ايونفيل» عدا ذلك، فإن الشارع الأوحد – الذي لم يكن طوله يتجاوز مرمى المقذوف الناري والذي تقوم الحوانيت على جانبيه – كان لا يلبث أن ينتهي عند منعطف الطريق الزراعي، فاذا خلفه المرء وانحرف إلى اليمين في محاذاة منحدر هضبة (سان جان)، وصل إلى المقابر. وكان القوم، عندما تفشت «الكوليرا»، قد هدموا جانباً من جدارها، وضموا إليها بضعة أفدنة لتوسيعها، بيد أن القطعة الجديدة بقيت شبه خالية، وظلت القبور تتكدس على مقربة من الباب، كما كانت الحال من قبل. وقد استغل الحارس – الذي كان في الوقت ذاته شماساً، مما مكنه من مضاعفة الافادة من موتى الابرشية – بقاء هذه الارض على حالها، فراح يستنبت البطاطس فيها. بيد أن حقله الصغير أخذ يضيق سنة بعد أخرى، إلى أن تفشى الوباء، فلم يعد يدري: أيبتهج لكثرة المرضى، أم يحزن لامتداد المقابر؟! ولقد قال له القس يوماً: «إنك تعيش على الموتى يا لستيبودوا»، فحملته هذه الملاحظة الكئيبة على التفكير، وصدته زمناً عن حقله، ولكنه ما زال حتى اليوم – (أي حتى كتابة هذه القصة) – يواصل زراعة بطاطسه، بل ويزعم في صفاقة أنها تنمو من تلقاء ذاتها!

ولم يتغير شيء في «ايونفيل» منذ الأحداث التي سنرويها، فما زال العلم ذو الألوان الثلاثة، والمصنوع من الصفيح، يدور فوق الكنيسة، وما زالت ترفرف على متجر الأقمشة رايتان من البفتة، والأجنة التي يحتفظ بها الكيمائي محنطة كحزم الصوفان الأبيض آخذة في التحلل يوماً بعد يوم في كحولها المعكر! وما زال تمثال الأسد الذهبي الحائل اللون يجثم على الباب الأمامي للفندق، يطالع المارة بلبده الشبيه بفروة الكلب!

✦✦✦

وفي المساء الذي كان مقدراً أن يصل فيه «بوفاري» وزوجته إلى «ايونفيل»، كانت الأرملة «لوفرانسوا» - صاحبة الفندق - كثيرة المشاغل إلى حد أن العرق أخذ ينضح منها في قطرات كبيرة وهي تروح وتغدو بآنية المطبخ! كان اليوم التالي هو يوم السوق، ولابد من أن تقطع اللحم مقدماً، وتنظف الدجاج، وتعد الحساء والقهوة. كما كان عليها - فوق ذلك - أن تجهز للنزلاء غداءهم، وأن تعد للطبيب وزوجته وخادمهما العشاء. وكانت تتردد في قاعة «البلياردو» ضحكات صاخبة. وفي غرفة الجلوس، كان ثمة ثلاثة من الطحانين يصيحون في طلب الخمر! وكانت النار تتأجج في خشب الموقد، والآنية النحاسية تئز فوقها بعد أن بدأت محتوياتهم في الغليان. وعلى مائدة المطبخ الطويلة، وبين قطع اللحم الكبيرة النيئة، تكدست أكوام من الأطباق كانت تهتز باهتزاز اللوحة التي كانت «السبانخ» تقطع فوقها، ومن فناء المبنى كانت تنبعث صيحات الدجاج الذي كانت الخادم تطارده لتمسك به وتدق أعناقه!

ووقف بجوار المدفأة - يدفيء ظهره - رجل على وجهه بقايا طفيفة من آثار الجدري، وقد ارتدى خفين أخضرين وقلنسوة من المخمل ذات «شرابات» ذهبية، ولم يكن وجهه ينم عن شيء اللهم إلا الرضى عن نفسه، وقد بدا أنه يطمئن إلى الحياة طمأنينة طائر الشرشر الصداح حين يدس رأسه بين قضبان قفصه. كان ذلك الرجل هو: الصيدلي!

وعلى حين غرة، صاحت السيدة صاحبة الفندق: «ارتميز.. شقّي بعض الخشب، واملأي الدوارق، واحضري بعض الخمر، وايقظي حواسك. آه، لشد ما أنا حائرة في اختيار حلوى أقدمها بعد العشاء للضيوف الذين ترتقبهم يا مسيو هوميه! يا للسماء الرحيمة! ها هم الحمالون يستأنفون ضوضاءهم في غرفة «البلياردو» بعد أن تركوا عربتهم أمام الباب! إن «العصفورة» - (اسم العربة) - قد تصطدم بها إذا ما جاءت، فادعوا بوليت لتقودها إلى الحظيرة، تصور يا مسيو هوميه إنهم لعبوا نحو خمسة عشر دوراً منذ الصباح، وشربوا ثماني قنينات من نبيذ التفاح! إنهم يوشكون أن يمزقوا كساء منضدة البلياردو!»

وأخذت تتأملهم عن كثب، بينما أجاب السيد هوميه: «لن يكون الضرر كبيراً، فإنك مسوقة حتماً إلى شراء غيرها!»

فتهتفت الارملة مأخوذة: «منضدة أخرى للبلياردو؟»

– أجل، إذ أن هذه أوشكت أن تتداعى يا مدام «لوفرانسوا». إنني أكرر ما قلت من قبل، فإنك تؤذين نفسك أبلغ ايذاء! ثم إن اللاعبين يطلبون الآن جيوباً ضيقة وعصياً ثقيلة للبلياردو، لأن الهواة لم يعودوا يقبلون على البلياردو الفرنسي الآن. لقد تغير كل شيء! يجب أن يجاري المرء الزمن! ألا انظري إلى تلييه!».

واحمر وجه صاحبة النزل استياء، بينما استطرد الصيدلي: لك أن تقولي فيه ما شئت، ولكن «بلياردهِ» خير من «بلياردك»، ولو أن أحداً فكر في أن ينظم مباراة من أجل اغاثة بولندا، أو ضحايا الفيضان في ليون!»

فقطعت عليه صاحبة النزل حديثه قائلة، وهي تهز كتفيها السمينتين: «إن الصعاليك أمثاله لا يزعجونني، على رسلك يا مسيو هوميه! لسوف يفد الناس على فندق «الأسد الذهبي» طالما ظل على قيد الوجود، ليس لدينا ما يدعو إلى القلق، في حين أنك لن تلبث أن ترى فندق المقهى الفرنسي، يوماً مغلقاً، وقد سمرت أبوابه »!.. واستأنفت وكأنها تحدث نفسها: «أغير «بلياردي»! المائدة التي أعتمد عليها في طي الغسيل، والتي هيأت فوقها فراشاً لستة نزلاء في موسم الصيد! ولكن ذلك المتسكع «هيفير» لم يصل بعد..».

– أوترجئين العشاء لنزلائك حتى وصوله؟

– وهل املك هذا؟ ماذا يفعل السيد بينيه؟ ما أن تشرع الساعة في إعلان السادسة حتى تراه مقبلاً، فليس له مثيل تحت الشمس في دقة المواعيد! ولابد من أن يكون مقعده معداً في قاعة الجلوس الصغيرة، فإنه يؤثر الموت على أن يتناول العشاء في أي مكان آخر، وهو حريص على الدقة، شديد العناية باختيار شرابه! فهو ليس مثل السيد ليون الذي يفد أحياناً في السابعة، بل وفي السابعة والنصف، ولا يكاد يأبه لما يقدم إليه من طعام، ما أظرفه! إنه ما تلفظ مطلقاً بكلمة نابية!

– لا أشك في أنك تدركين أن ثمة فارقاً شاسعاً بين الرجل المثقف وبين جندي متقاعد أصبح يعمل محصلاً!

✦✦✦

ودقت الساعة مؤذنة بالسادسة، فدخل «بينيه» كان يرتدي «ردنجوت» أزرق يستوي على جسده الناحل في استقامة، وقلنسوة جلدية ثبتت إلى رأسه برباط، وقد بدا تحت حافتها المرفوعة جبين عريض، خلفت كثرة ارتداء الخوذات أثراً عليه! وكان يرتدي كذلك صداراً أسود وياقة من الفرو وسروالاً رمادياً، ثم حذاءين بالغي النظافة، ينتقل بهما طوال العام، وقد برز في جانبيهما نتوءان يشيان بموقعي أصبعي قدميه الكبيرتين! ولم تكن ثمة

شعرة واحدة في سالفه تشذ عن النظام! وقد كانت هذه السوالف تستطيل إلى فكيه على غط العشب الذي يحيط بالحديقة، محتضنة وجهه الجامد الطويل، ذي العينين الصغيرتين والأنف المعقوف، وكان بارعاً في جميع الألعاب، ماهراً في الصيد، ذا خط جميل، كما كان يملك مخرطة يصنع عليها حلقات مشاجب المناشف التي كان يحتفظ بها في غيرة الفنان وأنانية الثري، الحديث الثراء، حتى ملأ بها بيته!

ويمم شطر قاعة الجلوس الصغيرة، ولكن.. كان لابد من اخراج الطحانين الثلاثة منها أولاً! وظل بينيه صامتاً في مقعده القريب من المدفأة طيلة الوقت الذي استغرقه إعداد المائدة، حتى إذا تم ذلك، أغلق الباب وخلع قلنسوته جرياً على عادته!

وما أن خلا الصيدلي إلى صاحبة النزل ثانية، حتى بادر قائلاً: «ما كان القاء التحية لينقص شيئاً من لسانه!».

فأجابته: «إنه لا يتكلم قط أكثر مما تدعو إليه الضرورة. لقد كان لدينا في الاسبوع الماضي نزيلان من تجار الأقمشة، وكانا مرحين، ظلا يرويان لنا في المساء من الفكاهات ما جعلني ابكي من كثرة الضحك، بينما كان هو قابعاً كالسمكة، فلم ينبس قط ببنت شفة»!

قال الصيدلي: «أجل، لا خيال، ولا فكاهة، ولا شيء مما يكوّن رجل المجتمع».

فقالت محتجة: «ومع ذلك، فإنهم يقولون إن له اصدقاء ومجالس!»

- مجالس! مجالس! من المحتمل أن تكون على شاكلته!

وما لبث أن استطرد قائلاً: «إنني أدرك أن التاجر ذا الصلات الواسعة، والقنصل، والطبيب والصيدلي، يجدون من أعمالهم ما يشغلهم ويلهيهم، حتى ليبدو الواحد منهم غريب الاطوار، أو جافاً. إن التاريخ حافل بقصص هؤلاء، ولكن المهم أن عذرهم في هذا راجع إلى أن لديهم ما يشغل تفكيرهم. فأنا مثلاً كثيراً ما أبحث عن قلمي على المكتب لأدون تذكرة، فلا ألبث أن أتبين في النهاية أنني وضعته خلف أذني!»

وفي تلك اللحظة، سارت مدام «لوفرانسوا» إلى الباب لترى إذا كانت العربة المرتقبة -«العصفورة»- مقبلة ولكنها اجفلت إذ ولج المطبخ فجأة رجل في ثياب سوداء، وكان في وسع المرء أن يتبين على ضوء آخر فلول الغسق، أن له وجهاً متورداً، وجسماً رياضياً.

وسألته ربة المنزل وهي تتناول من فوق المدفأة أحد الشمعدانات النحاسية التي كانت مصفوفة وقد ثبتت فيها الشموع: «أية خدمة أملك أن أؤديها لك يا سيدي القس، هل لك في تناول شراب ما؟ جرعة من نبيذ «كاسي» الأسود؟ أو زجاجة من النبيذ الأحمر؟!»

وهز رجل الدين رأسه في أدب بالغ، وقال إنه جاء من أجل مظلته التي نسيها منذ أيام في دير «ايرغو» . وبعد أن سأل مدام «لوفرانسوا» أن تعمل على إرسالها إليه في دار «الخوري» في المساء، انصرف إلى الكنيسة التي كان ناقوسها يدق مؤذناً بصلاة المساء.

وما أن اطمأن الصيدلي إلى أنه لم يعد يسمع وقع قدمي القس في الميدان، حتى

أبدى رأيه في مسلكه فوصفه بأنه ناب! فقد بدا رفضه - في رأي الصيدلي - أبغض ألوان الرياء، إذ أن كل القساوسة يحتسون الخمر في الخفاء، ويحاولون أن يستعيدوا الأيام التي كانت الكنيسة تتقاضى فيها الضرائب من رعاياها!

وانبرت صاحبة النزل تدافع عن القس قائلة: «إنه رغم قولك يستطيع أن يطوي أربعة من أمثالك على ركبتيه! لقد ساعد رجالنا على تخزين العشب الجاف في العام الماضي، فبلغ من قوته أنه كان يحمل ستاً من الحزم في آن واحد»! فهتف الصيدلي: «مرحي! ارسلوا بناتكم إذن ليعترفن أمام رجال من هذا الصنف! لو أنني كنت في مركز الحكم لأمرت بأن يفصد دم القساوسة مرة في كل شهر. أجل يا مدام لوفرانسوا، في كل شهر، وفصداً جيدا، في سبيل مصلحة البوليس والأخلاق !!»

- كف عن هذا يا مسيو هوميه، فأنت كافر، لا دين لك!

فأجاب الصيدلي: «بل لي دين، ديني الخاص، وإن لدي من التقوى ما يفوق ما لدى هؤلاء الآخرين جميعا، رغم نفاقهم ودجلهم. إنني على العكس أعبد الله، اؤمن بالكائن الأعلى، اؤمن بوجود خالق، كيفما يكن كنهه، ومهما يكن هذا الخالق الذي أوجدنا هنا لنؤدي واجباتنا كمواطنين وأرباب أسرات، ولكني في غير حاجة لأن أذهب إلى الكنيسة لأقبل اطباقاً فضية، ولأسمن من مالي رجالاً لا يصلحون لشيء ولا نفع منهم، ويحظون بمعيشة أنعم مما نحظى! إن المرء ليستطيع أن يهتدي إلى الله في غابة، أو في حقل، أو حتى بمجرد تأمل قبة الأثير، كما كان القدماء يفعلون! إن إلهي هو إله سقراط وفرنكلين وفولتير وبيرانجيه! إنني من أنصار الإيمان الذي دعا إليه «قس سافوا»[1] ومن المؤمنين بمبادئ ثورة سنة ١٧٨٩ الخالدة! ولا استطيع أن أعبد إلهاً مزعوماً، يسير في حديقته وعصاه في يده، ويودع أصدقاءه أجواف الحيتان، ويموت صارخاً، ثم يبعث بعد ثلاثة أيام! هذه جميعاً - في حد ذاتها - سخافات، تناقض تماماً كل قوانين الطبيعة، وفي هذا ما يوضح لنا - ضمناً - كيف أن القسس ظلوا دائماً متشبثين بجهل صلد لا يلين، يحاولون أن يدفنوا البشر معهم في جوفه!!»

وأمسك عن الكلام، وأجال بصره فيما حوله وكأنه يتأمل جمهوراً يحيط به فقد ظن الصيدلي في انفعاله أنه في قاعة المجلس البلدي! على أن ربة النزل لم تكن تنصت إليه، بل أصاخت بسمعها تحاول أن تستبين صوتاً انبعث عن بعد، اختلطت فيه ضوضاء العجلات بسنابك حديدية تضرب الأرض، وما لبثت (العصفورة) أن وقفت أمام الباب أخيراً!

✦✦✦

(١) يشير إلى فصل في كتاب «اميل» لجان جاك روسو، وفيه يقود القس تلميذه اليافع إلى أعلى جبال «سفوا» ليحدثه عن الله والإيمان، في غمرة من جلال الطبيعة.

كانت (العصفورة) تتكون من صندوق أصفر يقوم على عجلتين كبيرتين يصل محيطاهما إلى مستوى سقفه، فيحولان بين المسافرين ورؤية الطريق، ويلطخان أكتافهم بالقاذورات! وكان زجاج نوافذها الضيقة يهتز في إطاراته إذا ما أغلقت أبوابها، فضلاً عن أنها كانت ملطخة - هنا وهناك - ببقع من الوحل استقرت على طبقة من غبار قديم لم تستطع أمطار العواصف أن تزيلها تماماً وكان يجرها ثلاثة جياد، ربط أولها أمام زميليه، وعند انحدارها من المرتفعات، كان قاعها يمس الأرض فيرتج ارتجاجاً شديداً!

وأقبل على الميدان عدد من أهالي (ايونفيل)، أخذوا يتكلمون معاً في آن واحد: يتساءلون عن الأخبار، ويستفسرون عن سلال الهدايا. ولم يكن (هيفير) - السائق - يدري أيهم يجيب أولاً، فقد كان هو المنوط بقضاء حوائج القرية من (روان)، وكان يطوف بالحوانيت يجلب لفات الجلد لصانع الأحذية، والحديد للبيطار، وبرميل (الرنجة) لمخدومته - ربة النزل - والقبعات من صانعها، والشعور المستعارة من الحلاق. وكان يوزع الحزم على طول الطريق وهو عائد، فيقف على مقعده ويقذف بها من فوق الاسوار صائحاً بملء فيه، والخيل ماضية!

وكان تأخره في العودة راجعاً إلى حادث بسيط، فقد هربت كلبة مدام (بوفاري) في الحقول، فقضوا ربع الساعة يصفرون لها بل أن (هيفير) رجع مسافة نصف الفرسخ أملاً في العثور عليها، متوهماً في كل لحظة أنه قد لمحها! وبكت «إيما»، وسخطت، واتهمت (شارل) بأنه كان السبب. وقد حاول السيد (ليريه) - تاجر الأقمشة الذي كان يرافقهما في العربة - أن يواسيها، فضرب لها أمثلة بكلاب ضاعت ثم (اهتدت) إلى أصحابها بعد سنوات طويلة! بل لقد روى لها ما سمعه عن كلب عاد إلى باريس من القسطنطينية! وعن كلب آخر قطع خمسين ميلاً في خط مستقيم، وعبر أربعة أنهار سباحة! وتمادى فذكر لها أن أباه كان يملك كلباً فقده اثني عشر عاماً، ثم فوجئ به يقفز على ظهره ذات مساء، وهو في طريقه لتناول العشاء في المدينة!

الفصل الثاني

كانت «إيما» أول من هبط من العربة، وتبعتها «فيليسيتيه»، فالسيد «ليريه»، فمرضعة. واضطروا إلى أن يوقظوا «شارل» الذي كان قد استسلم في ركنه لنوم عميق، مذ ارخى الليل سدوله!

وقدم «هوميه» نفسه، مزجياً احتراماته للسيدة، وتحياته للسيد، معرباً عن شدة اغتباطه إذ اتيح له أن يؤدي لهما بعض الخدمات. وأضاف في لهجة الصديق أنه قد تجرأ فدعا نفسه لتناول العشاء معهما، إذ أن زوجته غائبة عن البلدة!

وعندما دلفت مدام «بوفاري» إلى المطبخ، اقتربت من الموقد، وامسكت بثوبها عند الركبتين بأطراف أناملها فرفعته حتى حاذى ذيله عرقوبيها، ثم مدت قدميها بحذاءيهما الأسودين نّحو اللهب، فوق «الفخذة» التي كانت تتز، فإذا اللهب يضيء كل كيانها، ويتغلغل نوره في نسيج ثوبها، ومسام جلدها البض الأملس، بل وفي جفون عينيها اللتين أخذت تغمضهما من وقت لآخر! ودفعت الريح المتسللة من الباب المنفرج وهجاً دافئاً هب عليها، وكان ثمة شاب أشقر يرقبها في صمت من الجانب الآخر للمدفأة.

كان السيد «ليون ديبوي» - الشاب الأشقر - ثاني النزلاء الدائمين في «الأسد الذهبي»، وقد اعتاد أن يؤخر تناول عشائه في كل مساء على أمل أن ينزل بالفندق مسافر يستطيع أن يجاذبه الحديث، إذ اشتد به السأم في «ايونفيل» حيث كان يعمل كاتباً لدى الأستاذ «جويومان» موثق العقود. غير أنه لم يكن يملك - إذا ما فرغ من عمله - سوى أن يعود إلى الفندق، ومن ثم يضطر إلى مصاحبة «بينيه» طوال العشاء، لهذا رحب مغتبطاً في تلك الليلة باقتراح ربة الفندق أن يتناول عشاءه في صحبة القادمين في القاعة الكبرى، حيث افتنت مدام «لوفرنسوا» في اعداد المائدة لأربعة أشخاص!

وأبدى «هوميه» رجاءه في أن يسمحوا له بأن يظل مرتدياً طاقيته الافريقية خشية «الانفلونزا»، ثم التفت إلى جارته قائلاً: «لا ريب في أن السيدة متعبة فإن «عصفورتنا» ترج المرء رجاً».

وأجابت «إيما»: «هذا حق، بيد أن السفر يلذ لي، فأنا أحب التنقل من مكان لآخر»!

وتنهد كاتب الموثق قائلاً: «من أبشع ما يسقم النفس أن يظل المرء مرتبطاً بمكان واحد»! فسأله «شارل»: «وماذا كنت تفعل لو أنك كنت مثلي مضطراً إلى امتطاء جوادك دائماً؟» فأجاب ليون وهو يتجه بحديثه إلى مدام «بوفاري»: «ولكنني لا أرى شيئاً أمتع من هذا، لو كان في إمكان المرء...».

وهنا قال الصيدلي: «على أن ممارسة الطب ليست بالغة المشقة في هذا الجزء من

العالم، إذ أن طرقنا تسمح باستخدام العربات، ولما كان المزارعون في حالة من اليسر، فإنهم يدفعون بسخاء عادة! ومن الناحية الطبية لدينا - فضلاً عن الحالات العادية كالتهاب الأعصاب والنزلات الشعبية والأمراض الناشئة عن الصفراء... الخ - بعض الحميات المتقطعة التي تظهر من وقت إلى آخر في موسم الحصاد. وبالاجمال ليس لدينا من الحالات الخطرة سوى القليل، وليس ثمة أحوال خاصة تستدعى الانتباه إلى كثرة الأمراض الناشئة عن غدد الرقبة. وهي كثرة مرجعها بلا شك إلى سوء الحالة الصحية في منازل الفلاحين. آه، لسوف تضطر يا سيد «بوفاري» إلى مكافحة كثير من المعتقدات الفاسدة والعادات المتأصلة التي تصطدم بها مجهوداتك العلمية في كل يوم فهم مازالوا يلجأون إلى الرقى والتمائم، وإلى القس، بدلاً من أن يسلكوا الطريق الصحيحة فيأتوا إلى الطبيب أو الصيدلي! على أن الطقس ليس رديئاً عندنا في الحق، حتى أنك لتجد في المقاطعة افراداً في الحلقة التاسعة من أعمارهم! وقد خرجت من ملاحظاتي بأن درجة الحرارة تهبط في الشتاء إلى الرابعة المئوية. أما في موسم الحر فترتفع إلى خمس وعشرين أو ثلاثين درجة مئوية على الأكثر، أي ما لا يتجاوز أربعاً وعشرين درجة بميزان «ريومير»، أو - بعبارة أخرى - ٥٤ درجة بميزان «فهرنهيت» الانجليزي! والواقع أننا في مأمن من رياح الشمال - من ناحية - بفضل غابة (ارجى)، ومن الرياح الغربية - من الناحية الأخرى - بفضل هضبة (سان جان). وفضلاً عن هذا، هناك الحرارة الناشئة من أبخرة الماء المتصاعدة من النهر، ومن الماشية الكثيرة التي تنطلق في المراعي وترسل - كما تعلم - الكثير من النوشادر - (الأمونيا) - أو بالأحرى النيتروجين والهيدروجين والاوكسيجين.. لا، بل النيتروجين والهيدروجين فقط، ومن ثم تمتص رطوبة الأرض، وتخلط جميع هذه العناصر الغازية معاً، وتوحدها في حزمة - إذا صح هذا القول - ثم تتحد مع الكهرباء المنتشرة في الفضاء إذا ما وجدت، فلا تلبث بعض الزمن أن تولد أبخرة عفنة، كما يحدث في البلاد الحارة! هذه الحرارة المتولدة كما ذكرت تجد تلطيفاً تاماً من حيث تنبعث، أو بالأحرى من حيث ينبغي أن تنبعث - في أي مكان من الناحية الجنوبية - بفضل الرياح الجنوبية الشرقية التي تصل إلينا باردة - بعد أن ترطب نفسها بالمرور فوق (السين) - وكأنها نسمات من روسيا!»

وفي ذلك الوقت كانت «إيما» تواصل حديثها مع الشاب قائلة: «... على أنك ولابد تجد مجالاً للنزهة، في البقاع المجاورة على الأقل».

وأجاب الشاب: «إنها جد قليلة. فهناك مكان يسمونه (لاباتير) - أي المراعي - على قمة التل عند حافة الغابة، وإليه أسعى أحياناً، في أيام الآحاد، فأمكث في صحبة كتاب حتى اشهد مغيب الشمس».

قالت معقبة: «ما أحسب أن هناك ما هو أبدع من غروب الشمس، وخاصة عند شاطئ البحر».

فهتف مسيو ليون: «آه، إنني أعبد البحر!»

- ثم، ألا ترى أن الذهن يكون أكثر تحرراً في الفضاء الذي لا حد له، والذي يسمو تأمله بالنفس، ويوحي بأفكار عن اللانهاية، والخيال المثالي؟

- كذلك حال المناظر الجبلية، فان لي ابن عم سافر إلى سويسرا في العام الماضي، وحين عاد قال لي إن المرء لا يستطيع أن يتصور ما في البحيرات من شاعرية، وما في مساقط المياه من سحر، ولا للأنهار من أثر هائل في النفس. فالمرء يرى هناك أشجار الصنوبر التي لا يتصور العقل حجمها، عبر الممرات التي حفرتها السيول، والأكواخ معلقة على حواف الوهاد، وتحت قدمي المرء بألف قدم، تبدو - إذا ما انقشعت السحب - وديان فسيحة. مثل هذه المناظر ولا ريب تحرك المشاعر، وتبعث الشوق في النفس إلى العبادة والتأملات السامية، ومن ثم لم أعد اعجب من ذلك الموسيقي المبرز الذي اعتاد أن يوقظ إلهامه بأن يجلس لوضع موسيقاه أمام منظر رائع يسيطر على المشاعر!

فسألته: «هل تعزف شيئاً من الموسيقى؟»

- لا، ولكني جد مشغوف بها.

وقطع «هوميه» الحديث إذ قال وهو ينحني على طبقه: «آه! لا تلقي إليه سمعاً يا مدام «بوفاري» هذا مجرد تواضع كيف يا عزيزي وقد كنت منذ أيام تغني «الملاك الحارس» في إبداع يملك الحواس؟ لقد سمعتك من المعمل، فإذا بك تؤديها كما لو كنت مغنياً محترفاً!»

وبالفعل كان ليون يسكن حجرة صغيرة في الطابق الثاني من منزل الصيدلي تطل على الميدان. وتضرج وجهه لثناء صاحب البيت، الذي كان قد تحول إلى الطبيب وأخذ يحصي له أهم سكان «ايونفيل»، واحداً واحداً، ويروي له تفصيلات، ونوادر، فمثلاً لم يكن ثمة من يعرف على وجه التحديد ثروة موثق العقود، كما كان «آل توفاش» يظهرون في أفخم مظهر!

وعادت «إيما» تقول: «وأي موسيقى تؤثر؟»

- آه، الموسيقى الألمانية، تلك التي تسلمك إلى الأحلام!!

- وهل ذهبت إلى الاوبرا؟

- لم أذهب بعد، ولكني سأفعل في العام التالي، حين أسافر إلى باريس لأتم دراسة القانون. . .

وقطع الصيدلي الحديث مرة أخرى قائلاً: «إنكما ستجدان - بفضل فرار ذلك المسكين «يانودا» وبفضل حماقاته - أن بوسعكما، كما تشرفت بشرح الأمر للسيد زوجك، أن تستمتعا ببيت من أفضل بيوت «ايونفيل» وأبدع ميزاته بالنسبة لطبيب هي أن له باباً يفضي إلى الحارة، يستطع المرء أن يلج وأن يخرج عن طريقه دون أن يراه أحد، كما أنه

مستوف لكافة الاحتياجات المنزلية: من حجرة للغسيل، ومطبخ ألحقت به غرفة للتحضير، وقاعة للجلوس، وبستان للفواكه.. الخ، فلقد كان صاحبه فتى مسرفاً، لا يقيم وزناً للمال، وقد أقام في نهاية الحديقة، بجوار الماء، خميلة ليحتسي فيها «البيرة» في ليالي الصيف. وإذا كانت السيدة تهوى فلاحة البساتين، ففي وسعها...».

وإذ ذاك قال «شارل»: «إن زوجتي لا تحفل بهذه الأعمال، ومع أنه أشير عليها بالرياضة والحركة، إلا أنها تؤثر أن تقضي الوقت في غرفتها تقرأ!»

فقال «ليون»: «إنها مثلي.. فأي شيء أجمل في الواقع من أن يقضي المرء المساء مع كتاب إلى جوار المدفأة، والريح تلفح زجاج النافذة، والمصباح يشتعل؟»

قالت «إيما» وهي تحدق فيه بعينيها السوداوين الواسعتين: «أليس كذلك؟»

ومضى يقول: «إن المرء لا يفكر في شيء إذ ذاك، والساعات تمر متلاحقة ونحن ننتقل - دون أن نتحرك من مكاننا - بين بلدان نخال أننا نراها، وأفكارك تختلط بالخيال لترسم الدقائق، ولتوضح لك معالم المغامرات، إنها تندمج في الشخصيات حتى لتخال أن قلبك هو الذي ينبض تحت ثيابها!»

قالت: «هذا حق! هذا حق!»

واستأنف «ليون» الحديث قائلاً: «أو لم يحدث لك قط أن عثرت في كتاب على فكرة مبهمة كانت قد راودتك، أو على صورة معتمة تعود إليك من آفاق بعيدة وكأنها تعبر عن أدق أحاسيسك؟» فأجابت: «لقد شعرت بهذا فعلاً».

قال: «هذا هو السر في أنني أحب الشعراء، فإني أجد الشعر أكثر رقة من النثر.. إنه يشجي المرء بسهولة حتى يبكيه!»

قالت «إيما»: «على أن الشعر لا يلبث مع طول الوقت أن يثير السأم. إنني الآن اهيم - على العكس - بالقصص التي تبهر الأنفاس، وتثير الخوف، وأكره الأبطال العاديين، والمشاعر المعتدلة، على نحو ما نرى في الطبيعة!!»

قال الكاتب: «الواقع انني أرى أن هذه الكتب - التي لا تمس القلب - تنحرف عن الغاية الحقيقية للفن. ما أعذب أن ينتقل المرء بفكره من مضايقات الحياة ليجول بفكره مع شخصيات نبيلة، وعواطف خالصة، وصور للسعادة. إنني - إذ أقيم هنا بمنأى عن الدنيا - أجد في هذا ملهاتي الوحيدة، بيد أن (ايونفيل) لا تتيح للمرء سوى موارد قليلة من هذا القبيل!»

فردت «إيما» قائلة: «إنها ولابد مثل (توست)، ومن ثم اشتركت في مكتبة تعير الكتب».

وسمع الصيدلي كلماتها الأخيرة فقال: «هل للسيدة أن تشرفني بالإفادة من مكتبتي الخاصة، إن لدي - تحت تصرفها - مكتبة تضم خيرة المؤلفين، مثل فولتير، وروسو،

ودوليل، وولتر سكوت، وصحيفة «صدى الأدب»... الخ. كما انني أتلقى صحفاً كثيرة، بينها «منار روان» اليومية، إذ انني مراسلها في مناطق بوشي، وفورج، ونيوشاتل، وايونفيل وما حولها.

✦✦✦

وانقضت عليهم حول المائدة ساعتان ونصف الساعة، إذ كانت الخادم «ارتميز» تحضر طبقاً بعد آخر في بطء، وهي تجر خفيها في كسل فوق البلاط. وقد غفلت عن كل شيء، وأخذت في كل مرة تنسى إغلاق باب حجرة البلياردو، فيرتطم بالجدار.

وكان «ليون» قد وضع قدمه على أحد قضبان مقعد مدام «بوفاري» - أثناء الحديث - دون أن يشعر! وكانت «إيما» تلف حول عنقها وشاحاً حريرياً أزرق صغيراً، يشد ياقة «مكشكشة» مجعدة من «الباتيستة». وكان الجزء الأسفل من وجهها يقوص برفق في ذلك الوشاح أو يرتفع عنه، تبعاً لحركات رأسها! وبينما كان «شارل» والصيدلي يثرثران، اندمج الشابان - اللذان تجاور مقعداهما - في أحد تلك الأحاديث المبهمة التي تقودك العبارات خلالها دائماً إلى مركز ثابت تلتقي عنده الميول والمشاعر. فتحدثا عن مسارح باريس، وعناوين القصص، وأنواع الرقص الحديثة والمجتمع الذي لم يكونا يعرفانه، و«توست» التي كانت «ايما» تقيم فيها، و(ايونفيل) حيث كانا إذ ذاك. وتناقشا حتى نهاية العشاء في كل موضوع خطر لهما!

وبعد أن قدمت القهوة، ذهبت «فيليسيتيه» لتعد المخدع في المنزل الجديد، وما لبث الضيوف أن نهضوا بعد قليل، فإذا مدام «لوفرنسوا» قد أغفت على مقربة من النار المحتضرة، بينما كان السائس في انتظار السيد «بوفاري» وزوجته، وهو يحمل مصباحاً ليرشدهما إلى منزلهما، وقد علقت بشعره بعض أعواد القش وأخذ يعرج بقدمه اليسرى! وشرعوا في الانصراف عندما حمل بيده الأخرى مظلة القس.

كانت البلدة قد نامت، وأعمدة السوق تلقي ظلالاً كبيرة على الأرض الرمادية، كما كانت تبدو في ليالي الصيف. وإذ كان بيت الطبيب لا يبعد عن الفندق بأكثر من خمسين خطوة، فإن القوم سرعان ما تبادلوا تحية الوداع، ثم انفضوا.

وما أن ولجت «إيما» الردهة حتى أحست برطوبة الجص تهبط على كتفيها كقطعة مبتلة من قماش، وكانت الجدران جديدة، وللدرجات الخشبية صرير. وفي المخدع - بالطابق الأول - كان ثمة ضوء يميل إلى البياض، ينفذ خلال النوافذ التي لم تحجبها ستائر، ولاحت لها رؤوس الأشجار ومن خلفها الحقول تكاد تتوارى في أحضان الضباب الذي انتشر في ضوء القمر على طول مجرى النهر. وفي وسط الحجرة، تناثرت في غير نظام ادراج الدواليب، والزجاجات، وقضبان الستائر، وعصي من المعدن المطلي، وعلى المقاعد كانت

ثمة حشايا، وعلى الأرض أوان وأوعية، فقد ترك الرجلان اللذان حملا الأثاث كل شيء في غير ترتيب.

تلك كانت المرة الرابعة التي تنام «إيما» فيها في مكان لم تألفه. كانت المرة الأولى يوم التحقت بالدير، والثانية يوم انتقلت إلى (توست)، والثالثة في (فوبيسار)، وها هي ذي الرابعة! وكانت كل مرة بداية لمرحلة جديدة، ولم تكن تعتقد أن الامور تجري على وتيرة واحدة في كل مكان، وإذ كان الشطر الذي عاشته من حياتها سيئاً، فقد وقر في نفسها أن الشطر الباقي سيفضله!

الفصل الثالث

عندما استيقظت (إيما) في اليوم التالي، لمحت كاتب الموثق يسير في الميدان، وكانت في ثوب المنزل (الروب دي شامبر). ورفع الشاب رأسه إليها محيياً، فردت بايماءة سريعة، واغلقت النافذة! وقضى (ليون) نهاره كله في ارتقاب الساعة السادسة، ولكنه حين ولج الفندق لم يجد سوى السيد (بينيه) يجلس إلى المائدة!

كان عشاء الليلة السالفة مناسبة هامة في نظره، إذ لم يقدر له قبل ذلك أبداً أن يقضي ساعتين متتاليتين في الحديث مع (سيدة)، فكيف إذن وسعه أن يكلمها بمثل تلك اللغة، وعن كل تلك الامور التي لم يكن - من قبل - يجيد التعبير عنها على هذا النحو، وهو الذي كان في العادة خجولاً، يلتزم ذلك التحفظ الذي يجمع بين الحياء والتكتم في آن واحد!؟ لقد كان أهل (ايوفيل) يعتبرونه (حسن التربية)، إذ كان ينصت للكبار حين يتكلمون، ولم يكن يبدو مصاباً بالهوس السياسي، وهذه خلة هامة بالنسبة لأي شاب! فضلاً عن أنه كان موهوباً، يرسم بالألوان المائية، وعلى إلمام بمبادئ الموسيقى، ويستطيب الحديث في الأدب بعد العشاء، إذا لم يلعب الورق. وكان السيد (هوميه) يحترمه لثقافته، ومدام (هوميه) تحبه لطيبته، إذ كثيراً ما كان يصحب ابناءهما إلى الحديقة! وكانوا أطفالاً ملطخين دائماً بالقذارة، مدللين إلى درجة افسدتهم كثيراً، ميالين للكسل والتراخي مثل أمهم! وكان يعنى بهم - إلى جانب الخادم - (جوستان) الشاب، مساعد الصيدلي، الذي كان من ابناء عمومة مسيو (هوميه) فآواه هذا في البيت على سبيل الإحسان، وكان يستغله - في الوقت ذاته - كخادم!

واثبت الصيدلي أنه خير جار، إذ كان يرشد مدام (بوفاري) إلى الباعة، ويستقدم لها تاجر شراب التفاح، ويذوق بنفسه الشراب ثم يستوثق من أن القنينات وضعت كما ينبغي في قبو البيت! كما كان يرشدها إلى طرق الحصول على كميات من الزبد بثمن زهيد، ويتفق مع (ليستيبودوا) الذي كان - إلى جانب مهامه الكنسية والجنازية - يتعهد حدائق الدور الكبرى في (ايونفيل) مقابل أجر يحسب بالساعة أو بالعام، وفقاً لرغبة العميل!

ولم تكن الرغبة في مساعدة الغير هي الحافز الوحيد الذي دفع الصيدلي إلى كل هذا التودد والمروءة، بل أنه كان يخفي قصداً آخر، إذ كان قد خرق المادة الأولى من قانون ١٩ (فنتوز) من العام الحادي عشر للثورة - وهي المادة التي تحظر على كل من لا يحمل شهادة أن يزاول مهنة الطب - حتى أنه استدعي إلى (روان) بناء على بلاغات قدمت ضده من مجهولين، فمثل أمام وكيل النيابة في مكتبه الخاص، وقد استقبله النائب بوشاحة واقفاً، وعلى كتفه شريط القضاء، وعلى رأسه قلنسوته. وكان ذلك في الصباح، قبل أن تفتح المحكمة أبوابها، وكان يسمع وقع أحذية الشرطة الثقيلة في الردهة، وصوتاً ينبعث

عن بعد لأقفال ضخمة تفتح وتغلق. وأحس الصيدلي بطنين في أذنيه كذاك الذي يسبق نزلة الشلل، ورأى بعين الخيال أعماق الزنزانات، وأسرته في دموعها، والصيدلية وقد بيعت وتناثرت زجاجاتها، حتى لقد اضطر إلى أن يلجأ إلى مقهى تناول فيه كأساً من (الروم) الممزوج بماء (سلزر) ليتمالك جأشه!

بيد أن ذكرى هذا الإنذار ما لبثت أن أخذت في الاضمحلال، وعاد إلى ما كان يمارسه من قبل من تقديم المشورات الطبية لمن يطلبها في الغرفة الخلفية بالصيدلية. غير أن العمدة كان يحقد عليه، وزملاؤه يغارون منه، فكان لابد له من أن يحسب حساباً لكل شيء، ومن ثم رأى أن السيد (بوفاري) سيقدر ولا ريب ما يغمره به من مجاملات، وسيحمله الاعتراف بالجميل على أن يمسك لسانه إذا ما لمح شيئاً! ومن ثم اعتاد أن يحمل إليه الصحيفة في كل صباح، وأن يبرح الصيدلية بعد الظهر ليقضي فترة في الحديث مع الطبيب!

وكان (شارل) مكتئباً لأن العملاء لم يقبلوا عليه. وكان يجلس ساعات طويلة دون أن ينبس ببنت شفة، أو يلجأ إلى مكتبه لينام، أو يتأمل زوجته وهي مستغرقة في الحياكة. ثم أخذ يعمل في البيت كالأجير ليتلهى عن أفكاره. بل أنه حاول أن يطلي جدران مخزن القمح ببقية من دهان تركه النقاشون. بيد أن الشؤون المالية كانت تشغل باله، فقد أنفق الكثير في الإصلاحات التي أدخلها على داره في (توست)، وفي توفير أدوات الزينة لزوجته، وفي نقل الأثاث، حتى أن البائنة - التي نالها عند زواجه - تسربت كلها خلال عامين، وكانت تتجاوز ثلاثة آلاف دينار. وكم من أشياء تلفت أو ضاعت أثناء نقلها من (توست) إلى (ايونفيل)، ناهيك بتمثال القس الذي هوى من العربة اثر عثرة عنيفة، فتحطم على طريق (كونيكامبوا) إلى ألف قطعة!

✦✦✦

ثم أقبلت مهمة سارة تشغله عن أفكاره، تلك هي: حمل زوجته! وكان كلما اقترب موعد الوضع ازداد حدباً عليها. فهذه رابطة أخرى - من لحم - تعزز صلتهما وتوجد فيهما احساساً مستمراً بالرباط المشترك. وكان إذا رآها عن بعد تمشي متثاقلة، وقوامها يلتف في طراوة فوق ردفيها، بعد أن تحرر من الحزام الذي كان يشده تتململ متقلبة بين الأوضاع في مقعدها، فتفيض به السعادة، فينهض فيقبلها، ويمسح وجهها بيده، ويناديها بالأم الصغيرة، ويسعى لحملها على الرقص، ويروي لها - بين الضحك والبكاء - كافة النكات اللطيفة التي تتبادر إلى ذهنه! كانت تطربه فكرة انجاب طفل، ومن ثم لم يعد يعوزه شيء آخر، فقد أصبح يعرف الحياة البشرية من بدايتها إلى نهايتها، فكان يتدبرها في خاطره مطمئناً ساكن النفس!

وكانت (إيما) في دهشة بالغة - في البداية - ثم أصبحت تتوق إلى أن تضع حملها لتعرف كيف تكون الأمومة! ولما لم تكن تملك أن تنفق عن سعة لتعد للطفل مهداً متأرجحاً - على شكل زورق - ذا ستائر من الحرير الوردي، وطاقيات مطرزة، فقد عدلت - والمرارة تمضها - عن كل هذا، وعهدت إلى امرأة تشتغل بالتطريز في إحدى القرى باعداد ما يلزم، دون أن تختار بنفسها شيئاً! وهكذا لم تستمتع بهذه الاستعدادات التي تذكي الحنان في الامهات، حتى لقد بدا أن حبها للصغير قد فتر - بعض الشيء - عنه في البداية! على أنها لم تلبث أن أخذت تفكر فيه باسترسال متواصل، إذ كان (شارل) لا يفتأ يتحدث عنه أثناء كل وجبة!

وتمنت أن ترزق بولد، قوي، أسمر، تسميه (جورج)! وكانت ترمق الفكرة كما لو كان انجاب الذكر انتقاماً مأمولاً من كل ما أصابها في الماضي من قصور واستضعاف. فالرجل حر، يستطيع على الأقل أن يجتاز كافة الانفعالات، وأن يجوب الاقطار، وأن يتخطى العقبات، وأن يتذوق أبعد الملذات منالاً! في حين أن المرأة تتعثر دائماً في المثبطات، فإذا نشطت وتذرعت بالمرونة، لا تلبث أن تجد ضعف جسدها والحياة التي فرضتها عليها الشرائع لتكون عالة على سواها، عوامل تقعد بها، وما أشبه عزيمتها بنقاب قبعتها المعلق بخيط، وهو يرفرف في الهواء!

✦✦✦

وواتاها المخاض في نحو الساعة السادسة من صباح يوم من أيام الآحاد، والشمس تشرق، وما لبث (شارل) أن قال: (إنها بنت!) فأشاحت برأسها، وراحت في اغماء!

وأقبلت مدام (هومية) ومدام (لوفرانسوا) - صاحبة نزل الأسد الذهبي - مسرعتين لتقبلاها، فور سماعهما النبأ. أما الصيدلي، فقد اكتفى - كرجل مهذب، حيي! - بأن ازجى إليها بعض التهاني خلال الباب المنفرج، ثم رغب في رؤية الوليدة، وأعرب عن ارتياحه إلى حسن تكوينها!

وشغلت (إيما) كثيراً - خلال فترة النقاهة - باختيار اسم لابنتها. فاتجهت في أول الأمر إلى الأسماء التي تنتهي بمقاطع معينة، على الطريقة الايطالية، مثل كلارا، ولويزا، واماندا، واتالا، ومالت كثيراً إلى اسم (جالسويند)، وكانت أكثر ميلاً إلى (ايزولته) أو (ليوكادي). ورغب (شارل) في أن تحمل الطفلة اسم أمه، ولكن (إيما) عارضته، ثم راحا يستعرضان كل ما ضمه التقويم من أسماء القديسات، وأخذا يستشيران الأغراب. فقال الصيدلي: كنت اتحدث منذ أيام مع السيد ليون، فأبدى عجبه لأنكم لا تختارون اسم (مادلين) الذي يقبل الجميع عليه في هذه الأيام!

ولكن مدام (بوفاري) الكبيرة، عارضت بصوت مرتفع هذا الاسم الذي كانت تحمله

إحدى الخاطئات! أما السيد (هوميه)، فكان يفضل الاسماء التي تبعث إلى الذهن ذكرى عظيم، أو واقعة بهيجة، أو فكرة كريمة، وعلى هذا النحو سمى أبناءه الأربعة، فكان (نابليون) يمثل المجد، و(فرانكلين) رمزاً للحرية، وربما كان اسم (إرما) مظهراً لتأثره بالخيال القصصي العاطفي، أما اسم (اتالي) فكان تحية لأعظم تحفة شهدتها المسارح الفرنسية! إذ أن عقائده الفلسفية لم تكن تتعارض مع ميوله الفنية، ولم تكن شخصية رجل الفكر تخنقها في نفسه شخصية رجل العاطفة، بل كان يعرف لكل حدودها، وكان يفرق بين الخيال والتطرف المتعصب، ففي مأساة «أتاليا» المسرحية -مثلاً- كان ينتقد الآراء، ولكنه يعجب بالاسلوب، يكره الموضوع، ولكنه يصفق للتفصيلات جميعاً، يزدري الشخصيات، ولكنه يزداد تحمساً لحوارها! وكان يسرح مع الخيال إذا ما قرأ فقرات بديعة، ولكنه كان يغتم إذا ما تذكر أن أهل المجون والمهرجين قد يستغلونها في ألاعيبهم على الغير! وفي خضم هذه المشاعر المتضاربة التي كانت تجتاحه، كان يود أن يتوج لفوره (راسين) - مؤلف المسرحية - بكلتا يديه، وأن يقضي ربع ساعة في نقاش معه!

وتذكرت (إيما) أخيراً أنها سمعت المركيزة في قصر (فوبيسار) تنادي شابة باسم (بيرت). ومنذ تلك اللحظة وقع الاختيار على هذا الاسم! ولما لم يستطع السيد (روو) الحضور، فقد سئل السيد (هوميه) أن يكون اشبيناً للطفلة، وكانت كل هداياه من المنتجات التي تحويها صيدليته: ست علب من ثمار العناب المحفوظة، وقنينة مملوءة باكسير مقو، وثلاث أنابيب من معجون الشيح، فضلاً عن ست أصابع من سكر النبات عثر عليها في أحد الصوانات. وفي أمسية الاحتفال، أقيمت مأدبة عشاء كبيرة حضرها القس، وتخللها هرج ومرج. وعندما حان موعد الشراب، أخذ السيد (هوميه) ينشد: (الله رب العالمين)، وغنى السيد (ليون) إحدى أغاني الجندول، وألقت مدام (بوفاري) الكبيرة - وكانت اشبينة الطفلة - إحدى أغاني العصر الامبراطوري العاطفية! وأخيراً، أصر مسيو (بوفاري) - الكبير - على احضار الوليدة، وشرع يعمدها بأن سكب على رأسها كوباً من الشمبانيا وأثارت هذه السخرية من أقدس الشعائر غضب الأب «بورنيزيان»، فرد عليه «بوفارى» الشيخ بفقرة من كتاب: حرب الآلهة! وهم القس بالخروج، فتضرعت إليه النسوة، وتدخل السيد (هوميه)، حتى أفلحوا في حمل القس على الجلوس، ومن ثم عاد يستأنف احتساء ما بقي في قدح القهوة، في هدوء!

ومكث مسيو (بوفاري) الكبير شهراً في (ايونفيل) بهر خلاله أهلها بخوذة فخمة من خوذات الشرطة، يتدلى منها زر فضي، كان يرتديها في الصباح وهو يدخن غليونه في الميدان! وإذ كان من عادته الافراط في الشراب، فكثيراً ما كان يوفد الخادم إلى (الأسد الذهبي) لتوافيه بزجاجة على حساب ابنه. واستنفد - ليعطر مناديله - كل ما كان لدى زوجة ابنه من ماء (الكولونيا). بيد أن هذه لم تكن تضيق بصحبته اطلاقاً، إذ كان قد جاب الأقطار، فكان يحدثها عن برلين وفيينا وستراسبورج، وعن أيام الجندية، وعن العشيقات اللاتى احببنه، والولائم الحافلة التي أقامها! ثم أنه كان لطيفاً، بل لقد كان في

بعض الأحيان يطوق خصرها بذراعه - على السلم أو في الحديقة - ويصيح: (شارل، احترس لنفسك!)

إذ ذاك خشيت السيدة (بوفاري) - الأم - على سعادة ابنها، وخافت أن ينتهي زوجها مع مرور الوقت إلى أن يترك أثراً غير خلقي في ما للمرأة من آراء وأفكار، فعملت على التعجيل بالرحيل. ولعلها كانت تكتم أسباباً أخطر من ذلك لقلقها، إذ أن السيد (بوفاري) لم يكن بالرجل الذي يحترم شيئاً!!

وأحست (إيما) يوماً برغبة مفاجئة في أن ترى ابنتها - التي كانت قد اسلمت لزوجة النجار لتعنى بها وترضعها - وبدون أن ترجع للتقويم لتتبين ما إذا كانت أسابيع العذراء الستة قد انقضت، وانطلقت إلى بيت (روليه) - النجار - في الطرف الأقصى من القرية، بين الطريق الرئيسية والحقول، وكان الوقت ظهراً، وقد أوصدت أبواب الدور ونوافذها، وتألقت السقوف الاردوازية تحت ضوء السماء الباهر حتى كادت تقدح شراراً من أبراجها! وكانت الريح تهب بشدة، وما لبثت (إيما) أن شعرت خلال سيرها بوهن، وأخذت أحجار الأرصفة تؤلم قدميها، وترددت بين أن تعود إلى البيت ثانية، أو تلوذ بأي مكان. وفي هذه اللحظة، برز السيد (ليون) من منزل مجاور، وقد تأبط حزمة من الورق، فخف لتحيتها، ووقف تحت المظلة الرمادية الممتدة أمام حانوت (روليه).

وقالت مدام «بوفاري» إنها في طريقها لرؤية ابنتها، بيد أن التعب أخذ يشتد بها، فقال ليون: «هل لك...» ثم أمسك لا يجرؤ على أن يتم عبارته، فسألته: «هل لديك أي عمل يشغلك الآن؟» وإذ أجابها بالنفي، رجته أن يصحبها. فلم يحن المساء حتى كانت «ايونفيل» بأسرها قد عرفت النبأ. وصرحت مدام «توفاش» - زوجة العمدة - أمام خادمتها بأن «مدام بوفاري قد ورطت نفسها!»

✦✦✦

كان لابد «لإيما»، كي تصل إلى بيت المرضعة، من أن تعرج إلى اليسار بعد نهاية الشارع وكأنها تسعى إلى المقابر، ثم تسلك - بين الدور والأفنية - طريقاً ضيقة محفوفة بأشجار اللبخ والقيرونكا والنسرين وبنات النار المزدهرة، والعوسج المنبعث من الأحراش. وخلال ثغرات في الأسيجة، كانت الأبقار تلوح في الخرائب وهي تحك قرونها في جذوع الاشجار. وسارا في هوادة، جنباً إلى جنب، وقد استندت السيدة إلى زميلها الذي كان يضيق من خطاه كي تلائم خطاها! وكان يحوم أمامهما سرب من الذباب يطن في الهواء الدافئ.

وتعرفا على المنزل بفضل شجرة بندق قديمة كانت تظلله. وكان بيتاً منخفضاً، مغطى بقرميد بني اللون، تتدلى من كوة مخزن الغلال فيه حزمة من البصل. وخلف الحاجز

الشوكي، قامت عدة أغصان جافة تحيط بحوض زرع خساً، وبعض عقل من «اللاوندة»، وفروع من البازلاء المزدهرة استندت إلى عصي صغيرة، والماء القذر ينساب على العشب حيث تناثرت عدة أشياء بالية غير واضحة المعالم: جوارب من نسج اليد، وصدار من الحرير الهندي الأحمر، وملاءة من القماش السميك منشورة على طول السياج.

وعلى صوت صرير باب السياج خرجت المرضعة تحمل على ذراعها طفلاً يرضع، وتسحب باليد الأخرى طفلاً هزيلاً مسكيناً كست وجهه البثور، وكان ابن صانع قبعات في (روان)، تركه أبواه في الريف لفرط انصرافهما إلى تجارتهما. وقالت المرضعة: «تفضلي، إن طفلتك نائمة هناك!»

وكانت الغرفة التي بالطابق الأرضي، هي الغرفة الوحيدة بالمسكن، وقد أقيم لصق الجدار - في أقصاها - سرير واسع بدون ستائر، بينما شغل حوض العجين الجدار الذي تخللته النافذة، وقد ألصق في مكان الزجاج المكسور في هذه، ورق أزرق. وفي الركن القائم خلف الباب رصت أحذية ذات مسامير لامعة، تحت حافة المغسل، بجوار زجاجة دست في فوهتها ريشة. وعلى رف المدفأة المغبر كانت ثمة نسخة من تقويم «ماتيو لانزبرج» وسط قطع من الصوان وأعقاب الشموع والصوفان. وأخيراً، كانت آخر مظاهر الترف في المسكن، لوحة تمثل «الشهرة » تنفخ في بوق، يدل مظهرها على أنها قصت من إعلان للعطور، وثبتت إلى الجدار بستة من مسامير الأحذية الخشبية (القباقيب)!

وكانت طفلة «إيما» ترقد في سرير من الغاب، فحملتها في الغطاء الذي كان يلفها وأخذت تغني لها وهي تهزها. ومضى «ليون» يذرع الغرفة، وقد بدا له من الغريب أن يرى سيدة جميلة في ثوب أنيق وسط كل هذا البؤس والفاقة، وتضرجت وجنتا مدام «بوفاري»، فأشاح ببصره إذ خطر له ان نظرة فضولية بدت في عينيه. وما لبثت الأم أن ردت الطفلة إلى مهدها بعد أن تقيأت على صدر مرولتها، فاقبلت المرضعة لمسح القيء فوراً، مؤكدة أنه لن يخلف أثراً، وقالت: «كم من أفعال لها تشغلني، فإنني أحرص على تنظيفها باستمرار، ولو انك تفضلت فأمرت «كاميس» البدال بأن يعطيني بعض الصابون، لكان هذا أدعى لراحتك، لأنني لن اضطر لازعاجك!»

فقالت «إيما»: «حسناً.. ليكن! طاب يومك يا سيدة رولية».

وخرجت وهي تمسح نعليها عند العتبة، وتبعتها المرضعة حتى نهاية الحديقة، وهي تحدثها طيلة الوقت عن العناء الذي تلاقيه طيلة الليل، قائلة: «إن الضنى يبلغ بي أحياناً أن استغرق في النعاس وأنا جالسة في مقعدي، واعتقد أنه يخلق بك أن تمنحيني رطلاً على الأقل من البن المجروش، يكفيني شهراً، لأتناول منه قدحاً مع اللبن في كل صباح».

وانصرفت مدام «بوفاري» بعد أن استمعت مكرهة لعبارات الشكر. على أنها لم تكد تبتعد بضع خطوات حتى انتبهت إلى وقع حذاءين خشبيين، واذا بالمرضعة، فسألتها: «ماذا هناك؟» وإذ ذاك انتحت بها الفلاحة جانباً خلف إحدى اشجار الدردار، وراحت تحدثها

عن زوجها الذي أوتي حرفة، لا تدر عليه غير النذر الضئيل، وقاطعتها «إيما» قائلة: «أسرعي!»، فاستأنفت وهي تتنهد بين كل كلمة وأخرى: «آه، أخشى أن يغتّم إذا رآني اتناول القهوة وحدي، فانت تعرفين الرجال...».

قالت «إيما»: لسوف تحصلين على البن، سأعطيك إياه... إنك تضايقينني!».

– اواه يا سيدتي العزيزة المسكينة! إنه يعاني – بسبب جراحة – من انقباضات مزعجة في الصدر، ويقول إن شراب التفاح يضعفه!

– عجلي ايتها الأم رولية!

فاستطردت المرضعة وهي تنحني احتراماً: «إذن، فإذا لم أكن قد تماديت...»، وانحنت مرة أخرى «فلو تكرمت» وبدت في عينيها ضراعة، ثم أفضت بغايتها أخيراً: «... بقنينة براندي! ولسوف أدلك منها قدمي طفلتك، فهما رقيقتان كاللسان!»

✦✦✦

ما ان تخلصت «إيما» من المرضعة، حتى امسكت بذراع «ليون»، وسارت مسرعة بعض الوقت، ثم تباطأت. وفيما كانت تتطلع إلى الأمام، وقع بصرها على كتف الشاب الذي كانت لسترته ياقة من المخمل الاسود، يتدلى فوقها شعره الكستنائي الذي نسق في عناية، ولاحظت أن اظافره كانت أطول مما اعتاد الناس في «ايونفيل» أن يتركوا عليه اظافرهم! وكانت العناية بها من المهام الرئيسية التي تشغله، ومن ثم كان يحتفظ في درج مكتبه بمطواة خاصة لذلك!

وعادا إلى «ايونفيل» سائرين بمحاذاة مجرى الماء. كانت الضفة تتسع في الموسم الحار عنها في الأوقات الأخرى، فتكشف عن أساس جدران الحدائق، حيث تنحدر إلى مجرى النهر بضع درجات، وكان الماء يجري سريعاً، هادئاً، تكاد العين تلمس برودته! والأعشاب الطويلة النحيلة تتشابك وتتجمع، والتيار يدفعها، ثم تبسط نفسها على سطح الماء النمير كالشعر المسترسل، وكانت تبدو على قمم البوص أو على إحدى أوراق زنابق الماء – في بعض الأحيان – حشرة دقيقة الأطراف تزحف أو تقبع مستريحة. وكانت الشمس تخترق باشعتها الفقاقيع الزرقاء الصغيرة التي تخلفها الامواج، والتي كانت تتتابع متكسرة، وأشجار الصفصاف العتيقة العارية الأغصان، تعكس على الماء صور جذوعها المغبرة. وفي المؤخرة بدت المراعي محيطة بالمنظر، ممتدة على مدى البصر، خالية من كل شيء. كانت ساعة العشاء قد حانت في المزارع، فلم تسمع الشابة وزميلها أي صوت وهما يسيران، اللهم إلا وقع خطواتهما على أرض الطريق، والكلمات التي كانا ينطقان بها، وحفيف ثوب «ايما».

وكانت أسوار الحدائق – التي بدت من فوقها قطع الزجاج – ساخنة كزجاج نوافذ

بيوت تربية النباتات الحارة، وقد نبتت الزهور البرية بين أحجارها، فكانت مدام «بوفاري» تمس بعض هذه الزهور الجافة بحافة مظلتها المفتوحة، وهي تمر بها، فتتساقط تراباً أصفر، كما كان يشتبك بحافة المظلة أحياناً غصن من اللبلاب المتدلي، ويتأرجح فوق حريرها لحظة.

وكانا يتحدثان عن فرقة من الراقصين الاسبانيين مرتقبة الوصول إلى مسرح (روان)، فسألته: «هل ستذهب لرؤيتها؟» فأجاب: «إذا استطعت!»

أو لم يكن لديهما ما يقال غير هذا؟! كانت عيونهما مفعمة بحديث أكثر جدية، وكانا، إذ يجهدان نفسيهما في البحث عن عبارات تافهة، يحسان بنوع واحد من الحذر يسري فيهما، ذاك كان همس الروح، همس عميق، مستمر، يطغى على صوتيهما! وأخذهما العجب لهذه العذوبة الطارئة، فلم يخطر ببالهما أن يتكلما عن هذا الاحساس أو أن يبحثا عن سببه، فإن المسرات في إقبالها تلقي - كالشواطئ الاستوائية - على الفضاء الشاسع رخاوتها الفطرية، وتبعث في الجو نسيماً متضوعاً، فإذا هذه النشوة تسلمنا إلى اغفاء عذب يصرفنا عن التفكير في الأفق الذي نجهله!

وكانت الأرض قد مادت في إحدى البقاع تحت أقدام الماشية، فكان لابد لهما من أن يقفزا على أحجار كبيرة خضراء تناثرت في الوحل. وكثيراً ما كانت «إيما» تتريث لتستبين موقع قدمها، وهي تتأرجح على حجر مهتز، وقد بسطت ذراعيها في الهواء، وانحنت قامتها في حيرة، وراحت تضحك وهي تخشى أن تهوى في برك الماء!

وعندما بلغا حديقة دارها، دفعت مدام «بوفاري» الباب، وطوت السلالم عدواً، واختفت فعاد «ليون» إلى مكتبه - وكان رئيسه غائباً - فألقى على الملفات نظرة، وشحذ لنفسه قلماً، ثم تناول قبعته أخيراً وانصرف متجهاً إلى المرج بأعلى هضبة (ارجي) - عند مدخل الغابة - حيث استلقى على الأرض تحت أشجار الصنوبر، وأخذ يتطلع إلى السماء من خلال اصابعه، ومحدثاً نفسه: «ما أشد ضجري!»

كان يحس أنه خليق بالرثاء لاقامته في هذه القرية، حيث لا صديق سوى «هوميه»، ومع السيد «جويومان» رئيسه! وكان الأخير، بمنظاره ذي الاطار الذهبي ولحيته الحمراء وربطة عنقه البيضاء ينكب على عمله، ولا يفقه شيئاً من المتع الفكرية، وإن اتخذ لنفسه مظهراً انجليزياً صارماً بهر الكاتب في الأيام الأولى!

أما زوجة الصيدلي، فكانت خير زوجة في (نورمانديا)، وديعة كالحمل، تحب أولادها وأباها وأمها وبني عمومتها، وتبكي لأحزان الآخرين، مهملة في الوقت نفسه كل شؤون دارها! وكانت تكره المشدات (الكورسيهات)، غير أنها كانت بطيئة الحركة، مملة الحديث، مبتذلة المظهر، ضيقة الأفق، حتى ما كان أحد ليتصور أنها تصلح زوجة لغير الصيدلي، أو أنها أوتيت شيئاً من خصائص جنسها فيما عدا الثوب! وكانت هي في الثلاثين بينما كان هو - أي «ليون» - في العشرين، وكان مخدعه ملاصقاً لمخدعها،

ومن ثم كان يخاطبها يومياً!

ثم، ماذا كان هناك غير ذلك! «بينيه»، وبعض أصحاب الحوانيت، واثنان أو ثلاثة من أصحاب الحانات، والقس، وأخيراً مسيو «توفاش»، العمدة، وأولاده: وكلهم ثراة، متغطرسون، أغبياء، يزرعون الأرض بأنفسهم، يستأثرون بالولائم فيما بينهم، متزمتون، لا تطاق صحبتهم!

ولكن، ماذا عن «إيما»؟ لقد كانت تقف بمعزل عن كل الاطار العام الذي يضم هذه الوجوه البشرية، وبعيداً عنه هو الآخر، إذ كان يرى بينه وبينها هوة غامضة! كان قد زارها مع الصيدلي عدة مرات في البداية، فلم يبد «شارل» ميلاً واضحاً إلى أن يراه مرة أخرى، فلم يدر «ليون» ماذا يفعل، إذ حار بين الخوف من أن يبدو متطفلاً، والرغبة في ألفة جميلة تكاد تلوح مستحيلة!

الفصل الرابع

نقلت «إيما» - عندما بدأت أيام الشتاء - مخدعها إلى حجرة الجلوس. وكانت قاعة طويلة، منخفضة السقف، استقرت على رف مدفأتها - أمام المرآة - حزمة كثيفة من المرجان . وكانت تجلس في مقعدها الوثير بجوار النافذة، حيث تشهد أهل القرية وهم يمرون على الافريز.

وكان «ليون» يسعى بين مكتبه وفندق «الأسد الذهبي» مرتين في اليوم، فكانت «إيما» إذا سمعته عن بعد انحنت لتصيخ السمع، بينما يمر الشاب دون أن يلتفت، فتراه من خلف الستائر في نفس المظهر والملبس دائماً. ولكنها عندما كانت تترك قطعة القماش التي تطرزها على ركبتيها، وتستند بذقنها إلى يدها اليسرى - عند الغروب - كانت تسري في جسدها رجفة لظهور هذا الشبح ومروره بالبيت! وكانت لا تلبث أن تنهض، وتأمر باعداد المائدة.

وكان السيد «هوميه» يصل أثناء العشاء، وطاقيته الافريقية في يده، فيدخل بخطى مكتومة الوقع كي لا يزعج أحداً، وهو يردد نفس العبارة دائماً: «مساء الخير أيها الزملاء! » فإذا اتخذ مجلسه إلى مائدة الزوجين، سأل الطبيب عن أنباء المرضى، فيستشيره هذا فيما يقدر من أتعاب، ثم يخوضان في الحديث عما جاء بالصحيفة التي يكون «هوميه» قد استظهر كل ما فيها تقريباً! فكان يرويه، مع التعليقات، كما كان يروي جميع النكبات الفردية التي وقعت في فرنسا أو في الخارج. ولم يكن يتوانى - إذ ما نضب موضوع الحديث - عن أن يلقي بعض الملاحظات عن أصناف الطعام التي يراها! بل أنه كان ينهض أحياناً عن مقعده ليرشد السيدة إلى أطرى قطع اللحم، أو يتحول إلى الخادم يوجه إليها ارشادات في معالجة اللحوم، والقواعد الصحية لاستخدام التوابل، ويتكلم عن البهار، والمغات، وأنواع العصير والهلام (الجيلاتين)، على نحو مدهش! ولما كان رأس «هوميه» يحفل بتركيبات تفوق في الكثرة ما تزخر به صيدليته من قنينات، فإنه كان يحذق صنع جميع أنواع المربى، والخل، والمشروبات الروحية الخفيفة، كما كان ملماً بكافة المخترعات الحديثة المتعلقة بأدوات الطهو الاقتصادية، فضلاً عن أصول صيانة الجبن، وعلاج النبيذ الفاسد!

وكان «جوستان» يأتي في الساعة الثامنة يستدعيه لاغلاق الصيدلية، فيرمقه السيد «هوميه» بنظرة خبيثة، لا سيما إذا كانت «فيليسيتيه» واقفة، إذ كان قد فطن إلى أن مساعده يميل إلى التردد على بيت الطبيب! وكان يقول: «إن هذا «الفحل» بدأ يفكر، وليأخذني الشيطان إذا كنت مخطئاً في ظني أنه يحب خادمتكما! »

بيد أن أخطر عيب كان يؤاخذ «جوستان» عليه، هو أنه كان ينصت دوماً إلى

الحديث، فلم يكن من السهل ابعاده عن «الصالون» في يوم الأحد مثلاً، عندما تناديه مدام «هوميه» لينقل الأطفال الذين ناموا في مقاعدهم، وأخذوا يسحبون بظهورهم مفارشها عنها! ولم يكن يحضر سهرات الصيدلي اناس كثيرون، إذ نجح ميله للخوض في الفضائح والآراء السياسية في تنفير مختلف الأشخاص المحترمين منه . أن الكاتب لم يتخلف قط عن سهراته، وكان إذا سمع جرس الباب بادر مسرعاً إلى استقبال مدام «بوفاري» فيأخذ عنها شالها، ويضع تحت نضد الصيدلي الخفين السميكين المزدانين بالشرائط، اللذين كانت ترتديهما فوق حذاءيها إذا كان الجليد يملأ الشوارع.

وكانوا يلعبون أدواراً من لعبه الورق المعروفة برقم ٣١، ثم ينفرد السيد (هوميه) باللعب مع (إيما)، و(ليون) من خلفهما يقدم لها النصائح، وقد وقف معتمداً بيديه على ظهر مقعدها، محدقاً في أسنان المشط التي تعض عقصة شعرها. وكان الجانب الأيمن من ثوبها يرتفع مع كل حركة تقوم بها لالقاء الورق، وينبعث من شعرها لون أسود ينساب على ظهرها، ويأخذ في الشحوب تدريجياً، حتى يتلاشى في الظلال، ثم يتهدل ثوبها على جانبي المقعد، منتفخاً، مليئاً بالثنايا، وينساب حتى يبلغ الأرض، فإذا أحس (ليون) بأن نعله وقع على طرف منه، ارتد مجفلاً وكأنما داس شخصاً!

وعندما كان ينتهي لعب الورق، كان الصيدلي والطبيب يلعبان (الدومينو)، فتنتقل (إيما) إلى مقعد آخر لتتكئ على المائدة وتقلب صفحات مجلة (الالستراسيون)، كما كانت تحضر معها مجلتها النسوية، فيجلس (ليون) يتأمل الصور إلى جانبها، ويتريث أحدهما عند نهاية كل صفحة ريثما يفرغ منها الآخر. وكثيراً ما كانت ترجوه أن ينشدها شعراً، فكان (ليون) يفعل بصوت متراخ كان يعني بخفضه عند العبارات الغرامية، لتطغى عليه جلبة (الدومينو)! وكان السيد (هوميه) بارعاً في هذه اللعبة، إلي حد أنه كان يفوز على (شارل) بدورين، حتى إذا فرغا من الدور الثالث، اضطجعا معاً أمام المدفأة، فلا يلبثان أن يغفوا! وتموت النار، ويخلو إبريق الشاي، و(ليون) ماض في القراءة، و«إيما» تنصت إليه، وهي تعبث بمظلة المصباح في حركة آلية، وتحدق في الرسوم المنقوشة عليها: من عصافير في عربات، إلى راقصين على الحبال ممسكين بالعصي التي يحفظون بها توازنهم، وكان «ليون» لا يلبث أن يمسك عن القراءة ليشير بإيماءة إلى النائمين، وإذ ذاك يشرعان في الحديث بخفوت، فكان هذا الحديث يبدو لها اعذب من أي حديث، لأن أحداً لم يكن يسمعه!

وهكذا توثقت بينهما رابطة من نوع خاص، وأخذا يتبادلان الكتب والروايات. ولم يكن السيد (بوفاري) ليشغل باله بهذا، فقد كان قليل الانسياق للغيرة!

وتلقى (شارل) في عيد ميلاده صورة لرأس رسم باللون الأزرق، لبيان الجهاز العصبي، وقد انتشرت عليه الأرقام والبيانات حتى القفص الصدري! تلك كانت هدية من الكاتب الذي أخذ يقدم الكثير غيرها من الهدايا والخدمات، حتى لقد كان يقضي للطبيب

حوائجه في (روان). وكان أحد الروائيين قد أورد في كتاب له فصلاً عن نبات (الصبار) جعله بدعة لقيت رواجاً، فابتاع (ليون) بعض نبتات منه لمدام بوفاري، وقد أدمى بعض أشواكها أصابعه، إذ حملها في (العصفورة) على ركبتيه! وأقامت السيدة خارج نافذتها قاعدة من الخشب وضعت عليها الأصص، ولما كانت للكاتب حديقة صغيرة معلقة، فقد أخذ كل منهما يشاهد الآخر وهو يعنى بأزهاره عند النافذة!

ومن بين نوافذ القرية، كانت ثمة نافذة ينبعث منها أكبر قدر من النشاط، فطيلة أيام الآحاد - نهارها ومساؤها - وبعد ظهر كل يوم، حين يصحو الجو، كان المرء يرى خلال كوة مخزن الغلال منظراً جانبياً لوجه (بينيه) وقد انحنى على مخرطته فانبعث طنينها الرتيب حتى صار يسمع في فندق (الأسد الذهبي).

وولج (ليون) غرفته ذات يوم، فألفى فيها سجادة من المخمل والصوف، نقشت عليها افنان على قاعدة شاحبة، فاستدعى مدام (هوميه) والسيد (هوميه) و(جوستان) والأطفال والطباخة ليشهدوها! وتحدث إلى رئيسه عنها، ورغب الجميع في أن يروا هذه السجادة، وهم يسائلون أنفسهم: ترى لماذا تقدم زوجة الطبيب للكاتب هدايا؟ إنه لأمر جد عجيب! ووقر في نفوسهم أنها لابد حبيبته، لا سيما وقد كان في مسلكه ما يبرر هذا الظن، إذ كان دائم الحديث عن سحرها وذكائها، حتى لقد رد عليه (بينيه) مرة في عنف قاس: «وماذا يعنيني من أمرها وأنا لست من أصدقائها؟!»

وأخذ «ليون» يعتصر ذهنه بحثاً عن وسيلة يعلن حبه لها، فقد كان يتردد بين الخوف من أن يثير استياءها وبين الخجل من جبنه! كان يبكي من الرغبة وعدم الجرأة، ثم لا يلبث أن يستجمع عزيمته ويعمد إلى كتابة خطابات يمزقها بعد أن ينتهي منها، ويرجئ الأمر إلى أوقات أخرى، ثم يعود فيرجئه من جديد! وكثيراً ما كان يهم بمواجهة الأمر في عزم، فلا تكاد تحضر «إيما» حتى يتبدد هذا العزم! وكان إذا دعاه «شارل» إلى مرافقته في عربته لعيادة مريض في قرية مجاورة لبى الدعوة لفوره، فيحيي السيدة وينصرف. ولم لا، أليس زوجها جزءاً منها؟

أما «إيما»، فلم تسائل نفسها قط عما إذا كانت تحبه، فهي تعتقد أن الحب يفد فجأة مصحوباً برعد وبرق، كما لو كان عاصفة تنقض من السماء على الأرض، فتقلب كيانها، وتنتزع الإرادات انتزاعها لأوراق الشجر، وتجرف القلب! ولم تفطن إلى أن المطر يحيل الشرفات بحيرات إذا كانت الميازيب مغلقة، وهكذا ظلت مطمئنة، حتى اكتشفت فجأة صدعاً في الجدار، جدار قلبها!!

الفصل الخامس

كان ذلك في أصيل يوم أحد من شهر فبراير، والجليد يتساقط، وهم جميعاً - السيد بوفاري وزوجته، وهوميه، والسيد ليون - على بعد نصف فرسخ من (ايونفيل)، وقد خرجوا في رحلة لمشاهدة مصنع لغزل الكتان كان العمل جارياً في اقامته في الوادي، وكان الصيدلي قد اصطحب معه «نابوليون» و«امالي» للرياضة، كما رافقهم «جوستان» حاملاً المظلات على كتفه.

بيد أنهم لم يجدوا فيما ذهبوا لرؤيته شيئاً يثير الفضول، مساحة أرض واسعة، خالية، تناثرت في ارجائها بين أكداس الرمل والحصى الملقاة في غير انتظام، بضع عجلات ذات تروس يعلوها الصدأ. ووسط هذه الأرض قام مبنى مستطيل، يتخلل جدرانه عدد من النوافذ الصغيرة، ولم يكن البناء قد اكتمل، فكانت السماء ترى خلال هيكل السقف الذي علقت بأحدى كتله الخشبية حزمة من سنابل القمح والقش راحت ترفرف في الهواء بألوانها الثلاثة. وانطلق «هوميه» يشرح للجماعة ما سوف يكون لهذه المؤسسة من أهمية، وما ستكون عليه أرضها الخشبية من متانة، وجدرانها من سمك، وأبدى أسفه إذ لم يملك عصا للقياس كتلك التي كان السيد «بينيه» يقتنيها لأغراضه الخاصة!

وكان يتأبط ذراع «إيما» التي راحت تميل معتمدة على كتفه بعض الشيء، لتتطلع إلى الشمس التي كان قرصها يرسل من بعد - خلال الضباب - ضوءاً أخذ يسطع في شحوب. وحانت منها التفاتة، فرأت «شارل» قد كبس قلنسوته حتى حاجبيه، وراحت شفتاه الغليظتان ترتجفان، مما أضفى عل وجهه مزيداً من الغباء! حتى ظهره، ظهره الساكن، كان يثير الاشمئزاز، وكأنما انتشرت على «ردنجوته» مظاهر تفاهة شخصيته!!

وفيما كانت تتأمله، مستشعرة في اشمئزازها لوناً من المتعة الشاذة، اقترب «ليون» خطوة، وقد لاح أن البرد الذي أصابه بالشحوب قد أسبغ على وجهه استرخاء زاده بهاء. وكانت ياقة القميص واسعة بعض الشيء، تكشف - بين الرقبة ورباطها - عن بشرته، وبرز طرف أذنه من خلال خصلة من الشعر، وخيل لايما أن عينيه الواسعتين الزرقاوين - اللتين تتطلعان إلى السحب - أكثر صفاء وجمالاً من البحيرات الجبلية التي ينعكس لون السماء على مياهها!

وهتف الصيدلي فجأة: «يا للشقي!». ثم عدا نحو ابنه الذي قفز إلى كومة من الجير ليطلي حذاءيه بلون أبيض، وراح «نابليون» يصرخ إذ انهال عليه توبيخ أبيه، بينما أسرع «جوستان» ينظف له حذاءيه بحزمة من القش. بيد أنه احتاج إلى سكين، فقدم إليه «شارل» واحدة، وإذ ذاك حدثت «ايما» نفسها قائلة: «آه! إنه يحمل سكيناً في جيبه كالفلاحين!»

وتساقط الصقيع، فعادوا إلى «ايونفيل»، ولم تذهب مدام «بوفاري» لزيارة جيرانها في ذلك المساء. وإذ غادرها «شارل» وخلت إلى نفسها، عادت إليها المفارقة بوضوح الإحساس المباشر الذي يكاد يكون واقعاً، وبالعمق الذي تخلعه الذاكرة على الأشياء! وتمثل لعينيها - وهي تتأمل من سريرها النار وهي تستعر صافية في المدفأة - المنظر الذي رأته هناك، وكأنه لا يزال أمامها: «ليون» وقد وقف يثني عصاه باحدى يديه، ويمسك «اتالي» باليد الأخرى، وهي تستحلب في هدوء قطعة من الثلج، وبدا لها فاتناً! ولما لم تستطع أن تنتزع نفسها عنه، أخذت تستعيد مواقف أخرى له في أيام غير ذاك اليوم، وكلمات صدرت عنه، وجرس صوته، وكل كيانه، ومضت تردد وهي تمط شفتيها كأنها تقبل أحداً: «أجل، فاتن، فاتن! ألا تراه قد أحب؟ ومن عساه أحب؟ أنا ؟!».

وأخذت الأدلة تنبعث أمامها، فقفز قلبها، وألقى وهج النار على السقف ضوءاً راح يتراقص في مرح، وانقلبت على ظهرها باسطة ذراعيها، وإذ ذاك بدا الرثاء الأبدى: «اواه، ليت السماء دفعته إلى حبي، ولم لا ؟ ما الذي يحول دون ذلك؟!»

ولاحت - حين عاد «شارل» في منتصف الليل - وكأنها استيقظت لتوها، وشكت من صداع إذ أخذ يخلع ثيابه في جلبة، ثم سألته عرضاً عما حدث في السهرة فقال: «لقد غادرنا السيد ليون مبكراً وآوى إلى غرفته»!

ولم تتمالك أن ابتسمت، ونامت ونفسها مفعمة بلون من الغبطة جديد عليها!

✦✦✦

وعند غروب شمس اليوم التالي، زارها السيد «لوريه» تاجر الأقمشة. وكان بائعاً ماهراً، ولد في (جسكونيا) ولكنه نشأ في (نورمانديا) كأحد ابنائها، فجمع بين لباقة أهل الجنوب وبين دهاء أهل (كو). وكان وجهه السمين، المتهدل، الحليق، يبدو وكأنه طلي بنقيع باهت من «العرقسوس» وقد زاد شعره الأبيض نظرات عينيه السوداوين الصغيرتين حدة ودهاء! ولم يكن ثمة من يدري ماضيه، فهناك من يقول إنه كان بائعاً متجولاً، بينما يقول آخرون إنه كان صرافاً في (روتو)، على أن المحقق انه كان قديراً على أن يجري في ذهنه عمليات حسابية معقدة يدهش لها «بينيه» نفسه. وكان يغالي في التأدب نفاقاً، فيقف محدوب الظهر كمن ينحني للتحية أو الدعوة!

وبعد أن ترك لدى الباب قبعته المحلاة بالديباج، ووضع على المائدة صندوقاً أخضر من الورق المقوى، شرع يشكو للسيدة - في أدب جم - من أنه لم يحظ بعد بثقتها، قائلاً إن من الصحيح أن حانوته الفقير لم يكن أهلاً لأن يجتذب «سيدة أنيقة» - وضغط على هاتين الكلمتين - مثلها ، ومع ذلك فليس لها سوى أن تأمر وهو قمين بأن يوافيها بأى شيء تبغيه من الخردوات أو الثياب الداخلية أو القبعات أو الكماليات، لأنه يتردد علي

المدينة بانتظام أربع مرات في الشهر، ويتعامل مع خير متاجرها، وتستطيع أن تسأل عنه في «الترو فرير» - (الاخوة الثلاثة) - و«البارب دور» - (اللحية الذهبية) - و«الجران سوفاج» - (المتوحش الكبير) - فإن أصحاب هذه المتاجر جميعاً يعرفونه معرفتهم لما في جيوبهم! ومن ثم فهو قد جاء اليوم يعرض على السيدة - إذ مر بدارها - بضع سلع قدر له أن يحصل عليها بمحض المصادفة النادرة. ثم أخرج من الصندوق ست ياقات مطرزة، فحصتها مدام بوفاري ثم قالت: «لست في حاجة إلى شيء!»، وإذ ذاك عرض في رفق ثلاثة من شيلان الجزائر، وعدة مجموعات من الإبر الانجليزية، وزوجاً من النعال القش، وأخيراً، أربع كؤوس للبيض صنعت من لحاء جوز الهند وقد زانها نزلاء السجون بنقوش محفورة، مفرغة. ثم اعتمد على المائدة بيديه واشرأب بعنقه، وراح يرقب «إيما» - التي كانت تجول بين سلعه مترددة - وقد انحنى إلى الأمام وفغرفاه. ومن وقت لآخر، كان يمس باظفره الشيلان الحريرية المبسوطة على سعتها - وكأنه ينفض عنها غباراً - فكانت تهتز في حفيف ضئيل، وتبرق الخيوط المذهبة التي تتخلل نسيجها كنجوم صغيرة تومض في ضوء الغسق الضارب إلى الخضرة. وسألته أخيراً: «ما ثمنها؟» فأجاب: «لا شيء في الواقع، ثمن ضئيل لا يذكر، ولا داعي للعجلة، بل ادفعي حين يحلو لك، فلسنا يهوداً!»

وفكرت لبضع لحظات، ثم انتهت إلى رفض ما عرض المسيو «لوريه» من جديد، فأجاب غير آبه لرفضها: «حسناً، سيفهم كل منا الآخر شيئاً فشيئاً. لقد اعتدت دائماً أن أوفق إلى ارضاء السيدات، وإن لم افلح في ارضاء زوجتي!»

وابتسمت «إيما» بينما استطرد قائلاً في طيبة قلب، بعد النكتة: «إنما احببت أن انبئك بأن النقود ليست بالشيء الذي يقلقني، بل اني على استعداد لأن أقدم لك منها ما قد تكونين بحاجة اليه!»

وبدرت منها حركة تنم عن دهشة، فبادر قائلاً بصوت خفيض: «آه لن اضطر إلى أن أذهب بعيداً للحصول على ما تريدين، فاركني إلي!»

وتحول يسأل عن الأب «تيلييه» - صاحب «المقهى الفرنسي» - الذي كان السيد «بوفاري» يعالجه: «ما بال الأب تلييه؟ إنه ليسعل حتى يهز بيته بأسره، واخشى أن لا يمضي طويل وقت حتى يكون أكثر حاجة إلى كفن منه إلى صدار من «الفانيلا»! لقد كان في شبابه مسرفاً في العربدة! هؤلاء الناس يا سيدتي لا يعرفون الاعتدال، لقد أحرق نفسه بكحول الخمر، على أنه من المحزن - مهما يكن الأمر - أن يرى المرء أحد معارفه يفنى!»

ومضى يتحدث عن مرضى الطبيب، وهو يربط صندوقه، ثم أردف وهو يتأمل الارض عابساً: «إن الجو ولا ريب هو سبب هذه الامراض. فأنا الآخر أشعر بتوعك، وما أراني إلا مضطراً لأن استشير الطبيب يوماً ما بشأن ألم بظهري. حسناً يا مدام «بوفاري»، استودعك الله، إني خادمك الخاضع في خدمتك!»، وأغلق الباب في رفق.

وطلبت «إيما» أن يحمل إليها العشاء عل صفحة لتتناوله إلى جوار المدفأة في

مخدعها، وقضت وقتاً طويلاً في الأكل، إذ كانت راضية عن كل شيء، وقالت لنفسها وهي تفكر في الشيلان: «ما كان أحكم تصرفي!»

وسمعت خطى على السلم، فادركت أن القادم «ليون»، ونهضت فتناولت من الصوان أول صف من المنافض التي لم تثن اطرافها بعد، فلما وصل، بدت جد منهمكة في العمل. ودار الحديث بينهما متراخياً، إذ كانت مدام «بوفاري» تنصرف عنه، بينما بدا الشاب نفسه مرتكباً، وأخذ يقلب علبة «الكستبان» العاجية بين أصابعه، وهو جالس على مقعد منخفض إلى جوار المدفأة، وهي ماضية في التطريز، تطوي - من آن لآخر - طرف القماش بظفرها، دون أن تتكلم. ومن ثم لزم هو الآخر الصمت، وقد أسره سكوتها، كما كان من الممكن أن يأسره حديثها! وقالت تحدث نفسها: «يا للشاب المسكين!

على أن «ليون» لم يلبث أن قال إنه مضطر لأن يذهب إلى (روان) يوماً في بعض مهام عمله، وأردف: «لقد انتهى اشتراكك في الموسيقى، فهل أجدده لك؟» فاجابت: «لا» وسألها «لماذا» فقالت: «لأن...».

ثم زمت شفتيها وأخذت تشد الخيط الرمادي في غرزة طويلة، وكان عملها هذا يضايق «ليون»، إذ بدا أنه يؤدي إلى تخشين أناملها! وخطرت له عبارة رقيقة، ولكنه لم يجرؤ على النطق بها، بل قال: «إذن فسوف تستغنين عنها؟» فقالت: «ماذا؟» ثم أردفت بسرعة: «الموسيقى؟ آه! أجل! أليس لدي بيتي أرعاه، وزوجي أعنى به، وألف شيء، وكثير من الواجبات التي يجب أن أؤديها أولاً؟»

ونظرت إلى الساعة، فإذا «شارل» قد تأخر، وإذ ذاك تظاهرت بالقلق، بل لقد رددت مرتين أو ثلاثا: «لكم هو طيب!» وكان الكاتب يحب السيد «بوفاري»، ولكن حنان زوجته نحوه أدهشه وساءه. ومع ذلك فقد أخذ يمدحه ويقول إن كل امرىء - لا سيما الصيدلي - يثني عليه فعادت «إيما» تردد: «آه، إنه طيب!» وأجاب الكاتب: «حقا!» وشرع يتحدث عن مدام «هوميه» التي كان إسرافها في إهمال مظهرها يثير ضحكهما، فقاطعته «ايما» قائلة: «وما قيمة ذلك؟ إن ربة البيت الصالحة لا تحفل بمظهرها» ثم أخلدت إلى الصمت!

وتكررت الحال في الأيام التالية، حديثها ومسلكها، وكل شيء فيها قد تغير. وأخذت تبدي اهتماماً بشئون منزلها، وتذهب إلى الكنيسة بانتظام، وتحاسب خادمتها في مزيد من الشدة. واستردت طفلتها «برت» من المرضعة. وكانت «فيليستية» تحملها - إذا وفد الضيوف - فتخلع مدام «بوفاري» عنها ثيابها لتعرض اطرافها، وتردد أنها تعبد الأطفال وتجد فيهم عزاءها وفرحها وهيامها، وتقرن مداعباتها للطفلة بانطلاقات شعرية كانت كفيلة بأن تذكر أي فرد - عدا سكان (ايونفيل) - بساشيت في رواية «نوتردام دي باري».[1]

(١) كانت ساشيت راهبة تحدث عنها «فيكتور هيجو» في روايته الخالدة: «أحدب نوتردام».

وأصبح «شارل» يجد خفيه - حين يعود إلى الدار - وقد وضعا إلى جوار المدفأة ليكتسبا دفئاً! ولم يعد صداره يفتقد البطانة، ولا اقمصته تعوزها الازرار. وكان يسره أن يرى الطاقيات في الصوان وقد انتظمت في صفوف متساوية الارتفاع . ولم تعد «إيما» تتذمر من المساهمة في الحديقة كما كانت تفعل من قبل . وغدت تنفذ ما يقترح، وإن لم تفهم الرغبات التي كانت تنصاع لها دون تململ . وكان «ليون» حين يرى الزوج إلى جوار النار بعد العشاء، ويداه على بطنه، وقدماه على حافة المدفأة، وخداه متضرجان من التغذية، وعيناه نديتان لفرط هناءته، والطفلة تزحف على البساط، وهذه المرأة ذات الخصر النحيل تسعى من خلف مقعده الوثير لتطبع على جبينه قبلة. كان «ليون» حين يرى هذا، يقول لنفسه: «يا له من جنون! وكيف السبيل إليها ؟!»

كانت بأعمالها هذه تلوح له جد فاضلة وموفورة الحصانة، حتى لقد فقد كل أمل، ولكنه - بهذا التحول - أنزلها مكاناً غير عادي، إذ أصبحت في نظره مجردة من مفاتنها البدنية التي لم ينل منها شيئاً، ومن ثم أخذت تسمو في قلبه، وتبعد عن متناوله كروح إلهية تحلق عالياً! وداخله شعور من تلك المشاعر الطاهرة التي لا تمت إلى الحياة الدنيوية، والتي يتعهدها المرء في نفسه لأنها نادرة، يخلف فقدها من الحزن أكثر مما يضيفه من اللذات!

وأخذت «إيما» تزداد نحولاً، وخداها يزدادان شحوباً، ووجهها يستطيل . ألم تصبح بشعرها الأسود، وعينيها الواسعتين، وأنفها الأقنى، ومشيتها التي تشبه حجل الطير، والسكون الذي أصبحت تخلد إليه، أو لم تكن تبدو - بهذا كله - وكأنها تجتاز الحياة ولا تكاد تمسها، وتحمل على جبينها ميسم مصير قدسي؟! كانت جد حزينة وهادئة، وقد غدت فجأة جد رقيقة ومتحفظة، حتى ليشعر المرء إلى جوارها بأن فتنة جليدية استولت عليه، كما يحدث لنا في الكنائس حين يبعث أريج الزهور في امتزاجه ببرودة الرخام قشعريرة في أبداننا! بل أن الآخرين لم يفلتوا من هذه الفتنة، حتى لقد قال الصيدلي: «إيما» امرأة عظيمة المواهب، ما كان ينبغي أن تعيش في بلدة صغيرة!»

وكانت ربات البيوت يعجبن باقتصادها، والمرضى يعجبون بأدبها، والفقراء ببرها، ولكنها كانت تحترق بالشهوات، والغيظ، والبغضاء! كان هذا الثوب المستقيم الثنايا، يخفي قلبا حائراً، لا تنفرج تلكما الشفتان العفيفتان عن شيء من عذابه، كانت تهوى «ليون» وتنشد العزلة لتسعد بطيفه في طمأنينة! وكانت رؤية شخصه تعكر عليها متعة نجواها! كانت تهتز طرباً لوقع خطواته، ثم يخمد الانفعال في حضوره، ولا يتبقى لها بعد ذلك سوى دهشة عارمة تنتهي إلى أسى طاغ!

✦✦✦

ولم يكن «ليون» يعلم أنها كانت - إذا غادرها قانطاً - تنهض بعد انصرافه لترقبه

في الطريق، وأنها كانت تشغل بتتبع روحاته وغدواته، بل أنها لفقت قصة محبوكة لتجد عذراً يبرر لها زيارة غرفته، وبدت لها زوجة الصيدلي سعيدة لأنها تنام تحت السقف الذي يأويه! وأخذت أفكارها تحوم دائماً حول ذلك البيت، كحمائم فندق «الأسد الذهبي» التي كانت تأتي لتغمس أرجلها الوردية وأجنحتها البيضاء في مياه ميازيبه . على أن «إيما» كانت تزداد كبتاً لحبها كلما ازدادات ادراكاً له، حتى لا يتجلى واضحاً، وحتى تستطيع أن تضعفه! كانت تود أن يحدسه «ليون» من تلقاء نفسه، وتتصور ما يمكن أن ييسر ذلك من مصادفات وكوارث . وما كان مانعها من الاتيان بالخطوة الأولى سوى الكسل، والخوف، وشعور بالحياء أيضاً! وخيل إليها أنها قد تمادت في صده حتى فوتت الفرصة وضيعت كل شيء .. وإذ ذاك، كانت تجد في الكبرياء، وفي البهجة التي تراودها إذ تملك أن تقول لنفسها: «أنا امرأة فاضلة»، وأن تتأمل نفسها في المرآة متخذة أوضاع الاذعان والاستكانة، كانت تجد في كل هذا عزاء بعض العزاء عن التضحية التي اعتقدت أنها كانت تقوم بها!

ثم أخذت شهوات الجسد، وجشع المال، وأشجان العاطفة، تختلط جميعاً في نوع واحد من العذاب، كانت تزداد استكانة إليه - بدلاً من أن تنتزع نفسها منه - مستحثة نفسها على الشعور بالألم، باحثة في كل مكان عن فرصة لذلك . فكانت تنفعل إذا أسيئ تقديم صنف من الطعام، أو إذا رأت باباً منفرجاً، وتندب ما لا تملكه من مخمل، وما ينقصها من سعادة، وما يبعد عن متناولها من أحلام، وما كان عليه بيتها من ضيق!!

واغاظها أن «شارل» لم يبد أي انتباه إلى عذابها، وبدا لها اعتقاده بأنه حقق لها كل سعادة إهانة وقحة، واطمئنانه إلى هذا الاعتقاد جحوداً، فمن أجل من إذن كانت عفتها وفضيلتها ؟! أو لم تكن من اجله هو؟! هو الذي كان حجر العثرة في سبيل كل سعادة، والسبب في كل تعاسة، والذي كان كالمحبس المدبب يحكم اغلاق ذلك الطوق المعقد اللعين الذي يطبق عليها من كافة النواحي! لذلك صبت غليه وحده كل تلك الاحقاد العديدة التي تجمعت من ضيقها، وكان كل مجهود للتخفيف من هذه الاحقاد إنما يضاعفها، إذ كان المجهود الضائع يضيف سبباً جديداً لخيبة الأمل، ويزيد الهوة بينهما عمقاً! وكان تلطفها مع نفسها يزيدها تمرداً على زوجها، وضعة حياتها المنزلية تدفعها إلى احلام ملؤها البذخ، كما كانت الملاطفات الزوجية تسلمها إلى شهوات داعرة! ولكم ودت لو أن «شارل» ضربها حتى تجد مبرراً لأن تكرهه وتعمل علي الانتقام لنفسها منه! .. وكانت تذهل أحياناً للخيالات الفظيعة التي كانت تراود خاطرها. ومع ذلك لم يكن هناك بد من أن تستمر في الابتسام، وأن تسمع الادعاء بأنها سعيدة يردد على مسمعها في كل الأوقات، وأن تتظاهر بالسعادة، وتدع سواها يعتقدانها سعيدة!

على أنها كانت تشعر باشمئزاز من هذا النفاق . وتملكها اغراء راح يزين لها الفرار إلى مكان ما، مع «ليون»، لتبدأ حياة جديدة، ولكن هوة غامضة مفعمة بالظلام، كانت لا

تلبث أن تنشق في أعماقها، فتذهب تردد لنفسها: «ثم انه - إلى جانب هذا - لم يعد يحبني، فماذا يصيبني؟ أي عون يرجى، أي عزاء، أية تسرية؟» وتخرج من هذا كله محطمة، لاهثة، عاجزة، فتنتحب في صوت خفيض، ثم تنساب دموعها مدرارة!

وكانت الخادم تسألها إذا اقبلت عليها خلال هذه الأزمات: «لم لا تخبرين السيد بهذا؟» فتجيبها «إيما»: «إنها الاعصاب! لا تخبريه، حتى لا تتولاه الهموم».

وتقول «فيليسيتيه»: «آه، حسن! إنك مثل «لاجيرين» ابنه الأب «جيران» صياد السمك في (بوليه) - التي كنت أعرفها في (دييب) قبل أن آتي إليكما. كانت جد حزينة، مفرطة الحزن، حتى ليخالها المرء - حين يراها على عتبة دارها - كفناً مبسوطاً أمام الباب! وكان مرضها على ما يبدو نوعاً من الضباب ينتشر في رأسها. ولم يستطع الأطباء، ولا القس، أن يفعلوا شيئاً، وكانت إذا اشتدت بها نوبات المرض تذهب وحيدة إلى شاطئ البحر، فكان ضابط الجمرك يراها كثيراً - أثناء طوافه - منكفئة على الحصى تبكي. ثم قيل أنها شفيت بعد الزواج»!

وتعقب «إيما» قائلة: «أما أنا، فقد بدأ مرضي بعد الزواج»!!

الفصل السادس

بينما كانت «إيما» جالسة إلى جوار النافذة المفتوحة، في إحدى الأمسيات، رأت «ليستيبودوا» - الشماس - يشذب أغصان حديقة القس . ولم تلبث أن سمعت الناقوس يدق معلناً صلاة المساء.

وكان ذلك في أوائل ابريل، حين تتفتح البراعم، وتهب ريح دافئة على أحواض الزهور التي تم حرثها منذ عهد قريب، والحدائق تبدو كالنساء تتزين لأعياد الصيف. ومن بين أعمدة العرائش، وحولها من كل النواحي، كان النهر يرى في الحقول، هائماً بين العشب في انحناءات مرتجلة، وابخرة المساء تتصاعد بين أشجار الحور المجردة من أوراقها، فتضفي على اطارها لوناً بنفسجياً، أشد شحوباً وشفافية من شاش رفيع يعلق بين أغصانها، وكانت الماشية تبدو عن بعد وهي تتحرك دون أن يسمع لها خطوة ولا خوار، والناقوس ماض في رنينه، ناشراً في الهواء شجاه وحزنه الوديع!

وعلى رنين دقاته المتواترة، هام فكر السيدة الشابة في ذكرياتها القديمة، أيام الشباب والدراسة في الدير . فتذكرت الشمعدانات الضخمة التي كانت تبدو من وراء الأواني المليئة بالأزهار فوق المذبح، والهيكل المقدس ذا الأعمدة الصغيرة، وتمنت لو أنها ظلت كما كانت إذ ذاك، تائهة وسط صف الأوشحة البيضاء الذي كانت تتخلله - هنا وهناك - بقع سوداء متناثرة تمثل محارم الراهبات المنحنيات فوق المراكع . ثم قداسات أيام الأحد، حين كانت ترفع رأسها أثناء الصلاة فتلمح وجه العذراء العذب، وسط غلالات الدخان المائلة إلى الزرقة، التي كانت تتصاعد من المباخر! إذ ذاك جاشت عواطفها، فأحست بأنها ضعيفة، مهجورة، كريشة في مهب العاصفة، وسعت - دون وعي منها - إلى الكنيسة، توّاقة إلى أية فرائض تتاح لها، كي تذيب روحها فيها، فيتلاشى الوجود!

والتقت في الميدان المؤدي إلى الكنيسة بليستيبودوا عائداً. فقد كان يؤثر أن يوقف عمله ثم يستأنفه، بدلاً من أن يتحيف ساعات العمل اليومية، حتى لقد كان يدق الناقوس لصلاة المساء كما يلائمه، فضلاً عن أن دقه مبكراً عن موعده كان ينبه الصبية إلى موعد درس الدين!

وكان بعض الصبية قد وصلوا فعلاً، وراحوا يلعبون «البلى» على بلاط المقابر، ويهزون أرجلهم فيحصدون بأحذيتهم زهور «بنات النار» التي نمت بين السور والمقابر المتاخمة له . هذا هو المكان الوحيد الذي تشيع فيه الخضرة . أما ما عداه، فلم يكن سوى احجار يكسوها دوماً غبار ناعم، رغم مكنسة الشماس! وكان الصبية يعدون في أرجاء المكان بأحذيتهم ذات الأعناق الطويلة، وكأنه ساحة أعدت لهم، وأصواتهم تعلو خلال رنين الناقوس الذي أخذ يخفت رويداً تبعاً لاهتزازات الحبل الطويل الذي كان يتدلى من البرج،

فيتجرر طرفه على الأرض . وأخذت بعض الطيور تحوم، مرسلة صرخات رفيعة، وتشق الهواء بحواف اجنحتها، ثم ترتد في رشاقة إلى اعشاشها الصفراء، تحت قرميد حافة البناء البارزة، وفي أقصى الكنيسة كان ثمة مصباح ينتقد، أو بالأحرى فتيلة في زجاجة معلقة يلوح ضوؤها من بعيد كهالة بيضاء تهتز فوق الزيت، بينما امتد شعاع طويل من الشمس عبر صحن الكنيسة كله، فزاد من ظهور ظلام جانبيها واركانها.

وسألت مدام «بوفاري» صبياً كان يلهو بهز مزلاج الباب في عروته الواسعة: «أين القس؟» فأجاب الصبي: «ها هو ذا قادم».

وبالفعل، انبعث صرير من باب مسكن القس. وما لبث الأب «بورنيزيان» أن ظهر، فهرع الأطفال إلى الكنيسة في هرج، وتمتم القس: «يا لهؤلاء الأوغاد! إنهم دائماً على هذا الحال!» ثم التقط نسخة مهلهلة من كتاب الصلوات تعثرت فيها قدمه، وقال: «إنهم لا يحترمون شيئاً!»

على أنه لم يكد يلمح مدام «بوفاري» حتى هتف: «معذرة! لم أتبينك!» ودس كتاب الصلوات في جيبه، ووقف وهو يعبث بمفتاح الهيكل الثقيل يحاول أن يوازنه بين أصبعيه. وفي ضياء غروب الشمس المنصب على وجهه، بدا مسوحه الصوفي حائل اللون، لامعاً عند المرفقين، بالياً عند الذيل، وكانت بقع الدسم والتبغ تتناثر على صدره العريض موازية لصف الأزرار الصغيرة، ثم تتكاثر عند فتحة العنق التي ارتكزت عليها ثنايا من جلد ذقنه الأحمر، المتهدل، الذي تناثرت فيه بقع صفراء توارت تحت شعر لحية خشنة وخطها المشيب، وكان قد فرغ لتوه من تناول العشاء، فراح يتنفس بصوت مسموع، وعاد يقول: «كيف حالك؟»

فأجابت «إيما»: «ليست طيبة، إنني مريضة!» ورد القس قائلاً: «وأنا كذلك، إن أيام الحر الأولى هذه تضعف المرء بدرجة عجيبة، أليست كذلك! لكننا على كل حال خلقنا لنتعذب، كما يقول بولس الرسول . ولكن، ما رأي السيد بوفاري في مرضك؟»

فبدرت منها حركة ازدراء، وقالت: «هو؟! » فقال الرجل الطيب وقد أخذته الدهشة: «ماذا؟ أو لم يصف لك دواء؟»

فقالت «إيما»: «آه، ليس الذي احتاج إليه بعلاج دنيوي!»

ولكن القس كان ينظر من آن إلى آخر نحو الكنيسة، حيث ركع الأطفال وأخذوا يتدافعون بالمناكب، ويتهاوون كرقع من الورق.

ومضت «إيما» تقول: «أريد أن اعترف ...».

وهنا صاح القس في صوت غاضب: «حذار يا ريبوديه، لسوف ألهب أذنيك أيها الشيطان!» ثم قال إذ تحول نحو «إيما»: «إنه ابن بوديه النجار، والداه في يسر، ولذلك يتركانه يفعل ما بدا له، على أن بوسعه أن يتعلم بسرعة لو أنه أراد، فهو شديد الذكاء،

وكيف حال السيد بوفاري؟»

ولاح أنها لم تكن تسمعه، فاستطرد قائلاً: «لا ريب أنه جم المشاغل دائماً، فهو وأنا أكثر الناس عملاً في الأبرشية، هو طبيب الأجسام» ثم أردف وهو يطلق ضحكة أجشة: «وأنا طبيب الأرواح!»

وحدّجته «إيما» بعينين ضارعتين وهي تقول: «أجل إنك تخفف الأحزان!»

– آه يا مدام بوفاري، لا تحدثيني عن ذلك، فقد اضطررت في هذا الصباح إلى الذهاب إلى (باديوفيل) من أجل بقرة كانت مريضة، فظنوا أنها كانت تحت تأثير الشيطان. كل أبقارهم هكذا، وإن لم أدر لهذا مبرراً! ولكن، معذرة . ثم التفت نحو الصبية وصاح: «لوبجمار وبوديه، هلا كففتما عن هذا؟» وقفز مسرعاً إلى داخل الكنيسة.

وكان الصبية قد تجمعوا حول القمطر الكبير، وتسلقوا مقعد المنشد، وفتحوا كتاب القداس، بينما أخذ بعضهم يتسلل خلسة حتى كان يبلغ جوف «مقصورة الاعتراف» ولكن القس انهال عليهم فجأة بوابل من الصفعات، ممسكاً بتلابيب ستراتهم، وأخذ يرفعهم عن الأرض ثم يهبط بهم على ركبهم فوق بلاط ساحة المذبح بشدة، كما لو كان يريد أن يغرسهم فيها!

وقال حين عاد إلى «إيما» وهو ينشر منديله القطني، ويمسك بأحد أطرافه بين أسنانه: «أجل، ما أجدر المزارعين بالرثاء!» قالت: وغيرهم أيضاً!»

– بالتأكيد، هناك عمال المدن مثلاً.

– لست أقصدهم . . . .

– عفواً! لقد عرفت بينهم أمهات بائسات يعلن أسرات .. ونساء فاضلات – بل أؤكد لك انهن قديسات فعلاً – لا يجدن الخبز!

فقالت «إيما» وقد أخذ جانبا فمها يختلجان وهي تتكلم: «ولكن أولئك، أولئك اللاتي يجدن الخبز يا سيدي القس، لا يجدن ...».

قال: «النار في الشتاء»؟!

– أواه، ما قيمة هذا؟

– ماذا؟ ما قيمته؟ يخيل إلى أنه إذا ما وجد المرء الدفء والغذاء، إذ ... على كل حال ... .

فتنهدت قائلة: «يا إلهي! يا إلهي!»

– إنك تعانين من عسر هضم ولا ريب، يجب أن تعودي إلى دارك يا مدام «بوفاري» فتشربي قليلاً من الشاي، فإنه يقويك، أو تناولي كوباً من الماء البارد الممزوج بمحلول السكر المركز (السكر المعقود).

وتساءلت «إيما» وقد بدت كمن يفيق من حلم: «لماذا؟» فقال: «ذلك لأنك كنت تضعين يدك على جبينك فخيل إلي أنك تشعرين بدوار» ثم استدرك قائلاً: «ولكنك كنت تسألينني عن شيء، فما هو؟ إنني لا أذكره»

فرددت «إيما»: «أنا؟ لا شيء! لا شيء!» . ووقع بصرها - إذ أجالته ببطء فيما حولها - على مسوح القس، ثم عاد كل منهما يحدق في الآخر صامتين . وما لبث أن قال في النهاية، «والآن، معذرة يا مدام بوفاري، فإن الواجب قبل كل شيء، كما تعلمين، ولابد من أن اتولى علاج تلاميذي هؤلاء الذين لا يصلحون لشيء، فإن حفلة «التناول» الأولى قادمة عما قريب، وأخشى أن تدهمنا ولما نستكمل استعدادنا، ولذلك استبقيهم ساعة بالاضافة إلى الفترة المحددة للدرس في يوم الاربعاء من كل اسبوع، منذ عيد الصعود، في مواظبة قاسية، يا للمساكين! إن المرء لا يملك أن يرشدهم بسرعة كبيرة إلى طريق الرب، كما أوصانا هو بذاته على لسان ابنه القدوس. لك تمنياتي بالصحة الجيدة، ولزوجك احتراماتي!»

ودلف إلى الكنيسة وهو يثني ركبته احتراماً عند الباب . ورأته «ايما» يغيب بين صفي المقاعد، وهو يسير بخطى ثقيلة، ورأسه مائل على كتفه قليلاً، ويداه مبسوطتان، وقد أخرجهما من المسوح، وما لبثت أن دارت على كعبيها بكل جسمها - قطعة واحدة - كتمثال على قاعدة تدور، ويممت شطر بيتها . غير أن صوت القس المرتفع، وأصوات الأطفال الصافية، ظلت تصل إلى أذنيها وتلاحقها: «هل أنت مسيحي؟» «نعم، أنا مسيحي» . «ومن هو المسيحي؟» «هو ذلك الذي عمد ... عمد ... عمد»!

وصعدت درجات السلم متشبثة بالحاجز (الدرابزين)، حتى إذا بلغت حجرتها ألقت بنفسها في مقعد مريح . وكان الضوء الشاحب المنساب خلال زجاج النافذة يهبط في تموجات خفيفة، ولاحت قطع الأثاث في أماكنها أكثر جموداً مما هي عادة، وأشد توارياً في الظلال وكأنها تغوص في بحر من الظلمات، والمدفأة مطفأة، والساعة سادرة في دقاتها . وساور «إيما» عجب غامض لهذا الهدوء الذي يسود كل الأشياء، بينما يفعم جوفها باضطراب صاخب! وفطنت إلى أن «برت» الصغيرة كانت هناك - بين النافذة ومنضدة الحياكة - تتأرجح على حذاءيها المنسوجين باليد (تريكو)، وتحاول أن تسعى إلى أمها لتمسك بأطراف أشرطة مرولتها . فقالت وهي تنحيها بيدها: «دعيني وشأني!»

على أن الصغيرة لم تلبث ان اقتربت من ركبتي أمها، فاستندت إليهما بذراعيها، وتطلعت بعينيهاالزرقاوين الواسعتين، وقد انساب من بين شفتيها خيط صغير من اللعاب أخذ يتساقط على مرولتها الحريرية . فكررت الشابة في ضيق: «دعيني وحدي!» وأفزع وجهها الطفلة، فأخذت تصرخ، ولكزتها الأم بمرفقها قائلة: «هلا تركتيني وحيدة؟» وسقطت «برت» عند قاعدة الصوان، فشق مقبض الدرج النحاسي خدها، الذي شرع ينزف دماً. ووثبت مدام «بوفاري» لترفعها، وقطعت حبل الجرس، فنادت الخادم بأعلى صوتها،

وعندما همت بأن تلعن نفسها ، ظهر «شارل»، إذ كانت ساعة العشاء قد حانت، فعاد إلى البيت.

وقالت «إيما» في صوت هادىء: «انظر يا عزيزي ! لقد وقعت الصغيرة وهي تلعب، فجرحت نفسها» فطمأنها «شارل» إلى أن الأمر ليس خطيراً، وذهب ليحضر بعض الضمادات اللاصقة (البلاستر).

ولم تهبط مدام «بوفاري» إلى قاعة الطعام، إذ رغبت في أن تخلو للعناية بالطفلة. وإذا أخذت ترقبها وقد نامت، زايلها رويداً ما أحست به من قلق، وبدا لها أنها كانت غبية وساذجة إذ داخلها كل ذلك الانزعاج لأمر بسيط كهذا. فالواقع أن «برت» لم تعد تشهق بنهنهة البكاء، بل أن انفاسها أخذت ترفع في رفق الغطاء القطني الذي اسبغته عليها أمها، وعلقت قطرات كبيرة من الدموع بأركان اجفانها نصف المغمضة التي كان المرء يلمح بين أهدابها حدقتين شاحبتين، غائرتين، والضمادة اللاصقة بخدها تشد جلدها في خط منحرف. وعبر خاطر ببال «إيما»، فقالت لنفسها: «يا عجبا! ما أقبح هذه الطفلة!»

وعندما عاد «شارل» في الساعة الحادية عشرة من الصيدلية - حيث كان قد ذهب بعد العشاء ليرد ما تبقى من الضمادة اللاصقة - وجد زوجته وهي تقف إلى جوار المهد، فقال وهو يقبل جبينها: «قلت لك إنها اصابة تافهة، فلا تنزعجي يا حبيبتي المسكينة، وإلا اسلمت نفسك للمرض» وكان قد مكث طويلاً في بيت الصيدلي، إذ جهد «هوميه» في التسرية عنه وتقوية روحه المعنوية، رغم أنه لم يبد كثيراً من القلق والتأثر. ثم أخذوا يتحدثون عن الأخطار العديدة التي يتعرض لها الأطفال، وعن اهمال الخدم. وكانت مدام «هوميه» على دراية بشيء من هذا، إذ كان صدرها لا يزال يحتفظ بآثار وعاء مليء بالحساء الساخن، اسقطته طاهية على صدر مرولتها فيما مضى، فتجشم ابواها من أجلها متاعب لما تكد تنتهي! ومن ثم أصبحت السكاكين - في منزل الصيدلي - لا تشحذ قط، والأرض لا تدهن بالشمع، وأقيمت قضبان على النوافذ، وقضبان أخرى متينة من الحديد أمام المدفأة. وكذلك أصبح ابناء «هوميه» لا يكادون - رغم حريتهم - يتحركون دون رقيب يرعاهم. وكان أبوهم «يحشوهم» بأدوية الصدر عند أتفه اصابة بالبرد، كما كانوا - حتى سن الرابعة - يقسرون في غير اشفاق على ارتداء طاقيات من الوبر، وكان هذا تطرفاً من مدام «هوميه» في الواقع، مما كان يبعث في نفس زوجها قلقاً، إذ كان يخشى آثار مثل هذا الضغط على أجهزة الرأس، حتى لقد كان يقول لها أحياناً: (اتريدين أن تجعلي منهم فرقة من الهنود الحمر أو من قبائل حوض البحر الكاريبي؟!)

وحاول «شارل» أن يقطع الحديث أكثر من مرة، فهمس في أذن الكاتب: «أود أن أتحدث إليك في أمر» فتقدمه الكاتب صاعداً السلم وهو يسائل نفسه: (أتراه قد حدس شيئا؟) وأخذ قلبه يخفق، وراح يرهق ذهنه بالافتراضات. وأخيراً رجاه «شارل» - بعد أن أغلق الباب - أن يسأل بنفسه في (روان) عن ثمن صورة فوتوغرافية بديعة، إذ كان يود

أن يعد لزوجته مفاجأة عاطفية، لفتة رقيقة تتمثل في صورة له وهو يرتدي الحلة السوداء. ولكنه اراد أولاً أن يعرف كم تتكلف، وما كان السؤال ليضايق السيد «ليون» في شيء، إذ كان يذهب إلى المدينة في كل أسبوع تقريباً.

ولكن، لماذا «ليون» بالذات ؟! حدس السيد «هوميه» أن وراء المسافة مغامرة من مغامرات الشباب أو مؤامرة! ولكنه كان مخطئاً، إذ أن السيد «ليون» لم يكن يسعى إلى غرام، بل أنه كان أكثر اكتئاباً منه في أي وقت مضى، كما لمست ذلك مدام «لوفرانسوا» من كمية الطعام التي أصبح يتركها في طبقه. وقد سألت محصل الضرائب علّة يزيدها علماً وايضاحاً، ولكن «بينيه» أجابها في جفاء بأنه «لا يعمل في البوليس»!

ومع ذلك، فقد لاح له زميله في حال جد غريبة، إذ كثيراً ما كان «ليون» ينطرح في مقعده، ويمد ذراعيه، ويشكو من الحياة في اسلوب غامض! وقد قال له المحصل: «إنما يرجع ذلك إلى أنك لا تحصل على نصيب كاف من الراحة والتسلية».

- أية تسلية ؟

- لو كنت في مكانك لهويت العمل بالمخرطة.

قال الكاتب: «ولكني لا أعرف كيف أديرها» فرد الآخر وهو يحك ذقنه في مزيج من الترفع والرضى: «آه، هذا صحيح!»

✦✦✦

كان «ليون» قد برم بالحب الذي لا غاية له، ثم بدأ يشعر بذلك الضيق الذي يسببه مضي الحياة على وتيرة واحدة متكررة، دون ما هدف يوجهها، أو أمل يعززها. واشتد به الملل من «ايونفيل» وأهلها، حتى أصبحت رؤيته بعض الأشخاص والبيوت، تثيره إلى درجة لم يعد يحتملها! وقد كان الصيدلي رجلاً طيباً، إلا أنه أصبح لا يطيقه البتة. ومع ذلك فان التفكير في نوع جديد من الحياة كان يفزعه بقدر ما كان يستهويه! وتحولت هذه الهواجس بعد قليل إلى نفاذ صبر، وإذ ذاك أخذت باريس تناديه - على البعد - بضجيج حفلاتها الراقصة الصاخبة، وضحكات عاملاتها اللعوبات! وإذ كان لابد من أن يتم دراسته القانونية هناك، فلماذا لا يرحل إليها لتوه؟ وما الذي يمنعه ؟ وشرع يعد متاعه، ودبر أعماله مقدماً، واثث في خياله مسكناً يعيش فيه حياة فنان، فيتلقى دروسه في العزف على «الجيتار»، ويقتني «روب دي شامبر»، وقلنسوة على غرار قلنسوات أهل (الباسك)، وخفين من المخمل الأزرق! بل أنه بدأ يتصور في اعجاب سيفين متقاطعين فوق مدفأة مسكنه وفوقهما «جيتار» تعلوها جمجمة!

وكانت العقبة تنحصر في الفوز بموافقة أمه. على أنه لم ير ما هو أحكم من هذا التدبير، بل أن رئيسه نفسه نصحه بأن يلتحق بمكتب آخر يستطيع فيه أن يحرز تقدماً

سريعاً في مرانه ودراسته. وإذ ذاك، انتهج «ليون» طريقاً وسطاً، فأخذ يبحث عن مكتب في (روان) يقبله ككاتب ثان، فلما لم يجد، كتب إلى أمه في النهاية خطاباً طويلاً مسهباً شرح فيه أسباب مبادرته للرحيل إلى باريس والاقامة فيها فوافقت! على أنه لم يتعجل، وظل «هيفير» شهراً بأكمله يحمل معه كل يوم من (ايونفيل) إلى (روان)، ومن (روان) إلى (ايونفيل) صناديق، وحقائب، وحزماً. حتى اذا أعد «ليون» ثيابه، وجدد حشو مقاعده المريحة الثلاثة، واشترى عدداً من ربطات العنق، وقام - بالاختصار! - باستعدادات تفوق ما يلزم لرحلة حول العالم، أخذ يرجئ سفره من أسبوع إلى آخر، حتى تلقى من أمه خطاباً ثانياً تستحثه فيه على الرحيل ما دام قد اعتزم أن يتقدم للامتحان قبل موسم العطلات.

وعندما حانت ساعة الوداع، بكت مدام «هوميه»، وانتحب «جوستان»، وأخفى «هوميه» تأثره - كرجل قوي الأعصاب! - ورغب في أن يحمل بنفسه معطف صديقه حتى باب مكتب الموثق الذي كان سيقل «ليون» في عربته إلى (روان). ولم يتبق لليون سوى لحظات يودع فيها السيد «بوفاري». فلما بلغ قمة السلم، توقف وقد تتابعت أنفاسه لاهثة. وإذ دلف إلى المكان، نهضت مدام «بوفاري» في عجلة، فقال ليون: «ها انذا مرة أخرى».. فقالت: «كنت متأكدة من هذا» وعضت شفتيها، واندفع فيض من الدماء خلال بشرتها فاصطبغت - من منابت شعرها حتى طوق ثوبها - بالحمرة. وظلت واقفة، مستندة بكتفها إلى الخشب الذي كان يكسو الجدار، بينما مضى متسائلاً: «هل الطبيب هنا ؟» فأجابت: «إنه في الخارج، في الخارج!» ثم سادهما صمت. وأخذ كل منهما يرمق الآخر، وقد رزحت أفكارهما تحت ألم واحد، متعانقة كصدرين ينبضان، ثم قال «ليون»: «أود أن أقبل برت» فهبطت «ايما» بضع درجات ونادت «فيليسيتيه»، وألقى نظرة طويلة على ما حوله من جدران، وزخارف، ومدفأة، وكأنه ينفذ خلال كل شيء! وعادت الخادم تحمل «برت» وهي تهز طاحونة هواء صغيرة مقلوبة رأساً على عقب ومعلقة في خيط. وطبع «ليون» عدة قبلات على عنقها وغمغم: «في رعاية الله أيتها الطفلة المسكينة! استودعك الله أيتها الصغيرة الحبيبة! وداعا!» ثم ردها إلى أمها، فقالت للخادم: «اخرجي بها» وبقيا وحيدين، وقد أولته مدام «بوفاري» ظهرها، وألصقت وجهها بزجاج النافذة، بينما أمسك «ليون» بقلنسوته يضرب بها فخذه برفق.

وقالت «إيما»: «السماء ستمطر!» فأجاب: «لدي معطف» قالت: «آه. ثم استدارت، وقد خفضت ذقنها، فبرز جبينها، وسقط عليه الضوء - كما يسقط على قطعة من مرمر - فانحدر حتى حاجبيها، دون أن يملك المرء أن يحدس ما كانت «إيما» تراه عند الأفق، ولا ما كان يجول في سريرتها. وما لبث «ليون» أن تنهد قائلاً: «والآن وداعا!» فرفعت «ايما» رأسها بحركة سريعة وقالت: «اجل، وداعاً اذهب!» وتقدم كل منهما نحو الآخر، ومد يده، ولكنها ترددت، ثم قالت وهي تسلمه يدها، وتغتصب ضحكة: «فليكن على الطريقة الانجليزية إذن!» وتحسس «ليون» راحتها بين أصابعه، ولاح له أن روح كيانه كله قد

انسابت إلى يدها الرطبة ثم فتح يده، وتلاقت أعينهما مرة أخرى، ثم اختفى! حتى إذا بلغ السوق، انحرف متوارياً خلف عامود، وتزود بنظرة أخيرة من البيت الأبيض ذي النوافذ الخضراء. وخيل إليه أنه رأى طيفاً خلف نافذة حجرة «إيما»، ولكن الستارة انسابت على مشجبها، وكأن شخصاً أخذ يزحزحها، فراحت تنسدل رويداً ناشرة ثنياتها الطويلة المائلة، ثم انبسطت كلها أمام النافذة وظلت مسدلة في استقامة ودون ما حراك، كجدار من الجص!

وانطلق «ليون» يعدو، ورأى عن بعد عربة رئيسه على الطريق، وإلى جوارها رجل في مرولة سميكة، يمسك بالجواد، وكان «هوميه» والسيد «جويومان» يتحدثان، ريثما يصل! وقال له الصيدلي والدموع تترقرق في عينيه: «قبلني! هاك معطفك يا صديقي العزيز خذ حذرك من البرد، واحترس لنفسك اعتن بنفسك!». وقال موثق العقود: «هيا يا ليون، اصعد!» وانحنى «هوميه» على «رفرف» العربة، ونطق بهاتين الكلمتين الحزينتين بصوت يقطعه النشيج: «رحلة سارة!» فأجابه السيد «جويومان»: «عم مساء!».
وتحركت العربة، وقفل «هوميه» عائداً.

✦✦✦

كانت مدام «بوفاري» قد فتحت النافذة المطلة على الحديقة وأخذت ترقب السحب، فإذا هي تتجمع حول الشمس الغاربة في اتجاه (روان)، ثم تطوي بسرعة ذيولها السوداء، فتندفع من ورائها خيوط الشمس الطويلة كأنها سهام من ذهب في درع معلقة، بينما كانت بقية السماء خالية، بيضاء كالخزف. على أن الريح لم تلبث أن هبت فأحنت هامات شجر الحور، ثم سقط المطر فجأة، وأخذت قطراته ترتطم بالورق الأخضر في صوت مسموع، ثم عادت الشمس إلى البزوغ، فانبعث صوت الدجاج، وأخذت الطيور تنفض اجنحتها وسط الأعشاب الكثيفة المخضلة، وحملت المياه معها وهي تنحدر على الحصباء زهور اللبخ الوردية.

وحدثت «إيما» نفسها قائلة: «أه! ما أبعد المسافة التي يكون ولابد قد قطعها الآن!»

وجاء السيد «هوميه» في منتصف السابعة، أثناء تناول العشاء - كعادته - وقال: «لقد ودعنا صديقنا الشاب!» فقال الطبيب: «علمت بذلك» ثم دار في مقعده وقال: «هل من أنباء عن الأسرة ؟»

- لا شيء يستحق الذكر، اللهم الا أن زوجتي كانت متأثرة بعد ظهر اليوم، أنت تعرف النساء، يتأثرون لأنفه الأمور، ولا سيما زوجتي، ونخطئ لو أننا عارضنا ذلك، إذ أن جهازهن العصبي أرق من جهازنا!

وقال شارل: «مسكين ليون! ترى كيف سيعيش في باريس ؟ وهل يألفها ؟» فتنهدت مدام «بوفاري»، وطقطق الصيدلي بلسانه قائلاً: «يألفها! حفلات العشاء في المطاعم،

والمراقص التنكرية والشمبانيا أؤكد لك أن كل هذ سيحلو له! » فاعترض «بوفاري» قائلاً: «ما أظنه سينزلق إلى الفساد» فأسرع السيد «هوميه» قائلاً: «ولا أنا وإن كان سيضطر إلى أن يجاري الآخرين خشية أن يظنوه من «الجيزويت»! وما أراك تعرف أية حياة يمارسها أولئك «الكلاب» من شباب الحي اللاتيني مع الممثلات ثم أن الطلبة يحظون بنظرة طيبة في باريس، ويكفي أن يظهروا بعض المواهب حتى يقبلهم القوم في خير المجتمعات بل أن من سيدات الحي «سان جيرمان» من يتدلهن في هواهم، فيتحن لهم الفرص لزيجات طيبة جداً »!

قال الطبيب: «ولكني أخشى عليه، هناك..»، فقاطعه الصيدلي قائلاً: «أصبت، هذا هو الجانب الآخر للموضوع. فالمرء هناك مضطر إلى أن يبقي يده فوق جيبه. إنك قد تكون في حديقة عامة – مثلاً – فيتقدم إليك شخص حسن الهندام – وربما كان يحلي صدره بوسام حتى ليحسبه المرء من رجال السلك الديبلوماسي – ويستدرجك، ويتلطف معك، ويقدم اليك قبضة من سعوط، أو يلتقط قبعتك إذا وقعت، ثم يزداد وداً فيصحبك إلى مقهى، ويدعوك إلى منزله الريفي. وبين كأسين من النبيذ يقدمك إلى كافة أنواع الناس. وفي ثلاث أرباع الحالات لا يكون ذلك الا لينشل ساعتك، أو ليورطك في مأزق خبيث» فقال «شارل»: هذا صحيح! على انني كنت أفكر بوجه خاص في الأمراض. حمى التيفوئيد مثلاً، التي تصيب الطلبة الوافدين من الريف»!

وارتعدت «إيما».. بينما قال الصيدلي: «هذا راجع إلى تغيير نظام الأكل، وما يترتب عليه من اضطراب في الجهاز كله. ثم، هناك ماء باريس، ألم تسمع عنه ؟ وكل تلك الأطعمة التي تقدم في المطاعم كل تلك الأغذية الكثيرة التوابل، التي تنتهي الى اشاعة الحرارة في الدم، وهي لا تعادل – مهما قال الناس عنها – حساء طيبا! لقد اعتدت – شخصياً – أن أفضل الطعام البسيط دائماً، فهو أكثر فائدة من سواه. لذلك أقمت – حين كنت أدرس الصيدلة في (روان) – في نزل خاص «بنسيون»، وكنت أتناول طعامي مع الاساتذة».

وهكذا استمر يعرض آراءه، وميوله الشخصية، حتى اقبل «جوستان» يدعوه فصاح: «أما من لحظة راحة ؟ دائماً أراني مشدوداً إلى الصيدلية والعمل! أو استطيع أن أخرج دقيقة ؟ هل أظل أكد وأكدح كالحصان المشدود إلى المحراث؟ يا لها من عبودية!» حتى إذا بلغ الباب، التفت قائلاً: بهذه المناسبة، هل عرفتما النبأ ؟ »

– أي نبأ ؟

أجاب «هوميه» رافعاً حاجبيه، متخذاً أكثر مظاهره جدية: من المحتمل جداً أن الاجتماع الزراعي – الذي كان يعقد عادة في مقاطعة السين السفلى – سيعقد هذا العام في (ايونفيل)، هذه هي الشائعة المنتشرة. وقد أشارت إليها الصحفية في هذا الصباح. وسيكون هذا أمراً بالغ الأهمية لمنطقتنا. على أننا سنتحدث عن هذا فيما بعد. شكراً، إني أرى طريقي، فإن «جوسان» يحمل المصباح».

الفصل السابع

كان اليوم التالي حزيناً بالنسبة لايما، إذ لاح لها كل شيء ملتفاً في جو أسود يطفو في اضطراب حائر على أسطح الأشياء ومظاهرها. وأخذ الأسى يغوص في أعماق نفسها في عواء واهن كالذي تبعثه رياح الشتاء في القلاع الخربة! كان ذلك صدى لمثل ذلك التفكير الحالم الحزين الذي نخلعه على الأشياء التي لا رجعة لها، أو الكلل الذي يعتريك بعد الجهد المبذول، أو الألم الذي يسببه جمود حركة معتادة سادرة، أو التوقف الفجائي لأي اهتزاز طال به الأمد!

وكما حدث عند العودة من (فوبيسار) – حين كانت الرقصات تدور في رأسها – اعترتها كآبة قاتمة، وقنوط خدر نفسها، وعاودها طيف «ليون» أطول قامة، وأكثر ملاحة، وفتنة، وغموضاً فهو لم يفارقها، وإن كان قد انفصل عنها. كان هناك، وكأن جدران البيت ما زالت تحتفظ بشبحه! ولم تكن تملك أن تحول بصرها عن البساط الذي سار عليه، ولا عن تلك المقاعد الخاوية التي كان يجلس عليها. ولقد ظل النهر ينساب، ويدفع في بطء موجاته الصغيرة على طول الضفاف الزلقة. كم من مرة سارا هناك على الحصباء المكسوة بالطحالب، يرافقهما خرير الأمواج ؟! ما كان أشد تألق الشمس إذ ذاك! أية أصائل هانئة شهداها وحدهما في الظل عند نهاية الحديقة! كان يقرأ لها بصوت مرتفع، وهو عاري الرأس، وقد جلس فوق مقعد من الأغصان الجافة، وريح المروج الرقيقة تهز صفحات الكتاب وأزهار الخميلة. أواه! لقد ذهب! فتنة حياتها، والأمل الوحيد في السعادة المحتملة! لم لم تقتنص تلك السعادة حين واتتها ؟ لم لم تتشبث بها بكلتا يديها، وكلتا ركبتيها، حين همت بأن تفر منها ؟! وأخذت تلعن نفسها لأنها لم تحب «ليون» لشد ما كانت ظامئة إلى شفتيه! واستولت عليها الرغبة في أن تفر وراءه وتلحق به، فتلقي بنفسها بين ذراعيه وتقول له: «ها أنذي! إنني لك!» ولكنها ما لبثت أن تقاعست إزاء صعوبات المغامرة، ولم تزدد شهواتها – التي ضاعفها الندم – إلا ضراوة!

✦✦✦

ومنذ ذلك الحين غدت ذكرى «ليون» محوراً لسأمها. كانت تشتغل هناك، في أزيز يفوق أزيز نار خلفها المسافرون فوق الجليد، في سهول المراعي الروسية! وكانت تقفز نحوه، وتلتصق به، وتحرك في عناء النار المحتضرة وتبحث في كل ما حولها عن شيء يذكيها! وجمعت أبعد الذكريات، وأقرب المناسبات، وما خبرته، وما تخيلته، وشهواتها العربيدة التي لم تحظ بالاشباع، ومشروعات السعادة التي تكسرت في الرياح كما تتكسر الأغصان

الذاوية، وفضيلتها العقيم، وآمالها المبددة، والألفة المنزلية. كل هذا جمعته – دون أن تفعل شيئاً – ثم اتخذته وقوداً لشجونها!

على أن اللهب لم يلبث أن خمد، إما لأن الوقود قد نفد، أو لأنه تراكم أكثر مما ينبغي، وشيئاً فشيئاً، أخذ الحب يخمد بسبب الفراق، والندم يختنق بحكم الاعتياد، ووهج الحريق الذي اشاع في سمائها الشاحبة لوناً قرمزياً يخبو رويدا! وفي غفلة ضميرها، ظنت أن اشمئزازها من زوجها إن هو إلا تلهف لحبيبها! بيد أن العاصفة ظلت هوجاء، حتى إذا احترقت الشهوة فصارت رماداً، دون أن تلتقي عوناً، ودون أن تشرق شمس، أطبق الليل على المسكينة من كل جانب، وضلت في البرد الفظيع الذي كان يخترمها. ثم عاودتها ذكرى أيام (توست) البغيضة، وأصبحت ترى نفسها أكثر تعاسة، إذ كانت قد خبرت الحزن، فأيقنت أنه لن ينتهي!

وإن امرأة تفرض على نفسها مثل هذه التضحيات، لخليقة بأن تسمح لنفسها ببعض النزوات! وبالفعل، ابتاعت «إيما» مقعداً قوطياً للصلاة، وانفقت خلال شهر واحد أربعة عشر فرنكاً في شراء ليمون لتنظيف أظافرها، وكتبت إلى (روان) في طلب ثوب من الكشمير الأزرق، واختارت شالاً من ابدع شيلان «لوريه»، واعتادت أن تعقده حول خصرها على الثوب الكشمير، ثم تغلق النوافذ، وتستلقي في هذا الزي على أريكة، وفي يدها كتاب! وكثيراً ما أخذت تبدل طريقة تصفيف شعرها، فأحياناً تصففه على الطريقة الصينية، أو ترسله في خصلات رخوة تجدلها في ضفائر، أو تفرقه على جانب الرأس مقصوصاً من أسفل كما يفعل الرجال!

وأرادت أن تتعلم الايطالية فابتاعت معاجم وكتاباً في النحو، وكمية من الورق الأبيض، وجربت القراءة الجدية في التاريخ والفلسفة. وكان «شارل» يستيقظ مجفلاً أثناء الليل أحياناً، ظاناً أن أحداً يناديه لاسعاف مريض، فيغمغم: «ها أنذا قادم!»، ثم يفطن إلى أن ما سمع لم يكن سوى صوت عود من ثقاب اشعلته «ايما» لتوقد المصباح! ولكن قراءاتها لم تكن أسعد حظاً من تطريزها، كلها لم تحظ بأكثر من الخيوط الأولى، ثم كانت تلقي بها في الصوان، وتشرع في تطريز غيرها، لتلقي بها بدورها. وهكذا لم تكن تشرع في قراءة كتاب حتى تطرحه جانباً وتتناول سواه!

وكانت تتولاها نوبات من السهل أن تنساق خلالها إلى ارتكاب أية حماقة. فقد تحدث زوجها يوماً بأنها تستطيع أن تشرب كأساً كبيرة من «البراندي». وإذ كان «شارل» من الحمق بحيث قبل هذا التحدي، فقد ازدردت ما كان في الكأس حتى آخر قطرة! وبالرغم من تصرفاتها النزقة – كما كانت ربات البيوت في (ايونفيل) يصفنها – فإن «إيما» لم تكن قط مرحة، بل كان يحف بجانبي فمها عادة ذلك التقلص الجامد الذي ينتاب وجوه العوانس، والرجال ذوي الطموح الخائب! واشتد بها الشحوب حتى غدت كالثوب الأبيض، وأصبح جلد أنفها مشدوداً عند الفتحتين، وغدت عيناها ترنوان إليك بنظرات مبهمة،

وراحت تكثر من الحديث عن شيخوختها، بعد أن اكتشفت ثلاث شعرات بيضاء في مفرقها!

وكثيراً ما كانت تصاب بالاغماء، حتى بصقت دماً ذات يوم. وعندما أخذ «شارل» يروح ويجيئ حولها في اهتمام ينم عن قلق، قالت له: «آه! وما أهمية هذا ؟» فأسرع «شارل» إلى مكتبه وانخرط في البكاء، وقد اتكأ بمرفقيه على مكتبه وهو جالس في مقعده تحت صورة الجهاز العصبي. ثم كتب لأمه يسألها أن تحضر، وراحا يعقدان معاً الأحاديث الطويلة، ويتبادلان الرأي بشأن «ايما» ما الذي ينبغي أن يتخذاه ؟ ما الذي ينبغي فعله ما دامت ترفض كل علاج طبي ؟ وقالت مدام «بوفاري» الأم: «أفتعرف ما الذي يلزم لزوجتك ؟ إنها تحتاج إلى أن تنهمك في عمل يدوي يشغلها، ولو أنها كانت مضطرة - ككثيرات غيرها - إلى كسب عيشها، لما راودتها هذه الأوهام التي تواتيها من كثير من الأفكار التي تحشد بها رأسها، ومن البطالة التي تعيش فيها، فقال «شارل»: «ولكنها دائماً مشغولة».

- آه، حقاً. مشغولة بماذا ؟ قراءة الروايات، والكتب الرديئة، والمؤلفات الموضوعة ضد الدين، والتي يسخر مؤلفوها من القسس بأقوال مقتبسة عن «فولتير» ؟ كل هذا يشتت العقل يا بني المسكين! أي إنسان بلا دين لابد أن ينتهي أسوأ نهاية!

ومن ثم استقر الرأي على منع «ايما» من قراءة الروايات. ولم يكن الأمر هيناً، ولكن السيدة تعهدت بالأمر، فرؤي أن تذهب بنفسها إلى متعهد الكتب - عند مرورها بروان - فتخبره بأن «إيما» أوقفت اشتراكها. ترى، أليس لهما الحق في أن يلجأا إلى البوليس إذا اصر صاحب المكتبة - رغم ذلك - على المضي في تجارته التي تسمم العقول؟!

وكان الوداع بين الحماة وزوجة ابنها فاتراً، لم تكونا خلال الأسابيع الثلاثة التي قضتاها معاً قد تبادلتا ست كلمات، فوق الأسئلة والعبارات التي كانتا تتبادلانها على المائدة، وقبيل اللجوء إلى الفراش بالليل. ثم رحلت مدام «بوفاري» الكبيرة في أحد أيام الأربعاء، التي تعقد فيها سوق (ايونفيل)، وكان الميدان منذ الصباح قد اكتظ بصف من العربات التي امتدت بمحاذاة المنازل من الكنيسة إلى الفندق، وقد ارتكزت على مؤخراتها، وارتفعت أذرعها في الهواء. وعلى الجانب الآخر، كانت ثمة خيام تباع فيها الأقمشة القطنية والأغطية، وجوارب الصوف مع سروج الخيل، ولفائف الأشرطة الزرقاء التي تتطاير اطرافها مع الريح وكانت قطع الحديد الخردة منتشرة بين البيض المنسق على شكل اهرامات، وأقراص الجبن التي يبرز منها قش لزج، وإلى جوار آلات درس القمح، كان الدجاج ينقنق في اقفصة منخفضة وهو يمد رقابه خلال القضبان. والجمهور متجمع في مكان واحد، لا يبغى عنه انتقالاً، حتى لقد كان يوشك أحياناً أن يهشم واجهة الصيدلية التي كانت لا تخلو ابداً في أيام الأربعاء من الذين كانوا يقبلون طلباً للمشورة الطبية أكثر منهم لشراء أدوية، نظراً لما كان للسيد «هوميه» من صيت ذائع في القرى المجاورة، حيث فتن الريفيون

بقوة اعتداده بنفسه، فكانوا يعتبرونه أعظم الأطباء طرا!

وكانت «ايما» تتكئ على حافة النافذة، على نحو ما كانت تفعل في كثير من الأحيان، فالنافذة تحل في الريف محل المسرح والنزهة. وفيما هي تتسلى بمشاهدة حشد من الاجلاف، رأت سيداً في «ردنجوت» من المخمل الأخضر، وفي يديه قفازان أصفران، وقد غطى حذاءيه بزوج من «جيتر» سميك، وكان يسعى نحو منزل الطبيب، يتبعه فلاح يسير مطاطئ الرأس، بادي الاستغراق في التفكير وقال الرجل يسأل «جوستان» - الذي كان يتحدث إلى «فيليسيتيه» عند درجات المدخل - وقد ظنه خادماً في المنزل: «هل استطيع أن أقابل الطبيب ؟ قل له إن السيد «رودولف بولانجيه» من (لاهوشيت) هنا». وما قرن اسمه بـ (لاهوشيت) من قبيل النعرة الإقليمية، وإنما زيادة في التعريف بنفسه، والواقع أن (لاهوشيت) كانت ضيعة على مقربة من (ايونفيل)، ابتاع السيد «رودولف» قصرها، ومزرعتين منها يستطيع أن يزرعهما بنفسه، ولكن دون أن يجشم نفسه كثير عناء. وكان يعيش أعزب، وقيل إن دخله بلغ «خمسة عشر ألفاً من الفرنكات في العام، على الأقل»!

وأقبل «شارل» على الغرفة، فقدم إليه السيد «بولانجيه» رفيقه الذي كان يريد أن يفصد لأنه كان يحس «بتنميل يسري في كل جسمه»! وقال الرجل يعارض كل حجة: «لسوف يطهرني هذا». ومن ثم أمر «بوفاري» بضمادة ووعاء سأل «جوستان» أن يمسكه له، ثم قال للفلاح الذي شحب لونه: «لا تخف يا بني!». فقال الآخر: «لا، لا، يا سيدي، هيا». وفي تظاهر بالجرأة، مد ذراعه الضخمة. وبوخزة من المبضع، انبثق الدم ملطخاً المرآة، فهتف شارل: «قرب الوعاء» بينما قال الفلاح: «يا الهي! إن المرء ليحسبها نافورة صغيرة. ما أشد حمرة دمي! إنها دلالة طيبة. أليست كذلك ؟!»

فقال الطبيب: «إن المرء لا يشعر بشيء في البداية - أحياناً - ثم يواتيه الاغماء فيما بعد، لا سيما ذوي البنية القوية كهذا الرجل!» وعند هذه الكلمات، أفلت الفلاح الكيس الذي كان يعبث به بين أصابعه، وطقطق ظهر المقعد إذ سرت في كتفيه رعدة، وسقطت قبعته، فقال «بوفاري» وهو يضغط الوريد باصبعه: «لقد توقعت هذا». وأخذ الوعاء يهتز بين يدي «جوستان»، وارتجفت ركبتاه، وشحب لونه، فنادى شارل: «إيما! إيما!»، وهبطت السلم في وثبة واحدة، فصاح: «بعض الخل. يا الهي! اثنان في وقت واحد».. وتعذر عليه - لفرط انفعاله - أن يضع الكمادة!

وقال السيد «بولانجيه» في هدوء وهو يمسك بذراع «جوستان» ويجلسه على المائدة وظهره إلى الحائط: «ما هذا بشيء!» وراحت مدام «بوفاري» تخلع عنه رباط رقبته، وانعقد الشريط الذي يضم فتحة قميصه، فظلت دقائق تحرك اصابعها الرقيقة حول عنق الفتى، ثم سكبت بعض الخل على منديلها «الباتيسته»، ورطبت صدغيه بلمسات خفيفة وراحت تنفخ فيهما برفق. وما لبث الفلاح أن أفاق، ولكن أغماء «جوستان» طال، واختفت حدقتاه في بياض عينيه كما تغيب الزهور الزرقاء في اللبن. فقال شارل: «يجب أن نخفي

هذا عنه»، فتناولت مدام «بوفاري» الوعاء لتضعه تحت المائدة. واذ تحركت منحنية، انتشر حولها - على بلاط الغرفة - ثوبها. وكان ثوباً صيفياً أصفر، ذا أربعة «كرانيش» وخصر طويل وذيل واسع وترنحت «ايما» قليلاً وهي منحنية فبسطت ذراعيها، فالتف القماش حول صدرها، مبيناً قسماته، ثم ذهبت لتحضر ابريق ماء، وفيما كانت تذيب بعض قطع السكر فيه، وصل الصيدلي، وكانت الخادم قد ذهبت في غمرة الارتباك لإستدعائه، وما ان رأي عيني تلميذه تحملقان، حتى تنفس الصعداء، ثم ذهب إليه فحدق فيه من رأسه إلى قدمه وقال: «مغفل! مغفل كبير! مغفل بالثلث! كأني بالحجامة عملية خطيرة، أليس كذلك ؟! أفهكذا يتحول الصنديد الذي لا يخشى شيئاً إلى سنجاب من النوع الذي يتسلق إلى ارتفاعات شاهقة ليسقط بعض البندق! أي نعم، تكلم واطنب مزهواً في مدح نفسك! يا لها من استعدادات طيبة لممارسة الصيدلة فيما بعد! إنك قد تستدعى في ظروف خطيرة إلى المحاكم لتنير اذهان القضاة، وإذ ذاك يتحتم عليك أن تحتفظ برباطة جأشك وقوة حجتك، وأن تظهر بمظهر الرجل، والا كنت ابلها»

ولم يجب «جوستان»، فاستطرد الصيدلي: «من سألك أن تحضر ؟ إنك لتثقل دائماً على السيد والسيدة، فضلاً عن انني لا استغني عنك في أيام الأربعاء، ففي الحانوت الآن عشرون شخصاً، وقد تركت كل شيء وحضرت نظراً لاهتمامي بأمرك، فهيا، انهض. اسرع! عجل! انتظرني هناك، وانتبه للقوارير».. وما أن انصرف «جوستان» - بعد أن سوى ثيابه - حتى أخذوا يتحدثون بعض الوقت عن نوبات الاغماء، فزعمت مدام «بوفاري» أنها لم تفقد قط وعيها. فقال السيد «بولانجيه»: «هذا عجيب بالنسبة لسيدة! على أن بعض الناس شديد الحساسية، فقد رأيت - في إحدى المبارزات - شاهداً يفقد وعيه بمجرد سماعه صوت حشو المسدسات!»

وقال الصيدلي: «إن مرأى دماء الغير لا تؤثر في - شخصياً - على الاطلاق، ولكن مجرد التفكير في أن دمي يسيل كاف لأن يفقدني الوعي، لو تماديت في التفكير!» وعندئذ سرح السيد «بولانجيه» خادمه «موصياً اياه بأن يهدئ من جأشه بعد أن تخلص من وهمه.» ثم أضاف: «إنه قد أتاح لي فرصة التعرف بكم». ونظر نحو «ايما» إذ قال ذلك، ثم وضع ثلاثة فرنكات على ركن من المائدة، وانحنى في غير اكتراث، وانصرف. وسرعان ما كان منطلقاً على الضفة الأخرى للنهر، في طريقه إلى (لاهوشيت). ورأته «ايما» يسير في المرعى تحت أشجار الحور، وهو يتمهل بين آن وآخر كما لو كان يفكر.

كان يحدث نفسه بهذه الخواطر: «إنها لطيفة جداً. لطيفة جداً زوجة الطبيب هذه! اسنان بديعة، وعينان سوداوان، وقدم صغيرة، وقوام كقوام الباريسيات. من أين جاءت بحق الشيطان. من أين التقطها هذا الرجل البدين ؟!

وكان «رودولف بولانجيه» في الرابعة والثلاثين من عمره، ذا مزاج عنيف، وذكاء نافذ، وقد خالط كثيراً من النساء حتى غدا خبيراً بهن، ومن ثم لاحت له هذه المرأة جميلة،

فراح يفكر فيها وفي زوجها ويقول لنفسه: «اعتقد إنه مغفل، وانها قد سئمته ولا ريب، فإن اظافره قذرة، ولحيته لم تحلق منذ ثلاثة أيام. وبينما ينطلق لعيادة مرضاه، تعكف هي على رتق الجوارب، فلا تلبث أن تسأم! ولابد أنها تتوق لسكنى المدينة، ورقص «البولكا» كل مساء يا للمرأة المسكينة! كأني بها تتعطش للحب كما تتعطش السمكة للماء فوق مائدة المطبخ! وإن ثلاثة من كلمات الغزل لكافية لأن تجعلها تعبد المرء، إنني واثق من ذلك! ولسوف تكون رقيقة، فاتنة. أجل، ولكن كيف السبيل إلى التخلص منها بعد ذلك؟»

غير أن متاعب اللذة التي تراءت له جعلته ينقلب إلى التفكير في عشيقته على سبيل المقارنة كانت ممثلة في (روان)، وقد استخلصها لنفسه وأخذ يعولها. وما أن أخذ يتأمل صورتها - على صفحة ذاكرته - حتى أحس بجذوة رغبته تخمد فقال لنفسه: «آه! إن مدام بوفاري أجمل، وأكثر نضرة بوجه خاص. فلقد بدأت فرجينيا تميل للبدانة بالتأكيد، وهي امرأة من العسير ارضاء رغباتها ثم انها ذات ولع جنوني ببراغيث البحر (الجمبري)!!»

ولما كانت الحقول خالية من الناس، لم يكن رودولف يسمع حوله سوى خشخشة الأعشاب إذ تحتك بحذاءيه مع خطواته المنتظمة، وصرخة جرادة تختفي بين الشوفان بعيداً. وعاد يتمثل صورة «ايما» في الحجرة، وفي الثوب الذي رآها فيه، ثم شرع يخلع عنها ثيابها في خياله! وصاح وهو يفتت قطعة متماسكة من الطين بضربة من عصاه: «آه، لسوف انالها!» وشرع لفوره يدرس الاسلوب «السياسي» للمغامرة، فساءل نفسه: «أين نلتقي؟ وبأي الوسائل؟ لسوف تضايقنا دائماً الطفلة، والخادم، والجيران، والزوج، وكل هذه الهموم. أف! إن المرء معرض لأن يضيع كثيراً من الوقت في كل ذلك» ثم عاد يقول: «إن لها في الحق عينين تخترقان قلب المرء كالبريمة. ويالشحوب بشرتها! إنني أعبد الشاحبات!»

وعندما بلغ قمة تلال (ارجى)، كان ذهنه قد استقر على أمر، فقال: «لم يبق إلا تصيد الفرص. حسناً وسأطلب «حجامة» لنفسي لو استدعى الأمر ولن نلبث ان نغدو أصدقاء، فأدعوهم إلى منزلي». ثم أضاف: «مرحي! إن المعرض الزراعي عما قريب، ولسوف تزوره فأراها هناك، ولنبدأ في جرأة، فهذه أضمن الطرق!»

الفصل الثامن

حان أخيراً موعد المعرض الزراعي الذي ذاع ذكره. وفي صباح يوم الافتتاح، وقف جميع أهل (ايونفيل) على أبوابهم يتحدثون عن الاستعدادات. كانت واجهة مبنى البلدية قد زينت بفروع اللبلاب، وأقيم سرادق في أحد المروج للمأدبة، وأمام الكنيسة - في وسط الميدان - نصب مدفع من النوع الذي يحدث قرقعة، لاعلان وصول مدير المقاطعة، وتحية اسماء المزارعين الفائزين بجوائز. ووفد الحرس الوطني من (بوشي) - إذ لم يكن في (ايونفيل) حرس - لينضم إلى فريق رجال الاطفاء الذين كان «بينيه» برأسهم، وقد ارتدى في ذلك اليوم ياقة أعلى من ياقته العادية، وشدت الأزرار سترته حول جسمه إلى درجة أحالت جذعه إلى كتلة متيبسة لا تتحرك، فبدا كما لو كان الجزء الحي من جسمه كله قد هبط إلى ساقيه اللتين كانتا ترتفعان في خطوات رتيبة على ايقاع واحد. ولما كانت ثمة منافسة بين محصل الضرائب وضابط الحرس الوطني. فقد أخذ كل منهما يقوم بمناورات مع رجاله - على حدة - ليظهر مواهبه، فكان المرء يرى الأشرطة الحمراء والشارات السوداء تروح وتغدو بالتناوب، دون أن يكون لهذا العرض من نهاية! أبداً لم ير في قرية (ايونفيل) عرض للأبهة والعظمة مثل هذا!

وكان عدد كبير من المواطنين قد غسلوا واجهات دورهم في المساء السابق، وتدلت الاعلام الثلاثية الألوان من النوافذ المنفرجة المصاريع، وازدحمت الحانات جميعاً. وفي الجو - الذي كان صحواً - بدت الياقات المنشاة، والصلبان المذهبة، والأوشحة الملونة، انصع بياضاً من الثلج في ضياء الشمس، فكانت تخفف بتباينها وتناثرها من اطراد حلكة «الردنجوت» والملابس الشعبية الزرقاء، وكانت زوجات المزارعين القادمات من المزارع المجاورة ينتزعن - إذا ما ترجلن عن جيادهن - الدبابيس الكبيرة التي كانت تثبت ذيول ثيابهن حول أجسامهن، إذ كن قد رفعنها خشية الوحل، في حين كان الازواج، من ناحيتهم، ينشرون حول قبعاتهم - حماية لها - مناديل امسكوا اطرافها بين أسنانهم.

وأخذت الجماهير تتوافد من مختلف أنحاء القرية على الشارع الكبير، متدفقة من الأزقة والدروب والبيوت. ومن وقت لآخر، كان المرء يسمع ارتطام الأبواب وهي تغلق وراء النسوة اللاتي يخرجن من دورهن - وقد ارتدين قفازاتهن - يسعين إلى مشاهدة الاحتفال، وكان أشد ما حاز الاعجاب، حاملان طويلان زخرا بالمصابيح، وقد حُفّا بمنصة أعدت لجلوس ذوي النفوذ. وإلى جانب ذلك، اقيمت حول أعمدة دار البلدية أربع قوائم تحمل كل منها علماً صغيراً من قماش يميل لونه إلى الخضرة، نقشت عليه كلمات بحروف ذهبية، وقد كتب على العلم الأول: «إلى التجارة»، وعلى الثاني: «إلى الزراعة، وعلى الثالث: «إلى الصناعة»، وعلى الرابعة: «إلى الفنون الجميلة».

وكان الحبور الذي اشرقت به الوجوه جميعاً قد انقلب تجهماً على وجه مدام «لوفرانسوا»، صاحبة الفندق. إذ راحت تتمتم لنفسها، وهي واقفة على درجات مطبخها: «يا للحماقة! يا للسخف! هذا السرادق من القماش السميك الخشن (المشمع)! أو يظنون أن مدير الاقليم سيغتبط بتناول العشاء تحت هذه الخيمة كمهرج السيرك ؟! أو يسمون هذا العمل المستهجن خدمة لصالح البلدة ؟ اذن، ففيم كان استدعائي «المرمطون» من (نيوشاتل)! ولمن ؟ لرعاة البقر! للحفاة!» ومر بها الصيدلي إذ ذاك، وكان يرتدي سترة سوداء، وبنطلوناً من المخمل القطني، وحذائين من نسيج الفراء، ومن العجيب أنه كان يلبس فوق هذا قبعة ذات قبة منخفضة!

وقال «هوميه» لصاحبة الفندق: «ايذني لي! معذرة، فاني على عجل!» وإذ سألته الأرملة البدينة إلى أين هو ذاهب، أجاب: «إن الأمر يبدو لك غريباً، أليس كذلك ؟ أنا الذي أظل حبيساً في معملي أكثر من فأر الرجل في جبنه!» فسألته: «أي جبن ؟» فتابع حديثه قائلاً: «آه، لا شيء! لا شيء! إنما اردت أن انبئك يا مدام لوفرانسوا بأنني أعيش في بيتي عادة كالناسك. أما اليوم، فمن الضروري، بحكم الظروف...»، فقاطعته في ازدراء: «آه، أنت ذاهب إلى هناك!»، فأجاب الصيدلي في دهشة: «أجل، أنا ذاهب، أو لست عضواً في اللجنة الاستشارية ؟»

وحدقت فيه الأم «لوفرانسوا» بضع لحظات، ثم قالت في النهاية وهي تبتسم: هذا وضع آخر! ولكن، فيم تهمك الزراعة ؟ أتفهم فيها شيئا ؟»

- بالتأكيد، إنني أفهمها ما دمت صيدلياً، أي كيمائياً. فإن غاية الكيمياء يا مدام لوفرانسوا هي معرفة التفاعل الجزئي والتأثير المتبادل بين كافة الأجسام الطبيعية، ومن ثم فإن الزراعة تدخل في نطاقها. والواقع أن تركيب السماد، وتخمر السوائل، وتحليل الغازات، وتأثير التعفن. انني لأسألك ما هذا كله ؟ أليس هو الكيمياء في انقى وأبسط مظاهرها ؟!

ولم تجب صاحبة الفندق، فاسترد «هوميه» قائلاً: «هل تظنين أنه لابد للمرء أن يحرث الأرض أو يربي الدواجن ويسمنها بنفسه لكي يكون من رجال الزراعة؟ إن الأكثر ضرورة هو أن يعرف تركيب المواد التي تتعلق بالزراعة: الخواص الجيولوجية، والعوامل الجوية، ونوع التربة، والمعادن، والمياه، وكثافة الأجسام المختلفة، وخاصية الجاذبية الشعرية - التي يتوقف عليها سريان العصارات المغذية للنبات - وما إلى هذا كذلك يجب أن يكون المرء على إلمام تام بمبادىء الصحة كي يتولى التوجيه ونقد العيوب في انشاء المباني، وتغذية الحيوان، وتغذية الخدم. وفوق ذلك يا مدام «لوفرانسوا»، يجب أن يكون المرء على دراية بعلم النبات، وأن يستطيع أن يميز بين النباتات كما تعلمين. فيعرف أيها الصحي المفيد، وأيها الضار! أيها لا ينتج، وأيها ذا القيمة الغذائية وهل من المفيد أن نقتلعها من هنا ونعيد زرعها هناك، وأن نستكثر بعض الأنواع، ونقضي على البعض

الآخر. وبالايجاز، يجب أن يظل المرء متتبعاً للعلم عن طريق النشرات والصحف العامة، وأن يكون يقظاً ليتعرف التحسينات...».

ولم تحول صاحبة الفندق عينيها عن «المقهى الفرنسي»، بينما مضى الصيدلي قائلاً: إني لأدعو الله أن يكون كل المشتغلين بالزراعة عندنا كيميائيين، أو أن يولوا مجالس العلم اهتماماً، على الأقل، فأنا مثلاً قد ألفت أخيراً كتيباً لا بأس به. مذكرة في أكثر من اثنتين وسبعين صفحة، بعنوان: «شراب التفاح (السيدر)، صنعه وتأثيره، مع بعض الأفكار الجديدة في الموضوع» وأرسلتها إلى الجمعية الزراعية في (روان)، فكانت سبباً في «أن حظيت بشرف الانضمام إلى عضويتها، في قسم الزراعة، وفي الفرع الخاص بزراعة الفواكة. ولو أن مؤلفي هذا أتيح للجمهور...».

على أن الصيدلي أمسك هنا عن الكلام، إذ بدا أن مدام «لوفرانسوا» كانت في شغل عنه ثم قالت أخيراً: «ألا أنظر اليهم! شيء غير مفهوم! هذه الحانة الحقيرة!» وهزت كتفيها في حركة أزاحت عن جسمها الصدار الصوفي (التريكو)، وأشارت بكلتا يديها إلى حانة منافسها، التي كانت تنبعث منها أصوات تغني ثم أضافت قائلة: «لن يدوم هذا امداً طويلاً، على أية حال، وسينتهي كل شيء قبل اسبوع» فتراجع «هوميه» مذهولاً، بينما هبطت ثلاث درجات لتهمس في أذنه: «ماذا! أو لا تعلم هذا؟ هناك حجز سيوقع في الاسبوع المقبل، و «لوريه» هو الذي سيتسبب في بيع الحانة، إذ قضي عليه بدفع قيمة الصكوك (الكمبيالات)...»، فصاح الصيدلي الذي كان يجد دائماً من التعبيرات ما يتمشى مع كل مناسبة يمكن تصورها: «يا لها من نكبة مفزعة!»

إذ ذاك شرعت ربة الفندق تروي له القصة التي كانت قد سمعتها من «تيودور» – خادم السيد «جويومان» – ومع أنها كانت تبغض «تيلييه»، إلا أنها راحت تنحي باللوم على «لوريه» واصفة اياه بأنه غشاش دنيء! وقالت: «ها هو ذا! انظر اليه، إنه في السوق ينحني لمدام «بوفاري» التي ترتدي قبعة خضراء. عجباً، إنها تأخذ بذراع السيد بولانجيه» فهتف هوميه: «مدام بوفاري! يجب أن اذهب فوراً فأقدم لها احتراماتي، لعلها ستسر جداً بأن تحصل على مقعد في الحلبة، تحت الرواق».. ولم يلق الصيدلي بالاً إلى الام «لوفرانسوا» التي أخذت تناديه لكي تسهب له في القصص، بل ابتعد في خطوة سريعة، وعلى شفتيه ابتسامة، وقد شد عرقوبه، وراح يسخو في الانحناء يمنة ويسرة موزعاً التحيات، وذيل سترته السوداء يطير مع الريح من خلفه، شاغلاً فراغاً كبيراً. لكن «رودولف» لمحه من بعيد، فراح يغذ السير وهو يجذب مرافقته معه، ولكن أنفاس مدام «بوفاري» تقطعت، فاضطر إلى أن يتباطأ، وقال في لهجة جافة وهو يبتسم: «ما هذا إلا لكي نفر من هذا الرجل البدين، الصيدلي، كما تعلمين!» فضغطت مرفقه. فسألها وهو يرمقها من طرف عينه: «ما معنى هذا؟» وكانت صفحة وجهها هادئة، لا تنم عن شيء، وقد برزت من اطار قلنسوتها البيضاوية الشكل، التي كانت مزدانة بأشرطة باهتة تشبه

أوراق البوص. وكانت عيناها - بأهدابهما الطويلة المقوسة - تنظران إلى الأمام في خط مستقيم. ومع أنهما كانتا مفتوحتين على وسعهما، إلا أنهما لاحتا متوازيتين بعض الشيء، كما لو كانت وجنتها تدفعانهما، وقد راح الدم يسري برفق تحت بشرتهما الرقيقة، وعلى طول رأسها يميل على احدى كتفيها، كما كانت الأطراف اللؤلؤية لاسنانها البيضاء من بين شفتيها!

وساءل «رودولف» نفسه: «أتراها تسخر مني؟» غير أن الحركة التي بدرت من «إيما» لم تكن ترمي إلا إلى تنبيهه. فقد كان السيد «لوريه» يرافقهما، وكان يتكلم بين آن وآخر، وكأنه يود أن يندمج معهما في الحديث وما لبث أن قال: «يا له من يوم رائع! لقد غادر الجميع دورهم! إن الرياح تهب من الشرق!».. ولم ترد عليه مدام بوفاري ولا رودولف بشيء، بينما كان هو يقترب منهما عند أية حركة تبدر منهما ويقول: «معذرة!»، ويرفع قبعته! حتى إذا بلغوا منزل البيطار، لم يمضوا في الطريق العامة حتى الحاجز، بل انحرف رودولف فجأة إلى طريق ضيقة، ساحباً معه مدام بوفاري، وهو يهتف: «عم مساء يا مسيو لوريه! إلى اللقاء!».

وقالت «إيما» ضاحكة: «ما أبرع ما تخلصت منه!» فعقب قائلاً: «ولماذا يترك المرء نفسه عرضة لأن يثقل عليه الآخرون! ولما كنت اليوم سعيداً بأن أكون معك...».

وتضرج وجه «إيما»، ولم يتم رودولف عبارته، بل تحول يتحدث عن جمال الجو، ولذة السير على العشب. وكانت بعض زهرات «المرجريت» قد استوت على سيقانها فقال: «ها هي ذي بعض زهور المرجريت البديعة تبشر بعيد الفصح، وها هو ذا عدد منها يكفي لتقديم النبوءات لكافة العذارى العاشقات في المنطقة!». ثم أضاف: «هل اقتطف بعضها؟ ما رأيك؟» فسعلت قائلة: «وهل أنت عاشق؟» فأجاب رودولف: «ا.. ا.. من يدري!» وكان المرج يمتلىء، وربات البيوت يزاحمنك بمظلاتهن الكبيرة، وسلالهن، واطفالهن، وكثيراً ما كان المرء يضطر إلى إفساح الطريق لصف طويل من الريفيات أو الخادمات ممن يلبسن جوارب زرقاء، وأحذية مسطحة النعال، وخواتم من الفضة، وتفوح منهن - إذا ما مر المرء بالقرب منهن - رائحة اللبن! وقد سرن متشابكات الأيدي، شاغلات عرض الميدان، من أشجار الحور إلى سرادق الاحتفال! وكان موعد فحص المعروضات قد حان، فأخذ الفلاحون يدخلون -واحد بعد آخر- إلى ما يشبه حلبة للسباق، يحدها حبل طويل شد إلى عصي.

وكانت الماشية تربض هناك وأنوفها موجهة نحو الحبل، وقد اصطفت في مجموعات غير متساوية ولا منظمة. وخياطم الخنازير المتثاقلة مدسوسة في الأرض، والعجول تخور، والنعاج تثغو والأبقار تمد بطونها على النجيل وقد ثنت سياقتها تحتها، وهي تجتر في بطء، وجفونها الثقيلة تختلج من الذباب الذي كان يحوم حولها في طنين. والحوذية قد شمروا عن سواعدهم يشدون أعنة الجياد الجامحة التي راحت تصهل - منتفخة الخياشيم - وهي تنظر نحو أناثها التي وقفت هادئة، تمد أعناقها، وأعرافها متدلية، بينما كانت صغارها مستكينة في ظلالها، تقبل على الرضاع منها بين آن وآخر! وفوق هذا الخضم

الزاخر من الأجسام المكدسة، كانت ترتفع في الهواء أوراق بيضاء كأنها الموجات، أو تبرز قرون حادة، أو رؤوس رجال يجرون حولها. وخارج الحلبة وقف - على بعد نحو مائة خطوة - ثور أسود ضخم، مكمم في انفه بحلقة من حديد.. وهو لا يتحرك، كأنه صيغ من البرونز، بينما أمسكه بحبل أطفال في اسمال مهلهلة.

وسار بين الصفين أعضاء اللجنة بخطى ثقيلة، يفحصون كل حيوان، ثم يستشير كل منهم الآخر في صوت خفيض، وقد أخذ واحد منهم - كان يبدو أهم من الآخرين مكانة - في تدوين بعض الملاحظات من وقت إلى آخر. ذاك كان السيد «دبروزيراي دي لا بانفيل»، رئيس المحكمين، وما إن رأى رودولف حتى أسرع متقدماً منه، وابتسم في ود قائلاً «ما هذا يا سيد بولانجيه، أتتخلى عنا؟» فاعتذر رودولف بأنه قد وصل لتوه، ولكن، ما ان انصرف الرئيس حتى قال لإيما: «لعمري! لن أذهب، فإن صحبتك خير من صحبته!» وكان يبرز بطاقته الزرقاء لرجال الشرطة - ليمر في يسر - وهو يسخر من المعرض وكان يقف أحياناً أمام حيوان بديع، لا يروق لمدام بوفاري على الاطلاق. وإذ فطن إلى ذلك، تحول يرسل النكات الساخرة عن سيدات (ايونفيل) وازيائهن، ثم انقلب يعتذر عما في زيه من اهمال، إذ كان خليطاً من المبتذل والأنيق معاً، يرى فيه عامة الناس دليلاً على غرابة في الطباع، واضطراب في الاحساس، ومغالاة في الفن، و- دائماً - نوعاً من الاستخفاف بالعادات الاجتماعية المألوفة، مما يفتنهم أو يغيظهم! من ذلك أن قميصه كان من «الباتيسته»، تكثر الثنيات عند معصمي كميه، وقد كان ينتفخ بفعل الهواء الذي كان يتسلل من فتحة صدار من التيل الرمادي، وكان ساقا سرواله ذي الخطوط العريضة يكشفان عند الكعبين عن حذاءين من «الشمواه» الذي تتخلله أجزاء من الجلد كانت تلمع حتى لتنعكس عليها صور العشب، وكان يطأ بهذين الحذاءين ورث الخيل وقد دس احدى يديه في جيب من سترته، وأمال قبعته المصنوعة من القش جانباً.

وعاد يتابع الكلام قائلا: «ثم ان المرء حين يكون مقيماً في الريف»، فقالت «إيما»: «إنها مضيعة للوقت»، فأجاب: «هذا حق، تصوري ان أحداً من هؤلاء الناس لا يستطيع أن يفهم، حتى طراز سترته!» ثم دار الحديث عن الريف الكئيب، وما يضيع فيه من أعمار، وينهار من آمال فقال رودولف «لهذا السبب تغمرني الكآبة» فعقبت مذهولة: «أنت!؟ ظننتك شديد المرح!»

- آه، أجل. هكذا أبدو، لأنني أعرف كيف أخفي وجهي وراء قناع ساخر، وسط المجتمع ومع ذلك، فكم ساءلت نفسي حين كنت أرى مقبرة في ضوء القمر: أليس من الخير أن أشارك أهلها في سباتهم!

فهتفت: «أواه! وأصدقاؤك؟ ألستَ تفكر فيهم؟» فقالت: «أصدقائي! أي أصدقاء؟ هل لي أصدقاء؟ من يحفل بي؟» وأردف بصفير خافت من بين شفتيه وما لبثا أن اضطر إلى الانفصال، كل عن الآخر، بسبب حمل كبير من المقاعد كان أحد الرجال يرفعه خلفهما،

وكان من الكثرة بحيث لم يكن في وسع الرجل أن يرى مقدم حذاءيه الخشبيين، أو نهاية ذراعيه المبسوطتين. وكان هذا الرجل هو «ليستيبودوا»، حفار القبور، وقد حمل مقاعد الكنيسة، وأخذ يجوس بين الناس، إذ كان نشيط الذهن في كل ما يعود عليه بالنفع، وقد فطن إلى هذه الطريقة للافادة من المعرض، وصادفت فكرته نجاحاً، إذ تكاثرت عليه الطلبات حتى لم يعد يدري أيها يجيب، والواقع أن القرويين الذين برح بهم التعب، أخذوا يتشاجرون من أجل هذه المقاعد التي كان عبير البخور يفوح من قشها، ويضطجعون على مساندها السميكة - المتسخة بدهن الشموع - في زهو وخيلاء!

وعادت مدام بوفاري فأمسكت بذراع رودولف الذي كان ماضياً في الحديث، وكأنه يكلم نفسه: «أجل، كم أضعت من أشياء فأنا وحيد على الدوام! آه، لو كان لي هدف في الحياة! لو انني لقيت شيئاً من الحب، لو انني التقيت بشخص يعطف علي! ما كان احراني إذ ذاك أن ابدل كل ما أوتيت من طاقة، وأن اذلل كل شيء!» وأن أتغلب على كل شيء!» فقالت: «ومع ذلك، إنك لا تبدو في حال تدعو للرثاء!» قال: «آه، أو هذا ظنك بي؟» فاستطردت قائلة: «لأنك قبل كل شيء، حر...»، وترددت، ثم أردفت: وغني! فأجاب: «لا تسخري مني» وبينما كانت تؤكد أنها لا تسخر، دوت طلقة مدفع، فإذا الجميع ينطلقون متدافعين في هرج نحو القرية، ولكن التنبيه كان كاذباً، فإن مدير الاقليم لم يكن قد حضر، وشعر أعضاء لجنة التحكيم بالحيرة، إذ كانوا لا يدرون أيبدأون الحفل، أم ينتظرون أمداً آخر.

وأخيراً، ظهرت في أقصى الميدان عربة كبيرة مستأجرة - من الطراز المغلق الجوانب - يجرها جوادان هزيلان، يسوطهما بكل قوته حوذي بقبعة بيضاء. وأسرع «بينيه» صائحا: قرقول سلاح! فحذا الضابط حذوه، وهرول الجنود نحو السرادق، لقد نسى بعضهم أن يرتدوا ياقاتهم، ولكن ركب المدير كان قد توقع الزحام مقدماً، فخفف الجوادان من سرعتهما، ووصلا على رنين أعنتهما إلى منصة البلدية، في اللحظة التي تم فيها تجمع الحرس الوطني وفريق الأطفاء، ومن ثم أخذوا يدقون الطبول، وينظمون خطواتهم.. وصاح «بينيه»: «خطوة تنظيم!» فصاح الضابط: «قف! إلى اليسار در!» وبعد أن ارتفعت البنادق للتحية، وانطلقت الموسيقى كرنين وعاء نحاسي ينحدر على سلم، خفضت البنادق من جديد. وإذ ذاك، غادر العربة سيد في حلة ذات سترة قصيرة موشاة بخيوط فضية، وكان أصلع في مقدمة رأسه، ويضع شعراً مستعاراً في مؤخرتها، وقد بدا كالح اللون، تلوح عليه امارات الطيبة. وكان يعلو عينيه الجاحظتين جفنان سميكان، نصف مطبقين عليهما، إذ راح ينعم النظر في الجماهير، رافعاً - في الوقت ذاته - انفه الحاد، راسماً على فمه الفاغر ابتسامة. وعرف الرجل العمدة من وشاحه، فأوضح له أن مدير الاقليم لم يتمكن من الحضور، وأنه هو مستشار الاقليم. ثم أردف مردداً بعض الاعذار، فرد السيد «توفاش» - العمدة - ببعض المجاملات، وبدا على الآخر الارتباك! وظلا واقفين وجهاً لوجه، تكاد جبهتاهما أن تتلامسا، وحولهما أعضاء لجنة التحكيم والمجلس البلدي،

والأعيان، والحرس الوطني، والجمهور. وكرر المستشار انحناءاته بالتحية، وهو يضم إلى صدره قبعته الصغيرة السوداء الثلاثية الجوانب، بينما انحنى «توفاش» كالقوس، وابتسم هو الآخر، وتلعثم إذ حاول أن يقول شيئاً، ثم أكد ولاءه للملكية، وأعرب عن الشرف الذي أتيح لايونفيل باقامة هذا المعرض!

وأخذ «هيبوليت» - سائس الفندق - عناني الجوادين من الحوذي، وقادهما وهو يعرج بقدمه الشوهاء إلى باب «الأسد الذهبي»، حيث تجمع عدد من الفلاحين يتأملون العربة. ودقت الطبول، ودوى المدفع، وتقاطر السادة صاعدين المنصة ليتبوءوا المقاعد الحمراء التي أعارتها مدام «توفاش» للمحتفلين. وكان هؤلاء السادة جميعاً متشابهين، فوجوههم السمينة الشقراء التي لوحتها الشمس قليلاً تبدو في لون شراب التفاح، وشعور لحاهم تنتفش على جانبي وجوههم متهدلة على ياقات كبيرة متيبسة، تحيط بها أربطة عنق بيضاء، لها عقدة عريضة، وصداراتهم جميعاً من القطيفة، وكافة الساعات تحمل - في نهاية أشرطة طويلة - ما يشبه خاتماً بيضاوياً من العقيق، والأيدي مرتكزة على الأفخاذ، تسوي في عناية ثنيات السراويل التي كان قماشها الجديد يفوق الأحذية لمعاناً.

ووقفت زوجات السادة خلفهم، بين الأعمدة، بينما احتشد الجمهور في الناحية المقابلة، بين وقوف وجلوس على المقاعد، إذ كان «ليستيبودوا» قد نقل جميع المقاعد من المرج الى هناك، وراح يجري طيلة الوقت ليحضر من الكنيسة غيرها. وسبب بنشاطه التجاري هذا ارتباكاً جعل بلوغ سلم المنصة أمراً عسيراً! وقال «لوريه» للصيدلي إذ مر به ذاهباً إلى المكان المخصص له: «من رأيي انه كان من الواجب عليهم أن يقيموا صاريين على طراز البندقية، يحملان بعض الزينة القيمة، حتى يصبح المنظر متعة للعين» فأجاب هوميه: «هذا حق ولكن، ماذا كنت تتوقع وقد استأثر العمدة بالاشراف على كل شيء، لكم هو محدود الذوق هذا التوفاش المسكين! بل أنه محروم مما يسمى عبقرية الفن!».

✦✦✦

وفي تلك الاثناء، كان رودولف قد صعد مع مدام بوفاري إلى قاعة الاجتماعات بالطابق الأول من مبنى البلدية.. وإذ كانت القاعة خالية، فقد قال إن في وسعهما أن يستمتعا بالفرجة منها وهما مستريحان. وحمل ثلاثة مقاعد من حول المائدة البيضاوية ومن أسفل التمثال النصفي للملك، ووضعها على مقربة من إحدى النوافذ، ثم جلسا متجاورين. وكانت ثمة جلبة فوق المنصة، وهمسات طويلة، ومفاوضات. وأخيراً وقف السيد المستشار، فعرف الجمهور إذ ذاك أنه يدعى «لييفان»، وسرى الاسم بين الجمع، من شخص إلى آخر. وبعد أن أخرج بضعة أوراق، وانحنى عليها ليراها بوضوح، شرع يقول: «سادتي: اسمحوا لي أولاً وقبل أن أحدثكم عن الغرض من اجتماع اليوم أن أقر بالفضل - وأنا واثق من أنكم تشاطرونني هذا الشعور - للحكومة، للملك. لملكنا أيها السادة،

هذا الملك المحبوب الذي لا تغيب عن اهتمامه ناحية من نواحي الرخاء العام أو الخاص، والذي يقود بيد تجمع بين الحزم والحكمة سفينة الدولة، بين الأخطار المتلاحقة في بحر عاصف، وهو يعرف - فوق هذا - كيف يجعل للسلام من الاحترام مثل ما للحرب والصناعة والتجارة والزراعة والفنون الجميلة! »

وهنا قال رودولف: «يجب أن ارتد قليلاً إلى الوراء» فقالت «ايما»: «لماذا؟» وفي تلك اللحظة، ارتفع صوت المستشار فوق المألوف وهو يقول: «لقد مضى أيها السادة ذلك الزمن الذي كان الشقاق بين المواطنين فيه يلطخ الميادين العامة بالدماء، والذي كان فيه المالك، وصاحب الأعمال، والعامل نفسه، يأوون إلى مضاجعهم لينعموا بالنوم وهم يرتجفون خشية أن يستيقظوا فجأة على ضجيج عربات الحريق، والذي كانت فيه اعنف المبادىء الهدامة تدك في جرأة كافة الأسس».

وعاد رودولف يتابع الكلام: «قد يلمحني أحد، فاضطر عندئذ إلى أن أظل اسبوعين انتحل الاعذار، فضلاً عن أن سمعتي سيئة!» فقالت «ايما»: «إنك تظلم نفسك!» قال: «لا، إنها سيئة، أوكد لك!» ومضى المستشار يقول: «على انني حين انحي عن الذاكرة هذه الصور الحالكة - أيها السادة - انتقل ببصري إلى الأحوال الراهنة في وطننا العزيز، فماذا أرى؟ في كل مكان تزدهر التجارة والفنون، وفي كل مكان طرق جديدة للمواصلات، كأنها شرايين حديثة في جسد الدولة، تقيم في ارجائها علاقات جديدة، وقد استأنفت مراكزنا الصناعية الكبرى نشاطها، والدين - الذي ازداد وحدة وتوطداً يبتسم في كل قلب، وموانئنا مليئة، والثقة قد نبتت من جديد، وفرنسا قد عادت تتنفس!»

واستأنف رودولف الحديث: «الواقع أنهم ربما كانوا - من وجهة نظر المجتمع - على حق!» فقالت «إيما»: كيف ذلك؟» قال: «الأمر بسيط، أو لا تعلمين أن هناك نفوساً مضناة تعيش في عذاب دائم، وأن لا بد لها من أن تتقلب بالتناوب بين الحلم والعمل، بين العواطف السامية النبل، وبين الشهوات المتطرفة العنف! ومن ثم تلقى بأنفسها في كافة ألوان الاهواء والحماقات؟!» فنظرت إليه كما ينظر المرء إلى رحالة ارتاد بلاداً غريبة، وقالت: «نحن النساء البائسات لا نملك حتى هذه التسلية!» فقال؟ «وإنها لتسلية محزنة، إذ أن المرء لا يجد فيها السعادة!» فتساءلت: «وهل من سبيل إلى العثور على السعادة يوماً؟» فأجاب: «أجل، إنها لا تلبث أن تجيئ يوماً!» هذا بينما كان المستشار ماض في خطابه: «... وهذا هو ما فهمتموه أنتم، معشر الزراع وعمال الريف، أيها الرواد المسالمون، في ميدان الحضارة الفسيح! أنتم يا رجال التقدم والأخلاق قد فهمتم أن العواصف السياسية أشد خطراً - في الحقيقة - من اضطرابات الطبيعة...».

وتابع رودولف حديثه: «إن المرء لا يلبث أن يلقى السعادة فجأة، يوماً ما، بعد أن يكون قد يئس منها، فإذ ذاك، ينفرج الأفق...» وكان صوتاً يصيح «ها هي ذي!» وتحسين بالحاجة إلى أن تفضي بكل أسرار حياتك، وبأن تهبي كل شيء، وتضحي بكل شيء، من

أجل ذلك الكائن! ولا داعي عندئذ للكلام، فإن كلا منهما يفهم الآخر، إذ يكون كل قد رأى الآخر في أحلامه! » ورمقها بنظرة وهو يستطرد: «"بالاجمال، ترين أمامك أخيراً الكنز الذي طالما بحثت عنه، إنه يتلألأ، ويبرق، ومع ذلك فإن المرء يظل في ريب، فلا يصدق، يظل مبهوراً، وكأنه خرج من الظلمة الى النور! » وما أن انتهى الشاب من هذا القول، حتى قرنه بالاشارة، فمسح وجهه بيده كرجل أحس بدوار، ثم تركها تسقط على يد «إيما » فسحبت هذه يدها!

هذا والمستشار ماض في خطابه: « ... أي وجه للعجب في ذلك! لا ينكر روح أهل الزراعة إلا من أصيب بالعمى، وغرق - ولا أخشى من أن أقولها بهذه الصراحة - في أوهام عصر مضى وانقضى! وفي الحق، أين نجد وطنية تفوق ما نجد في الريف، واخلاصاً للصالح العام فوق اخلاصهم؟ وفي كلمة واحدة، أين نجد ذكاء أعظم مما نجد في الريف.. ولست أعني، أيها السادة، هذا الذكاء السطحي الذي تتحلى به النفوس المتسكعة، وإنما اعني ذلك الذكاء المتزن، الذي ينصب على السعي إلى الأهداف النافعة قبل كل شيء، وبذلك يساهم في رخاء كل فرد، والارتفاع بالمستوى العام، وتدعيم الدول، نتيجة لاحترام القوانين والنهوض بالواجبات»!

وعقب رودولف قائلا: «آه، هل عدنا ثانية، الواجبات، دائماً! لقد سئمت هذه الكلمة، إن هؤلاء الذين يطنون في آذاننا باستمرار قائلين: «الواجب! الواجب! » ليسوا سوى ثلة من ذوى الفكر الجامد الملتفين في صداري من «الفانيلا »، ومن العجائز المتعبدات! آه، لعمري! ما الواجب إلا أن نحس بما هو عظيم، وأن نحب ما هو جميل، لا أن نقبل كل معتقدات المجتمع بما تفرضه علينا من ربقة وإذلال! » فاعترضت مدام بوفاري قائلة: «ومع ذلك، مع ذلك... ».

- لا، لا! لماذا يصرخون ضد الرغبات العاطفية؟ أليست هي الشيء الجميل الوحيد على الأرض؟ أليست منبع البطولة والحماسة والشعر والموسيقى والفنون، أو بايجاز: كل شيء؟

فقالت «إيما »: «ولكن على المرء أن ينحني إلى حد ما لرأي المجتمع، وأن يتقبل قانون الاخلاق» فأجاب: «أجل، ولكن هناك قانونين: قانون صغير، ويمثل ما تعارف عليه الناس ووضعوه، وهو يتغير باستمرار، ويصرخ في صخب، ويثير مثل هذه الجلبة التي تراها تحتنا، إنه أرضي من تراب، كهذا الحشد من الأغبياء الذين ترينهم هناك، تحتنا! أما القانون الآخر، فهو الخالد، وهو يشملنا ويعلونا، كالطبيعة التي تحيط بنا، والسماء الزرقاء التي تمنحنا النور! »

وكان السيد «ليفان» قد مسح فمه بمنديل، واستطرد في خطابه: «وماذا علي أن أفعل أيها السادة، لأظهركم على فائدة الزراعة؟ من الذي يمدنا بحاجتنا؟ من الذي يقدم لنا أقواتنا؟ أليس هو الزارع؟ أيها السادة هو الذي يبرز بيده النشيطة في خطوط الحقل

الخصيبة، فينبت القمح الذي يجرش ويطحن بأجهزة معقدة يخرج منها تحت اسم الدقيق، ثم ينقل إلى المدن، فينتهي إلى الخباز الذي يصنع منه غذاء للفقير والغني على السواء! أليس هو الفلاح الذي يربي هذه القطعان الوفيرة ليوفر لنا الكساء؟ أنى لنا الكساء والغذاء بدون الفلاح؟ هل أنا بحاجة أيها السادة إلى أن أذهب بعيداً لأبحث عن أمثلة؟ منذا الذي لم يفكر كثيراً في تلك الأشياء العظيمة التي نحصل عليها من هذا الحيوان الضئيل، زينة حظائر الدواجن عندنا، والذي يوفر لنا وسائد لينة لمضاجعنا، ولحماً طرياً لموائدنا، وبيضاً؟ على أنني لن انتهي إذا مضيت في تعداد المنتجات المختلفة التي تجود بها الأرض - إذا نحن احسنا زراعتها - كالأم السخية على ابنائها! فها هنا شجر الكروم للنبيذ، وفي مكان آخر شجر التفاح لشراب «السيدر»، وهناك اللفت، وبعض أنواع الجبن، والتيل الذي تقدم انتاجه بخطى واسعة جداً في السنوات الأخيرة، والذي أود أن ألفت إليه انتباهكم بوجه خاص».

ولم تكن ثمة حاجة به إلى أن يلفت انتباههم، إذ كانت أفواه الحشد كله فاغرة، وكأنهم يعبون من كلامه. وكان «توفاش» إلى جواره، ينصت وهو يحملق فيه، والسيد «ديروزيراي» يغمض عينيه في رفق بين آن وآخر، وعلى مسافة منه، وضع الصيدلي يده خلف اذنه حتى لا يفوته مقطع من كلمة، وابنه «نابليون» على ركبتيه. وكانت ذقون أعضاء لجنة التحكيم الآخرين تهتز في بطء على صداراتهم، دليل الاستحسان، أما رجال الاطفاء، فاستندوا - أسفل المنصة - على حرابهم، ووقف «بينيه» جامداً في مكانه، وقد ثنى ذراعيه، وذؤابة سيفه في الهواء، ولعله كان يسمع، ولكنه بلا شك لم يكن يرى شيئاً، بسبب حافة قلنسوته التي كانت تهبط فوق انفه! وكان مساعده - الابن الأصغر للسيد «توفاش» - يلبس قلنسوة أكبر من تلك، إذ كانت واسعة، فترجرج فوق رأسه، وقد برز منها طرف منديله القطني، وكان يبتسم تحتها في وداعة الطفل، وقطرات العرق تتساقط من وجهه الصغير الشاحب، وقد لاحت عليه امارات الانشراح والنوم!

✦✦✦

وكان الميدان مزدحماً بالناس حتى مواقع المنازل، فكان المرء يرى قوماً متكئين بمرافقهم على جميع النوافذ، وآخرين يقفون أمام الأبواب، وبدا «جوستان» أمام الصيدلية وقد سمر في مكانه لفرط ما استهواه المنظر. وكان صوت السيد «لييفان» يضيع في الهواء رغم الصمت الشامل، فلا تصل إلى سمعك سوى نتف من العبارات، يقطعها صرير المقاعد المنبعث هنا وهناك، ثم لا تلبث أن تسمع خوار ثور، أو ثغاء الحملان، يجاوب بعضه بعضاً عند أركان الشارع إذ كان رعاة البقر والغنم قد ساقوا ماشيتهم حتى هناك، فكانت تخور من آن إلى آخر وهي تنتزع بألسنتها نتفاً من أوراق الشجر المتدلية أمام أفواهها.

وكان رودولف قد ازداد من «إيما» اقتراباً، وقال لها بصوت خفيض ولهجة سريعة:

«أولا يثيرك تآمر المجتمع على هذا النحو؟ وهل هناك احساس واحد لا يستنكره؟ إن انبل الغرائز وأسمى الميول تضطهد ويشهر بها، وإذا حدث أن التقت روحان بائستان، فإن كل العوامل تنتظم لتحول دون امتزاجهما. ومع ذلك فإنهما ستحاولان، وترفرفان بأجنحتهما، وتسعي كل منهما إلى الأخرى، أواه! لا بأس، فإنهما لن تلبثا أن تجتمعا وتتحابا، طال الزمن أو قصر، في ستة أشهر أو في عشر سنوات، فان القدر قد كتب هذا لهما، إذ خلقت كل منهما للأخرى».

وكان جالساً وقد تقاطعت ذراعاه فوق ركبتيه، وتطلع إلى «إيما» وهو جد قريب منها، وثبت بصره عليها، فلمحت في عينيه خطوطاً ذهبية صغيرة تومض من أعماق حدقتيه السوداوين، بل إنها راحت تشم عطر الدخان الذي صمخ به شعره، وما لبث أن غشيتها نوبة من شرود، فذكرت الفيكونت الذي رقصت «الفالس» معه في (فوبيسار)، إذ كانت تنبعث من لحيته رائحة الليمون والفانيليا التي تفوح من هذا الشعر. وأسبلت جفنيها - بحركة آلية - في نصف اغماضة، وهي تنشق في شعره هذا العطر، ولكنها حين اضطجعت في المقعد لمحت على البعد - عند حافة الأفق - عربة الركاب القديمة «العصفورة» تنحدر في بطء هابطة تل (اليو)، وهي تجر ذيلاً طويلاً من الغبار! هذه العربة الصفراء التي كثيراً ما عاد إليها فيها «ليون»، وفي ذلك الطريق رحل عنها إلى غير رجعة، وخيل إليها أنها تراه واقفاً عند نافذته، ثم اختلطت الرؤى، وأكفهرت السحب، وخيل إليها أنها عادت تدور في رقصة «الفالس» - تحت اضواء الثريات - بين ذراعي «الفيكونت»، وأن «ليون» ليس بعيداً عنها، وأنه قادم، ومع ذلك، كانت طيلة الوقت تشم عبير رأس رودولف إلى جانبها، وتغلغل هذا الاحساس العذب في رغباتها القديمة، التي أخذت تتحرك جيئة وذهاباً، في نفحات هذا العطر الذي ران على روحها، كما تتحرك ذرات الرمل في مهب الريح، ففتحت طاقتي أنفها عدة مرات لتعب من عبق اللبلاب الملتف حول رؤوس الأعمدة. ونزعت قفازيها، فمسحت يديها، ثم حركت منديلها أمام وجهها كالمروحة، بينما كان صوت المستشار يصل إليها - خلال نبض صدغيها - مرددة عباراته، وكأنه يترنم بها: «واصلوا، وثابروا، ولا تنصتوا إلى ما يوصي به الروتين، أو ما تدعو إليه النصائح المرتجلة المبنية على تجارب طائشة! واتجهوا بجهودكم - بنوع خاص - إلى تحسين التربة، والسماد الجيد، والإكثار من سلالات الخيل والبقر والخنازير والاغنام الجيدة، ولتكن هذه المعارض - بالنسبة لكم - اشبه بالساحات السلمية، يمد المنتصر فيها يده - إذ يغادرها - إلى المنهزم، ويؤاخيه، آملاً في فوز أفضل. وأنتم أيها العمال الشيوخ، والخدم المتواضعون، الذين لم ترمقهم حكومة حتى اليوم بعين الاعتبار، تعالوا لتتسلموا جزاء فضائلكم الصامتة، وثقوا من أن الدولة ترمقكم، وتشجعكم، وتحميكم، وستستجيب لمطالبكم العادلة، وتخفف بقدر ما تستطيع من عبء تضحياتكم!»

وجلس السيد «ليفان» إذ ذاك، فنهض السيد «ديروزيراي»، وشرع يلقي خطاباً آخر، ولعله لم يكن خطاباً منمقاً كخطاب المستشار، ولكنه امتاز عنه بأسلوب أكثر

ايجابية، أو بالأحرى، بمعلومات أدق، واعتبارات اسمى، فلم يشغل مدح الحكومة - مثلاً - سوى حيز صغير منه. أما الدين والزراعة، ففازا بقسط أوفر، إذ القى الضوء على العلاقة بينهما، وعلى دورهما المشترك في خدمة الحضارة، والجاذبية المغناطيسية. كان الخطيب يتكلم عن نشأة المجتمع، متدرجاً من العصور الأولى التي كان الانسان يتغذى فيها بثمار البلوط في أعماق الغاب، إلى تلك العهود التي تحول فيها الناس عن جلود الماشية إلى الأقمشة المنسوجة، وراحوا يحرثون الأرض ويزرعون الكروم. أفكان هذا التحول خيراً؟ أو لم يكن في هذه الاكتشافات من الضرر فوق ما فيها من نفع؟ وتولى السيد «ديروزيراي» علاج السؤال، بينما كان رودولف قد تطرق متنقلاً من المغناطيسية إلى الميول والعلاقات، وأخذ رئيس اللجنة يذكر «سنسناتوس» ومحراثه، و«ديوكلسيان» إذ زرع الكرنب، واباطرة الصين حتى كانوا يفتتحون العام ببذر البذور، في حين كان الشاب - رودولف - ماضياً يشرح للشابة ان الميول والانجذابات ترجع في سبيلها إلى نوع سابق من الوجود، أو حياة سابقة!

ومضى يقول: «ومن ثم، لماذا قدر لكل منا أن يعرف الآخر؟ أية ارادة شاءت هذا؟ لقد تم ذلك بسبب انجذاب كل منا إلى الآخر - كجدولين يجريان لكي يلتقيا ويتحدا - وهكذا دفعت اتجاهاتنا الفكرية الخاصة بكل منا إلى صاحبه!»

وأمسك بيدها، فلم تسحبها منه، وفي تلك اللحظة، كان الخطيب يصيح: «جائزة الزراعة الجيدة...» ورودولف ماض في حديث: «فمثلاً عندما أتيت إلى بيتكم...».

وهكذا أخذت عبارات رودولف والخطيب تتتابع في تناوب واختلاط:

كان الخطيب يقول: إلى السيد بيريه من كونكانبوا.

ورودولف يقول: هل كنت أعلم أن قد قدر لي أن أصحبك؟

الخطيب: سبعون فرنكاً.

رودولف: بل لقد حاولت مائة مرة ان أرحل، ولكنني تبعتك، وبقيت!

الخطيب: جائزة الأسمدة.

رودولف: وسوف أبقى الليلة، وغداً، وكل الأيام المقبلة، وحياتي كلها!

الخطيب: إلى السيد «كارون» من (ارجي)، ميدالية ذهبية.

رودولف: فإني لم ألتق بمثل هذه الفتنة الشاملة في صحبة أي شخص آخر.

الخطيب: إلى السيد «بان» من جيفري سان مارتان.

رودولف: وسوف أحمل معي ذكراك... .

الخطيب، جائزة عن كبش أسباني من نوع «مارينو».

رودولف: ولكنك سوف تنسيني، سأتلاشى كالطيف!

الخطيب: إلى السيد «بيلو» من نوتردام... .

رودولف: آه، لا! بل سأبقى في فكرك، وحياتك أليس كذلك؟

الخطيب: سلالة الخنازير، الجائزة مناصفة بين السيدين «لهيريسية، و«كيلمبور»، وقدرها ستون فرنكاً.

وضغط رودولف يد «إيما»، فاحس بها دافئة، تنتفض، كاليمامة الحبيسة التي تبغي انطلاقاً، وسواء كانت تحاول أن تنتزع يدها، أو كانت تستجيب لضغطه، فإنها حركت أصابعها، فهتف: «آه، شكراً لك، فانت لا تصديني! ما اطيبك! إنك تدركين أنني ملك يديك! ألا دعيني انظر إليك! دعيني أتأملك!»

وهبت من النافذة ريح ثنت أطراف غطاء المائدة، واطاحت بقبعات الفلاحات الكبيرة - في الميدان - فطارت كأجنحة فراشات بيضاء ترفرف! وكان رئيس لجنة التحكيم ماضياً في قوله: «جائزة استخدام كسب البذور الزيتية، السماد الفلمنكي، زراعة التيل، الصرف، الايجارات الطويلة، الخدمات الاهلية» أما رودولف فلم يعد يتكلم، إذ راح يرمق «إيما»، وهي ترمقه، وشفاههما ترتجف بتأثير رغبة جامحة! وفي استرخاء، ودون ما جهد، تعانقت اصابعهما، ورئيس لجنة التحكيم ماض في سرد الجوائز!

- كاترين نيكيز اليزابيث ليرو من (ساستو لا جيربير)، من أجل بقائها خمساً وخمسين سنة تخدم مزرعة واحدة، ميدالية فضية ومكافأة قدرها خمسة وعشرون فرنكاً!

وردد المستشار النداء قائلا: «أين هي كاترين ليرو؟» لكنها لم تتقدم، وسمعت أصوات تتهامس: «استمر!».. «لا».. «إلى اليسار».. «لا تخافي!».. «آه، يا لها من غبية!» وصاح «توفاش»: «وبعد، أموجودة هي؟».. «نعم، ها هي ذي!».. «فلتتقدم اذن!» ورؤيت إذ ذاك امرأة عجوز، ضئيلة الجسم، تتقدم واجفة نحو المنصة، وهي تكاد تتوارى في ثيابها التعسة، وفي قدميها حذاءان ضخمان من الخشب، بينهما انسدلت على ردفيها مرولة كبيرة زرقاء، وكان وجهها الضامر، المحاط بطاقية لا حافة لها، أكثر تجعيداً من تفاحة صغيرة ذابلة، ومن كمي سترتها الحمراء، برزت يدان بدت مفاصلهما كالعقد، وقد غطتهما البقع والبثور والبشرة الخشنة من أثر غبار الأجران، و«البوتاس» الذي تستخدمه في إزالة بقع الشحم عن الملابس الصوفية، حتى أنهما كانتا تبدوان قذرتين رغم غسلهما بالماء الصافي، وقد مكثتا منفرجتين لطول ما خدمتا، وكأنهما تقدمان دليلاً متواضعاً على ما تكبدتا من مشاق مضنية! واكسب وجهها جلالاً شيء من جمود الرهبنة، ولم يكن يخفف من حدة نظراتها شيء من الحزن أو من الحنان. وكانت لكثرة معاشرتها للحيوانات قد أخذت عنها الصمت والسكوت، وكانت هذه أول مرة ترى فيها نفسها وسط مثل هذا الجمع الغفير، فداخلها ذعر من الأعلام والأبواق، وأولئك السادة الذين كانوا في ثياب سوداء، وذلك الوسام الذي كان يزين صدر المستشار، فظلت مسمرة في مكانها، لا تدري أتقدم، أم تلوذ بالفرار، ولا تفهم لماذا راحوا يدفعونها إلى الأمام، ولا لماذا كان

الحكام يبتسمون لها؟! وهكذا وقفت أمام المواطنين السعداء، تمثالاً حياً لنصف قرن من العبودية! وكان المستشار قد أخذ قائمة الفائزين بالجوائز من يد رئيس الحكام، فقال لها: «اقتربي أيها المبجلة كاترين نيكيز اليزابيث ليرو» وأخذ ينقل بصره بين قائمة الفائزين والسيدة العجوز، مكرراً في لهجة أبوية: «اقتربي! اقتربي!»

وقال «توفاش» وهو يتململ في مقعده: «أصماء أنت؟» ثم راح يصيح في أذنها: «أربع وخمسون سنة في الخدمة! ميدالية فضية، وخمسة وعشرون فرنكاً لك!» وتأملت «الميدالية» إذ تناولتها، وما لبث وجهها أن أشرق بابتسامة راضية، ثم تمتمت وهي تنصرف: «سأعطيها لقس قريتنا كي يقيم لي قداساً!» فمال الصيدلي نحو موثق العقود قائلا: «يا للتعصب!»

✦✦✦

وانتهى الحفل، فأخذ الجمهور يتفرق.. وعاد كل امرىء إلى مكانه، وكل شيء إلى مجراه، وأخذ السادة ينهرون الخدم، وهؤلاء يضربون الماشية، تلك الماشية الفائزة، التي علق بقرونها تاج أخضر، وهي تعود إلى حظائرها! هذا بينما صعد جنود الحرس الوطني إلى الطابق الأول من مبنى البلدية، وقد رشقوا الفطائر الجافة في حرابهم، وحمل قارع الطبل سلة مليئة بالزجاجات، وأخذت مدام بوفاري بذارع رودولف الذي رافقها حتى دارها، ثم افترقا لدى الباب، وسار هو يتنزه وحيداً في المرج، في انتظار موعد الوليمة.

وكانت المأدبة طويلة، صاخبة، سيئة النظام، ازدحمت إلى درجة لم يكن معها في وسع المرء ان يحرك مرفقه، وحتى أوشكت الألواح الضيقة – التي استخدمت كمقاعد – أن تتحطم تحت ثقل الجالسين، وأكل القوم في اسراف، إذ عني كل واحد بان يملأ بطنه، حتى تفصد العرق على كل جبهة، وانبعث بخار يميل إلى البياض – كذلك الذي يتصاعد من جدول في صباح يوم من أيام الخريف – وأخذ يخيم فوق المائدة بين المصابيح المدلاة، واستند رودولف إلى قماش السرادق، وقد استغرقه التفكير في «إيما» حتى أنه لم يسمع شيئاً مما كان يدور حوله. وكان الخدم من ورائه يجمعون الأواني المتسخة، وجيرانه يوجهون إليه الحديث فلا يظفرون منه بجواب، ومن ثم ملأوا له كأسه! وران على فكره سكون رغم الضجيج المحيط به، كان يحلم بما قالت، وبشكل شفتيها، وكان وجهها يتمثل له منعكساً على خوذات الجنود، وكأنه يراه في مرآه سحرية، وثنايا ثوبها تنتشر بين الجدران، وأخذت أيام الهوى تتتابع أمام عينيه في أفق المستقبل، وهي لا تكاد تنتهي!

ورآها ثانية في المساء، أثناء الاحتفال باطلاق الصواريخ. بيد أنها كانت مع زوجها ومدام «هوميه»، والصيدلي الذي كان شديد القلق بسبب خوفه من الصواريخ الشاردة، حتى أنه كان يترك الجماعة في كل لحظة، ليذهب إلى «بينيه» ويقدم له النصائح وكانت

الصواريخ - التي وردت باسم السيد «توفاش» - قد اختزنت في قبو منزله، زيادة في الحيطة، ومن ثم لحقت الرطوبة بالبارود فلم يشتعل، وفسدت تماماً القطعة الرئيسية، وكانت صاروخاً يمثل تنيناً يعض ذيله! ومن وقت لآخر، كانت تنفجر شعلة رومانية هزيلة، فتنبعث من الجمهور الفاغر الأفواه ضجة تختلط بها صيحات النساء اللواتي كان الرجال يدغدغون خصورهن في الظلام، وقد التصقت «إيما» - في رفق - بكتف شارل، وراحت تتتبع انبثاق الضوء من الصواريخ في السماء المعتمة، وهي رافعة الذقن، ورودولف يتأملها في ضوء المصابيح المشتعلة!

وخمدت الصواريخ شيئاً فشيئاً، وأضاءت النجوم، وسقطت بعض قطرات من المطر، فعقدت «إيما» حرملتها فوق رأسها العارية، وفي هذه اللحظة، أقبلت عربة المستشار من الفندق، وقد أخذت الحوذي المخمور غفوة طارئة، فكان جسمه الضخم يرى على مقعده بين مصباحي العربة وهو يهتز يمنة ويسرة مع ارتجاجات العربة، فقال الصيدلي: «الحق إن من الواجب تشديد العقوبة على من يفرط في تناول الخمر، ويودي لو سجلت اسبوعياً على لوحة خاصة - على باب البلدية - أسماء الذين يثملون خلال الاسبوع من المشروبات الكحولية! فضلاً عن أننا سنحصل بذلك - من الناحية الاحصائية - على قوائم سنوية رسمية، نطلع عليها عند الحاجة، ولكن، اسمحوا لي!» وعدا ثانية نحو القائد! وكان هذا الأخير عائداً إلى منزله ليتفقد مخرطته، فقال له هوميه: «إنك لن ترتكب خطأ لو أنك أوفدت أحد رجالك، أو تذهب بنفسك..»، فأجاب محصل الضرائب: «دعني وشأني! اطمئن!»

وبعد أن عاد الصيدلي إلى أصدقائه قال: «اطمئنوا! لقد أكد لي السيد بينيه أن التدابير اتخذت، ولم تسقط أية شرارة، كما أن المضخات مليئة، فهيا بنا نسترح!» فقالت مدام «هوميه» وهي تتثاءب بقوة: «الواقع أنني بحاجة إلى النوم، ولكن، لا بأس، فقد قضينا يوماً جميلاً كأنه العيد!» فردد رودولف بصوت خفيض، ونظرة ناعمة: «آه، أجل! كان جميلاً جداً» وانحنى كل منهم لسواه، ثم انصرفوا.

وبعد ذلك بيومين، نشرت صحيفة «فنال دي زوان» مقالاً طويلاً عن العرض، كان هوميه قد كتبه بأسلوبه المتحمس في اليوم التالي للاحتفال، وقال فيه: «لم هذه الولائم، وهذه الأزهار، وهذه الباقات؟ وإلى أين يعدو هذا الجمهور وكأنه أمواج بحر ثائر، تحت سيل من أشعة الشمس الحامية التي تنشر حرارتها فوق حقولنا؟!» وتكلم عن حال الفلاحين، فقال إن الحكومة قد فعلت الكثير ولا شك من أجلهم، ولكن هذا لم يكن كافياً، ومن ثم أهاب بها: «إلى الأمام، فهناك ألف مشروع لازمة، وعلينا أن ننجزها». ثم تحدث عن وصول المستشار، فلم ينس «المظهر العسكري الرائع لجنودنا»، ولا «فلاحاتنا الموفورات النشاط»، ولا «الشيوخ ذوي الرؤوس الصلعاء كأنهم البطارقة، وقد أحس من بقي منهم من رجال كتائبنا القدامى، بقلوبهم لا تزال تخفق على دق الطبول القوي».. وذكر نفسه بين

أوائل الأعضاء المكونين لهيئة التحكيم، مشيراً - بطريقة تستلفت الانتباه - إلى أن السيد هوميه، الصيدلي، قد أرسل مذكرة عن شجر التفاح إلى الجمعية الزراعية! وإذ تطرق إلى الحديث عن توزيع الجوائز، صور فرح الفائزين باسلوب خيالي مبالغ فيه: «فالأب يقبل ابنه، والأخ أخاه، والزوج زوجته، وكم من واحد منهم كان يزهو باظهار «ميداليته» المتواضعة، التي لن يلبث، إذا ما عاد إلى زوجته الصالحة أن يعلقها بجوار فراشه والدمع ينهمر من عينيه وحوالي الساعة السادسة، اقيمت مأدبة في بستان السيد «ليجار» ضمت الشخصيات الرئيسية التي حضرت الاحتفال، وسادتها روح المودة الخالصة، وشربت عدة انخاب، فشرب السيد «لبيفان» نخب الملك، والسيد «توفاش» نخب المدير، والسيد «ديروزيراي» نخب الزراعة، والسيد «هوميه» نخب الصناعة والفنون الجميلة - التوأمين - والسيد «ليبليشيه» نخب الاصلاحات. وفي المساء انطلقت في السماء صواريخ لامعة اضاءتها فجأة، حتى لقد كان خيل للمرء أنها منظار سحري، أو منظر مسرحي حقيقي، وكأني بالقرية الصغيرة قد انتقلت - للحظة من الزمن - إلى حلم من أحلام ألف ليلة وليلة!»

ثم أضاف قائلاً: «ولنسجل أنه لم يكدر صفو هذا الاجتماع العائلي أي حادث يدعو للأسف، وكانت الملاحظة الوحيدة هي تخلف رجال الدين، ولعل الكهنوت يفهم التقدم على نحو آخر! كما تشاؤون يا رسل ليولا!»

الفصل التاسع

أنقضت ستة أسابيع، دون أن يأتي «رودولف» ثانية، ثم ظهر أخيراً في إحدى الأمسيات. كان قد قال لنفسه غداة المعرض: «ما ينبغي أن أعود سريعاً، فهذا خطأ»! وفي نهاية الأسبوع خرج للصيد، وخطر له بعد الصيد أن الوقت قد تأخر، بحيث لا يليق أن يذهب، ثم عاد فراود نفسه قائلاً: «لكنها إذا كانت قد أحبتني منذ اليوم الأول، فلسوف يزيدها وجداً تلهفها إلى رؤيتي. فلنمض إذن!».

وأدرك أن ما توقعه كان صحيحاً، حين لمح وجه «إيما» يشحب لدى دخوله الحجرة! كانت وحيدة، والنهار يحتضر، وقد ضاعفت الستائر الحريرية الصغيرة -المحاذية لطول زجاج النافذة- من لون الشفق. وكان بريق «البارومتر»، الذي سقط عليه شعاع من الشمس، ينعكس على المرآة بين حزمتين من المرجان. وظل «رودولف» واقفاً، بينما ردت «إيما» في عناء عبارات التحية الأولى. قال: «كانت لدي أعمال، وكنت مريضا»، فهتفت: «بدرجة خطيرة؟». فقال وهو يجلس على مقعد منخفض إلى جوارها: «حسناً! لا! إنما كان غيابي لأنني لم أشأ أن آتي» وتساءلت: «لماذا؟»، فسألها بدوره: «ألا تحدسين؟».

ورمقها مرة أخرى، لكن نظرته كانت حادة، فنكست رأسها، وتضرج وجهها، بينما عاد يقول: «إيما!» فتراجعت قليلاً، قائلة: «سيدي...» فقال في صوت حزين «آه! ها أنتذى ترين أنني كنت محقاً في عزوفي عن المجئ. فأنت تحرمين على هذا الاسم. الاسم الذي يملأ نفسي، والذي أفلت من لساني! مدام بوفاري! آه! كل الدنيا تدعوك هكذا! ثم أنه ليس اسمك، وإنما هو اسم شخص آخر!» وعاد يردد: «شخص آخر!» ثم أخفى وجهه في راحتيه؛ وهو يستطرد: «أجل إنني أفكر فيك باستمرار! ذكراك تدفعني للقنوط! آه، معذرة! لسوف أتركك، وداعاً! سأبتعد، سأذهب إلي حيث لا تسمعين عني! على انني اليوم لا أردي -بعد- أية قوة دفعتني إليك! فإن المرء لا يستطيع أن يناضل السماء، أو يقوى على مقاومة ابتسامة الملائكة!.. إنما ينساق الإنسان لما هو جميل، فاتن، حبيب!».

كانت هذه أول مرة تسمع فيها «إيما» مثل هذه الأقوال، فتمطى زهوها إلى أقصاه، في رفق، كشخص يستمرئ حماماً دافئاً.. بينما استأنف الشاب حديثه: «... بيد اني إذا كنت لم آت، إذا لم أملك أن اراك، فإني... آه! كنت على الأقل أتأمل ما يحيط بك مليا. كنت أنهض في الليل -كل ليلة- وآتي إلى هنا، فأتأمل دارك. والسقف المتألق تحت القمر، وأشجار الحديقة التي كانت تتمايل أمام نافذتك.. ومصباحاً صغيراً، وميضا كان يلمع خلال زجاج النافذة، في الظلام. آه! إنك ما عرفت قط أن ثمة تعساً مسكيناً كان قريباً منك، بقدر ما كان بعيداً!».

فالتفتت إليه دامعة، وهتفت: «أواه! إنك طيب!».

-لا، بل أنا أحبك، وهذا غاية ما في الأمر! إنك لا ترتابين في هذا! انبئيني بكلمة كلمة واحدة!

وانزلق «رودولف» -دون أن يعي- عن المقعد إلى الأرض، لولا أن سمع وقع نعلين خشبيين في المطبخ، ولاحظ أن باب القاعة لم يكن مغلقاً، فاستطرد وهو ينهض: «كم تكونين كريمة إذا أنت حققت نزوة لدي!» تلك هي أن يجوس خلال دارها، إذ ود أن يتعرف عليها، وإذ لم تر مدام «بوفاري» حرجا في ذلك، نهضا معاً، بينما دخل «شارل» فقال له رودولف: «عم صباحاً يا دكتور» واغتر الطبيب بهذا اللقب الذي لم يكن يرتقبه من ضيفه، فانطلق يرد التحية في عبارات تنم عن الارتياح، واستغل الآخر الفرصة ليتمالك نفسه بعض الشيء، ثم قال: «لقد طمأنتني السيدة عن صحتها...».

فقطع عليه «شارل» الحديث: بالعكس، إن لديه ألف هاجس وهاجس في الواقع، فلقد عاد إليها ضيق التنفس، و... وإذ ذاك سأله «رودولف» عما إذا كانت النزهة على الجواد تنفعها، فهتف: «بالتأكيد! رائعة! عين ما ينبغي! يا لها من فكرة! خليق بك أن تأخذي بها» وإذ تعللت «إيما» بأن ليس لديها جواد، عرض السيد رودولف أن يقدم لها جواداً، فرفضت عرضه. ولم يصر، ثم قال تبريراً لزيارته، إن حوذيه -الرجل الذي أجريت له الحجامة- لا يزال يعاني من الدوار. فقال «بوفاري»: «سأعوده!».

-لا، لا. سأوفده إليك. سنأتي، فهذا أدعى لراحتك.

-آه، حسن جداً. أشكرك.

✦✦✦

وما إن أصبحا على انفراد، حتى سأل شارل زوجته: «لم لا تقبلين العرض الذي تكرم به السيد بولانجيه؟» فأبدت إعراضاً، وانتحلت ألف عذر، ثم أعلنت في النهاية أن الأمر قد يبدو غريباً. فقال وهو يدور حول نفسه: «آه! لست أحفل! الصحة قبل كل شيء! إنك مخطئة!» فقالت: «آه! وكيف تريدني على أن اركب جواداً، وليس لدي زي الركوب!» فأجاب: «يجب أن تطلبي زياً!».

وكان هذا فصل الخطاب، فلما أعد، كتب «شارل» إلى السيد «بولانجيه» أن زوجته رهن اشارته، وأنه يكلها إلى رعايته. ووصل «رودولف» أمام باب «شارل» في ظهر اليوم التالي، مع جوادين مسرجين، حمل أحدهما حول أذنيه وروداً من الصوف الوردي اللون، وكان سرجه نسوياً من جلد الوعل.

وكان «رودولف» قد ارتدى حذاءين طويلين من الجلد الطري، محدثاً نفسه بأن «إيما» ولا شك لم تر شيئا مثلهما قط. وفعلاً، فتنت بمظهره حين ظهر في أسفل السلم في حلته المخملية الواسعة، وسرواله المصنوع من الصوف الأبيض المنسوج باليد. وكانت متأهبة، في

انتظاره، وتسلل «جوستان» من الصيدلية ليراها، كما قطع الصيدلي عمله وجاء يوصي السيد بولانجيه: «إن الحوادث تقع فجأة، فخذ حذرك. ربما كان جواداك شديدي الاندفاع!».

وسمعت «إيما» ضجة منبعثة من أعلى، فإذا «فيليسيتيه» تنقر زجاج النافذة لتلهي «بيرت» الصغيرة. وأرسلت لها الطفلة قبلة على البعد، فردت عليها الأم ملوحة بمقبض سوطها. وصاح السيد «هوميه»: «نزهة طيبة! الزما الحكمة والروية، قبل كل شيء! الحكمة والروية!» وأخذ يلوح بصحيفته وهو يرقبهما يبتعدان. وما إن دق حصان «إيما» الأرض بحوافره، حتى انطلق راكضا بها، فركض «رودولف» إلى جوارها، وصارا يتبادلان حديثاً بين لحظة وأخرى، ثم استغرقت «إيما» في الصمت، ومنساقة لايقاع الحركة التي كانت تؤرجحها في سرجها، وقد مالت قامتها الى الأمام قليلاً، وارتفعت يدها، وانبسطت ذراعها اليمنى. وعند أسفل السفح، أرخى «رودولف» العنان لجواده، فانطلق الجوادان في وثبة واحدة، وما لبثا إذ بلغا القمة، أن وقفا فجأة، فسقط القناع الأزرق عن وجه «إيما»، وكان شهر اكتوبر في ايامه الأولى، وثمة ضباب يرين فوق الأرض، والسحب تنتشر عند الأفق، حول التلال، بينما تفككت سحب أخرى، وأخذت تطفو متباعدة ثم تختفي. وكان المرء يلمح فى بعض الأحيان خلال ثغره في السحب، تحت شعاع من ضوء الشمس، سقوف بلدة (ايونفيل) والحدائق الممتدة على حافة الماء، والساحات، والجدران، وبرج الكنيسة. وزمت «إيما» عينيها لتستبين دارها، ولم تكن هذه القرية البائسة -التي عاشت فيها- قد تراءت لها قط من قبل صغيرة إلى هذا الحد، ومن الإرتفاع الذي كانا عليه، بدا الوادي بأسره كبحيرة هائلة باهتة اللون، تتصاعد بخاراً فى الهواء. وكانت مجموعات الشجر المتناثرة هنا وهناك تظهر كصخور سوداء، وصفوف الأشجار السامقة -التي كانت تبرز خلال الضباب- تلوح كساحل رملي تذروه الرياح.

وكان ثمة ضوء بني يتذبذب في الجو الدافيء، وعلى الأعشاب، بين أشجار الصنوبر القائمة جانباً، وكانت التربة تكتم وقع الخطى، وقد بدت فى صفرة متوردة كمسحوق التبغ، وأخذ الجوادان -في سيرهما- يضربان بحواف سنابكهما أقماع الصنوبر المتساقطة أمامهما. وهكذا مضى «رودولف» و«إيما» يتبعان حافة الغابة، وهي تشيح بوجهها من آن لآخر لتتفادى نظراته، بحيث لم تكن ترى إذ ذاك سوى جذوع أشجار الصنوبر المتراصة في صفوف كان تتابعها الرتيب يسبب لها شيئا من الدوار. وراح الجودان يلهثان، وجلد السرجين يحدث صريفاً. وفي اللحظة التى ولجا فيها الغابة، بزغت الشمس، فقال «رودولف»: «إن الله يرعانا!» فسألته: «أتظن ذلك؟»، فواصل الحديث قائلاً: «لنتقدم! لنتقدم!» وشقشق بلسانه فاندفع الجوادان يجريان، وعيدان نبات السرخس النامية على جانب الطرق تعلق بركاب «إيما» فينحني «رودولف» ويزيلها وهما ماضيان، وكان في فترات أخرى يمر جد قريب منها ليزيح الأغصان، فتحس «إيما» بركبته تحتك بساقها، وكانت السماء قد غدت زرقاء، ولم تعد أوراق الشجر تهتز. ومرا بمساحات مليئة بزهور نبات

«الخلنج»، وبقاع حفلت بزهور البنفسج، تتخلل رقاعاً ازدحمت بالأشجار المتشابكة التي كانت ذات لون رمادي مصفر، أو لون ذهبي، تبعاً لتباين أوراقها. وكثيراً ما كان يسمع في الأدغال حفيف خفيف صادر عن جناحين، أو صيحة أجشة خافتة منبعثة عن غراب يحلق بين شجر البلوط.

✦✦✦

وترجلا، فربط «رودولف» الجوادين، بينما تقدمت «إيما» سائرة على العشب بين دربين. بيد أن ثوبها المفرط الطول راح يعرقل خطاها، رغم انها كانت ترفع ذيله، و«رودولف» يسير خلفها فيلمح بين هذا القماش الأسود والحذائين الأسودين، رقة جوربيها الأبيضين اللذين لاحا له كنوع من العري! ثم توقفت قائلة: «أنني متعبة». فقال: «لنمض، حاولي من جديد، تجلدي!» وبعد مائة خطوة، توقفت من جديد، وخلال نقابها الذي انساب من قبعة الرجال -التي كانت ترتديها- إلى خاصرتيها، في انحراف، كان وجهها يلوح في شفافية مشوبة بزرقة، وكأنه يسبح تحت موجات لاذوردية. وتساءلت: «إلى أين ترانا ذاهبين؟» فلم يجب. وتهدجت أنفاسها، فأجال رودولف بصره فيما حوله، وعض على شاربيه.

وبلغا بقعة فسيحة، اجتثت منها الأعشاب والأشجار، فجلسا على جذع شجرة مجتثة، وشرع «رودولف» يحدثها عن غرامه. لم يزعجها في البداية بالمجاملات والملق، وإنما كان هادئاً، جاداً، حزيناً. وانصتت «إيما» منكسة الرأس، وهي تحرك بمقدمة قدمها بعض شظايا الخشب المختلطة بالتراب، حتى قال: «ألم يعد مصيرانا الآن مشتركين؟»، وإذ ذاك أجابته: «آه، لا! إنك لتعرف هذا تماماً، إنه مستحيل!» ونهضت للانصراف، فأمسك بمعصمها، وتوقفت، ثم قالت متعجلة بعد أن رمقته بضع لحظات بعين عاشقة، مغرورقة: «آه! لنكف عن الكلام. أين الجوادان؟ هيا نعد» فلوح بيده في غضب وحنق، بينما كررت هي: «أين الجوادان؟ أين الجوادان؟».. وما لبث ان تقدم باسطا ذراعيه، وعلى أساريره ابتسامة غريبة، وقد جمدت حدقتاه، وضغط أسنانه. فتراجعت مرتجفة، وقالت متلعثمة: «أواه! إنك تخيفني! إنك تؤذيني! لنرحل» فقال وقد تغيرت أساريره: «إذا لم يكن من الرحيل بد»! وارتد وقوراً، لطيفاً، حيياً. فأسلمته ذراعها، وعادا، وهو يقول: «ترى ما الذي دهاك؟ لماذا؟ إنني لا أفهم. إنك أسأت فهمي ولا ريب. إنك في فؤادي كعذراء على منصة، في مكان رفيع، منيع، طاهر. ولكني لا أطيق أن أعيش بدونك! إنني في حاجة إلى عينيك، إلى صوتك، إلى فكرك، ألا كوني لي صديقة، أختاً، ملاكاً!» وبسط ذراعه، فأحاط بها خصرها. وحاولت التملص في وهن، لكنه ظل يسندها وهما سائران. غير أنهما ما لبثا أن سمعا الجوادين يلتهمان أوراق الشجر، فقال «رودولف»: «آه! لحظة واحدة! ما ينبغي أن نرحل. ألا ابقي!».

واجتذبها بعيداً، حول بركة ماء صغيرة، بسطت أعشاب الماء على أمواجها خضرة، وكانت زنابق الماء الباهتة تستلقي ساكنة بين أعواد الغاب (البوص). وقفزت الضفادع لتختفي عند وقع أقدامهما. فقالت إيما: «إنني مخطئة! إنني مخطئة! انني حمقاء إذ أنصت إليك!».

- لماذا يا إيما؟ يا إيما!

فقالت في بطء وهي تميل على كتفه: «أواه، يا رودولف!» واشتبك قماش ثوبها بمخمل سترته، فمالت إلى الخلف بعنقها الأبيض، الذي انتفخ بزفرة، وفي اضطراب ودموع، ورعشة طويلة، حجبت وجهها. وأسلمت نفسها!

وهبط ظلال المساء، ومرت الشمس الغاربة بين الأفنان فأعشت عيني «إيما». وهنا وهناك -فيما حولها- كانت لمم من الضوء ترتجف بين أوراق الشجر أو على الأرض، وكأنها طيور صداحة نفشت ريشها وهي تحلق. كان السكون شاملاً، كأنما كان ينبعث من الأشجار شيء عذب. وتحسست المرأة قلبها الذي عاد وجيبه يشتد، وجرى الدم في لحمها كجدول من لبن، وما لبثت أن سمعت من مكان بعيد على التلال الأخرى، خلف الغابة، صيحة مبهمة، طويلة، صوتاً تردد، فأصغت إليه فى صمت وهو يختلط -كالموسيقي- بآخر نبضات أعصابها المختلجة. وكان «رودولف» يصلح بسكينة أحد العنانين المكسورين، وسيجاره بين شفتيه.

✦✦✦

وعادا إلى (ايونفيل) من نفس الطريق التي جاءا فيها، فرأيا على الوحل آثار أقدام جواديهما، جنبا إلى جنب، ومرا بعين الأدغال، وعين الحصى بين العشب. لم يتغير شيء حولهما، وإن كان قد حدث -بالنسبة لها- أمر أشد جسامة مما لو كانت الجبال قد تقلقلت من مواضعها! وكان «رودولف» يميل نحوها، بين آن وآخر، فيتناول يدها ليقبلها. كانت فاتنة، على الجواد! معتدلة! هيفاء القوام، وقد انثنت ركبتها على عرف دابتها، وتورد وجهها قليلاً -بتأثير الهواء الطلق- في حمرة الشفق. حتى إذا ولجا (ايونفيل)، حولت مدام بوفاري عنان جوادها إلى الطريق المرصوفة، وتأملها الناس خلال النوافذ.

وعندما حانت ساعة العشاء، ألفاها زوجها وقد بدت أفضل حالاً، وإن لاح عليها انها لم تكن تسمعه وهو يسألها عن نزهتها. بل ظلت جالسة ومرفقاها إلى جانبي طبقها، بين شمعتين مشتعلتين. وقال الزوج: «إيما!» فتساءلت: «ماذا؟» فأردف: «خيراً لقد قضيت الأصيل في دار السيد الكسندر. إن لديه فرساً عجوزاً، لا تزال بديعة جداً. كل ما بها أن ركبتيها مضعضعتان. وإني لواثق من أن في الوسع شراءها بمائة دينار». ثم أضاف: «وإذ خطر لي أنها ستروقك، حجزتها، ابتعتها فهل أحسنت صنعا؟ ألا نبئيني!».

فهزت رأسها علامة الرضى، وما لبث أن تساءلت بعد ربع ساعة: «أخارج أنت الليلة؟»، فأجاب: «أجل لماذا؟».. قالت: «آه، لا شيء، لا شيء يا صديقي». وما إن تخلصت من «شارل» حتى صعدت فأغلقت باب مخدعها خلفها، وأحست -في البداية- كأنها في غيبوبة! رأت الأشجار، والدروب، والأخاديد، ورودولف، وشعرت من جديد بضغط ذراعيه، بينما كانت أوراق الشجر وأعواد الغاب تبعث حفيفاً. ولكنها إذ لمحت شكلها في المرآة، دهشت لمرأى وجهها، فما كانت عيناها يوماً بهذا الاتساع، وفي هذا السواد، وعلى هذا العمق. إن شيئا ما، رقيقاً لطيفاً، قد غيرها. وراحت تردد لنفسها: «أصبح لي عشيق! عشيق!». وبعثت فيها هذه الفكرة نشوة، فكأنها تحظى بفترة المراهقة والأحلام مرة أخرى! إذن فقد قدر لها أخيراً أن تعرف مباهج الحب هذه، وحمى الهناءة تلك التي كانت في قنوط منها؟! لقد ارتادت شيئاً من تلك المجاهل الحافلة بالشهوة، والنشوة، والألم. ولفتها هيلولة لأزوردية، وأخذت ذرى الأحاسيس تومض تحت أفكارها، وبدا لها كيانها العادي بعيداً، منخفضاً في الظلمات التي كانت تتخلل تلك الذرى! إذ ذاك أخذت تتذكر بطلات الكتب التي قرأتها، وراح الموكب الموسيقي لتلك الفاسقات يردد في ذاكرتها الأغاني بأصوات الراهبات التي كانت تفتنها. وما لبثت أن تبينت أنها قد غدت جزءاً من تلك الرؤى فعلاً، إذ حققت حلم صباها، وخالت نفسها من ذلك الطراز من العاشقات اللاتي كانت تغبطهن من قبل. وأحست، بجانب ذلك، براحة الانتقام! أو لم تعاني الكفاية من العذاب؟ إنها الآن قد فازت، وانبثق الحب -الذي طالما احتبسته- في طفرات فرحة، فاستمرأته في غير ندم، ولا قلق، ولا اضطراب!

وأنقضى اليوم التالي في عذوبة جديدة، إذ تبادلا العهود. وحدثته عن أحزانها، فمضى يقطع عليها الحديث بقبلاته. وراحت تسأله، وهي تتأمله بعينين نصف مغمضتين، أن يناديها باسمها، وان يكرر لها أنه يهواها.. وكانا ساعتئذ في كوخ بالغابة كان يوماً ملكاً لأحد الاسكافيين، جدرانه من القش، وسقفه جد منخفض، حتى لقد اضطرا إلى أن يحنيا جذعيهما، وقد جلسا متقابلين على فراش من أوراق الشجر الجافة.

✦✦✦

ومنذ ذلك اليوم يتكاتبان بانتظام كل ليلة. وكانت «ايما» تضع رسالتها في نهاية الحديقة، على مقربة من النهر، داخل فجوة في السياج، فيأتي «رودولف» ليأخذها ويدس رسالة منه في موضعها، كانت تشكو دائماً من اقتضابها! وذات صباح، خرج «شارل» قبيل بزوغ ضوء النهار، فتولت «إيما» نزوة طاغية زينت لها أن ترى «رودولف» لتوها! وخطر لها أن بوسعها أن تذهب إلى (لاهوشيت) عاجلاً، فتمكث هناك ساعة، ثم تعود إلى (ايونفيل) قبل أن يستيقظ أحد من نومه! وجعلتها هذه الفكرة تلهث لفرط الشهوة، وسرعان ما الفت نفسها وسط المراعي، وهي تغذ السير، لا تلوى على شيء! وكان النهار

قد شرع يسفر عن ضيائه، حين تعرفت عن بعد على بيت حبيبها، وقد استقام بالقرب منه جهازا معرفة اتجاه الريح -اللذان كانا ينتهيان بما يشبه ذيل الحمامة- أسودين بالنسبة لضوء الفجر الباهت. وكان ثمة مبنى وراء مساحة المزرعة، حدست أنه القصر ولابد، فدخلته، وكأنما تفتح باباه من تلقاء نفسيهما بمجرد اقترابها. وكان ثمة سلم عريض مستقيم يصعد إلى الردهة، فأدارت «إيما» مقبض أحد الأبواب، وإذا بها ترى في أقصى الحجرة رجلاً نائماً، كان «رودولف». فندت منها صرخة!

وأخذ هو يردد: «أأنت هنا؟ أأنت هنا؟ كيف استطعت المجيء؟ آه! إن ثوبك مبتل». فأجابت وهي تطوق عنقه بذراعيها: «إنني أهواك!» وإذ نجحت هذه المغامرة الجريئة الأولى، أصبحت «ايما» تسارع -كلما بكر «شارل» في الخروج- إلى ارتداء ثيابها، ثم تتسلل على أطراف أصابع قدميها، هابطة السلم المفضي إلى ناحية النهر أما إذا كانت قنطرة الأبقار مرفوعة، فكانت تضطر إلى الانطلاق بمحاذاة الأسوار القائمة على طول النهر. وكانت الضفة زلقة، ومن ثم كانت تتشبث بيديها بفروع الازهار المتسلقة، لتتفادى السقوط، ثم تنطلق بعد ذلك عبر الحقول المحروثة، حيث كانت قدماها تغوصان في الأرض، فتتعثران وتفلتان من نعليهما الرقيقين.

وكانت الريح في المروج تعبث بالوشاح الذي يلف رأسها. وكانت تخاف الثيران فتأخذ في الجري، حتى تصل متقطعة الأنفاس، موردة الخدين، تنشق بكل كيانها عبير ماء الحقول، والخضرة، والهواء الطلق. وفي تلك الاثناء يكون «رودولف» سادراً في نومه، فتلج مخدعة كصباح الربيع! وكانت الستائر الصفراء -على النوافذ- تسمح لضوء غزير، مصفر، بالتسلل في رفق، فتتحسس «ايما» طريقها، وهي تفتح عينيها وتغمضهما، بينما تؤلف قطرات الندى العالقة بوشاحها اكليلاً من الزبرجد حول وجهها، فيشدها «رودولف» إليه ضاحكاً، ويضمها إلى قلبه! ثم تأخذ بعد ذلك في تفقد المسكن، فتفتح أدراج المناضد، وترجل شعرها بمشطه، وتتأمل نفسها في مرآة الحلاقة. بل أنها كثيراً ما كانت تضع بين أسنانها طرف الغليون الكبير الملقى على المنضدة المجاورة للفراش، بين الليمون وقطع السكر، على مقربة من إبريق للماء. وكان الوداع يستغرق منهما ربع ساعة بأكمله، فقد كانت «إيما» تبكي آنئذ، وهي تود لو أتيح لها ألا تفارق «رودولف» أبداً! كان يدفعها نحوه شيء أقوى منها، حتى أنه حين رآها يوماً تفد على غير ارتقاب، قطب جبينه في عبوس الشخص المكره على أمر، فقالت له: «ماذا بك؟ هل تألم من مرض؟ صارحني!».

وصارحها أخيراً، في لهجة جادة، بأن زياراتها أصبحت تجانب الحكمة، وأنها تعرض نفسها للخطر!

الفصل العاشر

لم تلبث مخاوف «رودولف» هذه أن تملكتها هي الأخرى. إذ أسكرها الحب في البداية، فلم تفكر في شيء عداه، أما وقد أصبح ضرورة لا غنى عنها في حياتها، فقد غدت تخشى أن تفقد شيئا من هذا الحب، بل تخشى أي عناء يحيق به. وكانت حين تعود من عند «رودولف» تتلفت حولها بنظرات موجسة، وترقب كل ما يمر عند الأفق، وكل كوة في القرية يمكن أن يلمحها منها أحد. وكانت تتسمع على الخطى، والصيحات، وجلبة المحاريث، وتبدو أكثر شحوباً وأشد ارتجافاً من أوراق أشجار الحور المهتزة فوق رأسها.

وفيما كانت عائدة ذات صباح -بهذه الحال- خيل إليها فجأة أنها لمحت قصبة بندقية مسددة إليها، وقد برزت بانحراف من قمة برميل صغير دفن إلى نصفه بين الأعشاب عند حافة خندق صغير. وكاد يغمى على «إيما» خوفاً، ومع ذلك فإنها واصلت السير، وإذا برجل يخرج من البرميل -كعفريت العلبة- مرتدياً طماقين (طزلك) يقيان ساقية حتى الركبتين، وقد أرخى قلنسوته على عينيه، وارتجفت شفتاه، واحمر أنفه. ذلك كان السيد «بينيه» -محصل الضرائب- وكان قد كمن يتربص للبط البري، وهتف بها: «كان ينبغي أن تصيحي من بعد، فالمرء إذا رأى بندقية وجب عليه أن ينبه إلى وجوده!» وكان المحصل يحاول بهذا أن يخفي الجزع الذي تولاه، إذ كان ثمة أمر إداري يحرم صيد البط إلا من مركب في النهر، وقد وجد السيد «بينيه» نفسه يخرق القانون رغم احترامه إياه، وكان يخشى أن يفاجأ بين دقيقة وأخرى بوصول الحارس الريفي. غير أن هذا القلق أذكى متعته، فراح يهنيء نفسه -وهو وحيد في البرميل- بما أوتي من حظ ودهاء. وما إن رأى «إيما» حتى بدا وكأنما انزاح عنه عبء ثقيل، فبادر إلى مجاذبتها الحديث، قائلاً: «إن الجو ليس حاراً، بل إن برودته لاذعة». ولم تجبه «ايما»، فاستطرد قائلاً: «ومع ذلك تخرجين مبكرة من دارك؟» فقالت متلعثمة: «أجل. إنني عائدة من لدن المربية التي تكفل طفلتي».

-آه، حسن جداً! حسن جداً! أما أنا، فكما ترين، جئت منذ تنفس النهار، ولكن الجو شديد الرطوبة، حتى ان المرء إذا لم يصبر حتى يقف الطائر عند فوهة البندقية... .

فقطعت عليه الحديث قائلة وهي تنكس على عقبيها: «عم مساء يا سيدي!» فقال في لهجة جافة: «في خدمتك يا سيدتي». وعاد إلى برميله. وندمت «إيما» إذ تركت محصل الضرائب بمثل هذه الجفوة، فلابد أنه سيسيء التأويل والحدس! والواقع أن قصة المرضعة كانت أسوأ حجة، إذ أن الكل يعرفون في (ايونفيل) أن ابنة «بوفاري» قد عادت إلى أبويها منذ عام. ثم إن أحدا لم يكن يسكن في هذه الجهة، ولم تكن الطريق تفضي إلى غير مزرعة (لاهوشيت)! ومن ثم فلن يلبث «بينيه» أن يحدس من أين كانت آتية،

ولن يخلد إلى الصمت، بل إن من المؤكد أنه سيثرثر بالموضوع! وظلت «إيما» حتى المساء تعصر ذهنها بحثاً في كل أنواع الأكاذيب الممكن تصورها، وشبح ذلك الصياد الغبي ماثل أمام عينيها باستمرار!

◆◆◆

وإذ رأى «شارل» اكتئابها، أراد -بعد العشاء- أن يصطحبها إلى دار الصيدلي ليروح عنها، فإذا أول شخص تراه في الصيدلية، هو محصل الضرائب عينه! كان واقفاً أمام منضدة البيع، التي أنارها قنديل أحمر، وهو يقول: «أرجو أن تعطيني نصف أوقية من الزاج»، فصاح الصيدلي: «أحضر حامض الكبريتيك يا جستان». ثم قال لإيما التي همت بأن تصعد إلى حجرة زوجته مدام «هوميه»: «لا استريحي»، فلا داعي لأن تتعبي نفسك، إذ أنها لن تلبث أن تهبط. فاستدفئي بجوار المدفأة في انتظارها. معذرة، طاب يومك يا دكتور (كان الصيدلي يستطيب ترديد كلمة «دكتور»، وكأنه يخلع على نفسه -إذ ينادي سواه بها- بعض الرواد الذي يجده فيها) . ولكن، حذار أن تقلب الهاونات، يحسن أن تحضر بعض المقاعد من القاعة الصغيرة. إنك تعرف ولا ريب أن ليس من المسموح نقل المقاعد الوثيرة من غرفة الجلوس».

ولكي يعيد «هوميه» مقعده إلى مكانه، هم بالانطلاق من خلف منضدة البيع، لولا أن سأله «بينيه» أن يبيعه نصف أوقية من حامض السكر، فقال الصيدلي في ازدراء: «حامض السكر؟ لست أعرفه، بل إنني أجهله! لعلك تريد حمض الأوكساليك (الحميض)؟ إنه الأوكساليك، أليس هذا صحيحاً؟» فأوضح له «بينيه» أنه يريد مادة تفتت المعدن، ليعد لنفسه بعض ماء النحاس يزيل به الصدأ عن أدوات الصيد. فارتجفت «إيما»، وشرع الصيدلي يقول: «إن الجو غير مناسب، فعلاً، بسبب الرطوبة». فأجاب محصل الضرائب، في تخابث: «ومع ذلك، فهناك أشخاص يميلون إليه!» وتهدجت أنفاس «إيما»، بينما تحول هو يقول: «وأعطني أيضا...» فقالت لنفسها: «أو لن ينصرف أبدا؟» وكان مستطرداً في كلامه: «نصف أوقية من زيت الخروع والتربنتينة، وأربع أوقيات من الشمع الأصفر، وثلاثة أنصاف أوقية من الفحم الحيواني، من فضلك، لأنظف جلد طماقي المصقول».

وكان الصيدلي قد شرع في قطع الشمع عندما وصلت مدام «هوميه» حاملة «ايرما» بين ذراعيها، و«نابليون» إلى جوارها، و«اتالي» خلفها. وجلست في المقعد المخملي المجاور للنافذة، بينما جلس الصبي القرفصاء على مقعد صغير، وأخذت أخته التي تكبره تحوم حول صندوق العناب القريب من أبيها. وكان الأخير يملأ أقماعاً، ويسد قنينات، ويلصق بطاقات، ويحزم الأشياء. وقد ساد الصمت من حوله، فلم تكن تسمع سوى شنشنة الموازين بين آن وآخر، وبضع كلمات خافتة من الصيدلي لتوجيه مساعده وفجأة، تساءلت مدام هوميه: «وكيف حال فتاتنا الصغيرة؟»، فهتف زوجها وهو يكتب أرقاماً في مسودة:

«صمتا!» لكنها استطردت في صوت خفيض: «لم لم تحضريها معك؟» وأجابت إيما وهي تشير إلى الصيدلي باصبعها: «صه! صه!» ومن المحتمل أن يكون «بينيه» لم يسمع شيئاً، إذ كان منهمكا في مراجعة حسابه. وما لبث أن خرج في النهاية، وإذ ذاك أحست «إيما» بالارتياح، فأرسلت زفرة عميقة. وقالت مدام «هوميه» معلقة: «ما أشد أنفاسك؟»، فأجابت: «آه، إن الجو حار!».

✦✦✦

وهكذا اضطر العاشقان إلى أن يتشاورا في اليوم التالي في تدبير أمر خلواتهما. ورأت «إيما» ان ترشو خادمتها بهدية، ومع ذلك فقد استحسنت البحث عن منزل أمين في (ايونفيل)، فوعد «رودولف» بأن يبحث. وظل طيلة الشتاء، يتسلل إلي حديقة دارها في بهيم الليل ثلاث مرات أو أربعاً في الاسبوع، وكانت «إيما» قد تعمدت أن تأخذ مفتاح الباب، فظن «شارل» أنه ضاع. واعتاد «رودولف» أن يرمى مصاريع النافذة بحفنة من الرمل كلما جاء، لينبهها، فتقفز مجفلة. بيد أنها كانت تضطر أحياناً إلى التريث في اللحاق به، إذ كان «شارل» يهوى الحديث إلي جوار المدفأة، ولا يكاد يكف. وكان التعجل في انتظار نهوضه يفري فؤادها، ولو أوتيت نظراتها قوة لرفعته من مكانه وطوحت به من النافذة! ولكنها كانت لا تلبث أخيراً أن تشرع في التأهب للنوم، ثم تتناول كتاباً وتأخذ في مطالعته في هدوء، كأنما هي تستمرئ القراءة. فلا يلبث «شارل» أن يصعد الي السرير، ويناديها لتنام، قائلاً: «هيا يا إيما، تعالي! لقد آن لك أن تنامي»، فتجيبه: «أجل، ها أنذي قادمة!» لكنه لا يلبث أن يضيق بضوء الشموع، فيولي الحائط وجهه، وينام، فتتسلل مبتسمة، متهدجة الأنفاس، وليس عليها سوى قميص النوم، وكان لرودولف معطف كبير، يسارع فيلفها به تماماً، ثم يحيط خصرها بذراعه، ويقودها -دون ما كلمة- إلى الطرف الأقصى للحديقة، تحت الخميلة، على عين المقعد المصنوع من العصى الخشبية الذي كان «ليون» يجلس عليه فيما مضى، يتطلع إليها في وجد، في ليالي الصيف -على أنها لم تكن تفكر في «ليون» فقط إذ ذاك!

وكانت النجوم تومض خلال فروع الياسمين المجردة من الورق، وخرير النهر في انسيابه يصافح سمعهما من خلف الحديقة. ومن وقت لآخر، كان ينبعث على الضفة حفيف أعواد الغاب الجافة. وهنا وهناك، كانت تبين خلال الظلام كتل من الظلال، تهتز أحياناً في حركة موحدة، فتنهض وتترنح كأنها أمواج سوداء هائلة، تتدافع لتجتاحهما. وكان برد الليل يضطرهما إلى أن يزدادا تلاصقاً، فتبدر التنهدات المنبعثة من شفاههما أحر من عادتها، وتتراءى لهما عيونهما -التي كانا لا يكادان يستبيناها- أكثر اتساعاً. وفي غمرة الصمت، كانت تقال كلمات خافتة، تقع على نفسيهما في رنين بلوري، ثم تتذبذب فيها، في دوائر تطرد اتساعاً. وكانا -في الليلة الممطرة- يلوذان بغرفة العيادة القائمة بين مأوى

العربة وحظيرة الجواد، فتوقد «إيما» شمعة من شموع المطبخ كانت تخفيها وراء الكتب، ويرتاح «رودولف» كما لو كان في بيته! بل إن منظر المكتبة، والمكتب، والغرفة بأسرها، كانت لا تلبث أن تستثير روح الفكاهة لديه، فلا يتمالك أن يلقي بضع نكات عن «شارل تحار ازاءها «ايما»، إذ كانت تؤثر أن تراه أكثر جداً، بل وأكثر انفعالاً -في بعض المناسبات- كما يفعل أبطال المسرحيات. من ذلك تلك المرة التي خيل إليهما فيها أنهما يسمعان صوت خطى تقترب في الردهة، إذ قالت: «هناك شخص مقبل!» فأطفأ الشمعة!

-هل تحمل غدارتيك؟

-لماذا؟

أجابت: «عجباً. لتدافع عن نفسك!» قال: «أأدافع ضد زوجك؟ آه! يا للصبي المسكين!» واتبع عبارته بحركة، أوضحها بقوله: «إنني استطيع أن أحطمه بطرف اصبعي!» وبهتت لجرأته، وإن أحست فيها بشيء من القحة والغرور الممجوج، أثار استنكارها! وفكر «رودولف» كثيراً فيما قالت عن الغدارتين: فلو أنها كانت جادة في القول، لكان هذا سخفاً بالغاً، بل ممقوتاً، إذ لم يكن ثمة ما يبرر أن يكره «شارل» الطيب الذي لم يكن من النوع الذي يقال إن «الغيرة تأكله»! وفي هذا الصدد، أقسمت «إيما» يميناً، لم ير «رودولف» انها تنم عن ذوق مستحب. ثم إنها كانت -إلى جانب ذلك- تزداد اندفاعا في الهوى، فحملته على أن يتبادل معها الصور الصغيرة، وخصل الشعر، ثم تحولت تسأله أن يهديها خاتماً، خاتم زواج حقيقياً، كرمز للرباط الأبدي بينهما! وكثيراً ما كانت تحدثه عن الأجراس التي يسرى رنينها في الليل، وعن «أصوات الطبيعة». ثم راحت تحدثه عن مكانة أمها، بالنسبة لها، ومكانة أمه بالنسبة له! وكان «رودولف»، قد فقد أمه منذ عشرين سنة، ومع ذلك راحت «إيما» تعزيه في كلمات مواسية، حنون، كتلك التي تقال لطفل ضائع، وحيد. بل لقد كانت أحيانا تقول له، وهى تحملق في القمر: «إنني واثقة من أنهما في حياتهما العليا تقران غرامنا»!

✦✦✦

لكنها كانت فائقة الجمال!.. قليلات ممن عشق «رودولف» من قبل أوتين مثل سذاجتها وطيبة قلبها. وكان هذا الغرام الخالي من الفجور والخلاعة تجربة جديدة بالنسبة له، وقد أخذ يخرجه من تساهله وتحلله المألوفين، ويذكي في الوقت ذاته زهوه وشهوته.. وكانت عواطف «ايما» المرهفة، المشبوبة، تبدو لادراكه البورجوازي مستهجنة، ولكنها كانت تلوح له -في قرارة فؤاده- ممتعة، إذ كانت تنصب عليه في سخاء. وإذ اطمأن الى أنه غدا محبوباً: لم يعد يحفل بالتظاهر، وتغيرت أطواره في غير حكمة.. فلم تعد لديه -كما كان من قبل- كلمات يبلغ من رقتها أن تبكيها، ولا عناقات حارة تعبث برشدها، حتى

لقد لاح ان حبهما الكبير، الذي عاشت في غمرته، قد أخذ يضمحل، كما يغيض ماء الجدول في مجراه، حتى خيل إليها أنها ترى قاعه!.. ولم تنشأ أن تصدق ذلك، بل ضاعفت من الحنان الذي تريقه على «رودولف»، بينما كان هو يزداد إهمالا في إخفاء عدم اكتراثه!

ولم تكن تدري أهي نادمة على أن استسلمت له، أم أنها -على العكس- لم تعد راغبة في امتاعه وارضاء لذاته. وأخذت ذلة شعورها بالضعف تتحول إلى ضغينة يهدئ من حدتها عبثهما الفاجر. وما كان هذا غراماً، وإنما كان أشبه الأشياء بضلال مستمر. كان «رودولف» يسيطر على «إيما»، وكانت ترهبه تقريباً. على أن المظهر ازداد هدوءاً عن ذي قبل، إذ أفلح رودولف في المضي بعلاقتهما الآثمة الى أبعد مما صور له خياله. وما إن أقبل الربيع -بعد ستة شهور- حتى كانا كزوجين، يبقيان على ومضة من الألفة المشتركة في هدوء. وحان الموعد الذي اعتاد الأب «روو» أن يرسل فيه دجاجته الرومية المعهودة، في ذكرى كسر ساقه. وكانت تصحب الهدية -كالعادة- رسالة، فقطعت «إيما» الخيط الذي يشدها الى السلة، وقرأت فيها السطور التالية:

«ولدي العزيزين: أرجو أن تجدكما الهدية في صحة طيبة، وأن تكون في جودة سابقاتها، إذ تبدو لي -إن جاز أن أقول- أطرى لحماً وأثقل وزناً منها. على أنني سأمنحكما في المرة القادمة ديكا، من قبيل التغيير، ما لم تفضلا أن أبعث إليكما ببعض السمك. وأرجو أن تعيدا السلة، مع السلتين السابقتين. منيت بخسائر في حظائري الخاصة بالعربات، إذ طار سقفها بين الأشجار ذات ليلة شديدة الريح. كذلك لم يكن المحصول بالغ الجودة. وأخيراً، لا أدري متى سآتي لزيارتكما، فمن العسير الآن أن أبرح البيت، إذ أنني وحيد يا إيماي المسكينة». وهنا بدت ثغرة بين السطور، وكأنما أفلت الشيخ القلم من يده واستسلم للأحلام فترة، قبل أن يواصل الكتابة! «أما أنا فبخير، فيما عدا برد أصابني منذ أيام في مهرجان (ايفيتو)، حيث ذهبت لاستأجر داعياً بعد ان طردت الراعي الذي كان في خدمتي، لشدة ولعه بالطعام الشهي، ما أشقانا بمثل هؤلاء اللصوص! ثم إن كان -فضلاً عن هذا- غير أمين. ولقد سمعت من بائع متجول -اضطر إلى خلع إحدى أسنانه أثناء مروره ببلدكم في هذا الشتاء- إن «بوفاري» مجد في عمله. ولم يدهشني هذا. وقد أراني السن أثناء تناولنا القهوة معا، وسألته عما إذ كان قد رآك، فقال إنه لم يرك، ولكنه شاهد في الحظيرة جوادين، فاستنتجت أن العمل يسير على ما يرام، فهنيئاً لكما يا ولدي، وليرسل الله عليكما كل ما يمكن تصوره من هناء! يؤسفني أن لم أر حتى الآن حفيدتي الحبيبة «بيرت بوفاري». لقد غرست من أجلها في الحديقة -تحت غرفتك- شجرة خوخ، ولن أسمح بأن تمس إلا إذا كان ذلك لإعداد المربى فيما بعد، على أن أحتفظ بها في الصوان من أجلها اذا ما جاءت. وداعاً يا ولدي العزيزين، وإني لأقبلك يا ابنتي، وأنت يا زوج ابنتي، وللصغيرة قبلة على كل خد. مع أطيب تمنياتي: أبوكما المحب، تيودور روو».

✦✦✦

ظلت «إيما» بضع دقائق ممسكة بالورقة الخشنة بين أصابعها، وقد تشابكت فيها الأخطاء الهجائية، وسرحت بالها وراء الفكرة الكريمة التي كانت تنقنق خلالها كما تنقنق دجاجة نصف مختفية في دغل من النبات الشوكي. لقد جفف أبوها المداد برماد من المدفأة، إذ انساب من الرسالة على ثوبها بعض غبار رمادي، فخيل إليها أنها ترى الأب منحنياً على المدفأة ليتناول الملقط. ما أطول الزمن الذي انقضى منذ كانت معه، تجلس على مقعد منخفض في الركن الذي تقوم فيه المدخنة، حيث أعتادت أن تحرق طرف عصا من الخشب، في اللهب المتأجج المنبعث عن وقود من الخيزران البحري! وتذكرت أصائل الصيف حين كان ضياء الشمس يظل ساطعاً، وصغار الخيل تصهل إذا مر أحد عن قرب، وتركض ركضاً. وكانت تحت نافذتها خلية للنحل يصطدم نحلها أحيانا بالنافذة وهو يلف النور ككرات ذهبية وثابة. أية سعادة كانت تحظى بها إذ ذاك، وأية حرية، وأي أمل! ما كان أوفر الأوهام العذبة إذ ذاك! لم يبق منها الآن شيء. لقد انفقتها جميعا في مغامرات روحها، وفي كافة الظروف المتتابعة في حياتها: في بكورتها، وزواجها، وغرامها. وهكذا ظلت تفقدها تباعاً في حياتها، كمسافر يخلف وراءه جزءاً من ثروته في كل فندق على طول الطريق. ولكن، ما الذي أشقاها هكذا، إذن؟ ما هي الكارثة الخارقة التي غيرتها؟ ورفعت رأسها، متلفتة حولها، وكأنها تبحث عن سبب هذا الشيء الذي جعلها تتألم!

وكان ثمة شعاع من شمس ابريل يتراقص على الرف القيشاني، والنار تستعر. وأحست بنعومة البساط تحت نعليها. كان اليوم مشرقاً، والجو دافئاً، وسمعت طفلتها تضـ بالضحك. والواقع أن البنت كانت تتقلب إذ ذاك على العشب، وسط الحشائش المجتثة، ثـ استلقت على بطنها فوق سطح حجر طاحون، والخادم تمسكها متشبثة بذيل ثوبها. وكان «ليستيبودوا» يشذب العشب بجوارهما، وكلما اقترب من الصغيرة، مالت نحوه ضاربة الهواء بذراعيها.. وقالت الأم: «أحضريها إلي»، ثم اندفعت تقبلها مغمغمة: «كم أحبك طفلتي الصغيرة! كم أحبك!» ثم لاحظت أن طرفي أذنيها متسخين، فبادرت تدق الجرس طالبة ماء دافئاً، ونظفت البنت، وبدلت لها ثيابها، وجوربيها، وحذاءيها، وسألت ألف مر عن صحتها، وكأنها عائدة من رحلة طويلة، ثم أسلمتها أخيراً للخادم وهي تقبلها مرة أخرى، باكية قليلاً، بينما كانت الخادم تقف مبهوتة لهذا الفيض من الحنان.

وفي ذلك المساء، ألفاها «رودولف» أكثر جداً من المألوف، فقال معلقاً: «لن يلبث أن ينقضي، إنها نزوة!». ولم يوافها في ثلاثة مواعيد متتابعة، فلما جاءها، أبدت فتور وشبه اشمئزاز، فقال: «آه! انك تضيعين وقتك يا صغيرتي!» وتظاهر بأنه لم ينتبه إلى زفراتها الحزينة، ولا إلى المنديل الذي أخرجته.

إذ ذاك ثابت «إيما»، بل انها ساءلت نفسها عما ينفرها من «شارل»! أو لم يكن من الأحسن أن تستطيع أن تحبه؟ بيد أنه لم يتح لها الفرصة لمثل هذه العودة العاطفية، حـ لقد اشتدت حيرتها ازاء رغبتها في التضحية وعند ذلك أقبل الصيدلي يزودها بفرصة، الوقت الملائم!

الفصل الحادي عشر

كان قد قرأ منذ عهد قريب رسالة عن طريقة حديثة لعلاج تشوه القدم، وإذ كان من دعاة التقدم، فقد راودته فكرة وطنية توحي بأنه لكي تصبح (ايونفيل) في المقدمة، ينبغي أن تجرى فيها بعض جراحات لتجميل الأقدام. وقال لإيما: «وفيم تجشم كل ذلك؟ احكمي بنفسك (وأخذ يعد على أصابعه فوائد التجربة) النجاح شبه مؤكد: انقاذ المريض وتجميله، شهرة سريعة يحرزها الجراح. لِمَ -مثلا- لا يعمل زوجك على إنقاذ «هيبوليت» المسكين، سائس حظيرة «الأسد الذهبي»، من عرجه؟ لاحظي أنه لن يتوانى عن أنباء كل المسافرين بشفائه. ثم (وخفض «هوميه» من صوته وتلفت حوله) من يمنعني من أن أرسل نبذة قصيرة عن الموضوع إلى الصحيفة؟ آه! يا الهي! إن الأمر لن يلبث أن يناقش، ويغدو محور الحديث، سينتهي هذا إلى ضجة تنتشر، ومن يدري؟ من يدري؟».

وفي الواقع، كان في وسع «بوفاري» أن ينجح، فليس ثمة ما كان يؤكد لإيما أنه غير بارع، ولكم يكون من بواعث رضاها وارتياحها أن تحثه على اتخاذ خطوة تزيد من شهرته وثروته؟ لم تكن تبغي أكثر من أن تستند إلى شيء أقوى من الحب وأصلب. وما لبث «شارل» -تحت إلحاحها وإلحاح الصيدلي- أن انساق، فأرسل إلى (روان) في طلب كتاب الدكتور «ديفال» وأخذ ينكب على قراءته كل ليلة، معتمداً رأسه بين يديه. وفيما كان يدرس «الكاتاستريفوبودي» و«الاندوستريفوبودي» و«الاكسوستريفوبودي» -أو بالأحرى، أنواع انحناء القدم إلى أسفل، أو إلى الداخل، أو إلى الخارج- مع «الهيبوستريفوبودي» و«الاناستريفوبودي» -أو بمعنى آخر الالتواء إلى أسفل وإلى أعلى- كان السيد «هوميه» يعمل بكل وسائل الجدل على اقناع الفتى الذي يعمل في الفندق على قبول أن تجرى له جراحة التجميل: «إنك لن تكاد تحس بشيء، وإن أحسست فبألم بسيط. إنها مجرد شكة، كالفصيد البسيط. أخف من إزالة بعض البثور!».

وكان «هيبوليت» يجيل عينيه المليئتين بالغباء، مفكراً، فيمضي الصيدلي قائلاً: «على أن الأمر لا يهمني. إنه من أجلك، بدافع إنساني محض! انني أحب أن أراك يا صديقي وقد تخلصت من عرجك البشع، مع ذلك الانحراف في منطقتي العجز، الذي يعرقلك ولابد -مهما يقال- في أداء مهنتك.. ثم يصف له «هوميه» مدى ما سيشعر به فيما بعد من خفة في الحركة ومن نشاط. بل ذهب إلى أن أفهمه أنه سيصبح أبهى منظراً فيروق في أعين النساء! فشرع سائس الخيل في الابتسام بتثاقل، وإذ ذاك راح الصيدلي يقنعه، باستثارة غروره، قائلاً: «أو لست رجلاً؟ عجباً! ماذا كنت تراك فاعلاً لو أنك كنت ذاهباً إلى الجيش، ذاهباً إلى الحرب تحت لواء الوطن؟ آه، يا هيبوليت!» وانصرف «هوميه» معلناً أنه لا يفهم هذا العناد والعمى اللذين يتجليان في رفض نعمة من نعم العلم!

وما لبث الفتى المسكين أن انصاع، إذ كان الأمر أشبه بالمؤامرة، فإن المحصل «بينيه» -الذي لم يكن قط يتدخل في شئون الغير- ومدام «لوفرانسوا» و«آرتيميز»، والجيران، بل والعمدة السيد «توفاش».. كل إنسان كان يغريه، ويلقي عليه المحاضرات ويعيب تردده. على أن الذي أغراه أخيراً على البت، هو أن المحاولة لم تكن لتكلفه شيئاً. بل إن «بوفاري» تعهد بأن يحضر الجهاز اللازم للجراحة، وكان هذا السخاء من وحي «إيما»، وقد انصاع له «شارل» وهو يرى في قرارة نفسه أن زوجته ملاك! ومن ثم ما لبث بارشاد الصيدلي، وبعد ثلاث محاولات، أن حصل على صندوق خاص صنعه النجار بمساعدة صانع الاقفال، وكان يزن حوالى ثمانية أرطال، ولم يبد أى تقتير في تزويده بالحديد والخشب والحديد المسطح والجلد والمسامير البرغية و«الصواميل»! على أنه لمعرفة أي العضلات ينبغي قطعها لدى «هيبوليت»، كان من الضروري التعرف أولاً على نوع التواء قدمه.. كانت قدمه تكاد تمتد في خط مستقيم مع ساقه، وإن لم يحل هذا دون ثنيها إلى الداخل، فكان نوعها بذلك يجمع بين الالتواء إلى أسفل وقليل من الالتواء الى الداخل، أو -من ناحية أخرى- التواء الى الداخل، مع ميل شديد للالتواء إلى أسفل. ورغم هذا الالتواء إلى أسفل، الذي كان يحدث فراغاً بين الساق والقدم يتسع لحافر جواد، ورغم الجلد الخشن الغليظ، والأعصاب الجافة المتيبسة، وأصابع القدم الضخمة التي تحمل أظافر سوداء تبدو كما لو صنعت من حديد، فإن الأعرج كان يجرى في خفة الغزال من الصباح حتى المساء. كان يشاهد باستمرار في الميدان يقفز حول العربات، وهو يطوح بقدمه العرجاء إلى الأمام.. بل كان يلوح أن هذه الساق ذات القدم الملتوية أقوى من أختها، فقد اكسبها العمل الشاق صفات معنوية كالصبر والنشاط، بحيث كان صاحبها إذا أقدم على عمل يثقل عليه، وقف عليها دون اختها!

ولما كان الالتواء إلى أسفل، فقد بات من الضرورى قطع عصب «اشيل»، على أن يترك أمر العصب الشظوى -أو المزمارى- الداخلي حتى يتبين فيما بعد ما إذا كانت الضرورة تدعو إلى علاجه للتخلص من الالتواء الذي يثني القدم إلى الداخل، أم لا (إذا لم يجرؤ الطبيب على الاقدام على جراحتين دفعة واحدة. بل إنه كان يرتجف فرقا من أن يؤذي بقعة هامة دون أن يدرى). ولم يحدث لامبروز باريه، وهو يحاول لأول مرة منذ عضر «الكلت» -أى منذ حوالى خمسة عشر قرنا- أن يربط أحد الأوردة، ولا لديبيتران، حين هم بأن يشق خراجاً في المخ، ولا لجنسول حين انتزع عظم الفك العلوى للمرة الأولى.. لم يحدث لأحد من هؤلاء أن ارتجف قلبه، أو ارتعشت يداه، أو اضطرب ذهنه، كما كانت الحال مع السيد «بوفاري» حين شرع يعالج «هيبوليت»، ممسكاً بأعصاب قدمه بين أصابعه.

وكما يشاهد في المستشفيات، وضعت على منضدة كبيرة كومة من «الشاش»، والخيط المشمع، وكثير من الضمادات -بل «هرم» من كل ما يوجد عند الصيدلي من أنواع الضمادات!- وكان السيد «هوميه» هو الذي عنى منذ الصباح بتدبير كل هذه المعدات.

رغبة منه في أن يبهر أنظار الشهود أكثر منه في أن يهدىء هواجسه! وشق «شارل» الجلد، فسمع له أزيز. وقطع العصب، وانتهت الجراحة، ولم يقو «هيبوليت» على مغالبة دهشته، ولكنه انحنى على يدي الطبيب يغمر يديه بقبلاته، فقال الصيدلي: «كفى، واهدأ! سيتاح لك فيما بعد أن تظهر عرفانك بفضل الطبيب الذي أحسن إليك».. ثم هبط ليزجى بالنتيجة إلى خمسة أو ستة من المتسائلين الذين كانوا ينتظرون في الفناء، والذين كانوا يخالون أن «هيبوليت» لن يلبث أن يطلع عليهم وهو يسير في خطى سليمة! وما لبث «شارل» أن شد مريضه إلى الجهاز المحرك الآلي، ثم عاد إلى داره، حيث كانت «إيما» في انتظاره لدى الباب ملهوفة، فطوقت عنقه، ثم جلس إلى المائدة، فأكل في نهم. وعند تناول الحلوى طلب قدحاً من القهوة -وهو نوع من الترف لم يكن يتيحه لنفسه إلا فى أيام الآحاد، حين يكون لديهما ضيوف!

✦✦✦

وكان ذلك المساء بديعاً، أفعمه الزوجان بالكلام والأحلام. تحدثا عن حظهما المقبل، وعن التحسينات التي يدخلانها على دارهما. واستعرض «شارل» في مخيلته ما يرتقبه من تقدير، ومن ازدياد الرخاء، إلى جانب حب زوجته المقيم. وكانت هذه من ناحيتها هانئة إذ تنعم بعاطفة جديدة، أسلم وأحسن مما كانت تنعم به من قبل، وإذ تحس -أخيراً- ببعض الحنان والعطف نحو هذا المكسين الذي كان يعبدها. ومرت ذكرى «رودولف» بذهنها للحظة واحدة، ولكن عينيها تطلعتا إلى «شارل»، بل إنها لاحظت -وهي مدهوشة- أنه لم يؤت أسناناً تالفة، كما كانت تعتقد! وكانا قد أويا إلى فراشهما حين ولج السيد هوميه الغرفة مندفعاً، رغم أنف الخادم، وقد أمسك فى يده ورقة تتضمن صورة من النبأ الذي كتبه لصحيفة «فاناك دورْوان»، وقد حمله إليهما ليقرآه.. فقال «بوفاري»: «اقرأه بنفسك».
فشرع يقرأ: «على الرغم من الأباطيل التي لا تزال ترين على شطر من وجه أوربا، كالشبكة، فإن الضوء قد بدأ ينفذ من ريفنا، فقد ألفت بلدتنا الصغيرة (ايونفيل) نفسها -يوم الثلاثاء- مسرحاً لتجربة جراحية كانت في الوقت ذاته من اسمى أمثلة الخير، إذ قام السيد «بوفاري»، وهو من أبرز اطبائنا الممتازين...».

فقاطعه «شارل» بصوت مختنق من فرط تدافع المشاعر: «لا! هذا أكثر مما أستحق! هذا كثير جداً!» بينما أجاب الصيدلي: «لا، لا! العفو! اسمع» -مستطرداً: «... باجراء عملية جراحية لرجل اعرج». إننى لم استخدم التعبير العلمي، ففي الصحف -كما تعلمان- لا يفترض أن كل قارئ يفهم التعبيرات العلمية، يجب أن يتاح للعامة...»، فقال «بوفاري»: «طبعا.. امض!»، فقال الصيدلى: «سأستأنف: قام السيد «بوفاري»، وهو من أبرز أطبائنا الممتازين، باجراء عملية جراحية لرجل أعرج يدعى «هيبوليت توتان»، قضى معظم السنوات الخمس والعشرين الأخيرة سائسا في فندق «الأسد

الذهبي»، الذي تديره الأرملة «لوفرانسوا» في ميدان الجيش. ولقد اجتذبت طرافة التجربة، وما أثاره الموضوع من اهتمام كثيراً من الناس، حتى لقد كان الزحام شديداً عند مدخل الفندق. وفضلا عن هذا فقد أجريت العملية في براعة أشبه بالسحر، فلم يكد يبدو على الجلد أكثر من قطرات قليلة من الدم، وكأنما استسلم العصب المتمرد لجهود الفن أخيراً. وكان من الغريب أن المريض لم يشك أي ألم، وهو ما نؤكده إذ شهدناه بأعيننا. ولا تدع حاله -حتى الآن- مجالا للرغبة في مزيد. ويدعو كل شيء إلى الاعتقاد بأن فترة نقاهته ستكون قصيرة. ومن يدري، فقد نرى في عيدنا القروى القادم، صديقنا «هيبوليت» منهمكا في رقصة «الباشيك» بين فريق من الراقصين المرحين، وبذلك يثبت للأبصار جميعا -بتحمسه وقفزاته- شفاءه التام! فلنمجد اذن العلماء الكرام! لنكرم تلك النفوس التى لا تهن، والتي كرست مواهبها لتحسين، أو بالأحرى، لترقية الجنس البشري! المجد لهم، لنهتف ثلاثا لتمجيده! أولا يدعو هذا لأن نصيح بأنه قد آن للأعمى أن يرى، والأصم أن يسمع، والاعرج أن يسير؟ إنما يحقق العلم الآن لكل الناس ما كان المتهوسون يعدونهم به من قبل. ولسوف نوافي قراءنا بالتطورات المتتابعة لهذا الأعرج الفذ!».

✦✦✦

لكن ذلك لم يمنع الأم «لوفرانسوا» من أن تأتي بعد خمسة أيام وهي تصيح في فزع: «النجدة! أنه يموت! لقد جن!» واندفع «شارل» إلى «الأسد الذهبي»، وترك الصيدلى بدوره حانوته حين لمح الطبيب ينطلق في الميدان بدون قبعة، وهرع إلى الفندق، فوصل إليه لاهثاً، محمر الوجه، شديد القلق، فراح يسأل كل من كان يصعد السلم: «ماذا؟ ما الذى جرى لأعرجنا الهمام؟» وكان الأعرج يتلوى في تشنجات فظيعة، حتى أن الآلة التي وضعت فيها ساقه كانت ترتطم بالجدار في عنف يوشك أن يحطمها! وأزيل الصندوق في كثير من الحذر حتى لا تقلقل الساق عن وضعها، فإذا بمنظر مؤلم يتجلى: كان شكل القدم قد تلاشى في تورم جعل الجلد يلوح وشيك الانفجار، وقد كستها كدمات نشأت عن الجهاز الذي ذاع صيته. وكان «هيبوليت» قد شكا من أنه يعاني منه آلاما، غير أن أحداً لم يأبه له، ولكن لم يعد بد من الاعتراف بأنه لم يكن على خطأ البتة، ومن ثم حررت ساقه من الجهاز لبضع ساعات. ولكن ما إن هبط التورم هونا ما، حتى رأى العالمان -الطبيب والصيدلي- أن من الأصواب أن تعاد الساق إلى الجهاز، وزادا من إحكام الوثاق ليعجلا بالشفاء.

ولكن لم تنقض ثلاثة أيام، حتى كان «هيبوليت» عاجزاً عن المضي في الاحتمال، فرفعت الآلة. ولكن، شد ما كانت دهشة العالمين للنتيجة التي شاهداها: كان التورم الأزرق قد انتشر في الساق، تصحبه بقع متناثرة هنا وهناك، تنضح بسائل أسود!. كانت الأمور قد تطورت تطورا خطيراً، وبدا «هيبوليت» ينزعج، فاضطرت الأم «لوفرانسوا» إلى نقله

إلى الغرفة الصغيرة القريبة من المطبخ، ليتاح له بعض التسلية على الأقل! غير أن محصل الضرائب -الذى كان يتناول عشاءه في تلك الغرفة- شكا مر الشكوى من هذه الصحبة! ومن ثم نقل «هيبوليت» إلى قاعة «البليارود»، فظل راقدا هناك وهو يئن تحت أغطيته الثقيلة، وقد شحب وجهه، ونمت لحيته، وغارت عيناه، وراح من آن لآخر يدير رأسه المجلل بالعرق على الوسادة القذرة، التي كان الذباب يتهافت عليها! وزارته مدام «بوفارى» هناك، حاملة له بعض «الشاش» لقروحه، فواسته، وشجعته. ثم إنه لم يكن إلى جانب ذلك يفتقد الأنيس، لاسيما في أيام السوق حين كان الفلاحون يقرعون كرات «البلياردو» حوله، ممسكين بعصيها، وهم يدخنون، ويغنون، ويصخبون. وكانوا يسألونه وهم يدقون كتفه: «كيف حالك؟ آه! إنك تتحسن كثيراً، ولكنها غلطتك! يجب أن تفعل هذا! أو تفعل ذلك!» ثم يروون له قصص أناس برئوا بعلاجات غير التي يعالج بها.
ويعقبون، على سبيل النصح: «انك تستسلم للكسل أكثر مما ينبغي! ألا قم! إنك تتدلل كما لو كنت ملكا! آه! ان رائحتك ليست بالطيبة على كل حال، أيها المهرج!».

✦✦✦

على أن العفن المتقيح -«الغنغرينة»- كان يزداد استشراء، حتى بات «بوفارى» نفسه يشمئز منه! وأخذ يذهب إليه في كل ساعة، وفي كل لحظة، فيتطلع إليه «هيبوليت» بعينين زاخرتين بالذعر، ويقول باكيا: «متى اشفى؟ آه، انقذني! ما اتعسنى! ما اتعسنى!» وكان الطبيب يفارقه في كل مرة وهو يوصيه بأن يتبع نظام التغذية الذي عينه له. ولكن الأم «لوفرانسوا» كانت تقول له: «لا تستمع إليه يا ولدي الم يشبعك تعذيبا؟ لسوف تزداد ضعفا، فهاك، ابتلع هذه»، ثم تقدم إليه حساء دسما، وقطعة من لحم الفخذ، وشقة من شحم الخنزير، و-أحيانا- اقداحاً صغيرة من «البراندي» لم يكن ليقوى على رفعها إلى شفتيه!

وإذ سمع الأب «بورنيسيان» بأن حاله تزداد سوءا، طلب أن يراه، وشرع يرثى لآلامه، وينبئه -في الوقت ذاته- بأنه خليق بأن يبتهج بها، مادامت هذه مشيئة الرب، وأن ينتهز الفرصة ليحسن صلاته بالسماء، ثم أضاف رجل الدين في لهجة أبوية: «ذلك لأنك أهملت واجباتك بعض الشيء، فقلما كنت ترى في صلاة أو عبادة. كم من السنين انقضت دون أن تسعى إلى المائدة المقدسة! إننى أدرك أن أعمالك ودوامة الدنيا، شغلتك عن أن تعنى بخلاص روحك. أما الآن فقد حان وقت التأمل. ومع ذلك فلا تيأس، فلقد عرفت أنا أناسا آثمين موغلين في الذنب، عمدوا حين أوشكوا أن يمثلوا أمام الله -وأنت لم تبلغ هذه الدرجة بعد كما أعرف- إلى الابتهال في طلب رحمته، وماتوا وهم بالتأكيد فى خير حالات راحة البال! فلنأمل أن تضرب لنا -كما فعلوا- المثل الطيبة. فما الذي يمنعك -من باب الاحتياط- أن تردد في الصباح والمساء فصلاً من «السلام عليك يا مريم يا كاملة

الحسن»، و«أبانا الذي في السماء»؟ أجل، أفعل ذلك من أجلي، لترضيني، لن يكلفك هذا شيئاً، فهل تعدني؟».

ووعد الشيطان البائس. وأخذ القس يتردد عليه يوماً بعد يوم، فيجاذب ربة الفندق الحديث، بل ويروي النوادر التي تتخللها الفكاهات والتوريات التي لم يكن «هيبوليت» يفقهها! ثم كان لا يلبث أن يرتد إلى أمور الدين بأسرع ما يستطيع، مسبغاً على وجهه المظهر الملائم. وبدت هذه الهمة موفقة، إذ ما لبث الأعرج أن أظهر شوقاً إلى أن يحج إلى (بون سيكور) إذا قدر له شفاء، فأجاب السيد «بورنيسيان» بأنه لا يرى سبيلاً للاعتراض على ذلك، وان احتياطين -(يقصد الصلاة والحج)- خير من واحد، ولا ضرر هناك من ذلك!

✦✦✦

وكان الصيدلي يستنكر ما أسماه «مناورات» القس: وزعم أنها تضر بنقاهة «هيبوليت»، وأخذ يردد لمدام «لوفرانسوا»: «دعوه، دعوه! انكم تبلبلون معنوياته بروحانيتكم هذه!» بيد أن المرأة الطيبة لم تعد راغبة في الانصات له، إذ اعتبرته «سبب كل شيء!». وبدافع من معارضتها له، علقت إلى جوار فراش المريض حوضاً مليئاً بالماء المقدس، وغصنا من العوسج. على أن الدين لم يبد أقدر من الجراحة على انقاذه، وظلت «الغنغرينة» التى لا سبيل إلى قهرها، ماضية في امتدادها من الأطراف حتى البطن. وكان تنويع الادوية وتغيير الضمادات أمراً لا بأس به، ولكن الأعصاب كانت تزداد تلفاً في كل يوم، حتى لقد أجاب «شارل» أخيراً بهزة من رأسه تعنى القبول، حين سألته الأم لوفرانسوا عما إذا كان يرى -في حالة القنوط- أن تستدعى لعيادة المريض السيد «كانيفيه»، الذائع الصيت، من (نيوشاتل).

ولم يتورع زميل «شارل» هذا الأخير -وكان طبيبا في الخمسين من عمره، يتمتع بمركز طيب، وثقة بنفسه- عن أن يضحك في ازدراء حين كشف عن الساق التي دب فيها التعفن المتقيح حتى الركبة! ولم يكد يعلن في صراحة أن لابد من بترها، حتى انطلق إلى حانوت الصيدلي ليعنف «الحمير» الذين هووا برجل تعس إلى مثل هذه الحال! وهناك أمسك بزر «الردنجوت» الذي كان السيد هوميه يرتديه، وراح يهزه وهو يصيح في الحانوت: «أهذه مخترعات باريس! أهذه أفكار هؤلاء السادة المقيمين في العاصمة! إنها كعلاج «الحول» في العين، وكالكلوروفورم، وكعملية تفتيت حصى المثانة.. طائفة من الفظاعات التى يجب على الحكومة أن تحرمها! ولكنهم يريدون أن يظهروا براعتهم، فيحشون رؤوسكم بطرق العلاج دون أن يزعجوا أنفسهم بالتفكير في عواقبها. إننا لسنا في براعتهم نحن بالذات، لسنا متحذلقين، ولا مزهوين، وإنما نحن أطباء معالجون، ولا يخطر بخيالنا أن نجرى جراحة لأى امرئ مكتمل الصحة تقويم الاقدام المشوهة؟! في الوسع

اصلاح الأقدام الملتوية؟ إن هذا أشبه بتقويم الظهر المحدودب مثلا! » وكان «هوميه» يتألم وهو ينصت إلى هذا الحديث، ويخفى استياءه تحت ابتسامة متملقة، إذ كان مضطراً إلى مداهنة السيد «كانيفيه» الذي كانت وصفاته العلاجية تحمل أحياناً إلى حيث تصرف من صيدليته في (ايونفيل). ومن ثم لم يعمد إلى الدفاع عن «بوفاري»، بل انه لم ينطق بعبارة واحدة، وإنما نبذ مبادئه وضحى بكرامته في سبيل مصلحة عمله، التي تفوق المبادئ والكرامة في أهميتها!

✦✦✦

وكان حدثاً هاماً في البلدة، ان بترت فخذ «هيبوليت» على يدي الدكتور «كانيفيه». ففي ذلك اليوم استيقظ الأهالي جميعاً مبكرين، ومع أن الشارع الرئيسي ازدحم بالناس، إلا أن كآبة رانت عليه، وكان ثمة حكما بالاعدام يوشك أن ينفذ! وكان القوم يتناقشون في مرض «هيبوليت» لدى البدال. ولم تبع المتاجر في ذلك اليوم شيئاً، ولا تزحزحت مدام «توفاش» -زوجة العمدة- عن نافذتها، فقد كانت ترقب وصول الجراح بصبر نافذ، حتى وصل في عربته الخفيفة التي كان يقودها بنفسه. غير أن لولب الجانب الأيمن للعربة تداعى أخيراً تحت ثقل جسمه البدين، فكانت العربة تميل قليلاً وهي تدرج في طريقها. وكان يشاهد على الوسادة المجاورة له صندوق كبير مكسو بجلد أحمر، وقد لمعت مقابضه النحاسية الثلاثة في بهاء. وما إن دخل الطبيب فناء «الأسد الذهبي» كالاعصار الجائح، حتى صاح بصوت عال، آمراً بتسريح جواده من العربة، ثم ذهب إلى الحظيرة ليرى ما إذا كان الجواد مقبلاً على التهام الشوفان! -إذ كان من عادته إذا بلغ دور مرضاه أن يشغل أولاً بدابته وعربته!- ومع ذلك فقد قال الناس: «آه! يا للسيد «كانيفيه» من فذ!» وزاده هذا الهدوء الرصين اكباراً في أعين القوم، فما كان ليتخلى عن أتفه عاداته، ولو فنى العالم من أهله إلى آخر نسمة!

وتقدم «هوميه»، فقال له الطبيب: «إنني أعول عليك، فهل نحن على استعداد؟ هيا بنا!» بيد أن وجه الصيدلي احتقن، واعترف بأنه مرهف الحس لا يقوى على المساعدة في عملية كهذه، وقال: «إن رؤية المنظر تكون أشد تأثيراً على المرء إذا كان مجرد متفرج، ثم إنني أوتيت جهازاً عصبياً...». فقطع عليه «كانيفيه» الحديث قائلاً: «آه، مهلا!.. انك، على العكس، تبدو لي عرضة للسكتة القلبية! ثم ان هذا لا يدهشني، فأنتم -معشر الصيادلة- تترددون باستمرار على مطابخكم، مما يؤدى ولابد في النهاية إلى إفساد بنيان أجسامكم. ألا أنظرَ إليّ! إنني استيقظ في الرابعة من كل صباح، فأحلق لحيتي بالماء البارد (ولم أصب قط ببرد!)، ولست ارتدى قميصاً داخلياً (فانيلا)، ومع ذلك لم اتعرض قط لنزلة من نزلات البرد، وان هيكلي لقوي! وأعيش آناً على حال، وآنا آخر على حال أخرى، كالفيلسوف، تبعا للظروف والمصادفات. وهذا هو السر في أنني لست ضعيفاً

مثلك، واني لأشرح أي إنسان كما أشرح أول بطة برية تأتيني. ستقول بعد هذا إن الأمر يرجع إلى التعود!»

وبغير أن يحفلا بهيبوليت الذي كان يتصبب عرقاً بين أغطية فراشه لفرط الألم، اندمج الرجلان في حديث راح الصيدلي يقارن فيه بين هدوء جأش الجراح، وهدوء جأش القائد العسكري.. وراقت هذه المقارنة لكانيفيه الذي مضى يتحدث عن مطالب فنه. كان يعتبره مهمة قدسية، وإن كان الأطباء العاديون قد حطوا من قدرها. وتحول أخيراً إلى المريض، وفحص الضمادات التي أحضرها «هوميه» -وهي عين الضمادات التي كان قد أحضرها عند علاج التواء القديم! -ثم طلب شخصاً يمسك له الساق، فأرسل في طلب «ليستيبودوا»، وما لبث السيد «كانيفيه» أن شمر عن ساعديه، ثم انتقل إلى قاعة «البلياردو»، بينما بقى الصيدلي مع «آرتيميز» وصاحبة الفندق -اللتين صار وجهاهما أشد بياضاً من لون مرولتيهما- وقد أرهف الجميع آذانهم نحو الباب.

✦✦✦

لم يجرؤ «بوفاري» في تلك الفترة على مبارحة داره، بل ظل في قاعة الجلوس -بالطابق الأرضي- إلى جوار المدفأة الخالية من اللهب، وقد أسند ذقنه إلى صدره، وعقد ذراعيه، وجمدت حدقتاه، يا للكارثة! وحاول أن يتذكر أى خطأ ربما بدر منه، لقد اتخذ كل الاحتياطات الممكن تصورها! غير أن القدر تدخل في الأمر! ولكن، ما قيمة هذا؟ لو أن «هيبوليت» مات بعد ذلك، لكان هو قاتله! ثم، أية حجة يستطيع أن يدلى بها إذا هو سئل عن الأمر في جولاته؟ وعاد يفكر في أنه ربما أخطأ في شيء ما! وراح ينقب دون أن يعثر على أى خطأ. ومع ذلك، فإن أشهر الجراحين يخطئون. ولكن أحدا لن يصدق هذا أبدا، بل إنه على العكس سيغدو أضحوكة ومضغة في الأفواه! وستنتشر القصة إلى (فورج)، بل الى (نيوشاتل)، ثم إلى (روان)، وكل مكان! ومن يدرى، ربما كتب بعض زملائه ضده! فيثير ذلك جدالاً يتطلب الرد في الصحف، بل ان في وسع «هيبوليت» نفسه أن يقاضيه! وتصور الطبيب نفسه وقد جرد من سمعته، وحاق به الدمار، وقضي عليه! وراح خياله يتخبط بين الافتراضات والاحتمالات التي تدفقت عليه، كما لو كان برميلاً فارغاً ألقي في البحر فأخذت الأمواج تتقاذفه!

وكانت «إيما» تجلس أمامه، ترقبه، لم تشاطره ذلته، فقد كانت تعاني ذلة أخرى، ذلة أنها تصورت أن مثل هذا الرجل جدير بأي شيء! وكأنها لم تتبين تماماً مدى قصور عقله عشرين مرة من قبل! وأخذ «شارل» يذرع الحجرة، وحذاءاه يحدثان صريفاً على الأرض الخشبية المصقولة. فقالت له: «ألا أجلس، فانك تثير أعصابي!» وجلس، وراحت تسائل نفسها: كيف سمحت لنفسها -وهي الشديدة الذكاء- بأن تخدع مرة أخرى؟ بل أي جنون محزن جعلها تدمر حياتها إلى هذا الحد، بالتضحيات المستمرة؟ وتذكرت كل رغباتها

الغريزية في الترف، وكل ألوان الحرمان الذي عانته نفسها، وزواجها المزري، وحياتها المنزلية المتواضعة، وتردي أحلامها في الوحل كما تتردي العصافير الجريحة، وكل ما كانت تصبو إليه، وكل ما حرمت نفسها منه، وكل ما كان في وسعها أن تناله، لماذا؟ لماذا؟

وفي غمرة السكون الذي ران على القرية، انبعثت في الهواء صرخة تفتت الأكباد، فشحب «بوفاري» وكاد يهوي مغشياً عليه، بينما قطبت «ايما» في حركة عصبية، ثم عادت تستأنف أفكارها: كان ذلك كله من أجله، من أجل هذا المخلوق، من أجل هذا الرجل الذي لم يفهم شيئا، ولم يشعر بشيء! فها هو ذا يجلس ساكنا، دون أن يدور بخلده أن الزراية التي ستلحق باسمه، ستحلق باسمها هي الأخرى من الآن فصاعدا، لقد بذلت جهداً لتحمل نفسها على أن تحبه، ولقد ذرفت الدموع ندماً وتكفيراً عن استسلامها لسواه!

✦✦✦

وهتف «بوفاري» فجأة، وهو مستغرق في أفكاره: «ولكن، لعله كان التواء إلى الخارج!» وارتجفت «إيما» للصدمة غير المرتقبة التي أحدثها سقوط هذه العبارة على فكرها وكأنها رصاصة سقطت على صفحة فضية! ورفعت رأسها لتستبين ما كان يعنيه بقوله، ورمق كل منهما الآخر في صمت، وكأنه في دهشة لوجوده، إذ كانت أفكارهما قد نأت بكل منهما عن الآخر، وحملق فيها «شارل» -بتلك النظرة الزائغة التى تبدو في عيني السكير- بينما كان يصغي دون حراك إلى آخر صيحات المريض، الذي كانت ساقة تبتر، وقد تتابعت في نغمات مستطيلة، تتخللها صرخات تشنجية حادة، وكأنها عواء ينبعث عن بعد من وحش يقتل! وعضت «ايما» شفتها الممتقعة، وأخذت تقلب بين أصابعها قطعة من المرجان كانت قد كسرتها، وهي تسلط على «شارل» مقلتيها الحادتين وكأن سهمين من نار بوشكان أن ينطلقا منهما! لقد أصبح كل ما فيه يثير أعصابها: وجهه، ثوبه، الكلام الذى لم ينطق به، كل شخصه، وكيانه. وندمت على عفتها في الماضي كما تندم على جريمة، وتبدد ما كان قد تبقى من هذه العفة تحت ضربات كرامتها المهتاجة، وابتهجت لكافة ما كان لفجورها المنتصر من سخريات شريرة، خبيثة، وعاودتها ذكرى عشيقها، مع غوايات فيه بهرتها فارتمت فيها بكل روحها، وتركتها تحملها إلى ذلك الطيف في تحمس متجدد، وبدا لها «شارل» مقصياً عن حياتها، وكأنه غائب إلى الأبد، وكأنه قد فنى، أو كأنه موشك على الموت، يحتضر تحت بصرها!

وتردد وقع خطى في الطريق، فأطل «شارل»، ومن خصاص مصراعي النافذة رأى عند ناصية السوق -في وضح ضياء الشمس- الدكتور «كانيفيه» يمسح جبينه بمنديله، و«هوميه» خلفه يحمل صندوقاً أحمر كبيراً، وهما يسعيان، إلى دار الصيدلى، وإذ ذاك، تحول «شارل» في حنان واستخذاء طارئين، قائلاً لزوجته: «أواه! قبليني يا حبيبتي!» فقالت وقد احتقن وجهها غضبا: «دعني!» فتساءل مذهولا: «ماذا جرى؟ اسكتي! تمالكي

نفسك! إنك لتعرفين تماماً انني أحبك، فهيا!» وصاحت بلهجة قاسية، «كفى!» واندفعت خارجة من الغرفة، مغلقة الباب وراءها في عنف جعل «البارومتر» يهوى من الجدار فيتهشم! وعاد «شارل» يتهالك في مقعده حائراً، يحاول أن يستبين ما أصابها. وخيل إليه أنها أصيبت بمرض عصبي، فأخذ يبكي، وداخله شعور غامض بأن شيئاً مشئوماً، لا سبيل إلي ادراكه، يجري حوله.

وعندما جاء «رودولف» إلى الحديقة في ذلك المساء، وجد عشيقته في انتظاره عند أدنى درجات السلم السفلى. فاحتضن كل منهما الآخر، وانصهرت كل ضغينة -كأنها الجليد- تحت حرارة تلك القبلة.

الفصل الثاني عشر

وعادا يتحابان من جديد. وكثيراً ما كانت «إيما» تكتب إليه بغتة -ولو في منتصف النهار- ثم تشير إلى «جوستان» من وراء زجاج نافذتها فيخلع مرولته، ويسرع راكضاً بالرسالة إلى (لاهوشيت). فلا يلبث «رودولف» أن يحضر، ليجد أنها ما أرسلت إليه إلا لتنبئه بأنها ضجرة، وإن زوجها بغيض، وإن حياتها لا تطاق! وصاح بها ذات يوم، نافد الصبر: «هل بوسعي أن أفعل شيئاً؟» فأجابته: «آه لو شئت!»، وكانت تجلس على الأرض بين ركبتيه، وقد تهدل شعرها، وزاغ بصرها. وسألها «رودولف»: «ماذا، إذن؟» فتنهدت قائلة: «لنذهب فنعش بعيداً، في مكان ما» فقال ضاحكاً: «إنك لمجنونة حقاً! أو هذا ممكن؟». فعادت تردد قولها. وإذ ذاك تظاهر بأنه لا يفهم قصدها، ثم غير مجرى الحديث. كان الذي لم يفهمه هو هذا القلق بشأن مسألة بسيطة كالحب! لقد كان لدى ايما باعث، ومبرر، و-فوق هذا- قوة دافعة وراء عاطفتها. والواقع أن هواها أخذ ينمو يوماً بعد يوم، بنمو نفورها من زوجها. فكلما أسرفت في منح نفسها للواحد، اشتد مقتها للآخر! أبداً لم يكن يبدو لها «شارل» في مثل البشاعة، ولا بمثل تلك الأصابع الغليظة الضخمة، ولا في هذه البلادة والمسلك السوقي، كما كان يتراءى لها إذا ما اجتمعا بعد لقائها لرودولف! كانت عندئذ تمثل دور الزوجة ودور العشيقة، وتكتوي بنار اللوعة إذ تفكر في ذلك الرأس الذي يتهدل شعره الأسود في خصلة على جبين لفحته الشمس بالسمرة -رأس رودولف- وفي ذلك القوام الذي يجمع بين القوة والرشاقة. في ذلك الرجل الذي أوتي -في ايجاز- كل تلك الحنكة في تفكيره، وكل تلك الوقدة في شهواته! من أجله شذبت أظافرها ودببتها بعناية، ومن أجله لم تكن تضن على بشرتها بالدهان المرطب الذي يكسبها نعومة، ولا على مناديلها بالعطور! وكانت تثقل نفسها بالاساور، والخواتم، والقلادات. وعندما يكون قادماً، كانت تملأ آنيتي الزهر الزرقاوين الكبيرتين بالورود، وتعد مخدعها ونفسها كما لو كانت محظية ترتقب أميراً!

وكانت تشغل الخادم بغسل الثياب وكيها باستمرار، فلم تكن «فيليسيتيه» لتتحرك طيلة اليوم من المطبخ، حيث كان «جوستان» الصغير يؤنسها في أكثر الأحيان، ويراقبها في عملها. كان يعتمد بمرفقيه على الطاولة التي تكوي الثياب عليها، ويحدق بنهم في كل تلك الثياب النسوية المتناثرة حوله، من «جونلات» مزركشة، ومناديل منقوشة، وياقات، وسراويل ذات أربطة، تتسع عند الردفين وتضيق فيما أسفلهما. وكان الفتى يمر بيده على البطانة، أو على المشابك المثبتة، ويتساءل: «لم هذا؟» فتجيبه «فيليسيتيه» ضاحكة: «عجباً، أو لم تره من قبل؟ كأني بعشيقتك -مدام هوميه- لا ترتدي مثله؟» فكان يقول: «آه! أجل، مدام هوميه!»، ثم يردف وهو مستغرق في التفكير: «افترينها

سيدة كسيدتك؟» على أن «فيليسيتيه» كانت لا تلبث أن تضيق برؤيته يحوم حولها، كانت تكبره بست سنوات، وكان «تيودور» -خادم السيد «جيومان»- قد بدأ يغازلها، فكانت تقول وهي تنقل وعاء النشاء الذى تستخدمه في الكي: «دعني وشأني!.. اذهب فاصحن اللوز، إنك تحرم دائماً حول النساء، ألا انتظر أيها الولد الخبيث حتى ينبت الشعر في ذقنك قبل أن تقحم نفسك في مثل هذه الأمور!».

- على رسلك، لا تغضبي! سأذهب وأنظف حذاءي سيدتك بدلا منك.

ويبادر فيتناول حذاءى «إيما» من على الرف، وقد كساهما الوحل -من المقابلات الليلة في الحديقة!- الوحل الذي كان يتفتت تحت أصابعه، فيرقبه وهو يتطاير في رفق في شعاع الشمس، وكانت الخادم تقول: «لكم تخشى أن تتلفهما!» -فما كانت هي تعمد إلى مثل حرصه إذا نظفتهما بنفسها، لأن السيدة كانت ما تكاد تجد جلد حذاءيها قد فقد ليونته، حتى تمنحها اياهما! وكانت «إيما» تملك عدداً من الأحذية في صوانها، تهبها الواحد بعد الآخر، دون أن يسمح «شارل» لنفسه بأن يلاحظ شيئاً! بل إنه تبرع -بإيحائها- بثلاثمائة فرنك ثمناً لساق خشبية رأت أنها تليق بأن تقدم هدية إلى «هيبوليت»، وكانت قمتها مكسوة بالفلين، ولها مفاصل لولبية، وجهاز معقد، يغطيها سروال أسود، ينتهي بحذاء لامع، على أن «هيبوليت» لم يجرؤ على أن يستعمل ساقا أنيقة كهذه في كل يوم، فالتمس من مدام «بوفاري» أن تحضر له ساقاً أخرى أكثر مناسبة لحاله، فكان على الطبيب أن يتبرع -مرة أخرى، بالطبع- بنفقات هذه الساق.

✦✦✦

وهكذا أخذ السائس يعاود عمله شيئاً فشيئاً، فكان يشاهد وهو يهرع في أرجاء القرية كعهده فيما مضى. وكان «شارل» إذا سمع دقات الساق الخشبية الحادة عن بعد، بادر إلى تغيير الاتجاه الذي يسير فيه! وكان السيد «لوريه» -التاجر- هو الذي تكفل باستحضار الساق، فأتاح له هذه حجة لزيارة «ايما». وصار يثرثر معها عن السلع الجديدة التي تسلمها من باريس، وعن ألف طرفة وطرفة من الطرائف النسوية، متلطفاً كل التلطف، متحاشياً أبداً طلب نقوده، وانصاعت «إيما» لهذه الطريقة السهلة لاشباع كل أهوائها، ومن ثم رغبت في سوط بديع جداً كان معروضاً لدى صانع مظلات في (روان)، لتقدمه هدية إلى «رودولف»، فحمله السيد «لوريه» إلى منضدتها في الاسبوع التالي. على أنه زارها في غداة ذلك اليوم، ومعه كشف حساب بمائتين وسبعين فرنكا، عدا السنتيمات! وذهلت «إيما»، فقد كانت كل ادراج المكتب خالية من النقود، وكانا مدينين لليستيبودوا بأجر فترة تزيد على خمسة عشر يوماً، وبأجر ستة شهور للخادم، وبعدة ديون أخرى. وكان «بوفاري» يرتقب بنافد الصبر قبض حساب السيد «ديروزيراى»، الذي كان من عادته أن يدفع حسابه حوالي عيد «سان بيير» أي في منتصف الصيف.

ونجحت «إيما» -في البداية- في استمهال «لوريه». ولكنه فقد صبره في النهاية، إذ كان دائنوه بدورهم يطالبونه بمالهم، وكان رأس ماله قد تبدد، فكان مضطراً إلى أن يسترد كل ما تلقته منه «إيما» من سلع، ما لم يتسلم بعض حسابه! فقالت له: «حسناً اذن خذها!» أجاب: «أواه! إنما كنت أمزح. إن الشيء الوحيد الذي آسف عليه هو السوط. لعمري، سأطلب إلى السيد أن يرده لي». فهتفت في جزع: «لا! لا!». وقال «لوريه» لنفسه: «آه! ها قد أمسكت بها!» وإذ اطمأن إلى ما اكتشف، راح يردد لنفسه في صوت خفيض، وهو يرسل صفيره الخافت المعهود: «حسنا! لسوف نرى! لسوف نرى!» وفيما كانت تفكر في مخرج -بعد انصرافه- أقبلت الخادم، فوضعت على رف المدفأة حزمة صغيرة مغلفة بالورق الأزرق، من لدن السيد «ديروزيراى». وانقضت عليها «إيما» تفضها، فإذا بها خمس عشرة قطعة ذهبية من الجنيهات النابوليونية، هي قيمة حسابه. وسمعت «شارل» يصعد السلم، فألقت بالقطع الذهبية في جوف درجها، واحتفظت بالمفتاح!

وعاد «لوريه» بعد ثلاثة أيام، يقول: «لدي تدبير اقترحه عليك: فلو أنك أخذت، بدلا من المبلغ المتفق عليه...». فبادرت تضع في يده أربع عشرة قطعة نابوليونية ذهبية، وهي تقول: «هاك!» وذهل التاجر! ولكى يخفي استياءه، طفق يهيل الأعذار، ويعرض خدماته، و«إيما» ترفض على طول الخط. ثم مكثت بضع دقائق تتحسس بأصابعها في جيب مرولتها قطعتي النقود -فئة الفرنكات الخمسة- اللتين أعطاها اياهما التاجر بعد أن استوفى ما كان له. وعاهدت نفسها أن تدخر ما استطاعت، لتعيد المبلغ فيما بعد إلى زوجها، وهي تقول لنفسها: «آه! إنه لن يفكر في هذا ثانية!».

✦✦✦

إلى جانب السوط ذي اليد الفضية، تلقى «رودولف» من «ايما» خاتما نقش عليه: «قلب عاشق»، فضلاً عن ملفحة -«كوفية»- وأخيراً علبة للسجار تشبه تماماً علبة «الفيكونت» التي كان «شارل» قد عثر عليها في الطريق فيما مضى فاحتفظت بها «إيما». على أن هذه الهدايا كانت تشعره بخسة، فرفض كثيراً منها، ولكن «إيما» كانت تلح، فينتهي به الأمر الي الانصياع لها، وهو يحس بأنها جائرة، شديدة العناد. ثم أخذت تساورها أفكار غريبة، فكانت تقول له: «إذا دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل، فعليك أن تفكر في!»، فإذا اعترف بأنه لم يفكر فيها، تدفق العتاب بسخاء، ثم ينتهي دائماً بالكلمة الخالدة: «أتحبني؟»، فيجيب: «عجباً بالطبع أحبك».

-بالتأكيد!

- كثيراً؟

-أو لم تحب سواي؟

فكان يهتف ضاحكا: «أو تظنين أنك أخذتني بكراً؟» وكانت «إيما» تبكي، فيسعى إلي تهدئتها، مرصعا احتجاجاته بالفكاهات! فتقول: «أواه! إنني أحبك! أحبك حتى أنني لا أقوى على العيش بدونك، فهل تدرك هذا؟ إنني لأتوق أحياناإلى أن أراك ثانية، فتمزقني سورة الهوى، وأسائل نفسي: «ترى أين هو؟ لعله يتحدث إلي نساء اخريات، يبتسمن له، فيقترب منهن. أواه! لا، ما من امرأة سواي تروق لك، أليس كذلك؟ هناك من يفقنني جمالاً، ولكني أكثرهن حباً. إنني الأفضل هوى. أنا جارتيك، محظيتك! أنت مليكي، ومعبودي! أنت طيب! أنت جميل! أنت ذكي! أنت قوي!»

كم من مرات سمع فيها هذه العبارات تقال، حتى لم يعد يرى فيها طرافة، فأخذت تفقد روا ءها شيئاً فشيئا، كغلالة انزاحت عن الشهوة فأظهرتها عارية في استرسالها الأبدي الرتيب، فإذا هي هي، مهما تباين شكل الغلالة، وبالتالي، مهما تباينت اللغة والعبارات! لم يكن ذلك الرجل الكثير التجارب ليميز أن العاطفة تختلف وإن تشابه المظهر. فهو لكثرة ما سمع هذه العبارات تغمغم بها شفاه العاهرات وبائعات الهوى، لم يؤمن كثيراً باخلاص «إيما». كان يرى أن على المرء أن لا يحفل بالعبارات الدافقة التي تنطوي على عواطف معتدلة. كأنما امتلاء النفس لا يفيض أحياناً خلال التعبيرات الخالية من الروا ء والتنميق، إذ ليس في وسع الإنسان أن يحدد بالدقة التامة مقدار حاجاته، أو آرائه، أو أحزانه، وما الكلام البشري إلا كالانا ء المعدني المصدوع، الذي ندق عليه الألحان لترقص الدببة، بينما نحن نصبو إلى أن نهز النجوم!

على أن «رودولف»، بما أوتي من خبرة ناقدة لا تتاح لغير الشخص الذي لا يحفل بدوام العلاقات ويحجم عن التعلق بالروابط، لمح في هذا الغرام مباهج جديدة راق له أن يتعرفها، فاستهان بكل حيا ء اعترضه، وراح يعامل «إيما» وفق هواه، حتى جعل منها شيئا مبتذلاً، مفسوداً! أما هي، فكان تعلقها به نزقاً، مفعماً بالإعجاب به، وباللذة الفاجرة لها. كانت السعادة قد بهرتها وخدرت عقلها، فغاصت روحها في خمر لذتها، وانكمشت، ثم غرقت كما غرق «دوق كلارنس» في دن نبيذه الحلو! ومن ثم تغيرت أخلاق «مدام بوفاري» بتأثير العادات التي اكتسبتها من غرامها هذا وحده، فإذا نظراتها تزداد جرأة، وحديثها يزداد تحرراً، بل لقد أقدمت على مسلك مستهجن، إذ تعودت أن تسير مع السيد «رودولف»، وبين شفتيها سيجارة، كما لو كانت «تتحدى العالم»! وأخيراً، لم يعد الذين ظلوا في ريب يرتابون، إذ رؤيت يوماً تهبط من «العصفورة» -عربة البريد- وقد ضم خصرها صديري كصداري الرجال!

ولم تكن حماتها -مدام بوفاري الأم- التي لجأت إلى بيت ابنها بعد شجار محتدم مع زوجها، بأقل النسوة المحتشمات استنكاراً لمسلك زوجة ابنها! وكانت ثمة أشيا ء كثيرة لم ترقها، أولها أن ابنها لم يأخذ بنصحها ويحرم على زوجته قرا ءة الروايات، كما أن سير الأمور في البيت لم يرضها. ولقد سمحت لنفسها بابدا ء بعض ملاحظات قوبلت بغضب،

لاسيما حين مست إحدى ملاحظاتها «فيليسيتيه»! فقد حدث في الليلة السابقة على ذلك، أن كانت مدام بوفاري الأم تمر في الردهة، وإذا بها تفاجئ الخادمة مع رجل! كان رجلاً ذا ياقة بنية، في حوالي الأربعين من عمره، ما إن سمع خطواتها حتى فر عن طريق المطبخ. عند ذاك أخذت «إيما» تضحك، ولكن المرأة الفاضلة ازدادت حنقاً، وقالت: إن على المرء أن يراقب أخلاق خدمه، فليست الأخلاق بأضحوكة. فتساءلت زوجة الابن: «في أي دنيا نشأت؟»، وكانت نظراتها من السلاطة والقحة بحيث دفعت مدام بوفاري إلى أن تسألها عما اذا كانت بذلك تدافع عن حالتها الخاصة؟ فوثبت الشابة من مكانها صارخة: «أخرجي!» وصاح «شارل» محاولا أن يهدئ الموقف: «إيما! إيما!» ولكن كلا من المرأتين كانت قد جمحت في غضبها، فراحت «إيما» تدق الأرض بقدميها مرددة: «آه! يا للأخلاق! يا لها من فلاحة!» وهرع إلى أمه، فإذا بها قد فقدت زمام عواطفها، وراحت تقول متلعثمة: «إنها وقحة. طائشة. بل لعلها أسوأ من هذا!» وعولت على الرحيل فوراً، ما لم تعتذر إليها الأخرى. وعاد «شارل» إلى زوجته، وأخذ يتوسل إليها أن تتساهل، وركع أمامها، فقالت في النهاية: «حسنا! سأذهب إليها». وفعلا بسطت يدها لحماتها، في كبرياء المركيزات، وقالت لها: «سامحيني يا مدام». حتى إذا صعدت إلى غرفتها، انكفأت على سريرها، وأخذت تبكي كالطفلة، وقد دفنت وجهها في الوسادة!

وكانت قد اتفقت مع «رودولف» على أن تربط إلى مصراع النافذة -إذا كان ثمة حادث غير عادي- قطعة صغيرة من الورق الأبيض، حتى إذا صادف إن كان في (ايونفيل) ومر أمام الدار، سارع إلى موافاتها في الحارة الواقعة خلف الدار. وقد علقت الاشارة في هذه المرة، وانتظرت حوالي ثلاثة أرباع الساعة، ثم رأته عند ناصية دار البلدية، فهمت بأن تفتح النافذة وتناديه، ولكنه اختفى في التو، فتهالكت في قنوط. بيد أنها سرعان ما خالت أن ثمة من يسير تحت النافذة. لابد أنه هو وهبطت السلم، وعبرت الفناء، فإذا به في الخارج.. وألقت بنفسها في أحضانه، فقال: «حذار!»، ولكنها قالت: «آه، لو علمت ماجرى!» وشرعت تروي له كل شيء في عجلة، وعبارات مفككة، مبالغة في تصوير الحقائق، مفترية ومختلقة الكثير مما لم يحدث، مسرفة في العبارات الاعتراضية، حتى أنه لم يفقه شيئا! وقال لها في النهاية:

- صبراً يا ملاكي المسكين. تجلدي! اهدئي! صبراً!

- ولكني صبرت أربع سنوات، وأنا أتعذب. إن حباً مثل حبنا خليق بأن يعلن حتى عنان السماء! لقد عذبوني! لم أعد أحتمل! انقذني!

وتشبثت برودولف، وعيناها المليئتان بالدموع تلمعان كلهب تحت موج، وصدرها يتهدج في حركات سريعة. وإذ ذاك أحس أنه لم يحبها يوماً كما أحبها ساعتئذ، ففقد تعقله، وقال: «وما الذي ينبغي عمله؟ ماذا تريدين؟»، فصاحت: «انقلني بعيداً! أحملني

بعيداً! آه، أتوسل اليك!» وارتمت على فمه، وكأنها تريد أن تتلقف منه الموافقة غير المرتقبة، إذا نفثها في قلبه. فقال لها: «ولكن...».

- لكن ماذا؟

- ابنتك؟

وفكرت لحظات، ثم أجابت «سنأخذها معنا، لا مفر!». فقال لنفسه وهو يراها تهرع مبتعدة نحو الحديقة، بعد أن سمعت نداء: «يا لها من امرأة!».

كادت «الأم بوفاري» أن تذهل في الأيام التالية، للتغير الذي طرأ على زوجة ابنها. فالواقع أن «إيما» أخذت تبدي لها مزيداً من اللطف، بل ومضت في التقرب إليها إلى درجة أن سألتها أن تصف لها طريقة لتمليح الخيار! اقتراها استحسنت أن تخدع الأم وابنها؟ أم انها -في نوبة فلسفية من وحي فجورها- شاءت أن تدع مرارة الأشياء التي كانت توشك أن تهجرها، تزداد تغلغلاً في نفسها؟ بيد أنها لم تعمد إلى الحذر، وإنما راحت -على العكس- تعيش وكأنها تائهة في طلائع بهجة سعادتها المقبلة! ولم تكن تكف عن الحديث في الموضوع إلى «رودولف»، فكانت تميل على كتفه متمتمة: «آه! متى نكون في عربة البريد! أتفكر في هذا؟ أهو ممكن؟ أخالنا سنكون -في اللحظة التي أحس فيها بالعربة تتحرك- وكأننا في منطاد يرقى بنا، كما لو كنا راحلين صوب السحاب، افتعرف أنني أعد الأيام؟ وأنت؟».

أبداً لم تكن مدام «بوفاري» في مثل ما بدت فيه من جمال في تلك الفترة، إذ أوتيت ذلك البهاء غير المحدد المعالم، الذي يأتى نتيجة الفرح، والتحمس، والظفر. والذي لا ينشأ الا عن انسجام المزاج مع الظروف. كانت شهواتها وشجونها، وتذوقها للذة، وأوهامها الدائمة الصبا، أشبه بالتربة والمطر والريح والشمس إذ تنمى الزهور. وهكذا أخذت «إيما» تنمو رويداً، حتى تفتحت في النهاية عن كل ما كانت تفعم به طبيعتها. كانت أجفانها تلوح وكأنها صيغت خصيصاً لتتمشى مع نظراتها العاشقة الطويلة، التي كان إنسان العين يغيب خلالها، بينما تنبعث أنفاسها قوية تتفتح لها طاقتا أنفها الرقيقتان، وترتفع حافة شفتها المكتنزة التي يحجبها عن الضوء زغب أسود دقيق. كان المرء خليقاً بأن يخال أن فناناً خبيراً بالفساد قد نسق خصلات شعرها على عنقها، فكانت تتهدل غزيرة، في إهمال، تتباين أشكالها بتباين ظروف الغواية التي كانت لا تنفك تتبدل في كل يوم. وازداد صوتها ليونة وتثنياً، وكذلك قوامها. كان ثمة شيء من الدهاء -الذي ينفذ إلى أعماقك- ينبعث حتى من ثنايا ثوبها، وانعطافات قدمها!

✦✦✦

وألفاها «شارل» شهية، فتانة، كما كان العهد بها في الأيام الأولى لزواجهما! لكنه

كان لا يجرؤ على ايقاظها إذا عاد في منتصف الليل. وكان مصباح الليل الخزفي يلقي على السقف دائرة من ضوء مرتعش، والستائر المسدلة على مهد الطفلة تبدو على هذا الضوء ككوخ أبيض يقوم في الظلام عند حافة السرير. وكان «شارل» يتأمل كل هذا، فيخيل إليه أنه يسمع الأنفاس الخفيفة المنبعثة من الطفلة، ويروح يتصور ابنته وهي تنمو بسرعة، مع كل فصل، ثم يتمثلها مقبلة من المدرسة في نهاية النهار، ضاحكة، وبقع المداد على زيها المدرسي، وقد حملت حقيبتها تحت أبطها. ثم يرى أن الأوان قد آن لتلتحق بالمدرسة الداخلية، ولسوف يتطلب هذا نفقات كثيرة، فما العمل؟ خطر له أن يستأجر مزرعة صغيرة في الريف المجاور، يستطيع أن يرعاها بنفسه في كل صباح وهو ينطلق لعيادة مرضاه، ثم يدخر دخلها، ويودعه صندوق الادخار، ثم يشتري أسهماً ما، في أية مؤسسة، فضلاً عن أن عملاءه سيزدادون، وكان يعول على هذا، لأنه كان راغباً في أن تحظى «بيرت» بخير تنشئة، وأن تكتسب مواهب، وأن تتعلم العزف على البيانو، آه! لكم ستكون جميلة فيما بعد، حين تبلغ الخامسة عشرة، وتشبه أمها، وترتدي مثلها قبعة واسعة من الخوص في الصيف! لسوف تبدوان -عن بعد- كما لو كانتا شقيقتين. وكان يتصورها في الأمسيات وهي تطرز إلى جوار والدتها على ضوء المصباح، لسوف توشي بشغل الإبرة خفيها (الشبشب)، وستشغل بشئون المنزل، وستملأ البيت سحراً سيبحثان لها عن فتى طيب، عزيز المركز، يسعدها، فتظل هكذا دائما!

وبينما كان بوفاري يستسلم للنعاس، لم تكن «إيما» تنام، بل كانت تتصنع النوم، وتصحو لأحلام أخرى. فإذا أربعة جياد تحملها راكضة بها نحو بلاد جديدة، لا عودة منها! وهناك تمضي مع «رودولف»، وقد اشتبكت ذراعاهما، وسارا لا ينبسان بكلمة، ثم يلمحان فجأة من قمة جبل -أحياناً- مدينة رائعة ذات قباب، وجسور، وسفن، وغابات تنبت الموالح، وكاتدرائيات من الرخام الأبيض، تحمل أبراجها المدببة أعشاش الطيور، ويمضي السائر فيها بخطى منتظمة على الأرض المرصوفة ببلاط كبير، وقد تناثرت باقات الورد التي تقدمها إليك نساء يرتدين صداري حمراء، ويسمع العاشقان رنين الأجراس، ونهيق البغال، مع دمدمة «الجيتار» ووسوسة مياه النافورات التي تنعش برذاذها العالي أكواماً من الفاكهة نسقت على شكل أهرامات، تحت تماثيل باهتة تبتسم تحت عيون الماء! ثم يعدان ذات ليلة على قرية من قرى صائدي السمك، حيث تنتشر الشباك البنية لتجف في الهواء على السفوح أمام الأكواخ. وهناك يكفان عن الترحال ليستقرا، فيقيمان في بيت منخفض ذي سقف مسطح مستو، تظلله نخلة، في طرف خليج بجانب البحر. هناك يخرجان للنزهة في جندول، ويتأرجحان في مضاجع معلقة بين الأشجار، ويغدو عيشهما سهلاً، فضفاضاً كثيابهما الحريرية، الدافئة، المزركشة بالنجوم كتلك الليالي الناعمة التي يهنآن بتأملها. ولكن، في هذا المستقبل الهائل الذي كانت تتصوره «إيما»، لم يكن ليحدث شئ ذو بال. كانت الأيام كلها رائعة، تتوالى متشابهة كالأمواج، وتترنح عند الأفق اللانهائي، البهيج،

الصافي الزرقة، الغارق في ضياء الشمس.

✦✦✦

على أن الطفلة كانت لا تلبث أن تسعل في مهدها، أو يشتد غطيط «بوفاري» ارتفاعاً. أما «إيما» فلا تنام إلا في الصباح، حين يبدو بياض الفجر خلال زجاج النافذة، وحين يشرع الفتى «جوستان» في ازاحة مصاريع الصيدلية.

وذات يوم، استدعت السيد «لوريه» وقالت له: «إنني بحاجة إلى معطف، معطف واسع، ذي ياقة عالية، مزدوجة» فسألها: «أمسافرة أنت في رحلة؟» فقالت: «لا! ولكن، هذا لا يهم، سأعتمد عليك، أليس كذلك؟ فعجل!» وانحنى موافقاً، بينما استطردت هي قائلة: «كذلك سأكون بحاجة إلى حقيبة.ليست من النوع الثقيل، بل سهلة الحمل».

– أجل، أجل، فهمت. حوالي اثنين وتسعين سنتميترا، في خمسين، من ذلك النوع الذي يصنعونه في هذه الأيام.

– وحقيبة كبيرة للسفر.

فقال «لوريه» لنفسه: «لابد ان ثمة شقاقاً هنا، بالتأكيد!» بينما استطردت مدام بوفاري وهي تتناول ساعتها من حزامها: «وخذ هذه. تستطيع أن تتقاضى من ثمنها حسابك» ولكن التاجر صاح بأنها كانت على خطأ، فإن كلا منهما يعرف الآخر جيداً، فهل تراه ارتاب بصددها في شيء؟ إذن، فما هذا التصرف الصبياني! بيد أنها أصرت على أن يأخذ ولو السلسلة على الأقل. وكان «لوريه» قد دسها في جيبه فعلاً، وتأهب للخروج، حين نادته قائلة وعليها إمارات التفكير: «سيكون عليك أن تبقى كل هذه الأشياء عندك. أما المعطف، فلا تحضره هو الآخر، بل تستطيع أن تعطيني عنوان الصانع، وأن تطلب إليه أن يعده ويحتفظ به رهن الطلب».

وكان الشهر التالي هو موعدهما للفرار، فكان على «إيما» أن تبرح (ايونفيل) وكأنها ذاهبة لبعض الشئون في (روان)، ويكون «رودولف» قد حجز لهما مكانين. وأعد جوازي السفر، بل وكتب إلى باريس ليحجز عربة البريد بأسرها لهما حتى (مرسيليا)، حيث يبتاعان عربة، ويمضيان من هناك دون توقف إلى (جنوا). أما هي فستعنى بارسال متاعها إلى «لوريه»، لينقل من هناك مباشرة إلى «العصفورة»، حتى لا يحدس أحد من الأمر شيئا. ولم يرد ذكر الطفلة في كل هذا قط، إذ كان «رودولف» يتفادى الحديث عنها، ولعله لم يعد يفكر في أمرها. وما لبث أن رغب في إمهاله اسبوعين ليدبر بعض شئونه، وفي نهاية الاسبوع الأول طلب خمسة عشر يوماً أخرى، ثم قال أنه مريض، وقام بعد ذلك برحلة، وانقضى شهر أغسطس، وبعد كل هذا الإرجاء، قررا أن يحددا اليوم الرابع من

سبتمبر، موعداً لا يعدلان عنه، وكان يوم اثنين.

✦✦✦

وحان أخيراً يوم السبت السابق على ذلك الاثنين. وأقبل «رودولف» في المساء مبكراً عن العادة. فسألته إيما: «هل كل شيء معد؟» فأجابها: «أجل». وما لبثا أن سارا حول حوض في الحديقة، واتجها ليجلسا على مقربة من رصفة على حافة السور. وقالت إيما: «أراك حزيناً!»، فتساءل كالمفكر: «لا، لماذا؟» وكان في تلك الأثناء يرمقها بنظرة غريبة، ويشكل مفعم بالحنان، فعادت تسأله: «أحزين لأنك راحل؟ لأنك مفارق ما اعتدت أن تحب. حياتك؟ آه، إنني أفهم. أما أنا فلم تمنحني الدنيا شيئاً! أنت كل شيء لي، ومن ثم سأكون كل شيء لك. سأكون لك أسرة، وطناً، سأعنى بك، سأحبك!»، فاحتواها بين ذراعيه قائلاً: «لكم أنت فاتنة!»، فقالت في ضحكة خليعة: «أحقاً؟ أو تحبني؟ إذن، فأقسم!».

- كم أحبك! كم أحبك! بل انني أعبدك يا غرامي!

وشرع القمر يبزغ عند حافة الأرض -في أقصى المروج- بدراً، أرجواني اللون. ثم ارتفع سريعاً بين أفنان شجر الحور التي كانت تخفيه من مكان إلى آخر، كأنها ستار أسود تتخلله ثغرات! ثم تألق في بياض باهر، في السماء الخالية التي أشرقت بالنور، وراح يمخر عبابها في هوادة، مرسلاً على النهر رقعة كبيرة من ضوئه تكسرت إلى نجوم لا حصر لها، ولاح البريق الفضي يتلوى متغلغلاً إلى الأعماق، كثعابين مارقة، تكسوها قشور مضيئة! بل إنه كان يشبه أيضاً ثريا هائلة، تسيل عليها قطرات متلاحقة من ماس! ولفهما الليل البديع، وانبثت خلال الأغصان كتل من الظلال، وراحت «إيما» -وقد أغمضت عينيها نصف إغماضة- تتنسم الهواء العليل الذي كان يهب في جرعات عميقة. ولم ينبسا بكلمة، إذ استغرقا في أحلامهما المتدافعة، وقد عادت إلى قلبيهما عواطف الأيام السالفة، عارمة، صامتة، كالنهر المنساب، في تلك النعومة التي يحسها المرء في عبير الورود الهادئة، فألقت على ذاكرتيهما ظلالاً أعظم وأحلك من ظلال أشجار الصفصاف الساكنة التي كانت تمتد على العشب. وكثيراً ما كان يزعج العاشقين حيوان من حيوانات الليل -قنفذ أو عرسة تبحث عن صيد- أو كانا يسمعان في بعض الأحيان صوت ثمرة ناضجة من الكمثرى وهي تهوي من تلقاء نفسها.

وقال «رودولف»: «آه! يا لها من ليلة بديعة!»، فأجابت «إيما»: «سننعم بليال غيرها!»، ثم استطردت وكأنها تحدث نفسها: «أجل، إن الرحيل خير، ومع ذلك، فلم يثقل الحزن قلبي؟ أهذا هو الخوف من المجهول؟ أثر التخلي عن الأشياء المألوفة. أو، تراه...؟ لا، بل هو فيض الهناءة. يا لي من ضعيفة. ألست كذلك؟ ألا أغفر لي!» فصاح: «لايزال هناك وقت، ففكري، ربما ندمت!»، فهتفت باستنكار: «أبداً». ثم اقتربت منه، وقالت: «أي

تعاسة تحيق بي؟ ما من صحراء، ولا وهاد، ولا محيط أحجم عن اجتيازها معك طالما عشنا معا. ستكون حياتنا كعناق يشتد في كل يوم، ويزداد انطباقاً! لن يكون هناك ما يضايقنا، فلا هموم، ولا عقبات! سنكون وحدنا، ولنفسينا، إلى الأبد. أواه، ألا تكلم! رد عليّ!»، ودست يديها في شعره، وراحت تردد في صوت كصوت الطفل، رغم الدموع الكبيرة التي كانت تتساقط من عينيها: «رودولف! رودولف! آواه، يا رودولف، يا صغيري الحبيب!»

ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل، فقالت: «انتصف الليل! هيا! لقد أصبحنا في الغد! لم يبق سوى يوم واحد». ونهض لينصرف، وكأنما كانت حركته الاشارة المبشرة بفرارهما، فقالت «إيما» وقد غشيها ابتهاج طارئ: «هل الجوازان معك؟».. قال: «أجل».

- لم تنس شيئا؟

- لا.

- امتأكد أنت؟

- كل التأكد.

- إنه فندق «بروفانس» الذي ستنتظرني فيه، أليس كذلك؟ عند الظهر؟

فهز رأسه. وقالت «إيما» وهي تعانقه للمرة الأخيرة: «إلى الغد إذن!» وأخذت ترقبه وهو يبتعد ولم يلتفت وراءه. فهرعت خلفه، ومالت على حافة الماء، بين شجيرات العوسج، وصاحت «إلى غد!» وكان قد اجتاز النهر، وسار حثيثاً في المراعي. وبعد بضع دقائق، وقف «رودولف»، فلما رآها في ثوبها الأبيض تغيب شيئاً فشيئا في جوف الظلام كالطيف، راح قلبه يخفق في عنف، حتى لقد اضطر إلى أن يستند إلى شجرة كي لا يهوى على الأرض. وقال في حنق: «يا لي من غبي! ولكن، لا بأس، لقد كانت خليلة جميلة!» وفي الحال عاوده جمال «ايما»، ومتع حبها ومسراته، فرقت عواطفه لحظة، ثم عاد يتمرد عليها، قائلاً وهو يهز كتفيه: «ما كنت -رغم كل شيء- لأستطيع أن أعيش منفياً، وأن أحمل هم طفلة!» قال لنفسه هذه العبارات ليقوي من عزيمته، ثم أردف: «وهناك -إلى جانب الهم- النفقات. آه، لا، لا.. ألف مرة لا! كان الأمر سيغدو غباء بالغا!»

الفصل الثالث عشر

ما كاد «رودولف» يبلغ داره، حتى بادر بالجلوس إلى مكتبه، تحت رأس الوعل المعلق إلى الجدار. ولكنه حين أمسك بالقلم بين أصابعه، لم يجد في رأسه ما يسطره، ومن ثم اعتمد على مرفقيه، وأخذ يفكر. لقد أصبحت «إيما» تلوح له وكأنها نأت في ماض سحيق. كأنما أقام القرار الذي اتخذه مسافة شاسعة بينهما، فجأة! ولكي يسترجع شيئا عنها، أخرج من الصوان المجاور للسرير صندوقاً قديماً من صناديق بسكويت «ريمس»، اعتاد أن يحفظ فيه خطابات النساء، فانبعثت منه رائحة الغبار الجاف والورود الذابلة! ولمح أولاً منديلاً صغيراً من مناديل الجيب، مليئا ببقع صغيرة باهتة. كان هذا المنديل لها، فقد نزفت دما من أنفها مرة، وهما يتنزهان، وقد نسي كل شيء عنه! وإلى جواره، كانت الصورة الصغيرة المهداة من «إيما»، وقد تآكلت من كل زواياها. ولاح له أن في زينتها بهرجة مسرفة، وأن نظراتها المنكسرة توحي بذوق سقيم. ولطول ما تأمل الصورة، مستذكراً معالم الأصل، أخذت ملامح «إيما» تختلط في رأسه شيئاً فشيئا، وكان الوجه الحي والوجه المرسوم قد احتكا حتى محا كل منهما الآخر! وانتهى إلى قراءة بعض رسائلها. كانت جميعاً مليئة بأحاديث تتعلق برحلتهما، وقد كتب في ايجاز، وبتعبيرات عملية، وخط سريع، كخطابات الأعمال. ورغب في أن يرى الرسائل الطويلة مرة أخرى -رسائل الأيام الخالية!- ولكي يبحث عنها في قاع الصندوق، عبث بنظام كل الرسائل الأخرى، وأخذ بحركة آلية ينقب وسط هذا الركام من الورق والأشياء، مصادفاً خليطاً من الزهور، ورباط جورب مما تستعمله النساء، وقناعاً أسود، ودبابيس، وشعراً، شعوراً لسمراوات، ولشقراوات، اشتبك بعضها بمفصلات الصندوق فتقطعت حين فتحه!

هكذا أخذ يعبث بالتذكارات، متأملاً خطوط وأساليب الرسائل المتباينة بتباين كاتباتها: كانت بينهن الرقيقة الحنون، والبشوش الضاحكة، والمازحة الماجنة، والحزينة المكتئبة. وكانت هناك من ترجو حباً، ومن تسأل مالاً، وبوحي كلمة كان يتذكر وجوهاً، وحركات معينة، ولهجة صوت. على أنه، في بعض الحالات، لم يكن يتذكر شيئاً على الاطلاق! والواقع أن اندفاع هؤلاء النسوة إلى ذهنه مرة واحدة، جعل كلا منهن تعدو على الأخرى، وتغض من ذكراها، حتى لاح أنهن جميعا كن في مستوى واحد من الحب يسوي بينهن. ومن ثم أخذ «رودولف» يغترف الخطابات المختلط بعضها ببعض، ويتسلى بأن يفلتها لتهوى من يده اليمنى إلى يده اليسرى كمياه الشلال. وأخيراً -إذ مل وتعب- حمل الصندوق فرده إلى الصوان، قائلاً لنفسه: «يا لها من نفايات متراكمة!» وكانت هذه خلاصة رأيه. إذ أن الملذات -كالتلاميذ في ساحة المدرسة- لم تبق على شيء أخضر في قلبه لكثرة ما وطأته، وكل من اجتاز هذا القلب في طيش وعدم اكتراث، لم يخلف -على

العكس من الأطفال في المدرسة- أدنى أثر، ولا اسمه محفوراً على الجدار!

✦✦✦

وقال «رودولف» لنفسه أخيراً: «هيا! لنبدأ»، ثم كتب! «تشجعي يا إيما! تشجعي! ما كنت لأحيل حياتك إلى شقاء». وحدث «رودولف» نفسه: «هذا حق، رغم كل شيء، انني إنما أعمل لصالحها، إنني أمين!»

وعاد يستأنف الكتابة: «هل تدبرت قرارك بعناية؟ أتعرفين إلى أية هوة كنت أجرك أيها الملاك المسكين؟ لا، أليس كذلك؟ كنت مقبلة في ثقة وغير خوف، مؤمنة بالسعادة في المستقبل آه! ما أتعسنا من أخرقين!» وتوقف «رودولف» هنا ليفكر في حجة طيبة. هل يكتب: «إن كل ثروتي قد تبددت!»؟ أوه، لا، ثم أن هذا لن يمنع من الأمر شيئا، لسوف يضطر إلى أن يعود إلى هذا فيما بعد، وهل في وسع أمريء أن يحمل هذا الصنف من النساء على الاصغاء لصوت العقل؟ وتروى، ثم عاد يكتب: «لن أنساك قط، ثقي من هذا، وسأظل ابداً أكن لك وفاء عميقاً، على أن هذا الوجد الجائح لن يلبث يوماً -إن عاجلاً أو آجلاً- أن يخف ولاشك (فهذه شيمة العواطف البشرية)، وعندئذ يعترينا الفتور، ومن أدراني بانني قد لا اضطر إلى أن أعاني الألم الفظيع، ألم مشاهدة تدمك، والمساهمة فيه بنفسي، ما دمت السبب فيه؟ إن مجرد التفكير في الحزن الذي سينتابك، يعذبني يا ايما! فسامحيني! لماذا قدر لي أن أعرفك؟ لماذا كنت جميلة بها الشكل؟ أهو ذنبي؟ أواه يا إلهي! لا، لا، لا تتهمي سوى القدر!»

وقال لنفسه: «ها هي ذي كلمة تحدث دائماً الأثر المنشود!». واستأنف الكتابة: «آه! لو انك كنت من أولئك النساء المستهترات اللاتي يصادفهن المرء، لأقدمت أنا بالتأكيد -وبدافع من الأنانية- على خوض هذه التجربة، لأنها لن تكون ذات خطر عليك في هذه الحال. ولكن هذه النشوة العذبة، التي تفتنك وتعذبك في آن واحد، حالت بينك وبين أن تفهمي، أيتها المعبودة، زيف مركزنا في المستقبل. كما لم أفكر أنا من ناحيتي في هذا، في بداية الأمر، بل استطبت ظلال هذه السعادة المثالية كما يستطيب المرء ظلال شجرة وارفة، دون تقدير للتبعات والنتائج!»

وقطع رودولف الكتابة ليسائل نفسه: «ربما ظنت أنني اتخلى عنها بدافع من البخل. آه! لا بأس! لا ضير! لابد من انهاء الأمر!».. ثم استأنف: «إن الدنيا قاسية يا ايما. وكان لابد من أن تضطهدنا أينما ذهبنا. وسيكون عليك أن تتحملي الأسئلة الطائشة المثيرة، والافتراء، والازدراء، وربما الإهانة، الإهانة التي تمسك! آه! أما أنا، الذي يود لو رفعك إلى عرش! أنا الذي أحمل ذكراك معي كتميمة! فلسوف أعاقب نفسي بالنفي والتغرب، لقاء كل ما فعلت من شر! سأرحل. إلى أين؟ لست أدري! فلقد فقدت عقلي! وداعا!.. ولتهنأي

دائماً بالخير! احتفظي بذكرى التعس الذي فقدك. لقني طفلتك اسمي، ودعيها تردده في صلواتها » . واهتز إذ ذاك لهب الشمعتين، فنهض «رودولف» ليغلق النافذة، ثم قال لنفسه وهو يجلس ثانية: «يلوح لي أن هذا غاية ما هناك. آه! لأضف هذه العبارة أيضاً، خشية أن تسعى ورائي وتضايقني!»: «سأكون بعيداً عندما تقرئين هذه السطور الحزينة، إذ وددت أن أفر بأسرع ما استطيع، تخلصاً من الاغراء الذي يدفعني لأن أراك مرة أخرى -فلا ينبغي أن نستسلم للضعف!- لكني سوف أعود يوماً، ولعلنا نستطيع فيما بعد أن نتحدث معاً، في منتهى الهدوء، عن حبنا القديم. فوداعاً!». وعاد يضيف كلمات: «في رعاية الله»، إذ رآها تنم عن ذوق بديع، ثم قال لنفسه: «والآن، بماذا أوقع الخطاب؟ بكلمة: «الوفي»؟ لا! بل: «صديقك»؟ أجل، فليكن!».. وكتب: «صديقك». ثم عاد يقرأ خطابه، فبدا له مناسباً. وراح يقول لنفسه في اشفاق: «يا للمرأة الصغيرة المسكينة! ستراني أقسى من الصخر! كان لابد من ذرف بعض الدموع على ذلك، ولكنني لا استطيع البكاء، وليس هذا ذنبي». وما لبث أن صب بعض الماء في كوب، ثم غمس أصبعه فيه، وترك قطرة كبيرة تسقط منه، فكونت بقعة باهتة على المداد -كأنها دمعة- ثم بحث عن خاتم يحكم به اغلاق الرسالة، فصادفه الخاتم الذي نقش عليه! «قلب عاشق»!

- هذا لا يصلح إطلاقا للظرف. آه! أف! لا بأس!

ودخن بعد ذلك ملء غليونه ثلاث مرات، ثم أوى إلى فراشه.

✦✦✦

وعندما استيقظ في اليوم التالي، حوالي الساعة الثانية بعد الظهر -إذ كان قد نام متأخراً- أمر باقتطاف ملء سلة من المشمش، ووضع الرسالة في قاعها، تحت بعض أوراق الكرم، ثم أمر «جيرار» -الحوذي- بأن يحملها فوراً إلى «مدام بوفاري»، مترفقاً -وكان قد ألف استخدام هذه الطريقة للتراسل معها، بارسال بعض الفواكه أو الطيور التي يصطادها إليها، تبعا للفصل- وقال للحوذي: «إذا سألتك عني فقل إنني سافرت في رحلة. ويجب أن تقدم السلة إليها بشخصها، في يديها. هيا، وكن على حذر!».

وارتدى «جيرار» قميصه الجديد، وعقد منديله حول سلة المشمش، ثم سار في خطى ثقيلة واسعة، منتعلاً حذاءيه الطويلين المعززين بالقطع الحديدة، ويمم شطر (أيونفيل)، وحين وصل إلى دار «بوفاري»، كانت ربة البيت تنسق مع «فيليسيتيه» حزمة من الملابس الداخلية، على منضدة المطبخ، فقال الحوذي: «هاك شيئا أرسله مخدومنا إليك». واستولى عليها جزع، وفيما كانت تبحث في جيبها عن بعض القطع النقدية الصغيرة، أخذت تتأمل الفلاح بعين قلقة، بينما كان هو نفسه يرمقها في دهشة، لا يفقه كيف تؤدى مثل تلك الهدية إلى ارتباك امرىء ما ؟! وانصرف أخيراً، بينما بقيت «فيليسيتيه». ولم تقو «إيما» على الاحتمال، فهرعت إلى قاعة الجلوس، متظاهرة بأنها تنقل المشمش إلى هناك، ثم قلبت

السلة، ونبشت أوراق الكرم، فعثرت على الرسالة، وفتحتها، ثم بادرت هاربة إلى غرفتها مذعورة، وكأنما كانت خلفها نيران رهيبة تطاردها!

وكان «شارل» موجودا. رأته، وتحدث إليها، ولكنها لم تسمع شيئاً، بل مضت ملهوفة تصعد السلم، لاهثة، شاحبة، مسلوبة الرشد، متشبثة طيلة الوقت بتلك الورقة الرهيبة، التي كانت تترقع بين أصابعها كأنها صفحة من حديد! وإذ بلغت الطابق الثاني، توقفت لدي باب مخزن الحبوب، الذي كان موصداً، ثم حاولت أن تهديء من انفعالها، وتذكرت الخطاب! يجب أن تفرغ منه. ولكنها لا تجرؤ. وأين؟ وكيف؟ قد يراها أحد وقالت لنفسها: «آه، لا هنا سأكون بخير!»، ودفعت الباب، ودخلت. وكان السقف ذو الألواح الاردوازية يشع في الداخل حرارة انصبت عمودية على صدغيها، فكادت تختنق. وجرت نفسها إلى كوة مغلقة، فرفعت رتاجها، وإذا الضوء الباهر يندفع إلى الداخل، وأمامها، كان الريف يمتد خلف أسطح المباني إلى أقصى مرامي البصر. وتحت ناظريها مباشرة، كان ميدان القرية خاوياً، وأحجار الطريق تلمع، وأجهزة الارشاد إلى الرياح فوق الدور ساكنة. وعند ناصية الطريق، كان ينبعث من مبنى منخفض خرير مسترسل ذو صوت حاد منكر. كان «بينيه» يدير آلاته!

✦✦✦

واستندت إلى حافة النافذة، وعادت تقرأ الخطاب في تهكم غاضب. وكلما ازداد تركز انتباهها عليه، ازدادت أفكارها ارتباكاً وتمثلت «رودولف» مرة أخرى، وسمعته، وطوقته بذراعيها في الخيال، وأحست بدقات قلبها تتتابع في عنف خلف صدرها -كدقات المطارق- وهي تزداد سرعة، في فترات غير منتظمة، وتلفتت حولها وهي تتمنى لو أن الأرض انهارت وتهدمت! لم لا تنهي كل شيء؟ ما الذي يصدها؟ إنها طليقة. وتقدمت تطل على الشارع المرصوف، وهي تقول لنفسها: «هيا! هيا!» كانت الأشعة المنعكسة عن الأرض تجتذب ثقل جسمها إلى الهاوية! ولاح لها أن أرض الميدان المهتزة -تحت وهج الشمس- ترتفع بطول الجدران، وأن أرض الغرفة تغوص من أقصاها، كسفينة يتقاذفها الموج. وصارت عند الحافة، تكاد تكون معلقة في الهواء، محوطة بفراغ شاسع. وبهرتها زرقة السماء، وأخذ الهواء يلف في رأسها الأجوف. ولم يكن عليها سوى أن تنصاع، أن تستسلم، وزئير مخرطة «بينيه» لا ينقطع، وكأنه صوت غاضب يدعوها. وكان «شارل» يصيح! «يا زوجتي! يا زوجتي!» فأمسكت مترينة، بينما استطرد «أين أنت؟ تعالي!» وكادت تهوى مغشياً عليها لفرط الذعر، إذ فطنت إلى أنها أفلتت من الموت. فأغمضت عينيها. ثم ارتجفت إذ أحست بيد تمس كمها. وكانت يد «فيليسيتيه» التي قالت لها: «إن السيد ينتظرك يا سيدتي، وقد قدم الحساء على المائدة» فاضطرت إلى الهبوط، وإلى الجلوس إلى المائدة!

وحاولت أن تأكل، ولكن اللقمات كانت تسد حلقها. ثم بسطت منشفتها كأنها تفحص مواضع البلى فيها، وودت فعلاً أن تنهمك في هذا العمل، فأخذت تحصى خيوط النسيج. وما لبثت ذكرى الخطاب أن عاودتها، أفتراها أضاعته؟ وأين تجده ثانية؟ ولكنها أحست بهبوط وتقاعس أقعداها حتى عن أن تنتحل عذراً لتغادر المائدة. وعندئذ غشيها جبن، وداخلها خوف من «شارل». من المؤكد أنه كان يعلم كل شيء! والواقع أنه قال في لهجة غريبة: «ليس من المحتمل -على ما يظهر- أن نرى السيد رودولف قبل وقت طويل»، فقالت مرتجفة: «من قال لك هذا؟»، فأجاب في دهشة لردها السريع: «من قال لي! عجباً!.. إنه «جيرار» الذي قابلته لتوي عند باب مقهى «فرانسيه». لقد سافر «رودولف» في رحلة، أو هو علي وشك!» وإذ شهقت، قال: «ما الذي يدهشك في هذا؟ إنه يرحل هكذا من آن إلى آخر، للترويح عن نفسه، ولعمري، إني لأراه على صواب، عندما يكون لدى المرء ثروة، ويكون أعزب! فضلاً عن أن صاحبنا يمتع نفسه!: إنه رجل لهو وعبث، لقد روى لي السيد لانجلوا...»، ثم أمسك من قبيل الأدب، لوجود الخادم التي كانت قد أقبلت وأخذت تعيد المشمش المتناثر عل الرف إلى السلة. وطلب «شارل» المشمش -غير منتبه إلى احتقان وجه زوجته- وتناول واحدة فأنشب فيها أسنانه وقال: «آه، رائع! تذوقي!» وقرب منها السلة، فدفعتها في رفق. وعاد يقول وهو يقرب المشمشة من أنفها عدة مرات: «إذن، شمي. يا للعبير!». فوثبت صائحة: «إنني أختنق!» ثم غالبت النوبة في جهد وعزيمة، وقالت: «لا شيء، لا شيء! إنها الأعصاب! ألا أجلس، وكل» فقد خشيت أن يشرع في سؤالها، وفي العناية بها، وأن لا تخلو إلى نفسها ابداً!

✦✦✦

وجلس شارل ليرضيها، ولفظ بذور المشمش في راحتيه، ليضعها بعد ذلك في طبقه. وفجأة، مرت عبر الميدان عربة زرقاء منطلقة بسرعة، فندت من «ايما» صرخة، ثم هوت على الأرض مستلقية على ظهرها، متيبسة الأطراف، والواقع أن «رودولف» كان قد قرر -بعد تفكير طويل- أن يرحل إلى (روان)، ولما لم تكن ثمة طريق بين (لاهوشيت) و(بوشى) سوى (ايونفيل)، فقد اضطر إلى أن يجتاز القرية، تعرفته «ايما» على أضواء مصابيح العربة التي مرقت خلال الغسق كالبرق. وأسرع الصيدلي «هوميه» إلى الدار، حين انبعثت الجلبة فيها، فإذا المائدة قد انقلبت بكل ما عليها من أطباق، وإذا الصلصة، واللحم، والسكاكين، والملح، وقنينة الزيت، قد تناثرت في أرجاء الغرفة. و«شارل» يصيح طالباً النجدة، و«بيرت» تبكي مذعورة، و«فيليسيته» -التي كانت يداها ترتعشان- تفك إزار سيدتها التي كان جسمها كله يختلج في تشنج. وقال الصيدلي: «سأجري إلى معملي لأحضر بعض خل الورد».

وإذ فتحت «إيما» عينيها، حين تنسمت الزجاجة، قال: «كنت واثقاً من أن هذا كفيل

بأن يوقظ الميت!». وقال شارل: «كلمينا. أفيقي ها أنذا، شارل حبيبك الذي يحبك! افعرفتني؟ انظري! هاك ابنتك الصغيرة! ألا قبليها!»، وبسطت الطفلة ذراعيها نحو أمها لتتعلق برقبتها، ولكن «إيما» أشاحت عنها، وقالت في صوت متهدج: «لا، لا أريد أحدا!» وأغمى عليها مرة أخرى، فنقلت إلى سريرها، حيث ظلت ممددة فاغرة الفم، مطبقة الأجفان، مفتوحة الراحتين، بلا حراك، وقد أبيض لونها كتمثال من الشمع. وكانت الدموع تجرى من عينيها، وتسقط في بطء على الوسادة. وكان «شارل» واقفاً في أقصى المخدع -والصيدلي على مقربة منه- وقد أخلد إلى ذلك الصمت المليء بالتفكير، الذي يرتاح إليه المرء في ظروف الحياة الخطيرة. وما لبث الصيدلي أن قال وهو يلمس مرفقه: «أطمئن. أعتقد أن النوبة قد انقضت». فأجاب «شارل» وهو يراقبها في نومها: «أجل، إنها الآن ترتاح قليلا. يا للمسكينة! مسكينة! لقد استغرقت الآن في النعاس!»

وإذ ذاك تساءل «هوميه» كيف وقع الحادث، فأجاب «شارل» بأن المرض دهمها فجأة وهي تأكل بعض ثمار المشمش. فقال الصيدلي: «عجيب! ربما كان المشمش سبب الإغماء، فمن الناس من أوتوا طبيعة حساسة تتأثر من بعض الروائح، وهو موضوع ممتع للدرس، سواء من ناحية علم طبيعة الأمراض، أو من ناحية طبيعة الأجسام. ولقد عرف الكهنة ما لهذا من أهمية، فإذا هم يطلقون البخور دائماً في طقوسهم، وذلك لتحذير الحواس، ولإحداث الانجذابات الروحية. وهو أمر سهل جداً، لا سيما مع أفراد الجنس اللطيف، إذ أنهن أرق من غيرهن. بل يقال إن هناك من يصاب بالاغماء لرائحة الذرة إذ تشوى، أو لرائحة الخبز الطازج...». فقال «بوفاري» بصوت خفيض: «حذار، وإلا أيقظتها!» واستطرد الصيدلي قائلاً: «وليس الآدميون وحدهم عرضة لمثل هذا الشذوذ، بل الحيوانات كذلك. وما أظنك تجهل ما لمادة «النبيتا كارتاريا» -التي يسميها العامة «حشيش القط»- من مفعول عجيب في إثارة الحواس الجنسية لدى حيوانات الفصيلة القطية. كما أن هناك مثلاً استطيع أن أؤكد صحته، فان «بريدو» -وهو من أصدقائي القدامى، وقد استقر الآن في شارع «مالبالو»- يمتلك كلباً تنتابه التشنجات بمجرد أن تمسك أمامه علبة سعوط! وكثيراً ما يجرى هذه التجربة بمشهد من أصدقائه في البيت الذي أقامه للاستجمام في غابة جيوم. فهل يصدق أحد أن مادة للعطاس كهذه تحدث مثل هذا الضرر بأجهزة جسم حيوان من ذوات الأربع؟ إنه أمر غاية في الغرابة أليس كذلك؟»

فقال «شارل» الذي لم يكن ينصت إليه: «أجل». فاستأنف الآخر حديثه مبتسماً في شيء من الرضى عن النفس: «هذا يبين لنا ألوان الشذوذ التي لا حصر لها في الجهاز العصبي. أما بالنسبة للسيدة، فأعترف أنها تبدو لي دائماً مرهفة للغاية. ومن ثم فلست أنصحك يا صديقي العزيز بشيء من تلك الأدوية المزعومة التي تؤثر على التركيب الجسمي، تحت زعم التأثير على الأعراض. لا، لاداعي لأدوية لا نفع لها! بل يكفي اللجوء إلى تنظيم التغذية، وهذا غاية ما في الأمر! وهناك بعض المسكنات والملينات، والملطفات. ثم، ألا ترى أن من المحتمل أن يكون الوهم مستولياً عليها؟». فتساءل «بوفاري»: «من

أية ناحية؟ ».

- آه، هذه هي المسألة! هذه هي المشكلة فعلاً! كما قرأت أخيراً في الصحيفة.

✦✦✦

على أن «إيما» لم تلبث أن أفاقت صائحة: «الخطاب! الخطاب!». وخيل إليهما أنها تهذي. وكان الليل قد انتصف. ثم ثبت أنها أصيبت بحمى مخية، وظل «شارل» لا يفارقها ثلاثة وأربعين يوماً، وقد أهمل كل مرضاه، ولم يعد ينام في فراشه. كان لا ينفك يتحسس نبضها، ويضع اللصقات والمكمدات بالماء البارد. وكان يوفد «جوستان» إلى (نيوشاتل) بحثاً عن الثلج، فكان الثلج يذوب في الطريق، فيوفده من جديد! واستدعى السيد «كانيفيه» لاستشارته، وأحضر من (روان) الدكتور «لاريفيير» أستاذه القديم، كان قانطا. وكان أشد ما أزعجه ضعف «ايما» وخورها، حتى انها كانت لا تتكلم، ولا تسمع شيئاً، بل كان يلوح أنها لا تحس بالألم! وكأنما كان جسدها وروحها قد أخذا معاً إلى الراحة بعد كل متاعبهما.

وحوالي منتصف أكتوبر، أصبح في وسعها أن تجلس في سريرها، تحوطها الوسائد. وبكى «شارل» حين رآها تأكل أول لقمة من الخبز والمربى. وأخذت قواها تعود إليها، فاستطاعت أن تبرح سريرها لبضع ساعات بعد ظهر كل يوم. وعندما تحسنت، حاول يوماً أن يصحبها لتتمشى في الحديقة معتمدة على ذراعه. وكانت رمال دروب الحديقة قد اختفت تحت أوراق الشجر الجافة. وسارت «ايما» في بطء تجر خفيها، مستندة إلى كتف «شارل»، وكانت تبتسم طيلة الوقت.. وسارا حتى أقصى الحديقة، على مقربة من رصفة السور، وكانت هى تتحامل على نفسها فى تؤدة، وقد أظلت عينيها بيدها لتستطيع أن تبصر. وأرسلت بصرها بعيداً، إلى أبعد ما وسعها، ولكن، لم تلمح عند الأفق سوى نيران هائلة تبعث دخانها فوق التلال، النيران التي أوقدت لاجتثاث الأعشاب.

وقال بوفاري: «لسوف تتعبين نفسك يا حبيبتي!». ودفعها برفق ليحملها على دخول الخميلة، قائلاً: «أجلسي على هذا المقعد، لتستريحي». فقالت في صوت واهن: «لا!.. لا!.. ليس هنا». وتولاها دوار وعاودها مرضها منذ تلك الليلة، لا تتضح منه حقيقته، وبأعراض غامضة، غير جلية! فهي تألم أحيانا من قلبها، وأحيانا من صدرها، ومن رأسها، ومن أطرافها. وكانت تنتابها نوبات قئ، خيل لشارل أنه رأى فيها مبادئ السرطان.. وكان المسكين -علاوة على كل هذا- يعاني الهموم من جراء المسائل المالية!

الفصل الرابع عشر

كان -أولاً- لا يدري كيف يدفع للسيد «هوميه» نفقات كل الأدوية التي أمده بها. ومع أنه -كطبيب- لم يكن ملزماً بدفع أثمانها، إلا أنه كان يخجل من مثل هذا الدين. ثم كانت هناك نفقات بيته، فإن الطاهية حين غدت ربة للبيت صارت «فظيعة» في إسرافها، وأخذت كشوف الديون تتدفق على البيت، وشرع التجار يتذمرون، بل ان السيد «لوريه» -بوجه خاص- راح يزعجه. والواقع أنه- في عنفوان مرض «إيما»- استغل الظروف ليزيد من قيمة دينه، فأسرع باحضار المعطف، وحقيبة السفر الصغيرة، وحقيبتين كبيرتين بدلا من واحدة، وعدة أشياء أخرى، وكان من السهل على «شارل» أن يقول إنه لا يريدها، ولكن التاجر أجاب فى تحرش بأنها طلبت منه، فلا يستطيع أن يستردها، فضلاً عن أن هذا قد يسوء السيدة في فترة نقاهتها، ومن ثم يخلق بالسيد أن يفكر جيداً في الأمر. ومجمل القول أنه كان مصراً على أن يرفع الأمر إلى القضاء، حتى لا ينزل عن حقوقه ويسترد السلع. وإزاء هذا امر «شارل» من ناحيته برد السلع إلى حانوت التاجر، ولكن «فيليسيتيه» نسيت، وشغل هو بأمور أخرى، فلم يعد يفكر في ذلك. وعاد مسيو «لوريه» إلى المطالبة، مهدداً مرة، ومتباكياً أخرى، حتى أفلح بمناوراته في حمل «بوفاري» على توقيع سند تعهد فيه بالدفع في خلال ستة شهور. على أنه لم يكد يوقع، حتى خطرت له فكرة جريئة: تلك هي أن يقترض ألف فرنك من «لوريه». ومن ثم سأله محرجاً إن كان من الميسور أن يوافيه بهذا المبلغ، على أن يعتبر هذا الدين لمدة عام، وبأية فائدة يريد احتسابها! فهرع «لوريه» إلى متجره، وعاد بالمبلغ، وأملى وثيقة أخرى تعهد فيها «بوفاري» بأن يدفع لأمره في أول سبتمبر التالي ألفاً وسبعين فرنكا، إذا أضيفت إلى المائة والثمانين التي اتفقا عليها من قبل، غدا المجموع ألفاً ومائتين وخمسين. وهكذا، باحتساب الفائدة بسعر ستة في المائة، فضلاً عن عمولة بمعدل الربع، إلى جانب ربح في السلع يصل إلى الثلث على الأقل، فإن هذه الصفقة كانت كفيلة بأن تدر على التاجر في أثني عشر شهراً ربحاً قدره مائة وثلاثين فرنكا. وراوده الأمل في أن تقف المسألة عند هذا الحد، وأن لا يدفع الدين، ومن ثم يتجدد، وهكذا يتغذى المبلغ الهزيل لدى الطبيب -كما لو كان في مصحة!- فيعود إليه سميناً، تتفتق لبدانته حافظته!

وفوق ذلك، فإن كل أموره أخذت تزداد نجاحاً، فقد فاز في مناقصة توريد شراب التفاح -«السيدر»- لمستشفى (نيوشاتل)، ووعده السيد «جيومان» ببعض أسهم في مناجم (جومسنال)، فأخذ يحلم بانشاء نظام جديد للمواصلات السريعة بين (اركوى) و(روان)، لن يلبث أن يقضي ولا شك على العربة المتداعية التابعة لفندق «الأسد الذهبي». كما أن السفر السريع، بنفقات زهيدة، مع إمكان اصطحاب مزيد من المتاع،

سيضع في يديه كل تجارة (ايونفيل).

✦✦✦

وسأل «شارل» نفسه مرات عديدة: أني له أن يدفع مثل هذا المبلغ في العام المقبل؟ وراح يفكر، ويتصور سبلاً للعون، كأن يلجأ إلى أبيه، أو يبيع شيئا. ولكن أباه كان يصم أذنيه، كما أنه لم يكن يمتلك شيئا يباع، وكان إذ ذاك يتصور المتاعب المقبلة فيبادر إلى إقصاء مثل هذا الموضوع غير المستحب عن ذهنه، ويلوم نفسه لنسيانه «إيما» كأنما كانت كل أفكاره ملكاً لهذه المرأة، بحيث يكون عدم قصر أفكاره عليها باستمرار، استلاباً لبعض حقوقها!

وكان الشتاء قارساً، ونقاهة مدام بوفاري بطيئة. وكانت -إذا تحسن الجو- تدفع في مقعدها إلى النافذة المطلة على الميدان، إذ أصبحت تشعر بنفور نحو الحديقة، حتى أصبحت المصاريع المطلة عليها مغلقة على الدوام. ورغبت في أن يباع الجواد، وأصبح كل ما اعتادت أن تحبه في الماضي، يسؤوها الآن! ولاح كأنما اقتصرت كل أفكارها على العناية بنفسها، فكانت تمكث في الفراش، مقتصرة على تناول وجبات خفيفة، وتدق الجرس للخادم لتسألها عن شرابها أو لتثرثر معها. وكان الجليد المتراكم على سقف السوق يعكس على الحجرة ضوءاً ناصعاً، ساكناً. ثم بدأ موسم الأمطار، فكانت «إيما» ترتقب في غرفتها يومياً -بذهن مفعم بالتلهف- الأنباء التي لابد منها عن بعض الأحداث التافهة التي لا علاقة لها بها، وكان أهمها وصول «العصفورة» في المساء، فكانت ربة الفندق ترفع إذ ذاك عقيرتها بالصياح، فترد عليها الأصوات الأخرى، بينما يومض مصباح «هيبوليت» كالنجمة في الظلام، وهو يخرج الصناديق من مؤخرة العربة. وكان «شارل» يفد عند الظهيرة، ثم يعود للخروج. وتتناول هي -عقب ذلك- بعض الحساء. وحوالي الساعة الخامسة، يبدأ النهار في الرحيل، ويعمد الأطفال العائدون من المدرسة -وهم يجرون نعالهم الخشبية علي الرصيف- إلى طرق «شناكل» المصاريع بمساطرهم، واحداً بعد الآخر.

تلك كانت الساعة التي اعتاد الأب «بورنيسيان» أن يفد فيها ليراها، فيسأل عن صحتها، ويفضي إليها بالانباء، ويرشدها إلى أمور دينها، في صوت خافت، رخيم، لا يخلو من سحر. بل إن مجرد التفكير في مسوحه، كان يشيع في نفسها ارتياحاً. ولقد حدث ذات يوم -في عنفوان مرضها- أن ظنت أنها تحتضر، فطلبت أن تتناول القربان المقدس، وبينما كانت الاجراءات تتخذ في غرفتها لاعدادها للمراسم، وقد حولت المنضدة الحافلة بأنواع الشراب إلى مذبح، وأخذ في نثر زهور «الداليا» على الأرض، شعرت «إيما» بشيء قوي يمر عليها، فيستل منها آلامها، وكل فكر، وكل حس. وإذ تخفف جسدها من الفكر، بدأت حياة أخرى، فخيل إليها أن كيانها يرقي صاعداً إلى الله، حيث يتلاشى في ذلك الحب، كالبخور المحترق إذا ما انصهر وغدا بخاراً. ونثر الماء المقدس على الفراش،

وأخرج القس من العلبة المقدسة رقاقة الخبز الرباني الأبيض، فأنتشت «ايما» بهذه الغبطة السماوية، حتي أنها مدت شفتيها لتتلقى «جسد المخلص» الذي قدم إليها. وكانت ستائر المخدع تتطاير حولها في رفق كأنها السحب، والشمعتان المشعلتان على المنضدة تتألقان كأنهما هالتان باهرتان. وما لبثت أن طوحت برأسها إلى الخلف ، متوهمة أنها تسمع في الفضاء أنغام الموسيقى الملائكية، وفى السماء اللازوردية -علي عرش ذهبي وسط قديسين ممسكين بالسعف الأخضر- خيل إليها أنها تلمح، الله، الأب، محوطاً بالجلال، وقد أوفد إلى الأرض -باشارة منه- ملائكة ذوو أجنحة من لهب، ليحملوها في أحضانهم صاعدين.

✦✦✦

واستقرت هذه الرؤيا الرائعة في ذاكرتها كأجمل ما يمكن أن يرى في الأحلام، ومن ثم راحت تجاهد لتستجمع حواسها، التي ظلت باقية رغم ذلك، وإن كانت قد فقدت الكثير من طابعها الشخصي، واكتسبت رقة وعذوبة عميقتين. ووجدت نفسها، التي عذبها الغرور، راحة في التواضع المسيحي، فلما تذوقت لذة الضعف، رأت أنهيار الارادة في أعماقها، مما فتح ولابد طريقاً واسعاً إلى المسالك المفضية إلى النعم الإلهية والتسامح الرباني. وفي مكان السعادة، قامت مباهج أعظم، حب يفوق كل حب، لا ينقطع ولا ينتهي، وإنما يظل في نمو إلى الأبد! وأبصرت وسط رؤى الأمل الخيالية، حالة من الطهر والنقاء، تطفو فوق الأرض، وتختلط بالسماء، فتاقت إلى أن ترقي إليها. تمنت أن تغدو قديسة، وابتاعت مسابح، وحملت الأحراز والتمائم، ورغبت في أن يوضع في حجرتها -إلى جوار سريرها- صندوق للذخائر القدسية، مرصع باليواقيت، لتقبله في كل ليلة.

وانتشى القس بهذه الروح، وإن خال أن تدين «إيما» قد ينتهي -لفرط تحمسها- إلى التخبط بين البدع والمغالاة. وإذ لم يكن على تفقه كبير بهذه الأمور، فقد بادر بمجرد تجاوزها حداً معيناً، بالكتابة إلى السيد «بولار» -بائع كتب المطران- يسأله أن يوافيه بما «يصلح لسيدة جمة الذكاء». وفي غير اكتراث -كما لو كان يرسل سلعا لزنوج- حزم المكتبي كل الكتب الدينية التي كانت مقروءة إذ ذاك، دون تمييز، فإذا هي بعض الكتب الموجزة لتعليم الدين عن طريق الاسئلة والإجابات، وبعض النشرات التي كتبت بأسلوب متهجم على طريقة «مسيو دى ميستر»، وبعض روايات ذات أغلفة وردية، واسلوب معسول، من وضع رجال الاكليروس الشعراء الفرسان، أو التائبين ذوى الجوارب الزرقاء. فكان بينها: «فكر في هذا جيداً»، و«رجل الدنيا عند قدمي مريم، بقلم السيد...، مزيناً ببعض الدرجات الكهنوتية»، و«اغلاط فولتير، ليفيد منها الشباب» الخ. ولم يكن ذهن مدام بوفاري قد صفا إلى الدرجة التي تجعلها تعكف جادة على أي شيء، فضلاً عن أنها بدأت قراءة هذه الكتب في عجلة لا تسمح باستيعابها. فسرعان ما ضايقها فقه أصول

الدين، وساءتها حدة المؤلفات الجدلية، لإمعانها في مهاجمة أناس لم تكن تعرف عنهم شيئا. أما القصص الدنيوية الموضوعة لأغراض دينية، فقد لاح لها أن تأليفها قام على جهل بالدنيا؛ حتى أنها جعلت تنفر من الحقائق التي وضعت لإثباتها! ولكنها -مع ذلك- واظبت على القراءة. وكانت -إذا انزلق الكتاب من يدها- تتوهم نفسها وقد تملكتها أرق ألوان الأسى الكاثوليكي التي يمكن أن تصل إليها روح متسامية.

✦✦✦

أما عن ذكرى «رودولف» فقد طوحت بها إلى قاع قلبها، فظلت هناك أكثر جلالاً وجموداً من مومياء ملك في مقبرة أثرية! كان يتصاعد من هذا الغرام المحنط عبير يتخلل كل شيء، ويعبق بالحنان ذلك الجو القدسي الذي كانت تصبو إلى أن تعيش فيه. وكانت إذا ركعت في مركعها الذي صنع على الطراز القوطي، وجهت إلى الرب عين الكلمات الوالهة التي كانت تتمتم بها فيها مضى إلى حبيبها، في فوارت مجونها. كانت تفعل ذلك لتجتذب الايمان، ولكن شيئاً من المباهج لم يكن يهبط عليها من السماء، فكانت تنهض وقد أضنى الركوع أطرافها، وتولاها شعور غامض بأنها مغبونة إلى درجة هائلة. وكانت ترى أن هذا السعي وراء الايمان ليس سوى فضيلة واحدة من الفضائل، فأخذت في عنفوان زهوها بولائها وتقواها، تقارن نفسها بأولئك السيدات الجليلات اللاتي عشن في الماضي البعيد، واللاتي كانت تحلم بمجدهن إذا ما رأت لوحة من لوحات «لافالبير»، واللاتي كن يجررن أذيالهن الموشاة بالدانتيلا، في جلال عارم، ومن يأوين إلى خلواتهن ليرقن على قدمي المسيح دموع قلوبهن التي جرحتها الحياة!

وتحولت بعد ذلك تكرس نفسها لعمل الخير على نطاق واسع. فكانت تخيط الثياب للفقراء، وترسل الوقود للنسوة اللاتي في المخاض. ووجد «شارل» -عند عودته إلى البيت ذات يوم- ثلاثة من الأفاقين جالسين إلى المائدة في المطبخ يتناولون الحساء. وأمرت باستعادة ابنتها -التي كان زوجها قد أرسلها ثانية إلى المربية ابان مرضها- إذ رغبت في أن تعلمها القراءة. ولم تعد تضيق بكثرة بكاء «بيرت»، فقد وطنت نفسها على التسامح والرحمة الشاملين. وأصبح حديثها عن كل شيء مليئا بالمصطلحات المثالية، فكانت إذا سألت ابنتها عن حالها، قالت: «هل فارقك المغص، يا ملاكي؟». ولم تعد مدام بوفاري الأم تجد ما تنتقده اللهم سوى ذلك الانصراف التهوسي إلى نسج السترات لليتامى بدلا من أن ترتق بياضات منزلها. ولكن النزاع العائلي كان قد أضنى العجوز الطيبة، فراق لها هذا البيت الهادئ، حتى لقد مكثت إلى ما بعد عيد الفصح، فراراً من سخريات «بوفاري» المسن الذي لم يتخل قط في يوم الجمعة اليتيمة عن طلب سجق من أمعاء الخنزير!

✦✦✦

وإلى جانب صحبة حماتها، التي قوت من عزيمتها بعض الشيء بصواب آرائها، ورزانة أساليبها، أصبحت «إيما» تستقبل كثيراً من الزائرات في كل يوم تقريباً، وكانت من هؤلاء مدام لانجلوا، ومدام كارون، ومدام دوبروي، ومدام توفاش. وفيما بين الساعة الثانية والساعة الخامسة من بعد الظهر -بانتظام- كانت تستقبل مدام «هوميه» الفاضلة، التي لم تصدق قط -من ناحيتها- شيئاً من النميمة التي كانت تقال عن جارتها! وكان أبناء «هوميه» يأتون أيضاً لزيارتها، يصحبهم «جوستان»، فكان يصعد معهم حتى مخدعها، ويظل واقفاً بجوار الباب، لا يحير حراكاً، ولا ينبس ببنت شفة، حتى لقد كانت مدام بوفاري كثيراً ما تشرع في زينتها، غير عابئة به. وكانت تبدأ بتناول مشطها، فتهز شعرها بحركة سريعة. وعندما رأى للمرة الأولى كل ذلك الشعر الغزير الذي انسدل إلى ركبتيها في خصلات سوداء، خيل للفتى المسكين أنه وقف فجأة على شيء جديد، غريب، أرهبه بهاؤه!

ولاشك في أن «إيما» لم تكن تلاحظ اهتمامه الصامت، ولا تهيبه الخجول، فما خطر ببالها أن الحب الذي تلاشى من حياتها كان قائماً ينبض إلى جوارها، تحت القميص الخشن، في ذلك القلب المراهق الذي تفتح على عبير جمالها! ثم أنها أصبحت تلف كل شيء بغلالة من عدم الاكتراث، فغدت لها تعبيرات رقيقة متلطفة، تصحبها نظرات متكبرة مترفعة، وأساليب متناقضة من هذا القبيل، تجعل المرء عاجزاً عن أن يميز فيها بين الأنانية والخير، وبين الفساد والتقوى. ففي ذات مساء -مثلاً- غضبت من الخادم التي طلبت الإذن بالخروج. وتلعثمت حين همت بأن تنتحل عذراً. وفجأة، سألتها «ايما»: «إذن فأنت تحبينه؟» واستطردت دون أن تنتظر رداً من «فيليسيتيه» - التى تضرج وجهها حياء: «هيا، اجري، متعي نفسك!».

وأمرت -في مطلع الربيع- بأن تقلب أرض الحديقة من أولها لآخرها، رغم معارضة «بوفاري». على أنه اغتبط -مع ذلك- إذ رآها أخيراً تبدى رغبة، أيا كانت هذه الرغبة! وأخذت كلما ازدادت قوة، تبدى مزيداً من العناد والصلابة، فبدأت بانتهاز فرصة لطرد الأم «روليه» -المربية- التي كانت خلال نقاهتها قد اعتادت الاكثار من التردد على المطبخ مع الرضيعين والصغار الذين في حضانتها، والذين أوتوا أسناناً تفوق أسنان أكلة البشر! ثم تخلصت من زيارات أسرة «هوميه»، وسرحت الزائرات الأخريات تباعاً، بل وغدت أقل مثابرة على التردد على الكنيسة، مما تحمس الصيدلي لتحبيذه، فقال لها في لهجة ودية: «لقد كنت موشكة أن ترتدي المسوح!» على أن الأب «بورنيسيان» ظل يتردد عليها يومياً -كعادته من قبل- بعد أن يفرغ من تلقين الدين لتلاميذه الصغار. وكان يؤثر البقاء خارج جدران البيت، ليستنشق الهواء في «البستان» كما كان يسمى الخميلة، وكان هذا موعد عودة «شارل» إلى البيت. وحين كانا يشعران بالحر، كان يؤتي بشراب التفاح الخفيف، ويشربان معا نخب اكتمال شفاء السيدة.

وكان «بينيه» يحضر هذه الجلسات، أو بالأحرى، كان يصيد السمك، على مسافة بسيطة من سياج الحديقة، فيدعوه «بوفاري» إلى كأس، وكان خبيراً بفض سدادات القنينات المصنوعة من الفخار، فيقول وهو يلقي نظرة راضية على كل ما حوله، إلى آخر أطراف المنظر: «يجب أن تمسك الزجاجة في وضع رأسي على المنضدة، وبعد أن تقطع الخيوط، أضغط السدادة إلى أعلى، في دفعات بسيطة، في رفق، وشيئاً فشيئا، كما يفعلون في المطاعم لفض سدادات زجاجات المياه المعدنية».

لكن شراب التفاح كثيراً ما كان يندفع -خلال هذا الشرح- متناثراً على وجوههم، فلم تكن النكتة تفوت رجل الدين قط، بل كان يقول وهو يطلق ضحكة غليظة: «إن جودته تقفز إلى البصر!». كان رجلاً طيباً، فلم يستنكر ما نصح به الصيدلي شارل -ذات يوم- من أن يتيح لزوجته شيئاً من الترويح يسليها، بأن يصحبها إلى المسرح في (روان) ليسمعها المغني الشهير «لاجاردى»، ودهش «هوميه» لصمت القس، فأراد أن يعرف رأيه، وإذ ذاك صرح القس بأنه يرى الموسيقى أقل خطراً على الأخلاق من الأدب. غير أن الصيدلي انبرى يدافع عن الأدب، فقال: «إن المسرح يعمل على محاربة الخرافات والأباطيل، وإنه يدعو إلى الفضيلة من تحت ستار اللهو. ومضى يقول: «إنه يقوم العادات عن طريق الضحك يا سيد بورنيسيان! ألا تأمل الدور الجليل الذي لعبته مسرحيات «فولتير»، لقد رصعت بالأفكار الفلسفية ببراعة، مما جعلها مدرسة يتلقى عنها الشعب الأخلاق والديبلوماسية».

فقال «بينيه»: لقد شهدت مرة مسرحية كان اسمها «فتى باريس»، ترى فيها شخصية ضابط كبير مسن، يضرب ضرباً مبرحا، إذ يتشاجر مع شاب مدلل أغوى عاملة، أقدمت في النهاية...»، فقاطعة «هوميه» مواصلاً حديثه: «من المؤكد أن ثمة أدباً سيئاً، كما أن هناك صيدلة سيئة، ولكني أرى أن اتهام أهم الفنون الجميلة -في مجموعة- بالفساد، بلاهة، تعصب أعمى يليق بذلك العصر البغيض الذي تقضي فيه على «جاليليو» بالسجن!». فقال القس معارضاً: «إنني أعرف تماماً أن هناك مؤلفات طيبة، ومؤلفين طيبين، ولكن، لو أن الأمر اقتصر على تلك الشخصيات من الجنسين المختلفين، تجتمع في غرفة فاتنة، مزينة بأسباب الترف الدنيوية، وتلك الأصوات الناعمة، فان كل هذا لابد أن يؤدى على طول الزمن إلى شيء من الفجور الذهني، ويثير أفكاراً بعيدة عن الحشمة، واغراءات غير طاهرة. هذه، على أية حال، فكرة رجال الدين جميعاً». ثم أردف وقد اتخذ فجأة لهجة رجل الدين، وهو ينسق على ابهامه قبضة من السعوط: «وأخيراً، إذا كانت الكنيسة تستنكر المسرح، فلابد أن لديها ما يبرر ذلك، وعلينا أن نرضخ لأوامرها» فتساءل الصيدلي: «ولماذا تقضى الكنيسة على الممثلين بالحرمان، في حين أنهم كانوا فيما مضى يساهمون جهراً في الطقوس الدينية؟ أجل كانوا يمثلون ويقدمون في قلب المحراب أنواعاً من التهريج اسموها أسراراً، وكانت قوانين الحشمة والحياء كثيراً ما تنتهك فيها!» واكتفى رجل الكنيسة بأن بعث أنينا خافتا، بينما مضى الصيدلي يقول: «كذلك الحال في

التوراة، فهناك، كما تعلم، أكثر من رواية شائكة، عن أشياء، في الواقع، خليعة!» وإذ صدرت من الأب «بورنيسيان» حركة منفعلة، قال: «آه! إنك ولابد تقر بأنه كتاب ينبغي أن لا يوضع بين يدى فتاة صغيرة.. ولسوف يغضبني أن «أتالي»...». فصاح الآخر وقد نفد صبره: «ولكن البروتستانت -لا نحن- هم الذين يفرضون التوراة».

فقال «هوميه»: هذا لا يهم، إنني لأدهش إذ أرى في ايامنا هذه، في عصر النور، من لا يزال يصر على أن يلعن -دون تبصر- وسيلة من وسائل الترويح الذهني، لا ضرر منها، وإنما هي خلقية، بل وصحية أحيانا، أليس كذلك يا دكتور؟» فأجاب الطبيب في غير اكتراث -إما لأنه كان يعتنق الرأى ذاته ولم يشأ أن يغضب أحدا، أو لأنه لم يكن على رأى البتة: «بلا شك!» ولاح أن النقاش أوشك أن ينتهي، عندما راق للصيدلي أن يطلق سهماً أخيراً من جعبته، فقال: «إنني لأعرف قساوسة يرتدون الثياب العادية، ليسعوا إلى رؤية الراقصات وهن يحركن سيقانهن!» فقال القس: «كفى، كفى!» فعاد «هوميه» يكرر: «أجل عرفت بعضهم!»، ثم ردد العبارة. مفرقا كلماتها: «عرفت، بعضهم!» فقال «بورنيسيان»، موطناً نفسه على أن يسمع أسوأ ما في الأمر: «فليكن، لقد كانوا على خطأ!» وصاح الصيدلي: «لعمرى، إنهم ليأتون ما هو أكثر من هذا!»، فأجاب رجل الكنيسة: «سيدي!»، وتبدى في عينيه غضب أرهب الصيدلي، فقال في لهجة أقل قسوة: «إنما قصدت أن أقول إن التسامح هو أضمن الطرق لاجتذاب الناس إلى الدين». فأجاب الرجل الصالح: «هذا حق! هذا حق!» وعاد يجلس في مقعده، ولكنه لم يمكث سوى لحظات قلائل.

وما ان انصرف، حتى قال السيد هوميه للطبيب: «هذا ما يسمى صراع الديكة! لقد مرغته في الهزيمة، كما رأيت! على أية حال، صدقني وأصطحب السيدة إلى المسرح، ولو لتغيظ مرة في حياتك واحداً من هؤلاء الغربان المناكيد! لو انني وجدت من يقوم بعملي، لصحبتكما بنفسي! ولا تضيعا الوقت، فإن «لاجاردى» لن يقيم سوى عرض واحد، لأنه متعاقد في انجلترا لقاء اتعاب ضخمة. إنه -على ما يؤكدون- يطير إلى حيث يكون المال! إنه ليتمرغ في الذهب! ولسوف يصحب معه ثلاث عشيقات وطاهية! إن هؤلاء الفنانين الكبار جميعاً يوقدون الشمعة من طرفيها، فهم يسعون إلى حياة داعرة تتمشى بعض الشيء مع خيالهم، حتى إذا حان أجلهم، ماتوا في المستشفيات لأنهم لم يؤتوا من التعقل في شبابهم ما يوحى إليهم بالادخار والاقتصاد! والآن، طاب عشاؤك، وإلى الغد!».

✦✦✦

أخذت فكرة المسرح تختمر سريعاً في رأس «بوفاري»، فبادر بنقلها إلى زوجته، التي رفضت في البداية، متعللة بالتعب والخور والنفقات. ولكن «شارل» -على غير عادته- لم يتراجع. فقد قدر أن هذا النوع من الترفيه سيكون عظيم النفع، ولم ير ما

يحول دونه، إذ كانت أمه قد أرسلت لهما ثلاثمائة فرنك لم يكن شديد الحاجة إليها بعد أن قلت ديونه الجارية، كما أن موعد استحقاق سندي «لوريه» كان بعيداً بحيث لا تدعو الحاجة إلى التفكير فيهما في الوقت الراهن. هذا فضلاً عن أنه توهم أن «إيما» كانت ترفض من قبيل المجاملة أو الاشفاق، فازداد اصراراً، حتى انتهت إلى أن لا خلاص من إلحاحه إلا بالقبول. من ثم رحلا في الساعة الثامنة من اليوم التالي، مستقلين «العصفورة»، وتنهد الصيدلي إذ رآهما يتحركان، فما كان ليبقيه في (ايونفيل) سوى شعوره بأن ليس في وسعه أن يتزحزح عنها. وقال لهما: «هيا، رحلة طيبة أيها السعيدان!» ثم خاطب «ايما» -التي كانت ترتدي ثوباً من الحرير الأزرق ذا أربع ثنيات- قائلاً: «إنك لتبدين في جمال آلهة الجمال، وما أحسبك إلا ستبهرين روان!».

ونزلا في فندق «الصليب الأحمر» بميدان (بوفوازان). وكان ككل فنادق الريف، ذا حظائر كبيرة، ومخادع صغيرة، وتسرح الدواجن في فنائه ملتقطة الحب من تحت حواف عربات التجار المتجولين، الملطخة بالوحل. كان بيتاً عتيقاً، ينخر السوس شرفاته التي كانت تبعث صريراً إذا ما هبت الريح في ليالي الشتاء، وكان يحفل دائماً بالناس والضجة، والآكلين وكانت موائد الفندق السوداء ملطخة ببقع القهوة والخمر، وقد استحال لون زجاج نوافذه السميك إلى الصفرة من أثر الذباب، وتندت المناشف التي يقدمها لنزلائه بالنبيذ الرخيص، ففاحت منها روائح الريف، وبدت كملابس أهل المدن التي يرتديها عمال الزراعة في أيام الآحاد! كما كان به مقهى يطل على الشارع، وألحقت به -من ناحية الحقول- حديقة زرعت بالخضر. وبادر «شارل» لتوه إلى المسرح، ليحجز مقعدين، فراح يخلط بين المقاعد الأمامية ومقاعد «الصالة»، وبين «البلكون» و«الألواج» واستفسر فلم يفهم، وأحيل من نافذة الحجز إلى مدير المسرح، ثم عاد إلى الفندق، ورجع ثانية إلى المسرح! وهكذا اجتاز البلدة بطولها عدة مرات، من المسرح إلى الميدان، أما زوجته، فابتاعت قبعة وقفازين وباقة ورد. وكان السيد في خوف شديد من أن تفوتهما بداية العرض، فلم يضيعا وقتاً في احتساء قدح من الحساء، وكانت النتيجة أن وصلا إلى أبواب المسرح وهي مازالت بعد مغلقة!

الفصل الخامس عشر

كان الناس يستندون إلى جدران المسرح في الانتظار، وقد اصطفوا بين السياجين القائمين عند المدخل. وعند نواصي الشوارع المجاورة كانت لوحات الإعلان الضخمة تحمل بحروف ملتوية زخرفية: «لوسي دي لامرمور، لا جاردي، أوبرا، الخ». وكان الجو بديعاً، ولكن الناس ما لبثوا أن شعروا بالحر، فأخذ العرق يسيل بين غدائر شعور النساء، وظهرت المناديل من جيوب الرجال لتجفف الجباه المحمرة. وكانت تهب من النهر بين آن وآخر نسمة حارة، فتهز في رفق اللافتات المعلقة عند أبواب الحانات. ومع ذلك، وعلى مسافة بسيطة، كان المرء يجد تياراً بارداً ينعشه، معبقاً بروائح الشحم والجلد والزيت، روائح شارع «ديه شاريت» المليئ بالحوانيت السوداء الكبيرة، حيث تصنع البراميل.

وخشيت «إيما» أن يثير وقوفهما الضحك، فرغبت فى أن تتمشى في الميناء، قبل دخول المسرح. ولكنهما ما لبثا أن ولجا المسرح، فأخذ قلب «إيما» يخفق بمجرد أن بلغا البهو وابتسمت في زهو -على الرغم منها- إذ رأت الجمهور يتدافع يمينا خلال ردهة أخرى، بينما كانت تصعد درجات السلم إلى مقعديهما المحجوزين. وابتهجت في غبطة الطفل وهي تتحسس بأصابعها الباب المبطن بالسجاد، واستنشقت بكل قوتها العبير الممتزج بالغبار المتصاعد من الردهات، حتى إذا جلست في مقصورتهما، مالت إلى الأمام في بساطة كما لو كانت احدى الدوقات! وأخذ المسرح يمتليء، وأخرجت منظارات الأوبرا المقربة من حافظاتها، وأخذ أصحاب المقصورات المحجوزة طوال الموسم يتبادلون النظرات والتحيات. لقد جاءوا ينشدون في الفنون الجميلة ترويحاً، بعد مشاغل «البورصة»، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينسوا العمل، فظلوا يتحدثون عن الأقطان، أو الخمور، أو النيلة (المادة التي تستخدم في الصباغة). وكانت وجوه الكهول ترى خالية من أي تعبير، تعلوها سكينة مطمئنة، وقد بدوا بشعورعم الفضية وبشراتهم كالأيقونات، أو الميداليات الفضية التي تعرضت لبخار القصدير! وكان الشبان المتأنقون يجوسون خلال «الصالة»، يعرضون -خلال فتحات صداريهم- ربطات العنق الوردية، أو تلك التي في لون التفاح الأخضر. وكانت مدام «بوفاري» تتبعهم في اعجاب -من عل- وهم يتكئون على عصيهم ذات المقابض الذهبية التي تبرز خلال أيديهم المكسوة بالقفازات الصفراء.

وما لبثت مصابيح مقصورة الفرقة الموسيقية أن أضيئت، وكانت إحدى الثريات تتدلى من السقف، ناشرة بتألق جوانبها بهجة مفاجئة على المسرح. ثم أقبل الموسيقيون واحداً بعد آخر، وسمع في البداية ضجيج النغمات الغليظة من «الكمنجات» الكبيرة، ثم الأنغام الرفيعة من «الكمنجات» العادية، ودوى الأبواق، وصفير الناي والمزمار. على أنه لم تلبث أن انبعثت على منصة المسرح ثلاث دقات، فأرسلت الطبول دقات متتابعة، وصدرت

بعض الحان من الآلات النحاسية، ثم رفعت الستار، فكشفت عن منظر ريفي: ملتقى طرق في غابة، ونافورة -إلى اليسار- تظللها شجرة بلوط، وفلاحين، وسادة تعلو اكتافهم أشرطة، ويرددون معا إحدى أغنيات الصيد. ثم ظهر فجأة قائد رفع يديه إلى السماء، يستعين بروح الشر، وما لبث أن ظهر شخص آخر، فانصرفا معاً، وعاد الصيادون من جديد!

✦✦✦

وشعرت «إيما» بنفسها ترتد إلى ما كانت تقرأ في صباها، إلى غمار قصص «وولتر سكوت»، وخيل إليها أنها تسمع خلال الضباب أنغام موسيقى القرب الاسكتلندية، تتردد فوق المرج. ثم ساعدها تذكر الرواية على أن تفهم ما كان يجرى على المسرح، فراحت تتتبع القصة عبارة بعد عبارة، بينما بددت الموسيقى في الحال الأفكار المبهمة التي روادتها، وأطلقت نفسها مع الألحان الرخيمة، فخيل إليها أن كيانها يتذبذب، كما لو كانت أقواس «الكمنجات» تجرى على أعصابها! ولم تكن عيناها تسعفانها لتحيط بكل الأزياء، والمناظر والممثلين، والأشجار المرسومة التي كانت تهتز إذا اقترب منها أحد، والقلنسوات المخملية، والأوشحة، والسيوف، وكل تلك الأشياء الخيالية التي راحت تطفو مع الأنغام المنسجمة وكأنها تحلق في جو عالم آخر. وما لبثت أن ظهرت امرأة شابة، وهي تلقي كيساً إلى فارس في زي أخضر، ثم بقيت وحيدة، وسمع الناي يرسل أنغاماً كخرير النافورة، أو تغريد العصافير، وعزفت «لوسي» على قيثارتها نغماً عالياً، وأخذت تشكو الهوى، وتتوق إلى جناحين. وتمنت «إيما» بدورها أن تنطلق كذلك طائرة! وفجأة ظهر «ادجار لاجاردى» كان على شيء من ذلك الشحوب البديع الذي يخلع رواء المرمر على إبناء الجنوب النشيطين. وكان صدره البادي الفتوة يحتويه صديري محكم الالتفاف، ذو لون بني، وقد تدلى على فخذه الأيسر خنجر صغير ذو نصل عريض. وراح يجول بنظراته فيما حوله وهو يبتسم، كاشفاً عن أسنان بيضاء. كان يقال أن أميرة بولندية سمعته ذات ليلة يغني على شاطئ بياريتز، حيث كان يصلح القوارب. فتدلهت في هواه، وأفسدت حياتها على نفسها من أجله، ثم هجرها هو من أجل نساء أخريات! ولم تؤد هذه السمعة العاطفية إلا إلى إذكاء شهرته الفنية، حتى لقد اعتاد هذا الماجن الواسع الحيلة أن يدس دائماً في اعلاناته بعض عبارات شاعرية عن فتنة شخصه، وإرهاف عواطفه. كان فن هذا الدجال الرائع نتاج صوت عذب، وهدوء رصين، ووليد مزاج أكثر منه ذكاء، وإلقاء أكثر منه غناء، وقد خلقت له هذه الصفات طبيعة فاتنة، يشوبها شيء من طباع الحلاق ومصارع الثيران!

ومنذ الفصل الأول ألهب المشاعر، إذ ضم «لوسي» بين ذراعيه، ثم أفلتها، وبدا قانطاً، وانتابته فورات من الغضب، وراح يصدر آهات حزينة لا حد لعذوبتها، وكانت الأنغام المنسابة من حلقه زاخرة بالنهنهة والقبلات، ومالت «إيما» إلى الأمام لتراه، وهي

تتشبث– بأظافرها– بالمخمل الذي يكسو المقصورة، كانت تملأ فؤادها بهذا الغناء الحزين الذي صحبته أنغام من الكمان الكبيرة، بدت كأنها صرخات غريق في عنفوان الأنواء! وتذكرت كل النشوة وكل الشجن اللذين كادا يقتلانها، ولاح لها أن صوت الممثلة الأولى لم يكن سوى أصداء نفسها، وأن هذا التمثيل الذي أشجاها لم يكن إلا قطعة من صميم حياتها. ولكن أحدا فى الدنيا لم يولها مثل هذا الحب، لم يبك كما بكى «ادجار» -الممثل الأول– في الليلة المقمرة الأخيرة، وهو يودع حبيبته! واهتزت أرجاء المسرح بالهتاف، فأعيد المشهد من جديد، وراح العاشقان يتحدثان عن الزهور التي يتمنيان أن تظلل قبرهما، وعن العهود، والبعاد، والقدرة، والآمال، حتى إذا تبادلا الوداع الأخير، ندت من «إيما» صرخة حادة، ضاعت في ضجيج الأنغام الأخيرة. فتساءل بوفاري: «عجباً، هل ظلمها ذلك السيد؟» فأجابت إيما: «لا، لا! إنه حبيبها!»

– ولكنه يقسم أن ينتقم من أسرتها، في حين أن السيد الآخر الذي ظهر قبله كان يقول: «إنني أحب لوسي، وهى تحبني!» كما أنه خرج متأبطا ذراع أبيها، إذ لابد أن ذلك الرجل الضئيل الجسم، القبيح الوجه، والذي يضع ريشة في قبعته، هو أبوها؟

وعلى الرغم من ايضاحات ايما لموضوع المسرحية، فإن شارل لم يكد يرى خاتم الخطبة الزائف الذي أعد لخداع «لوسي» – عندما راح «جلبير» يشرح لمولاه «اشتون» مناوراته الخبيثة -حتى ظن أنه هدية غرامية أرسلها «أدجار». بل لقد صرح -فوق ذلك– بأنه لم يفهم القصة لأن الموسيقى كانت تطغى على الكلام كثيراً. فقالت «إيما»: «وما قيمة هذا؟ إلزم الصمت!» فقال وهو يميل على كتفها: «إنما أحب أن أفهم ما يجري كما تعلمين». فصاحت في ضيق: «اسكت! أسكت!»

وتقدمت «لوسي»، تكاد وصيفاتها يحملنها، وفي شعرها إكليل من زهور البرتقال، وقد كاد شحوبها يغلب على بياض ثوبها الحريرى. وتذكرت إيما يوم زفافها، وتمثلت نفسها ثانية في قريتها، بين حقول القمح التي كانت تحف بالطريق الذي ساروا فيه إلى الكنيسة. آه، لِمَ لم تقاوم وتتوسل كهذه المرأة؟ لقد كانت -على العكس– مغتبطة، لا تبصر الهوة التي كانت تلقى بنفسها فيها. آه! لو انها استطاعت في نضارة شبابها -قبل أدران الزواج، وقبل أن تتبدد الآمال التي عقدتها على علاقتها الفاسقة برودولف– أن تقيم حياتها على قلب كبير قوي، لامتزجت الفضيلة، والفجور، والحنان، والواجب، في حياتها، ولما هوت من مثل هذه الهناءة الرفيعة!

على أن هذه الهناءة ولابد أكذوبة موهومة لكبح كل شهوة. لقد أصبحت تدرك مدى ضآلة العواطف التي يبالغ الفن في تصويرها. ومن ثم أخذت تجاهد لتتحول عن أفكارها، وقد قررت ألا ترى في هذا التمثيل -الذي يصور لها أشجانها– أكثر من إنتاج تصويري يمتع الأبصار. حتى أنها لم تلبث أن ابتسمت في رثاء مترفع حين رأت، تحت الستائر المخملية في مؤخرة المسرح، رجلاً فى معطف أسود، سرعان ما سقطت قبعته الاسبانية

العريضة الحواف بحركة من يده. وفي الحال، انطلقت الانغام العالية من الآلات الموسيقية ومن المغنين، فاستشاط «ادجار» غضباً ورفع عقيرته بالغناء، فطغى صوته الجهوري على الجميع. فانبرى له «اشتون» بعبارات مثيرة، قاتلة، وأرسلت «لوسي» ضراعتها بصوت صارخ، وكان «آرثر» يؤدي دوره -على حدة- بصوت متوسط الجرس، بينما انساب صوت القس خفيضاً كأنه الأرغن، فكانت أصوات النساء تردد كلماته في غناء جماعي بهيج.

كانوا جميعاً في شجار، وقد اختلطت اشاراتهم، بينما كان الغضب، والانتقام، والغيرة، والفزع، والذهول، تنبعث جميعاً في وقت واحد من أفواههم المفتوحة، وراح العاشق يلوح بسيفه المشهر، وزوائد «الدانتيلا» التي توشي قميصه تهتز مع تهدج صدره، وقد أخذ يسير من اليمين إلى اليسار بخطى واسعة، وهو يدق الأرض بمهمازين فضيين ثبتا إلى حذاءيه الرقيقين. وخيل لإيما أن معين الحب لديه لا ينضب، والا ما راح يغدق منه على الجمهور بمثل هذه الطلاقة! وتوارت الأخطاء التافهة التي كانت تحصيها عليه في التمثيل التي استولت على لبها. وأخذت تشعر بأن سحر شخصية ذلك الرجل يجتذبها إليه، وحاولت أن تصور لنفسها حياته، تلك الحياة المدوية، العجيبة، الرائعة، التي كان من الممكن أن تكون حياتها هي، لو أن القدر شاء فجعلهما يتعارفان، ويحب كل منهما الآخر، إنها إذ ذاك كانت تطوف معه بكل ممالك أوربا، منتقلة من عاصمة إلى عاصمة، تشاطره التعب والمجد، وتلتقط الزهور التي تلقى عليه، وتوشي بأشغال ابرتها ثيابه، وتلوذ -في كل ليلة- باحدى المقصورات، تعب في نهم انطلاقات روحه التي تتمثل في أغان يشدو بها لها وحدها، ويتطلع إليها وحدها، وهو يؤدي دوره على المسرح! وما لبث أن تملكتها فكرة جنونية أوحت إليها بأنه يتطلع إليها بالفعل، بالتأكيد، وتاقت إلى أن تجري إلى أحضانه، وان تأوي إلى قوته الفتية، وكأن الحب قد تجسد في شخصه، وأن تقول له، بل تصيح فيه: «خذني بعيداً! احملني معك! لنرحل! أنت، أنت، كل وجدي وكل أحلامي!» وفي ذلك الوقت أسدلت الستار!

✦✦✦

واختلط عبير غاز الاستصباح بالأنفاس، ولم تزد المراوح الجو إلا ثقلاً خانقاً، فرغبت «إيما» في الخروج، ولكن الناس كانوا يملأون الردهات، فتهالكت في مقعدها الوثير، وراحت أنفاسها تتعثر في حلقها حتى كادت تخنقها. وخشي «شارل» أن يغمى عليها، فجرى إلى المقصف ليحضر لها كوباً من ماء الشعير، ووجد عناء شديدا فى العودة إلى مقعده، إذ كان مرفقاه يصدمان في كل خطوة بسبب الكوب الذي كان يحمله، حتى أنه سكب ثلاثة أرباعه على منكبي سيدة من (روان) كانت ترتدي ثوباً قصير الكمين، فما إن أحست بالسائل البارد يجري إلى ردفيها، حتى أخذت تصرخ كالطاووس، كما لو كانت تذبح! واندفع زوجها - وكان من أصحاب مصانع النسيج -إلى صاحبنا المرتبك، وبينما كانت

تمسح البقع عن ثوبها الأنيق المصنوع من نسيج من «التافتاه» في لون «الكريز»، راح يتحدث مغضباً عن الخسارة، والنفقات، والتعويض. وبلغ «شارل» مكان زوجته أخيراً، فقال وهو يلهث: «لعمري! لقد خيل إلى أنني سأظل هناك! يا للخلق، يا للحشد، أحدسي من قابلت هناك! السيد ليون!»، فهتفت: «ليون!» قال: «بالذات! انه آت ليقدم تحياته!» وما ان أتم كلماته، حتى ولج المقصورة، الشاب الذي كان من قبل كاتباً في (ايونفيل)، فبسط يده بطريقه السيد المهذب الراقي، وبسطت مدام «بوفاري» يدها في حركة آلية، منصاعة لجاذبية أرادة قوية بلا شك. لم تكن قد مست يده منذ تلك الليلة من ليالي الربيع، التي سقط فيها المطر على أوراق الشجر الخضراء، وهما يتبادلان تحية الوداع لدى النافذة. على أنها ما لبث أن تذكرت مقتضيات الموقف، فطرحت عنها عبء الذكريات في جهد، وأخذت تتمتم متلعثمة، متعجلة، ببضع كلمات: «آه! طاب يومك! عجباً! أأنت هنا؟» وتصاعدت من «الصالة» أصوات تصيح: «صمتاً!»، إذ كان الفصل الثالث قد بدأ.

– إذن، فأنتما في روان؟

– أجل.

– ومنذ متى؟

وأخذ الناس يتطلعون نحوهم، وصاحت أصوات: «أخرجوهم! أخرجوهم!»، فلاذوا بالصمت. بيد أن «إيما» لم تعد تسمع شيئاً منذ تلك اللحظة، كانت أغاني المدعوين لحفلة الزفاف (في الرواية)، والمشهد الذي جرى بين «اشتون» وخادمه، والمشهد الغنائي الكبير، كل هذه كانت بعيدة عن سمعها، وكأنما كانت الآلات الموسيقية تزداد خفوتا، والممثلون يزدادون نأيا. وتذكرت لعب الورق في دار الصيدلي، والسعي إلى دار المرضعة، والقراءة في الخميلة، والأحاديث الخافتة إلى جوار المدفأة، كل هذا الحب البائس، بما كان يتصف به من هدوء، وتردد طال أمده، وتعقل وتكتم، ورقة وحنان، ومع ذلك فقد نسيته! ولماذا عاد الشاب؟ أية ظروف تجمعت لتعيده إلى حياتها؟ وكان هو يقف خلفها، مستنداً بكتفه إلى جدار المقصورة، فأخذت تحس -بين آن وآخر- برجفة تحت الأنفاس الحارة التي تنساب من أنفه إلى شعرها، وانحنى مقترباً منها، حتى مست ذؤابة شاربه خدها، وسألها: «أو يروق لك هذا؟» فأجابت في غير اكتراث: «آه يا الهي! لا! لا يروق كثيرا» وإذ ذاك اقترح أن يخرجوا من المسرح، وان يذهبوا إلى أى مكان فيتناولوا بعض المثلجات، فقال «بوفاري»: «لا، لم يحن الوقت، فلنمكث! إن شعرها غير منسق، إن هذا الفصل يوحي بالمأساة!»

على أن الفصل «الحافل» لم يلذ لإيما على الاطلاق، ولاح لها تمثيل المطربة مليئاً بالمغالاة، فقالت وهي تلتفت إلى «شارل» الذي كان منصرفاً للاصغاء: «أنها تصرخ بصوت مرتفع»، فأجاب وهو موزع بين رضائه عن التمثيل وبين احترامه لرأي زوجته: «أجل بعض الشيء!» وما لبث «ليون» أن قال وهو يزفر: «إن الحر...»، فأكملت «إيما» عبارته: «لا يطاق، حقا!» فسألها بوفاري: «هل تضايقت؟» أجابت: أجل إنني أختنق، لننصرف!»

وطرح السيد «ليون» على كتفيها -برفق- الشال الطويل المصنوع من «الدانتيلا»، وخرج ثلاثتهم ليجلسوا في هواء الميناء الطلق، خارج الواجهة الزجاجية لأحد المقاهي وتحدثوا في البداية عن مرض «ايما»، وإن راحت هي تقطع على «شارل» الحديث من آن لآخر، خشية أن يثقل على السيد «ليون». وقال لهما هذا إنه جاء ليقضي عامين في (روان)، في مكتب كبير ليحظى بمران متين، تأهباً لممارسة مهنته، نظراً لأن القضايا في (نورماندي) كانت تختلف عما يدرس في باريس. ثم سأل «ليون» مدام بوفاری عن «بيرت»، وآل «هوميه»، والأم «لوفرانسوا». وما لبث الحديث أن توقف، إذ لم يعد لديهما مزيد من الكلام الذي يستطيعان أن يتبادلاه في حضور الزوج! ومر على الرصيف بعض من كانوا في المسرح، وهم يترنمون في خفوت، أو بأعلى أصواتهم بأغنية: «أواه يا ملاكي الجميل... يا حبيبتي لوسي»! إذا ذاك تحول «ليون» إلى الحديث عن الموسيقى ليوحي بأنه يهواها. كان قد رأى «تامبوريني»، و«روبيني»، و«برسياني»، و«جريسي»، وقال إن «لا جاردى» رغم تألقه لا يقارن بهم. فقاطعه «شارل» -الذي كان يرشف شرابه في بطء قائلا: «ومع ذلك، يقال إنه في الفصل الأخير أروع ما يكون، إنني لآسف إذ انصرفت قبل النهاية، لأن التمثيل كان قد بدا يلذ لي». فقال الكاتب: «اطمئن، فلسوف يقيم حفلة أخرى قريباً». ولكن «شارل» قال إنهما راجعان في غدهما، ثم استدرك متلفتا إلى زوجته: «اللهم إلا إذا شئت أن تبقي وحدك يا قطيطتي!»

وبادر الشاب إلى تغيير أساليبه ازاء هذه الفرصة غير المرتقبة التي تتفق مع آماله، ومن ثم أخذ يسهب في إطراء دور «لاجاردي» في الفصل الأخير، قائلاً إنه خارق، راق. وإذ ذاك راح شارل يلح: «تستطيعين أن تعودي يوم الأحد، هيا، بتي في الأمر، إذا شعرت أن هذا يروق لك فمن الخطأ أن تترددي». وكانت الموائد حولهما قد بدأت تخلو، وأقبل ساق، فوقف بالقرب منهم متحرجاً، وبادر «شارل» -الذي أدرك سر وقوفه- فأخرج كيس نقوده، ولكن الكاتب رد ذراعه، ولم ينس أن يترك قطعتين من العملة الفضية -رنا على الرخام- فوق الحساب. فقال «بوفاري»: «إنني مستاء حقاً، لهذه النقود التي...» فأشار الآخر يسكته في ود، وتناول قبعته قائلاً: «اتفقنا، أليس كذلك؟ سنلتقي في السادسة من مساء غدا!» واعتذر «شارل» مرة أخرى -عن نفسه- بأنه لا يستطيع أن يطيل غيابه، ولكن لا شيء يمنع «ايما». فقالت متلعثمة، وهي تبتسم ابتسامة غريبة: «ولكني لست متأكدة...».

- لا بأس! يجب أن تفكري في الأمر! سوف نرى ما يكون، فالليل جلاب للآراء!

ثم خاطب «ليون» الذي كان يسير معهما قائلاً: «أما وقد أصبحت في منطقتنا، فآمل أن تأتي لتتناول معنا العشاء بين وقت وآخر». فأكد الكاتب أنه لن يتوانى عن ذلك، لا سيما وأنه مضطر إلى الذهاب إلى (ايونفيل) لبعض مهام المكتب الذي يتدرب فيه. ثم افترقوا عند ممر «سان هربلان»، وساعة الكاتدراتية تدق معلنة الحادية عشرة.

القسم الثالث

الفصل الأول

كان السيد «ليون» -خلال دراسة القانون- قد أكثر من غشيان مرقص الطلبة المسمى «لاشوميير»، حيث قدر له أن يظفر بنجاح كبير بين الفتيات اللاتي رأين في مظهره ما يميزه عن سواه. كان ألطف الطلبة مسلكاً، وكان يقص شعره بحيث لا يدعه مسرفاً في الطول، ولا شديد القصر. ولم يكن ينفق كل مصروفه في اليوم الأول من الشهر، كما كان على علاقات طيبة بأساتذته. أما عن التطرف في نزواته، فهذا ما كان يحجم عنه دائماً، جبناً منه وترفعاً في آن واحد. وكثيراً ما كان يمكث في غرفته للقراءة، كما كان كثيراً ما يترك كتاب القانون يهوى إلى الأرض -وهو جالس في بعض الأمسيات تحت أشجار الزيزفون في حدائق لوكسمبورج- حين تعاوده ذكرى «إيما»! على أن هذا الشعور لم يلبث أن تضاءل، وأخذت تعدو عليه شهوات أخرى، وإن ظل يتأرجح فوقها. فإن «ليون» لم يفقد كل أمل، بل ظل لديه في الواقع رجاء مبهم يطفو على صفحة المستقبل، كثمرة ذهبية تتدلى من شجرة خيالية، فلما رآها بعد غياب ثلاث سنوات، عاد وجده يستيقظ. وخطر له أن يعمل -أخيراً- على أن ينالها، لا سيما وأن حياءه كان قد انجاب نتيجة اتصاله بزملائه المرحين، فعاد إلى الريف وهو يستصغر كل من لا يطأ أرض الشوارع بحذاءين لامعين!

وما كان ثمة شك في أن الكاتب المسكين كان يرتجف كالطفل، لو أتيح له أن يجلس إلى جوار امرأة باريسية أنيقة، في حجرة الجلوس بمنزل طبيب لامع أوتى أوسمة، وأوتى عربة. أما هناك، في (روان)، وعند الميناء، وأمام زوجة طبيب صغير، فقد شعر بأنه عزيز الجانب، وتأكد مقدماً من أن نجمه لامع، فإن الثقة بالنفس تتوقف على الوسط الذي يوجد فيه المرء، ونحن لا نتكلم فى الطابق الأول بعين اللهجة التي نتكلم بها في الطابق الرابع، والمرأة الغنية، تبدو وكأن أوراقها المالية تحوطها لتصون عنقها!

وعندما غادره «بوفاري» وزوجته، أقتفى خطاهما عن كثب خلال الطرقات، حتى إذا رآهما يلجان فندق «الطبيب الأحمر» نكص على عقبيه، وقضى الليل يفكر في خطته. فلما كان اليوم التالي، نفذ في نحو الساعة الخامسة إلى مطبخ الفندق، وقد شحب صدغاه وأحس بأنه يختنق، وإن تملكه ذلك العزم الذى يواني الانذال الذين لا يتورعون عن شيء! وأجابه الخادم، إذ سأله: «إن السيد غير موجود». ورأي في هذا فألاً طيباً، فصعد السلم. ولم تنزعج «إيما» لمقدمه، بل إنها -على العكس- اعتذرت لكونهما غفلا عن إنبائه بالمكان الذي نزلا فيه، فقال: «آه، لقد حدسته بالتخمين!» وزعم أنه اهتدى إليها بالحظ، بالغريزة.. وبدأت تبتسم، تبادر -لإصلاح زلته- إلى انبائها بأنه قضى النهار يطوف بفنادق البلدة جميعاً -واحداً إثر الآخر- سائلاً عنها. واستطرد قائلاً: «هل قررت البقاء»

قالت «أجل، واني مخطئة في ذلك. فما ينبغى للمرء أن يمنح نفسه متعاً مستحيلة، عندما يكون وراءه ألف مطلب وعمل...».

- آه.. إنني أدرك.

- آه! لا، لأنك رجل... .

- لكن للرجال -هم الآخرون- همومهم. واتجه الحديث بهما نحو بعض الأفكار الفلسفية. وراحت «إيما» تسهب في الحديث عن بؤس العواطف الدنيوية، والعزلة الأبدية التي يظل الفؤاد دفينا فيها. وبدافع من الرغبة في التظاهر، أو لمجرد مسايرة هذا الأسى الذي أثار أساه، ذكر الشاب أنه كان يعاني سأماً فظيعاً طيلة دراسته. فكان القانون يثقل على نفسه، وكانت ثمة مهن أخرى تجتذبه، وكانت أمه لا تكف عن مضايقته في كل خطاب. وفي سياق حديثهما، أخذ كل منهما يزداد إفصاحاً عن بواعث أساه، ويضمنها هذا الاعتراف المطرد. على أنهما كانا في بعض الأحيان يمسكان، إذ يوشكان أن يكشفا في جلاء تام عن أفكارهما، ثم يسيعان مع ذلك إلى ابتكار عبارة تترجم تلك الأفكار. ولم تعترف «ايما» بأنها تعلقت بسواه، ولا قال «ليون» إنه نسيها! ولعله لم يعد يذكر عشاءه مع الفتيات بعد حفلات الرقص التنكرية، كما أنها لم تعد تذكر -بلا ريب- تلك اللقاءات الماضية، حين كانت تجري عبر الحقول في الصباح إلى بيت عشيقها. وكان ضجيج البلدة لا يكاد يصل إليهما، ولاحت الغرفة صغيرة، وكأن صغرها كان متعمداً ليقرب بين عزلتيهما. وكانت «ايما» في ثوب من البفتة، وقد طوحت برأسها إلى مسند مقعد وثير عتيق، ورسم ورق الحائط الأصفر إطاراً ذهبياً خلفها، وانعكست صورة رأسها العاري على المرآة، وقد بدا مفرق شعرها أبيض، وبرزت حافتا أذنيها خلال ثنايا شعرها.

وما لبثت أن قطعت الصمت قائلة: «ولكن معذرة. من الخطأ أن أثقل عليك بشكاياتي الأبدية». فقال! «لا، أبداً، ابداً». قالت وهى ترفع عينيها الجميلتين إلى السقف وقد ترقرقت فيهما دمعة: «لو علمت كل ما كنت أحلم به!»

- وأنا! أواه. أنا الآخر تعذبت! كثيراً ما كنت أخرج، فأذهب بعيداً، وأجر نفسي على طول ضفة النهر، وأهيم في ضجيج الناس، دون أن أقوى على دفع العبء الذي يجثم على صدري. وفي حانوت حفار اختام في الطريق، عثرت على رسم إيطالى لإحدى الحوريات، متشحة بغلالة، وقد راحت تتطلع إلى القمر، والزهور تتخلل شعرها المسترسل، وكانت ثمة قوة خفية تدفعني إلى هناك باستمرار، حيث أقضى ساعات طوالا.

ثم أردف بصوت مرتجف: «كانت تشبهك قليلاً». فأشاحت مدام «بوفاري» بوجهها حتى لا يرى الابتسامة التي أحست بها تقفز إلى شفتيها دون أن تقوى لها دفعا. واسترد يقول: «وكثيراً ما كنت أكتب رسائل لا ألبث أن أمزقها». ولم تجب، فواصل الحديث: «وكنت أخال أحياناً ان المصادفات قد تسوقك، فكنت أتوهم أنني ألمحك عند منعطفات الطرق، وكنت أجري وراء كل العربات التي ألمح خلال نوافذها شالاً أو قناعاً يشبهان ما

لديك!». وبدا أنها تنوي أن تدعه يتكلم دون أن تقاطعه، إذ عقدت ذراعيها، ونكست رأسها، وراحت تتأمل نقوش خفيها، وتحرك أصابع قدميها داخلهما، بين وقت وآخر. وأخيراً، تنهدت قائلة: «ولكن الأدعى للأسى، هو أن تحمل عبء حياة لا جدوى منها، كما أفعل. أليس كذلك؟ لو أن آلامنا كانت تعود بالنفع على أحد، لوجدنا عزاء في فكرة التضحية». فانطلق يطنب في امتداح الفضيلة، والواجب، والتضحية الصامتة، قائلاً: إنه يشعر برغبة جامحة للتضحية بالنفس، لا يدري كيف يشبعها!

وقالت إيما: «لكم أتوق إلى أن أكون ممرضة في مستشفى!»، فقال: «وا أسفاه! ليس للرجل شيء من هذه المهام ذات القداسة، فلست أرى لها شبيهاً في مهنة، اللهم إلا مهنة الطب». فقطعت «إيما» عليه حديثه بهزة خفيفة من كتفها، وتحولت تتحدث عن مرضها الذي أوشك أن يقضي عليها، وليته فعل، فإنها ما كانت لتعاني ما تعاني الآن من آلام! وبادر «ليون» يحسد القبر لهدوئه وسكينته، قائلاً: إنه كتب ذات ليلة وصيته، طالباً أن يكفن في تلك السجادة البديعة ذات الخطوط المخملية التي تلقاها منها مرة! وهكذا كانا يتمنيان أن تسير الأمور: كل منهما يقيم من نفسه مثلاً أعلى يحاول به اعادة تشكيل ماضيه ليتسق مع هذا المثل! فضلاً عن أن الحديث -كحجر المسن- يشحذ الشعور! على أن «إيما» لم تتمالك أن سالت عندما سمعت فرية السجادة: «ولماذا؟»، فقال في تردد: «لماذا؟ لأنني، لأنني أحبك!». وغبط نفسه إذ اجتاز العقبة، وراح يرقب وجهها بنظرة مختلسة من ركن عينه. كان وجهها كالسماء التي دفعت نسمة من ريح بعض السحب عن صفحتها، فإذا ركام الأفكار الحزينة الذي كان يربن على عينيها قد انجاب، وإذا وجهها بأسره يشرق! وظل «ليون» يرتقب. وأخيراً، قالت: «كنت دائماً أحدس هذا»!

ثم أخذا يستعرضان كل الأحداث التافهة التي اكتنفت تلك الحياة الماضية، التي أجملا أفراحها وأشجانها في كلمة واحدة. تذكرا «تكعيبة» نبات «الداليا» الشوكي، والثياب التي كانت ترتديها، وأثاث حجرتها، والبيت بأسره.

– وشجيرات الصبار المسكينة، أين هي؟

– قتلها البرد في هذا الشتاء.

– آه، أتعرفين أنني كثيراً ما فكرت فيها! كنت كثيراً ما أتمثلها كعهدي بها في الماضي، حين كانت الشمس في صباح أيام الصيف تطرق مصراعي نافذتك، وكنت أرى في الخيال ذراعيك العاريتين تنتقلان بين الزهور.

فمدت يدها إليه هاتفة: «يا صديقي المسكين!» فضغط «ليون» شفتيه إلى يدها برفق. وبعد أن ملأ صدره بعبيرها، قال: «كنت لي إذ ذاك قوة غامضة -لم أدرك كنهها- استولت على حياتي. فمثلاً، ذهبت مرة كي أراك، ولكنك ولا ريب لا تذكرين هذه المناسبة». قالت: بل أذكرها، قل!»

– كنت في الحجرة الصغيرة بالطابق الأرضي، تستعدين للخروج، وقد اتخذت كل

أهبة، فكنت تضعين قبعة ذات زهور زرقاء صغيرة، وعلى الرغم من نفسي، ودون دعوة منك، خرجت معك. على انني في كل لحظة كنت أزداد شعوراً بطيشي، فظللت أسير، لا أجرؤ على أن أتبعك، ولا استطيع أن أفارقك. وإذ ولجت حانوتاً، وقفت في الشارع أنتظرك، وأنا أراك خلال النافذة تخلعين قفازيك، وتعدين النقود على منضدة البائع، ثم دققت جرس بيت مدام «توفاش»، فدعيت للدخول، بينما ظللت أنا واقفاً كالغبي أمام الباب الكبير الضخم الذي أغلق خلفك!

✦✦✦

دهشت مدام «بوفاري» إذ خيل إليها، وهي تنصت أن أحداث الماضي -حين بعثت في ذاكرها- راحت توسع من نطاق حياتها، وتضاعفه. كأنما كانت ترتد إلى فيض عاطفي تدفقت به هذه الأشياء. وكانت بين آن وآخر تقول بصوت خافت، وقد أطبقت جفنيها في نصف إغماضة: «أجل، هذا صحيح، حقاً، حقاً!» وسمعت الساعات المختلفة في حي (بوفوازان) -الحافل بالمدارس والكنائس والقصور الكبيرة الخالية- تدق معلنة الثامنة. وكفا عن الكلام، ولكنهما أحسا -وكل منهما يرمق الآخر- أن ثمة دوياً في رأسيهما، كأنما كان ينبعث من عيني كل منهما شيء ذو رنين، وكانت يد كل منهما، في يد الآخر، وقد اختلط الماضي بالمستقبل، والذكريات بالأحلام، في عذوبة هذه الغيبوبة العاطفية. وأخذ الليل يزحف على الجدران التي ظلت ألوانها الثقيلة تبدو في أربع صور متوارية في الظلام، وتمثل أربعة مناظر من (تور دونل)، وتحتها كلمات بالأسبانية والفرنسية. وخلال الجزء العلوي من النافذة، بدت رقعة من السماء المعتمة، بين السقوف المدببة.

ونهضت ايما فاوقدت شمعتين على صوان الملابس، ثم عادت إلى الجلوس، فهتف ليون: «وبعد ؟!» فرددت: «وبعد ؟!» وكان يفكر في وسيلة لاستئناف ما انقطع من الحديث، حين سألته: «كيف حدث أن إنساناً ما لم يبح لي حتى اليوم بمثل هذه المشاعر؟!» فقال الكاتب: إن النفوس ذات الفطرة المثالية تستعصي على الادراك، فهو قد أحبها منذ اللحظة الأولى، وكان يشعر بالقنوط كلما فكر في السعادة التي كان من الممكن أن ينعما بها، لو أن الحظ قادهما إلي الالتقاء قبل ذلك فارتبطا بارتباط لا انفصام له. فقالت: «أنا الأخرى خطر لي هذا».. فغمغم: «يا له من حلم!». وأخذ يلمس بأصبعه -في رفق- الحافة الزرقاء المحيطة بحزامها الأبيض، ثم أردف: «وما الذي يحول دون أن نبدأ من جديد ؟» فأجابت: «لا يا صديقي، إنني الآن كبيرة السن، وأنت في باكورة الشباب. ألا انسنى! لسوف تحبك أخريات، وسوف تحبهن!» فصاح: «لن أحبهن كما أحبك!».

- يا لك من طفل! فلنتعقل! هذه رغبتي!

وبينت له استحالة غرامهما، وأنهما يجب أن يظلا على ما كانا عليه من قبل، مجرد

صداقة أخوية. أفكانت في هذا جادة؟ لا شك في أن «إيما» ذاتها لم تكن تدري، وهي مستغرقة في سحر الإغراء، شاعرة بضرورة الدفاع عن نفسها ازاءه. ورمقت الشاب بنظرة اشفاق وتأثر، وهي تصد المحاولات الخجلى التي بذلتها يداه المرتعشتان لتطويقها. فهتف وهو يتراجع: «آه! اغفري لي!»

واستولى على «إيما» خوف مبهم من هذا الحياء، الذي بدا لها أخطر من جرأة «رودولف» حين كان يسعى إليها باسطاً ذراعيه. قط ما لاح لها رجل في مثل جمال هذا الشاب الخجول الذي أسبل أهدابه الطويلة الناعمة التي كانت أطرافها تنثني إلى أعلى وخطر لها أن تورد بشرة خده الناعمة، كان بتأثير اشتهائه لها، فأحست بشوق جارف لأن تلصق بها شفتيها. وما لبثت أن مالت نحو الساعة، كأنها تتعرف الوقت، وقالت: «لكم تأخر الوقت! يا إلهي: كم ألهانا الحديث!» وفهم ايعازها، فتتناول قبعته، بينما استطردت: «بل انني نسيت التمثيل! مع أن بوفاري المسكين خلفني هنا خصيصاً لذلك! إن السيد «لومرو» -من شارع (جران بون)- لن يلبث أن يفد ليقلني مع زوجته إلى المسرح».
وهكذا كان مقدراً للفرصة أن تضيع، إذا أنها كانت راحلة في اليوم التالي. فهتف ليون: «حقا؟» قالت: «أجل». فقال: «ولكني يجب أن أراك مرة أخرى اذ أريد أنبئك...».

- بماذا؟

- بأمر.. هام، جدي. آه، لا! ما أراك راحلة، لا يمكن! لو عرفت... ألا انصتي لي.. إنك لم تفهميني إذن؟ إنك لم تحدسي إذن.

قالت إيما: «مع إنك تكلمت في وضوح».

- آه! اتمزحين! كفى، كفى! بحق الرحمة دعيني أراك ثانية. مرة واحدة، واحدة!

قالت: «حسنا.»، ولكنها أمسكت، ثم أردفت وكأنها فكرت في الأمر: «آه! ليس هنا! فتساءل: «وأين تحبين؟» فقالت: «أتحب...»، وبدا عليها التفكير، ثم قالت في إيجاز: «غداً، في الساعة الحادية عشرة، في الكاتدراتية» فصاح متشبثا بيديها وهي تحاول التملص: «سأوافيك هناك!» وإذ كانا واقفين -هو خلفها، وهي منكسة الرأس- فقد انحني على عنقها، وطبع قبلة طويلة على قفاها، فقالت في ضحكات قصار، بينما تضاعفت قبلاته: «ولكن هذا طيش منك! آه إنك احمق!» وأطل برأسه فوق كتفها، كما لو كان يريد أن يقرأ في عينيها انصياعها، فاذا عيناها ترمقانه في كبرياء باردة! وتراجع لينصرف، ثم توقف لدى الباب، وهمس في صوت متهدج: «إلى غدا» فأجابت بهزة من رأسها، وأسرعت كالطائر تختفي في الحجرة الداخلية.

✦✦✦

كتبت «إيما» في ذلك المساء خطاباً طويلاً للكاتب، تحللت فيه من الموعد، إذ انتهى كل شيء، ولا يجب -من أجل سعادتهما- أن يلتقيا مرة أخرى. ولكنها لم تكد تفرغ من

الخطاب حتى تولتها حيرة، لأنها لم تكن تعرف عنوان «ليون»، ولكنها قالت: «سأسلمه إياه بنفسي، فهو لابد آت».

وفي الصباح التالي، أخذ «ليون» ينظف حذاءيه بنفسه، مسبغاً عليهما عدة طبقات من الطلاء، وقد فتح نافذة غرفته، وأخذ يهمهم بأغنية خافتة، وارتدى بنطلوناً أبيض، وجوربين رقيقين، وسترة خضراء وأفرغ كل ما كان يمتلك من عطور في منديله، ثم سعى إلى الحلاق فطلب أن ينسق شعره في تجاعيد، وعاد فطلب بسطها ليكتسب الشعر وراء طبيعيا! ونظر إلى ساعة الحلاق التي كانت تشير إلى التاسعة، وقال لنفسه! «لا يزال الوقت جد مبكر». ومن ثم تصفح جريدة قديمة للأزياء، وخرج فدخن سيجاراً، وذرع ثلاثة شوارع، ثم خطر له أن الوقت قد حان، فسار على مهل إلى فناء «نوتردام». وكان الصباح بديعاً، من أيام الصيف، والحلي الفضية تتألق في وجهات محال المصوغات، والضوء يسقط على الكاتدرائية بانحراف، فيضفي على أركان الأحجار السمراء بريقاً، وسرب من الطيور يحوم في السماء الزرقاء حول ابراج الأجراس ذات اللون الأخضر، والمكان يعج بالأصوات، ويتضوع بشذى الأزهار التي كانت تحف بأرصفته، من ورود، وياسمين، وزهر الخشخاش، ونرجس، وسوسن، وقد نبتت على مسافات غير متساوية بين النعناع البري، والشيح. وكانت النافورات في الوسط تبعث خريراً، وتحت مظلات واسعة -وسط البطيخ الذي تراكم في أكوام- راحت بائعات الزهور يلففن الورق حول حزم البنفسج وهن عاريات الرؤوس. وابتاع الشاب حزمة، كانت أول مرة يبتاع فيها زهوراً لامرأة، فانتفخ صدره زهواً وهو يتنسمها، وكأن هذا التكريم الذي قصد به غيره، قد ارتد إليه!

على أنه كان في خوف من أن يراه أحد، فولج الكنيسة. وكان الحارس السويسري يقف إذ ذاك على العتبة، في منتصف الباب الأيسر، تحت تمثال «ماريان الراقص» -وقد بدا في قلنسوته ذات الريش، وسيفه المتدلي حتى عرقوبيه، أكثر جلالاً من أي كردينال، وأشد لمعاناً من علبة الأسرار المقدسة -وتقدم صوب «ليون» وقال وهو يبتسم ابتسامة التملق الحميد التي يصنعها رجال الدين حين يستجوبون الأطفال: «لاشك أن السيد ليس من هنا؟ أفيحب السيد أن يرى تحف الكنيسة؟» فقال الآخر: «لا» وجلس في البداية خلال الردهة الخارجية، ثم خرج ليلقي نظرة على الميدان، ولكن «إيما» لم تكن وصلت بعد، ومن ثم دخل ثانية وسار حتى المحراب.

وكانت صورة صحن الكنيسة منعكسة على أحواض التعميد المترعة، وقد ظهرت مقدمة الأقواس، وبعض أجزاء من النوافذ الزجاجية. ولكن صورة اللوحات الزيتية كانت تتكسر على حافة الرخام، لتستقيم بعد ذلك على البلاط، فتبدو كبساط متعدد الألوان. وكان ضوء النهار الساطع ينساب إلى داخل الكنيسة في ثلاثة خطوط ضخمة، خلال ثلاث كوات مفتوحة. ومن وقت لآخر، كان أحد خدم الكنيسة يمر في الطرف الأقصى، فيركع عند المذبح في انحراف، كما يفعل الأتقياء المتعجلون! وكانت الثريات البلورية تتدلى ساكنة،

وفي المحراب كان ثمة مصباح فضي مشتعل. وفي بعض الأحيان، كانت تنبعث من الممرات الجانبية والبقاع المعتمة أصوات كأنها التنهدات، يصحبها صوت ارتطام نافذة تغلق، فيتردد الصدى متموجاً تحت القبة الفخمة، وسار «ليون» بخطى ورعة في محاذاة الجدران. أبداً لم تبد له الحياة أطيب مما كانت إذ ذاك، إن «إيما» لن تلبث أن تأتي، فاتنة، منفعلة، تتلفت خلفها إلى الابصار التي تتبعها، وقد أرتدت ثوبها ذا الزوائد الهفهافة، ونظارتها الذهبية، وحذاءيها الرفيعين، وكل مستلزمات الأناقة التي لم يستمتع بها أبداً من قبل، تحف بها ما للعفة المستسلمة من غواية فاتنة، والكنيسة كمخدع هائل يحيطها! والأقبية تنحني وكأنها تنصت -في الظلام- إلى اعتراف حبها، والنوافذ تسمح للضوء بالانسحاب لينير وجهها، والبخور يتصاعد، وهي تبدو كالملاك وسط الدخان الذكي الشذى!

ولكنها لم تأت. فجلس على مقعد، ووقعت عيناه على نافذة ذات زجاج أزرق يمثل ملاحين يحملون سلالا. وأطال تأملها في تمعن، وأخذ يحصي زعانف الأسماك، وعدد العرى في الصداري، بينما كانت أفكاره تحلق نحو «إيما». وكان الحارس -الذي وقف جانباً- حانقاً في نفسه على هذا الشخص الذي أباح لنفسه أن يتأمل محاسن الكاتدرائية بنفسه. كان يبدو له أنه يفرض نفسه ظلما، وأنه يسلبه بعض ما هو حق له، بل ينتهك حرمة مكان العبادة! على أن «ليون» ما لبث أن انتبه إلى حفيف حرير على البلاط، وحافة قبعة، ومعطف. كانت هي! ونهض جارياً ليلقاها، فإذا هي شاحبة، تسير بسرعة وقالت وهي تبسط له ورقة: «اقرأ. أواه، لا!» وسحبت يدها في عجلة، لتلج مصلى العذراء، حيث ركعت وشرعت تصلي. وأحس الشاب بانفعال لهذه النزوة المتدينة، وعلى أنه لم يلبث أن شعر بشيء من الفتنة وهو يراها تغرق في العبادة -خلال موعد غرامي- كمركيزة اندلسية! ثم بدا يضجر، إذ بدا له أنها لن تفرغ!

✦✦✦

أخذت «إيما» تصلي - أو بالأحرى تحاول جاهدة أن تصلي- أملاً في أن تهبط عليها من السماء عزيمة مفاجئة! ولكي تستمد العون الإلهي، ملأت عينيها حتى أغرقتهما ببهاء المحراب، وملأت صدرها بشذى الزهور المتفتحة التي كانت في الأواني الكبيرة، وأصغت إلى سكون الكنيسة الذي جعل لغط قلبها يبدو أكثر جلاء لأذنيها، ثم نهضت. فيما كانا يهمان بالانصراف أقبل الحارس وقال في عجلة: «إن السيدة ليست من هنا ولا شك. هل تحبين يا سيدتي أن تتفرجي على تحف الكنيسة؟» فقال الكاتب: «آه، لا!» قالت وهي تتشبث بعفتها المتداعية، وبالعذراء، والتماثيل، والأضرحة، وأي شيء: «ولم لا؟» ولكي يتفرجا -حسب الأصول المرعية- قادهما الحارس إلى المدخل القريب من الميدان، حيث أشار بعصاه إلى دائرة من الأحجار السوداء لا تعلوها كتابة ولا نقوش، وقال في جلال: «هذا محيط جرس «اميرواز» البديع، إنه يزن أربعين ألف رطل، ولم يكن له صنو في أوربا

كلها، ولقد مات الرجل الذي نحته فرحا...».

وهنا قال ليون: «لننصرف» ولكن الحارس عاد بهما إلى مقصورة العذراء، وبسط ذراعيه بحركة تمثيلية فاخرة، وهو أكثر زهوا من أحد أعيان الريف إذ يعرض ثيرانه، وقال: «هذا الحجر يغطي «بيير دوبريزيه»، سيد (فارن) و(بريساك)، والمارشال الأكبر لبواتو، وحاكم نورماندي، الذي مات في معركة (مونتليري) في يوليو سنة ١٤٦٥»... . وعض «ليون» شفته وهو ينفخ غضباً، بينما استطرد الرجل: «وإلى اليمين مباشرة حفيدة «لوي دوبريزيه» سيد (بريفال) و(مونشوفيه)، وكونت دي مولفربيه، وبارون دي موني، أمين الملك، وعضو نظام الفرسان، وحاكم نورماندي أيضاً... هذا هو السيد المكسو كله بالحديد، على جواد رفع ساقه في خطوة متخطرة... مات فى ٢٣ يوليو سنة ١٥٣١، وكان يوم أحد، كما تنبىء بهذا السطور المنقوشة... وتحته، هذا الشخص الذي يهم بالنزول إلى القبر، إنه يمثل نفس السيد... من غير الميسور أن تريا تمثالاً أكمل تبيانا للفناء من هذا». ورفعت مدام «بوفاري» نظارتها، وبقيّ «ليون» جامدا يرقبها، وقد كف عن محاولة الاتيان بأية حركة، حتى عن أن ينبس بكلمة، أو يصدر إشارة! وأحس بقنوط إزاء هذين النديين اللذين انهمكا في الثرثرة واتفقا على عدم الاكتراث به!

ومضى الدليل الأبدي في شرحه: «وبالقرب منه، هذه المرأة الراكعة التي تبكي، إنها زوجته «ديانا دى بواتييه»، كونتة (بريزيه) ودوقة (فالنتانوا)، ولدت فى ١٤٩٩ وماتت فى ١٥٦٦. وإلى اليسار، هذه التي تحمل الطفل... إنها العذراء المقدسة. والآن، فلنعرج إلى هذه الناحية. ها هي ذي قبور آل «امبرواز» الذين جمعوا بين مطرانية وأسقفية (روان)، كان هذا وزيراً في عهد لويس الثاني عشر، وقد قام بأعمال جليلة للكاتدرائية، وترك في وصيته ثلاثين ألفا من الدنانير الذهبية للفقراء. ودفعهما الدليل -دون أن يتوقف عن السير أو الكلام- إلى مقصورة مليئة بالحواجز التي أقصي بعضها، فكشف عن كتلة من الصخر لابد أنها كانت يوماً تمثالاً ردئَ النحت. ثم قال في صوت حزين: «لقد كانت تزين -حقا- قبر ريتشارد قلب الأسد، ملك انجلترا ودوق نورماندي. كان الكلفانيون[1] يا سيدي هم الذين شوهوه بهذا الشكل، وقد دفنوه -للكناية- في جوف الأرض، تحت المقعد الأسقفي لصاحب النيافة. انظرا! هذا هو الباب الذي كان الأسقف يجتازه إلى بيته، لنمر بسرعة كي نرى النوافذ الميزابية». بيد أن «ليون» أسرع يخرج بعض قطع العملة الفضية، وأمسك بذراع «إيما». ووقف الحارس مذهولاً، لا يكاد يفقه سر هذا السخاء الذي أظهره الشاب في غير موعده، إذ كانت لا تزال هناك كثيراً من الأشياء التي يتوقف الأجانب لرؤيتها. لذلك أسرع ورا ءهما صائحا: «سيدي! البرج! البرج!».. فقال ليون: «شكرا».

- ولكنك على خطأ يا سيدي! ان ارتفاعه اربعمائه وأربعون قدما، أي أقل من

(١) اتباع مذهب «كلفن» القائل أن الخلاص من الذنوب يتأتى بنعمة الله وليس بالأعمال.

ارتفاع هرم مصر الأكبر بتسعة أقدام، كله من الحديد المصبوب، و... .

وفر «ليون»، إذ خيل إليه أن هواه الذي ظل ساعتين جامداً داخل الكنيسة كأنه حجر، يوشك الآن أن يتبخر ويتبدد كالدخان في الفضاء، متسرباً خلال ذلك القمع الأبتر القائم فوق صندوق مستطيل والمتصل بمدخنة تصل إلى الفضاء، خارجة من مبنى الكاتدرائية بشكل مزر، كأنها محاولة قام بها مهندس للمدافيء مبذر مأفون! وقالت «إيما»: «إلى أين ترانا ذاهبين؟» ولكنه لم يجب، بل سار بخطى واسعة. وكانت مدام «بوفاري» قد غمست أصبعها في الماء المقدس، حين سمعا خلفهما أنفاساً لاهثة، يتخللها وقع عصا تطرق الأرض بانتظام، فالتفت «ليون».

- سيدي؟

- ماذا؟

ورأى الحارس السويسري يحمل تحت إبطه نحو عشرين كتاباً كبيراً، مجلداً احتضنها إلى بطنه ليحفظ توازنها. تلك كانت المؤلفات التي تتعلق بالكاتدرائية. فزمجر «ليون» وهو يندفع إلى خارج الكنيسة: «غبي!» وكان ثمة صبي يلعب على مقربة، فصاح به: «اذهب فاستدع عربة!» فقفز الصبي كالكرة صوب شارع (كاترفانت)، وبقيا وحدهما بضع دقائق، وجها لوجه، يسودهما شيء من الحرج. وهمست إيما: «آه! ليون! انني حقا! لا أدري. إذا كان ينبغي.»، ثم أردفت في لهجة جادة: «هذا لا يليق البتة افتدرك؟» فأجاب: «كيف ذلك؟ أنه أمر شائع في باريس!» فرضخت بعد هذه الكلمات، وكأنها حجة لا تقاوم!

✦✦✦

ولما لم تأت العربة في تلك الاثناء، خشى «ليون» أن تعود «إيما» إلى الكنيسة. ولكن العربة ما لبث أن ظهرت أخيراً. وصاح الحارس الذي خلفاه وحيداً لدى الباب: «إذن فاخرجا من الباب الشمالي حتى تريا -على الأقل- لوحات: البعث، والحساب الأخير والجنة، والملك داود، والمذنبين في نار جهنم»!!

وقال الحوذي: «إلى أين يا سيدي؟» فقال ليون وهو يدفع إيما إلى داخل العربة: «حيثما شئت». فانطلقت العربة خلال شارع (جران بونت)، واجتازت ميدان (ديزار)، و(كيه نابوليون)، و(بونت نيف)، ثم وقفت عند تمثال (بيير كورني)، فصاح صوت من الداخل: «استمر!» وعادت العربة تسير، حتى إذا بلغت ميدان (كاريفور لافاييت)، شرعت تهبط السفح، ودخلت المحطة والجوادان يركضان. وصاح الصوت ذاته: «لا، أمض في خط مستقيم!» فاندفعت العربة خلال الأبواب، وسرعان ما بلت (الكورنيش) ولاحت تخطر الهويني تحت أشجار الدردار. وجفف الحوذي العرق عن جبينه، ووضع قبعته الجلدية بين ركبتيه، ثم قاد العربة في الطريق الجانبية -المجاورة للمرج- إلى الطريق الممتدة بجانب

الماء وسارت العربة في محاذاة النهر، في الدرب الذي ترسو فيه المراكب، والمرصوف بالحصى الصلب. وظلت فترة طويلة في اتجاه (أويسل)، خلف الجزائر، ولكنها انحرفت فجأة، واندفعت عبر (كاترمير) و(سوتفيل) و(لاجراند شوسيه) وشارع (ديلبيف)، ثم وقفت مرة ثالثة أمام حديقة النباتات. فصاح الصوت في لهجة أشد حنقاً من قبل: «امض في السير!» وعادت العربة تواصل سيرها، مارة بسان سيفيه، عن طريق (كيه ديه كوراندييه)، و(كيه أوميل)، وعبرت الجسر مرة أخرى إلي ميدان (شام دومار)، ثم مضت خلف حدائق المستشفى، حيث كان الكهول -في سترات سوداء- يتمشون في الشمس، في محاذاة سياج قصير كساه اللبلاب بخضرة تامة، ثم سارت إلى (بوليفار بورفيي)، ومضت في (بوليفار كوشواز)، ثم طاقت بمونت ريبوديه كلها، واتجهت إلى تلال (ديفيل).

ثم عادت العربة من حيث أتت، وراحت تلف كيفما اتفق، دون ما وجهة معينة، فشوهدت في (سان بول)، و(اليسكور)، و(مونت جارجان)، و(الأروج مارك)، وميدان (جارياربوا)، وشارع (مالادريري)، وشارع (ديناندري)، مارة بكنائس «سان رومان»، و«سان فيفيان»، و«سان ماكلو»، و«سان نيكيز»، وأمام الجمارك، وبرج (فييى تور)، و(ترواببيب)، والمقبرة التذكارية. وكان الحوذى يلقي نظرة محسورة على الحانات من وقت لآخر، لم يكن يفقه أية رغبة طاغية في التنقل تحدو بالراكبين إلى عدم التوقف! وحاول أن ينبههما -بين الفينة والفينة- فكانت صيحات الغضب تنبعث من خلفه، ومن ثم ساط جواديه اللذين كانا يتصببان عرقاً، ولكنه لم يكترث لسيرهما، بل تركهما يتخبطان هنا وهناك، غير حافل. وقد خارت قواه المعنوية، وأوشك أن يبكي لفرط الظمأ، والتعب، والضيق.

وفي الميناء -وسط البضائع الثقيلة والبراميل- وفي الطرقات، عند المنعطفات، كان الناس يحملقون في دهشة وعجب لمثل هذا المنظر غير المألوف في الريف. عربة مسدلة الستائر، تبدو باستمرار مغلقة كما لو كانت قبراً، وتتأرجح كأنها سفينة! وحدث أن كانت العربة تسير في الخلاء، وقد انتصف النهار، وأخذت الشمس تلهب بقسوة مصباحي العربة العتيقين، فامتدت يد من خلف الستائر الصغيرة المصنوعة من الخيش الأصفر، وألقت بقصاصات من الورق تناثرت في الهواء، ثم تهاوت بعيدا كالفراشات البيضاء على حقل البرسيم الذي تفتحت زهوره الحمراء!

وفي نحو الساعة السادسة، وقفت العربة في شارع خلفي بحي (بوفوازان)، وهبطت منها امرأة تسدل على وجهها قناعاً، وسارت دون أن تلتفت.

الفصل الثاني

دهشت مدام «بوفاري» إذ لم تر عربة البريد عند وصولها إلى الفندق -وكان السائق قد انطلق في رحلته بعد أن انتظرها ثلاثاً وخمسين دقيقة- ولم يكن ثمة ما يجبرها على الرحيل، ولكنها كانت قد وعدت بأن تعود في ذلك المساء، فضلا عن أن «شارل» كان يرتقبها، فأحست في فؤادها بذلك الأسى الناعم الذي يكون بالنسبة لبعض النساء مغالبة للنفس وتكفيراً عن الفجور. وأسرعت تحزم متاعها، ودفعت حساب الفندق، ثم استقلت عربة من الساحة، واستحثت الحوذي، وراحت توسعه في كل لحظة سؤالاً عن الوقت وعدد الكيلو مترات التي قطعها. واستطاع أن يلحق بالعصفورة -عربة البريد- وهي تقترب من طليعة بيوت (كينكامبوا). وما إن انتقلت ايما إلى عربة البريد، حتى أغمضت عينيها فلم تفتحهما إلا عند سفح التل، لترى «فيليسيتيه» عن بعد، وقد وقفت تنتظر العربة أمام دار الطبيب البيطري، فأوقف «هيفير» جواديه، وتعلقت الخادم بنافذة العربة، وقالت بلهجة غامضة: «سيدتي، يجب أن تذهبي فوراً إلى السيد هوميه، فهناك أمر هام».

وكانت القرية ساكنة كعادتها. وعند تقاطع الطرق، كانت ثمة أكوام وردية ينبعث منها دخان في الهواء، إذ كان موسم صنع المربى قد حل وكان أهل (ايونفيل) جميعا يصنعون مؤونتهم منها في نفس اليوم. على أن المرء كان لا يتمالك أن يعجب بكومة أمام الصيدلية بدت أكبر مما عداها، وأفضل منها، بما لابد أن يتوفر لأي معمل من تفوق على المتاجر العادية، حتي يتضح الفارق بين حاجة المتجر العام وحاجة الفرد.

ودخلت «إيما» الصيدلية، فإذا بالمقعد الكبير مقلوب، بل وكانت صحيفة «فانال دي روان» ملقاة على الأرض، بين مدقين (هاونين) ودفعت باب الردهة، وبين الجرار البنية المليئة بالزبيب النباتي المجرد من أعناقه، وبالسكر المسحوق والسكر البلاط، وبالموازين على المنضدة، وبأواني الطهو على النار، رأت أسرة هوميه كلها، صغيرها وكبيرها، في مراول تغطى صدورهم حتي الأذقان، وفي أيديهم شوكات وملاعق، بينما كان «جوستان» يقف منكس الرأس، والصيدلي يصيح: «من قال لك أن تبحث عنه في كفر ناحوم[1]؟» فتساءلت إيما: «ماذا هناك؟ ماذا جرى؟» فأجاب الصيدلي: «ماذا هناك؟ إننا نصنع المربى، وهي تنضج على النار، ولكنها أوشكت أن تفور وتفيض، إذ زاد العصير، فأمرت باحضار اناء آخر. فاذا به -أي جوستان- يذهب، بدافع من الخمول والكسل، فيأخذ -من مسمار في معملي -مفتاح كفر ناحوم».. (فهكذا كان الصيدلي يسمى غرفة صغيرة تحت السقف مليئة بالأوعية والسلع الكيماوية. وكثيراً ما كان يقضي ساعات طويلة فيها، وحيداً،

(١) اسم قرية بفلسطين كان المسيح يتردد عليها كثيراً للتبشير برسالته واظهار معجزاته.

يلصق بطاقات، ويفرغ بعض القنينات، ثم يعيد أحكام سداداتها. ولم يكن يعتبرها مجرد مخزن، وإنما كانت في نظره محراباً قدسياً، يخرج منه فيما بعد ما يكون قد أعده بيديه من كافة أنواع الحبوب، والجرعات، والغسيل، وعصائر الأعشاب، والأدوية السائلة التي تحمل سمعته فتنشرها طولاً وعرضاً؛ ولم يقدر لمخلوق في الدنيا أن يضع في هذه الغرفة قدميه، فقد كان يعتز بها، ويكنس أرضها بنفسه. وإذا كانت الصيدلية -المفتوحة لكل قادم- هي المكان الذي يعرض فيه براعته، فإن «كفر ناحوم» كانت الملاذ الذي يخلو فيه «هوميه» إلى نفسه، حيث يستمتع بممارسة ميوله وهواياته، ومن ثم كان تهور «جوستان» يلوح له كامتهان فظيع لحرمة المكان، فراح يردد ووجهه أكثر احتقاناً من الزبيب: «أجل، من كفر ناحوم! المفتاح الذي يغلق مخزن الأحماض والقلويات الكاوية! إحضار وعاء اضافي، وعاد ذي غطاء، قد لا احتاج إلى استخدامه! إن لكل شيء أهمية في العمليات الدقيقة في فننا! ولكن، يا للشيطان! يجب أن يقيم المرء بعض الفوارق، فلا يستعمل في أغراض تعتبر منزلية، أشياء خصصت لأعمال الصيدلة! وإلا، كان الأمر أشبه باستخدام المبضع لتقطيع دجاجة، أو كقاض...».

وهنا قالت مدام هوميه: «ألا اهدأ». وتشبثت «اتالى» بسترته صائحة: «بابا! بابا!» فاستطرد قائلاً: «دعوني الآن. دعوني وحدى! لعمري! بشرفي أنه لخليق بالمرء أن ينشىء متجراً للبدالة! هكذا، اذهب! لا ترع شيئاً! كسر، واهشم، وأطلق العلق الذي يمتص الدم الفاسد، واحرق المعاجين، وخلل الخيار في القماقم، ومزق الأربطة والضمادات!».

وقالت «إيما»: «لكنك...».

- حالا! افتعرف لأي شيء عرضت نفسك؟ ألم تر شيئا في الركن، إلى اليسار، فوق الرف الثالث؟ تكلم، أجب قل شيئا!

وقال الفتى المتقع، في لعثمة: «لست.. لست أدري».

- آه! لست تدري! جميل! أما أنا فأعرف! لقد رأيت زجاجة، زجاجة زرقاء، مختومة بالشمع الأصفر، وتحتوي على مسحوق أبيض، وقد كتب عليها! «خطر!» أفتدري ماذا بها؟ زرنيخ! ثم تذهب فتلمسها وتحضر وعاء كان إلى جانبها!

فصاحت مدام هوميه وهي تهز قبضتيها إلى جانبها: زرنيخ! كان من المحتمل أن تسممنا جميعا!».

وشرع الأطفال يصرخون كما لو كانوا قد شعروا بآلام رهيبة في احشائهم. واستأنف الصيدلي الحديث: «أو تسمم مريضاً! أفتريد أن تراني في قفص الاتهام مع المجرمين في المحكمة؟ أو أن تراني اساق إلى المشنقة؟ ألا تعرف أي حذر التزمه في كل الأمور، رغم انني تعودتها تماما؟ إنني كثيراً ما أجزع إذ أفكر في مسئوليتى، وبخاصة أن الحكومة تظلمنا وتضطهدنا، والتشريع السخيف الذي يحكمنا ليس سوى سيف ديموكليس المعلق

فوق رؤوسنا!»

ولم يجد لإيما أمل في أن تسأل عما كانوا يريدون منها واستمر الصيدلي في عبارات لاهثة: «أهذا ما تقدمه جزاء كل ما أوليناك من كرم! ابهذا تكافئني على الرعاية الأبوية الصادقة التي أغدقها عليك؟ من يمدك بالغذاء، والتعليم، والثياب، وكل الوسائل التي تمكنك يوماً من أن تكون مكرماً في طبقات المجتمع؟! ولكنك يجب أن تشد المجذاف بقوة وجهد -كما يقولون- حتى تتورم يداك»! ثم أردف باللاتينية: «إن العامل الذي لا يعيش من عمله، يفعل ما يشاء». ومضى يتكلم باللاتينية حتى تعب. وما كان ليحجم عن الكلام باية لغة، لو أنه كان يعرفها، لأنه كان يمر بإحدى تلك النوبات التي تطفح فيها النفس بكل ما تحتوي عليه دون تمييز، كالمحيط الذي يلفظ -في الأنواء- كل ما فيه من الأعشاب البحرية القريبة من شاطئه، والرمال التي في أعماقه! وعاد هوميه يقول: «لقد بدأت أعاني ندماً شديداً إذ كلفتك... كان يحسن بي بالتأكيد أن أتركك للبوار في فقرك وفي القذارة التي ولدت فيها آه! إنك لن تصلح قط لغير رعي الحيوانات ذات القرون! ليس لديك استعداد للعلم! انك لا تكاد تعرف كيف تلصق بطاقة! ومع ذلك فأنت -كما ترى- تعيش معي نظيفاً كالراهب، مرتاحاً كديك يسمنه أصحابه!»

✦✦✦

لم تلبث «إيما» أن التفتت إلى مدام هوميه قائلة: «لقد استدعيت...» فقطعت عليها السيدة حديثها قائلة في لهجة حزينة: «آه! يا إلهي!... كيف ازجي إليك النبأ؟ إنه شؤم!» ولم تتم حديثها. وكان الصيدلي يصيح مهدرا: «أفرغها! نظفها! أعدها حيث كانت! اسرع!» وأمسك بـ «جوستان» من ياقة قميصه، فاوقع كتاباً من جيبه. وانحنى الفتى، ولكن «هوميه» كان أسرع منه. وما إن التقط الكتاب، حتى تأمل عنوانه بعينين جاحظتين وفم فاغر: «الحب... الزوجي!» قالها في تؤدة، متعمداً أن يفصل بين الكلمتين، ثم أردف: «آه! جميل جداً! جميل جداً! بديع جداً! وصور أيضاً! آه، هذا كثير جداً!» واقتربت مدام «هوميه»، فصاح: «لا، لا تلمسي الكتاب». وأراد الأطفال أن ينظروا إلى الصور، فصاح بلهجة آمرة: «اخرجوا من الحجرة!»، فخرجوا. وأخذ -في البداية- يسير في الغرفة رائحاً، غادياً، والكتاب مفتوح بين أصابعه، يقلب فيه بصره مشدوهاً، مستحيياً، وأنفاسه تتتابع في عناء، ثم اتجه إلى مساعده، فوقف أمامه، وعقد ذراعيه على صدره، وقال: «إذن، فقد اجتمعت فيك كل الرذائل أيها التعس الصغير! احترس! انك بالتأكيد تتردى! أفلم يخطر ببالك أن هذا الكتاب الفاضح قد يقع في أيدي أولادي، فيشعل في أذهانهم شرارة، ويلطخ طهر «اتالى»، ويفسد «نابليون»! لقد دخل مدارج الرجال، أفأنت واثق -على الأقل- من أنهما لم يقرآه؟ هل تقسم؟»

وقالت إيما: «ولكن يا سيدي... هل أردت أن تقول لي...؟»

- أجل يا سيدتي. ان حماك قد توفى!

كان السيد «بوفاري» الأب قد مات بغتة، في الليلة السابقة، من جراء سكتة قلبية. وزيادة في الحيطة، وحرصاً على مشاعر «ايما»، التمس «شارل» من هوميه أن ينهي إليها النبأ «الفظيع» في رفق وحكمة! ولقد فكر هوميه فيما يقول، ونمق القول، وصقله، ووزنه، حتى جعله تحفة من الحكمة والتدرج، ومن الحيلة والرقة، ولكن الغضب كان أكثر بلاغة وبياناً. وإذ يئست «إيما» من أن تسمع أية تفصيلات، بارحت الصيدلية. وكان السيد هوميه قد عاد يستأنف السباب والتقريع، وإن كانت سورة غضبه قد بدأت تهدأ، وأصبح يهدد في لهجة أبوية -وهو يحرك قلنسوته الاغريقية التماساً للهواء! «ليس معنى هذا انني لا أقر الكتاب البتة، فإن مؤلفه طبيب! فضلاً عن انه يحتوى على مسائل عملية ليس من الضرر أن يعرفها رجل. بل انني لاذهب إلى أن على الرجل أن يعرفها. ولكن، فيما بعد، فيما بعد! انتظر على الأقل حتى تغدو رجلاً، وتكمل مداركك!»

وعندما قرعت «إيما» باب بيتها، أقبل «شارل» -الذي كان في انتظارها- باسطاً ذراعيه أمامه، وقال والدموع تخالط صوته: «آه، يا عزيزتي!» وانحنى بلطف يقبلها، ولكن ملمس شفتيه رد ذكرى الرجل الآخر إليها، فمسحت وجهها براحتها وهي ترتجف، وأطلعها على الخطاب الذي روت فيه أمه الحادث، دون ما مبالغات عاطفية. لم تكن آسفة إلا على أن زوجها لم يحظ بالمراسم الدينية، إذ مات في الطريق -في (دودفيل)- على باب مقهى، بعد مأدبة وطنية مع الضباط القدامى. وأعادت «إيما» الخطاب إلى زوجها. وعند العشاء، تصنعت بعض الزهد للتظاهر بالأسى، ولكنها أقبلت على الطعام -حين ألح عليها أن تحاول- بينما جلس هو منصرفاً عن الأكل، لا يحير ساكنا. وكان من وقت لآخر يرفع رأسه ويرمقها بنظرة طويلة زاخرة بالحزن. وتنهد مرة قائلاً: «وددت لو انني كنت رأيته مرة أخرى!» وكانت «إيما» لائذة بالصمت، ولكنها أدركت أخيراً أن لابد لها من أن تقول شيئا، فسألته: «كم كان عمر أبيك؟»

- ثمانية وخمسين.

- آه!

وكان هذا كل ما لديهما. وما لبث أن أضاف بعد ربع ساعة: «يا لأمي المسكينة!.. ماذا سيكون من أمرها الآن؟» فصدرت من «إيما» اشارة تنم عن أنها لا تدري. وإذ رأى «شارل» وجومها، خيل إليه أنها شديدة التأثر، فحمل نفسه على الكف عن الكلام، لكي لا يذكي هذا الأسى الذي تملكها. على أنه ما لبث أن قال ليغالب أساه: «هل استمتعت بيوم أمس؟» فأجابت: «نعم». حتى إذا رفعت المائدة، لم ينهض «بوفاري»، ولا نهضت «إيما». وفيما كانت تنظر إليه، أخذ جمود المنظر يطرد من قلبها -شيئاً فشيئا- كل رثاء واشفاق. فقد لاح لها زوجها تافهاً سخيفاً، ضعيفاً، عديم الشخصية. وقصاري القول: كان فقيراً، مسكيناً، من كل النواحي! فكيف تتخلص منه؟ ويا لها من ليلة لا تنتهي! وتملكها

شيء مخدر كدخان الأفيون! وما لبثا أن سمعا في الردهة ضجة ناشئة عن وقع ساق خشبية علي ألواح الأرضية، وإذا «هيبولبت» قد أقبل حاملاً متاع السيدة. ولكي يضعه على الأرض، لف في عناء، راسما بساقه الخشبية ربع دائرة. فقالت «ايما» لنفسها وهي تتأمل هذا الشيطان المسكين الذي كان شعره الأحمر الكث يقطر عرقاً: «إنه لم يعد يذكر شيئا!» وأخذ «بوفاري» يبحث في قاع كيس نقوده -عن قطعة من العملة النحاسية، دون أن يبدو عليه أنه يفطن إلى ما هناك من ذلة ومهانة له، في مجرد وجود هذا الرجل الذي كان يقف وكأنه تأنيب مجسم للخطأ الذي كان وليد عجز الطبيب، والذي لا سبيل إلى اصلاحه!

وأخيراً، قال شارل لزوجته: «مرحى! لقد جئت بباقة جميلة!» فقالت «إيما» في غير اكتراث: «أجل، اشتريتها قبيل حضوري، من متسول». فتناول «شارل» الزهور لينعش بها عينيه المحتقنتين من أثر الدموع، وشمها في رفق. فأسرعت «ايما» تأخذها من يده وتضعها فى كوب ماء!

✦✦✦

وصلت مدام «بوفاري» الأم في اليوم التالي، فبكت مع ابنها كثيراً، بينما اختفت «ايما» بحجة اعطاء تعليمات للخادم. وفي اليوم الذي أعقبه، تحدثوا عن الحداد، ثم ذهبوا فجلسوا تحت الخميلة، بجوار النهر، وقد حملت المرأتان صندوقي اشغالهما. وأخذ «شارل» يفكر في أبيه، فأدهشه أن أحس بحب جم لذلك الرجل الذي كان يظن -حتى ذلك الحين- أنه لا يحفل به كثيراً. كذلك راحت مدام «بوفاري» الأم تفكر في زوجها، وبدت لها أسوأ أيام الماضي أياماً لا تعوض، نسيت كل شيء في غمرة حسرتها الغريزية على مثل هذه العشرة الطويلة! وكانت تنحدر على أنفها -من آن لآخر وهي تخيط- دمعة كبيرة تقف عند أسفله لحظة معلقة. أما «إيما» فكانت تفكر في أنه لم تمض بعد ثمان وأربعون ساعة منذ كانت مع «ليون» بعيدين عن الدنيا، في نشوة من الغبطة، وقد ود كل منهما لو كان له مزيد من الأعين ليتملى من الآخر. وأخذت تحاول تذكر أبسط تفصيلات اليوم الأسبق، ولكن وجود زوجها وحماتها كان يزعجها، فتمنت أن لا تسمع شيئا، وأن لا ترى شيئا، حتى لا يضطرب تفكيرها في حبيبها. على أن هذا التفكير كان يتبدد في أحساسيها بما هو خارج كيانها، رغم كل ما بذلت!

وكانت تفكك بطانة ثوب، فتناثرت قطع القماش حولها. أمام مدام «بوفاري» الأم، فكانت تحرك مقصها في نشاط دون أن ترفع رأسها، في حين كان «شارل» ينتعل الخفين اللذين يستعملهما في أوقات راحته، ويرتدي «ردنجوته» الأسمر القديم الذي كان يستخدمه كثوب منزلي، وقد جلس مغيباً يديه في جيبيه، دون أن يتكلم. وعلى مقربة منهم، كانت «بيرت» في مرولة بيضاء صغيرة، تعبث بمجرفتها في رمال دروب الحديقة. وفجأة، رأوا مسيو «لوريه» -تاجر الأقمشة- يقبل خلال الباب الخارجي. جاء يعرض

خدماته «في الظروف المحزنة». فأجابت «إيما» بأنها تظن أن بوسعها أن تستغني عن الجديد، بيد أن التاجر لم يسلم بالهزيمة، بل قال لشارل: «معذرة، أحب أن أتكلم معك على حدة!» ثم قال بصوت خفيض: «الأمر يتعلق بتلك المسألة... التى تعرفها»، فاحتقن وجه «شارل» حتي اذنيه، وقال: «آه، أجل! بالتأكيد!» والتفت في ارتباكه إلى زوجته وقال: «هلا توليت أنت الأمر يا عزيزتى؟» ولاح أنها أدركت، إذ نهضت. فقال شارل لأمه! إنها ليست مسألة ذات بال. بعض مطالب البيت البسيطة». فلم يكن الطبيب راغباً البتة في أن تعرف أمه شيئاً عن قصة السند، خشية لومها!

وما ان أصبح السيد «لورديه» على انفراد مع «ايما» حتى شرع يهنئها في عبارات واضحة بالميراث، ثم تكلم عن مسائل غير ذات بال، كعرائس النباتات، والمحصول، وعن صحته التي كانت دوماً بين بين، في صعود وهبوط. وكان مضطراً إلى أن يجد ويعمل جاهداً، وإن لم يملك أن يكسب ما يدر عليه «غموسا» لخبزه، رغم ما يقوله كل الناس. وتركته «إيما» يتكلم، فما أكثر ما احتملت من مضايقات في هذين اليومين الأخيرين! ومضى يقول: «وأنت، هل أصبحت بخير مرة أخرى؟ لعمرى! لقد رأيت زوجك في حال محزنة. انه شاب طيب، وإن كان بيننا سوء تفاهم بسيط». فسألته عن سوء التفاهم، إذ لم يكن شارل قد انبأها بالنزاع الذي جرى بشأن السلع التي أحضرها لها التاجر، فصاح «لوريه»: «عجباً، انك لتعرفينه تماما! كان من أجل رغباتك الكمالية. حقائب السفر!»

وكان قد أرخى قبعته على عينيه، وعقد يديه خلف ظهره، وراح يبتسم ويصفر وهو يتفرس في وجهها بطريقة لا تطاق. اتراه حدس شيئا؟.. وتاهت «إيما» في كل أنواع الهواجس. غير أنه ما لبث أن عاد يقول: «على اننا سوينا الأمر. وقد جئت أعرض عليه تسوية جديدة، تلك هي تجديد السند الذي وقعه «بوفارى»، ولا ريب أن الطبيب سيسر لهذا، إذ ليس عليه أن يزعج نفسه، لا سيما في ظروفه الحاضرة التي تشغله بطائفة من الهموم. أو أنه ليحسن صنعا لو عهد بهذه المسألة إلى شخص آخر -إليك أنت، مثلا!- وهو أمر سهل التدبير إذا أعطاك توكيلاً رسمياً، وإذ ذاك نستطيع -أنت وأنا- أن نبرم معا صفقات صغيرة»! ولم تفقه مرماه. ولاذ التاجر بالصمت، ثم تحول إلى تجارته، فقال أن لابد للسيدة من أن تحتاج إلى شيء، وأنه سيرسل إليها قماشاً أسود، يكفي اثنا عشر متراً منه لعمل ثوب، وأردف قائلاً: «هذا يصلح للبيت، ولكنك في حاجة إلى ثوب للخروج، وقد لاحظت هذا لأول وهلة حين قدمت. فانني أوتيت ما للأمريكيين من سرعة ملاحظة!»

✦✦✦

ولم يرسل القماش، وإنما احضره بنفسه. ثم جاء مرة أخرى ليقيسه، وأخذ يتردد على المنزل لعلل أخرى، وهو يحاول دائماً أن يتلطف، وأن يبدو ذا نفع -عارضاً خدماته في الوقت المناسب، كما كان يمكن أن يصفه هوميه- وكان لا يفتأ يشير في حديثه مع «إيما»

إلى «التوكيل الرسمي». على أنه لم يذكر السند قط، ولا هي فكرت فيه. ومن المؤكد أن شارل حدثها عنه في بداية نقاهتها، ولكن كثيراً من المشاعر والانفعالات تناوبت رأسها، فلم تعد تتذكره، فضلاً عن أنها حرصت على أن لا تتعرض لأية مسائل مالية، مما أدهش الأم «بوفاري»، وحملها على أن تعزوه إلى التطور الذي طرأ على مشاعرها الدينية خلال مرضها! ولكن، ما أن كانت الأم تغيب، حتى كانت «إيما» تثير دهشة بوفاري بادراكها العملي. فمن الضروري الحصول على بعض بيانات، وتحرى «الرهنيات»، وتبين ما إذا كانت ثمة فرصة لعمل تصفية أو «بيع بالمزاد العلني». وكانت تذكر -عرضا- بعض المصطلحات القانونية، وتنطلق بالكلمات الكبيرة عن الطلب والحوالة، والمستقبل، وتدبر العواقب. وتعمد دائما إلى المبالغة في وصف الصعاب التي تعترض تسوية شئون أبيه. حتى انتهت ذات يوم إلى أن أطلعته على مسودة توكيل رسمي ينيبها عنه في أن «تتولى، وتتصرف في أعماله، بما في ذلك تدبير القروض بأنواعها، وتوقيع وتحويل السندات بأنواعها، ودفع جميع المبالغ، الخ». وهكذا، كانت قد فهمت دروس «لوريه»!

وسألها «شارل» -في سذاجة- عن مصدر تلك الورقة، فقالت: «السيد جيومان». ثم أردف بغاية الهدوء: «إنني لا أثق فيه كثيراً، فإن لموثقي العقود سمعة سيئة. وقد يحسن بنا أن نستشير...».

«ولكنا لا نعرف احدا».

فأجاب «شارل» مفكراً: «اللهم إلا... ليون».. على انه كان من العسير مناقشة الأمور بالمراسلة، ومن ثم تطوعت لأن تسافر، فشكرها معتذراً، ولكنها أصرت. وتباريا في التطوع للأمر. ثم صاحت في غضب مصطنع: «لا، أرجوك. سأذهب أنا»، فقال وهو يقبل جبهتها: ما أطيبك!»

وفي اليوم التالي، استقلت «العصفورة» ذاهبة إلى (روان) لتستشير السيد «ليون»، ومكثت هناك ثلاثة أيام!

الفصل الثالث

كانت ثلاثة أيام كاملة، ممتعة، رائعة. شهر عسل حقيقي! كانا في فندق (بولوني)، عند الميناء وهناك، عاشا بين الستائر المسدلة، والأبواب المغلقة، والزهور على الأرض، والمشروبات المثلجة تحمل إليهما كل صباح. وفي المساء، كانا يستقلان قارباً غير مكشوف، ويذهبان للعشاء في إحدى الجزر. تلك كانت الساعة التي يسمع فيها -بجانب أرصفة الميناء- صوت المطارق الخشبية وهي تدق جوانب المراكب، ودخان القار يتصاعد بين الأشجار، وعلى صفحة الماء تسبح بقع كبيرة شحمية، وتتموج تحت أرجوان الشمس، كأنها صفائح من البرونز الفلورنسي. وكانا يمضيان بقاربهما وسط المراكب الراسية، التي كانت أسلاكها الطويلة الممتدة بانحراف، تحتك بعض الشيء بأسفل القارب، ويأخذ عجيج المدينة في الخفوت رويداً، فتتباعد قرقعة العربات، وهدير الأصوات، وعواء الكلاب الرابضة على أسطح السفن. وكانت «إيما» تخلع قبعتها، ثم يهبطان إلى جزيرتهما، فيجلسان في القاعة ذات السقف المنخفض، في إحدى الحانات التي اسدلت على أبوابها شباك سوداء ويأكلان السمك المقلو، و«الكريمة»، والكريز، ثم يستلقيان على الأعشاب، ويتبادلان القبلات وراء أشجار الحور، ويتمنيان لو أنهما عاشا كطائرين في هذه البقعة الصغيرة التي خالاها -في نشوتهما- أفخم بقاع الأرض! وما كانت هذه أول مرة يريان فيها أشجاراً، وسماء زرقاء، ومروجاً، أو يسمعان فيها خرير الماء، وحفيف الريح خلال أوراق الشجر، ولكنهما لم يعجبا بكل هذا قبل الآن، وكانما لم يكن للطبيعة وجود من قبل، أو كأنها لم تحظ بالجمال إلا منذ استجابا لشهواتهما!

ويعودان في الليل، ينساب بهما القارب ماراً بشواطيء الجزر، وقد جلسا معا في قاعة، منزويين في الظلال، صامتين، والمجدافان العريضان يرتطمان بالحلقتين الحديديتين -اللتين ثبتتا إليهما- فيبدو وقعهما في السكون كدقات مؤذنة بمرور الزمن، تصدر عن جهاز للتوقيت. بينما تكف الدفة -في المؤخرة- عن حفيفها الرقيق في الماء. وحدث أن بزغ القمر مرة، فلم يفتهما أن يصفاه بعبارات رقيقة، وأن يعلقا على الكوكب الحزين المفعم بالشاعرية. بل ان «إيما» شرعت تغني: «ذات ليلة -افتذكر؟ كنا نمخر عباب الماء- الخ». وضاع صوتها الرخيم الواهن مع الأمواج، وحملت الريح الصوت المرتعش الذي خاله «ليون» رفيف جناحين حوله! وكانت تجلس أمامه، متكئة على جدار القارب الذي كان ضوء القمر ينساب خلال نافذته، وثوبها الأسود الذي انتشر حولها كالمروحة. يظهرها أرشق عوداً، وأهيف قواماً، وقد ارتفع رأسها، وانعقدت يداها، وتطلعت عيناها إلى السماء. وكانت ظلال الصفصاف -على شواطيء الجزر التي يمران بها- تغمرها تماماً في بعض الأحيان، ثم لا تلبث أن تظهر في ضوء القمر كالطيف!

وعثر ليون -وهو جالس إلى جوارها في قاع القارب- على شريط من الحرير القرمزي تحت يده، فتأمله النوتي، ثم قال: «لعله من مخلفات الجماعة التي كنت أقلها في اليوم السابق. ثلة من المرحين، سادة وسيدات، ومعهم فطائر وشمبانيا وأبواق الصيد، وكل ما يخطر بالبال! وكان بينهم -بوجه خاص- رجل أنيق، ذو شاربين صغيرين، بالغ الظرف! وكانوا يقولون له: هيا، أرو لنا شيئا يا أدولف، أو لعله رودولف، على ما أظن»! وارتجفت «إيما» فاقترب منها «ليون» قائلاً: «هل تشكين من شيء؟» فقالت: «لا، لا شيء! أنها رطوبة الليل ولابد!» وأضاف النوتي الكهل بصوت خافت، ظناً منه أنه يتلطف إلى الشاب الغريب: «ولم تك تنقصه الفتنة التي تدير رؤوس النساء!» ثم بصق في راحتيه، واكب على مجدافيه.

ومع ذلك، كان لابد من أن يفترقا، وكان الوداع أليما. واتفقا على أن يرسل خطاباته بعنوان الأم «روليه»، فأوصته بأن يحرص على أن يضع كل الرسالة في مظروف داخل المظروف الخارجي، فأطرى -في اعجاب شديد- هذا الحرص الغرامي! وقالت مع قبلتها الأخيرة: «إذن، فأنت تؤكد لي أن كل شيء على ما يرام؟» فأجاب: «أجل بالتأكيد!» وراح يسائل نفسه فيما بعد، وهو يعود وحده خلال الطرقات: «ولكن، لماذا هي جد ملهوفة على التوكيل الرسمي؟»

الفصل الرابع

لم يلبث «ليون» أن أبدى ترفعاً إزاء زملائه، فأخذ يتحاشى صحبتهم، وأهمل عمله اهمالاً تاماً. وكان ينتظر خطاباتها، فيقرؤها مراراً، ثم يكتب إليها، ويروح يتمثلها بكل ما لشهوته وذكرياته من قوة. وأخذ الشوق إلى رؤيتها يزداد بدلاً من أن يفتر لطول الفراق، حتى انتهى به الأمر -في صباح يوم سبت- إلى الفرار من عمله، ليزورها! وما إن أبصر -من أعلى التل- برج الكنيسة في الوادي، والراية الحديدية البيضاء الصغيرة التي تعلوه -وهي تتحرك مع الريح- حتى شعر بتلك الغبطة الممتزجة بالغرور المزهو، والحنو الأناني، تلك الأحاسيس التي تستشعرها الملايين من الناس حين يزورون قراهم! وراح يحوم حول بيت «ايما»، وكان ثمة ضوء ينبعث من المطبخ. وأخذ يرتقب ظلها وراء الستائر، ولكن شيئا لم يظهر!

وأرسلت الأم «لوفرانسوا» فيضاً من صيحات العجب، إذ خيل إليها أنه «كبر، ونحل عوده»، بينما ألفته «ارتميز» على النقيض «ازداد سمنة وسمرة»! وتناول عشاءه في القاعة الصغيرة، كعهده في الماضي، ولكنه كان وحيداً، إذ لم يكن محصل الضرائب هناك. فقد سئم «بينيه»، انتظار عودة «العصفورة» في كل مساء، فقرر أن يقدم موعد عشائه ساعة، وأصبح يتناوله في الساعة الخامسة بانتظام، ومع ذلك فلم يكف عن القول بأن «ساعة الفندق العتيقة متأخرة»!

على أن «ليون» لم يلبث أن حزم أمره، فطرق باب الطبيب، وكانت السيدة في حجرتها، أما السيد، فقد ابدى اغتباطا لرؤيته. وفي ذلك المساء، رآها «ليون» وحدها -في ساعة جد متأخرة- في الدرب الممتد وراء الحديقة، عين الدرب الذي كانت تقابل فيه «الآخر»! وكانت الليلة عاصفة، فراحا يتناجيان تحت مظلة، على وميض البرق. وكان الفراق لا يطاق، فقالت إيما: «إن الموت أهون!» وتمرغت في أحضانه باكية، وهي تقول: «وداعاً! وداعا! متى أراك ثانية؟» ونكصا على أعقابهما ليتعانقا مرة أخرى. وإذ ذاك، عاهدته على أن تدبر عما قريب -بأية وسيلة كانت- فرصة يلتقيان فيها بانتظام -وفي حرية- مرة في كل اسبوع. على الأقل! وما ارتابت «ايما» قط في قدرتها على ذلك، فضلاً عن انها كانت مفعمة بالأمل، إذ كانت توشك أن تحصل على بعض المال، وفي ارتقاب وصوله، ابتاعت لمخدعها زوجاً من الستائر الصفراء ذات الخطوط العريضة، أكد السيد «لوريه» أنها حصلت عليهما بأقل من ثمنهما. وكانت تحلم بسجادة، فقال «لوريه» إنه ليس بالحلم العسير، وانها لا تطمع فى «أن تشرب البحر»، وتولى احضار سجادة لها. ومن ثم لم تعد تستغنى عن خدماته. وكانت ترسل في استدعائه عشرين مرة في اليوم، فيترك أعماله دون تذمر ليلبي دعوتها. كذلك لم يعد الناس يدركون سر ذهاب الام «روليه» لتناول

الفطور عندها كل يوم، ولا سر اختلائها بها في زياراتها.

✦✦✦

وفي تلك الفترة -أي حوالي بداية الشتاء- تملكها شغف كبير بالموسيقى. وفي احدى الليالي، جلس «شارل» يصغي إليها، فاذا بها تعيد عزف القطعة ذاتها أربع مرات متواليات، وهي غير راضية، مع أنه لم يلاحظ في عزفها أي اختلاف، فصاح: «مرحى! بديع جداً! انك مخطئة في ظنك! واصلي!»

- آه.. لا.. هذا نشاز.. لقد صدأت أصابعي!

ورجاها في اليوم التالي أن تعزف له ثانية احدى المقطوعات، فقالت: «لا بأس إرضاء لك!». واعترف «شارل» بأنها خرجت عن اللحن قليلا، وراحت تخطيء في توقيع الأنغام، وتتخبط، ثم توقفت دون أن تتم اللحن، وهتفت: «آه! لا فائدة! خليق بي أن اتلقى دروساً، ولكن...» وعضت شفتها مستطردة: «ولكن عشرين فرنكا للدرس، مبلغ باهظ!» فقال «شارل» متضاحكاً في غباء: «أجل، في الواقع... بعض الشيء، إنما يلوح لي أن في وسع المرء أن يحصل على الدروس بثمن أقل، إذ هناك فنانون مغمورون، كثيراً ما يكونون أفضل من المشهورين».

قالت ايما: «أبحث عنهم!»

وعندما عاد إلى البيت في اليوم التالي، رمقها بنظرة خبيثة، وما لبث أن عجز عن كتمان ما لديه، فقال: «كم أنت عنيدة في بعض الأحيان! لقد كنت في (بارفوشير) اليوم.. حسنا! لقد انبأتني مدام «ليبجار» أن بناتها الثلاث اللاتي يدرسن في معهد الرحمة -«لاميزيريكورد»- يتلقين دروساً بمعدل خمسين سو (أي فرنكين ونصف) للحصة، وعلى يدي أستاذة مشهورة كذلك!» فهزت كتفيها، ولم تعد تفتح معزفها. ولكنها كانت كلما مرت به -و«بوفاري» موجود- زفرت قائلة: «آه، يا معزفي المسكين!» وإذا زارها أحد، لم تكن تقصر في إشعاره بأنها هجرت الموسيقى ولم تعد قادرة على العودة إليها، لأسباب قاهرة. فكان الزائر يقول: «يا للخسارة! كيف ذلك وهي التي أوتيت هذه الموهبة البديعة!؟» بل كان الزائرون يتحدثون إلى «بوفاري»، ويخجلونه، لاسيما الصيدلي الذي كان يقول: «انك على خطأ، فما ينبغي للمرء قط أن يترك المواهب الطبيعية مهملة. ثم تذكر، يا صديقي الحميم، إنك اذ تحمل زوجتك على الدراسة، إنما تقتصد نفقات التعليم الموسيقي لطفلتك فيما بعد! فأنا اعتقد أن على الأمهات أن يعلمن أطفالهن بأنفسهن! هذا رأي «روسو»، ولعله لا يزال رأياً مستحدثاً، ولكنني متأكد من انه لن يلبث أن ينتصر في النهاية، كما انتصر الرأي الخاص بلبن الأم، وبتطعيم الأطفال!».

وهكذا عاد شارل مرة أخرى إلى موضوع «البيانو»، فقالت «إيما» في جفاء: إن من

المستحسن بيعه. وبدا لبوفاري أن التفريط في هذا المعزف -الذي طالما أرضى كبرياءها- ليس سوى قتل لجزء من كيانها دون مراء، ومن ثم قال: «إذا كنت بحاجة إلى درس -من وقت لآخر- فما أظن هذا يبهظنا كثيرا»، فأجابت: «ولكن الدروس لا تجدي إلا إذا تتابعت في مثابرة».

وبهذه الطريقة، استطاعت أن تحصل على اذن من زوجها بأن تذهب إلى (روان) مرة كل اسبوع، حيث كانت تلتقي بعشيقها. وما انقضى شهر، حتى بدا أنها أحرزت تقدما كبيراً في العزف!!

الفصل الخامس

كان اليوم الذي خصص للدراسة هو يوم الخميس من كل أسبوع. فكانت تنهض من نومها وترتدى ثيابها في هدوء، حتى لا توقظ «شارل» الذي كان ولابد سيدهش، لأنها تتأهب للرحيل في وقت جد مبكرا! وكانت بعد ذلك تروح وتجيء، وتذهب إلى النوافذ فتطل على الميدان، والفجر الوليد يحبو بين أعمدة السوق، وبيت الصيدلي، حيث تكون المصاريع مغلقة. وعلى ضوء الفجر الشاحب، تبدو الحروف الكبيرة التي كتبت بها لافتة الصيدلي، فإذا ما أشارت الساعة إلى الربع بعد السابعة، قصدت إلى فندق «الأسد الذهبي»، فتفتح لها «أرتميز» بابه وهي تتثاءب، ثم تحرك لها الفحم القابع تحت رماد المدفأة. وتبقى «إيما» في المطبخ وحيدة، تخرج من آن لآخر، و«هيفير» يسرج جواديه في تراخ، مصغياً -بجانب ذلك- إلى الأم «لوفرنسوا» التي تدفع رأسها بقلنسوة النوم القطنية خلال كوة، وتكلفه بالمهام، وترهقه بايضاحات كانت كفيلة بأن تثير غيظ أي إنسان آخر. وتظل «إيما» تدق رصيف الفناء بنعلي حذاءيها وأخيرا، يرتدي الحوذي معطفه -بعد أن يكون قد تناول حساءه- ويشعل غليونه، ويقبض على سوطه، ثم يستقر على مقعده في «العصفورة»، فتبدأ هذه رحلتها في خطى بطيئة، متوقفة هنا وهناك -خلال الميل الأول- لتلتقط المسافرين الذين يكونون في انتظارها وقوفاً على حافة الطريق، أمام أبواب افنية دورهم. وكان الذين حجزوا لأنفسهم مقاعد في الليلة السابقة، يتركون العربة تنتظرهم، بل كان منهم من ينتظرها وهو في سريره، داخل داره. فكان «هفير» ينادي، ويصيح، ويصخب، ثم يهبط عن مقعده، ويطرق الأبواب في عنف، والريح تصفر خلال شقوق نوافذ العربة.

✦✦✦

وإذ تمتليء المقاعد الأربعة، تنطلق العربة، وصنوف أشجار التفاح تتتابع، والطريق بين خطى الخنادق المليئة بالماء الأصفر- لري هذه الأشجار- تمتد مائلة إلى الضيق باطراد كلما قاربت الأفق. وكانت «إيما» قد عرفت هذه الطريق من أولها إلى نهايتها، فكانت تعلم أن ثمة علامة من علامات الطريق تقوم بعد منطقة من المراعي، تتلوها شجرة دردار، ثم أحد الاهراء (شونة)، وكوخ أحد الفلاحين العاملين في الحقول. بل إنها كانت أحياناً تغمض عينيها أملاً في المفاجآت. ولكنها كانت لا تخفق أبداً في التكهن بما يطوى من مسافات.

وأخيرا، تبدأ البيوت المبنية بالطوب في التتابع، وتزداد تقارباً، ويسمع للعجلات صوت خاص -إذ تدلف إلى الطريق المرصوفة- ثم تنساب «العصفورة» بين حدائق يري

المرء خلال فرجاتها تماثيل، وإحدى عرائس الكروم، وأشجار «الشوحط» المقلمة، وأرجوحة. ثم تظهر المدينة فجأة، متدرجة في الانحدار كما لو كانت مدرجاً في أحد الملاعب، وقد غرقت في أحضان الضباب، وتنبسط بعد الجسور، متسعة في فوضى. ثم يمتد الريف بعد ذلك، في استرسال رتيب، حتى يمس -على البعد- الخط المانع الذي تلتقي عنده السماء الباهتة بالأرض. وكانت المنطقة تبدو من عل جامدة، كلوحة مرسومة، وقد تجمعت السفن الراسية في أحد أركانها، وتلوي النهر حول سفوح التلال الخضراء، واستلقت الجزر في أوضاع منحرفة، وسط الماء، كأنها أسماك ضخمة، ساكنة، سوداء، ومداخن المصانع تنفث سحباً بنية هائلة من الدخان، تنتشر في الفضاء، وهدير المسابك يسمع مختلطاً بالرنين الجلي المنبعث من أجراس الكنائس القائمة وسط الضباب، والأشجار العارية عن الأوراق في الطرقات، تبدو -على بعد- متجمعة كأحراش بنفسجية وسط البيوت، والسقوف اللامعة بماء المطر تعكس بريقاً غير متعادل، تبعاً لارتفاع الأحياء التي تقوم فيها. وأحيانا، تهب نسمة من ريح، فتدفع السحب نحو تلال (سانت كاترين)، كأنها موجات هوائية تتكسر في صمت على صخرة شاهقة.

وكان يخيل لإيما أن لوناً من الزهو يواتيها من هذه الكتلة من الوجود، فينتفخ فؤادها، وكأن المائة والعشرين ألف قلب -التي تخفق في المدينة- قد نفثت في هذا الفؤادما تعمر به من عواطف مشبوهة! وينمو حبها ازاء هذا الفضاء الشاسع، ويزخر قلبها بصخب ازاء الطنين المبهم الذي يترامى إليها من البلدة، فتروح تسكب بدورها ما يفعم به قلبها، وتفيض منه على الميدان، والطرقات، والشوارع، وتمتد أمامها هذه المدينة العريقة -من مدى نورماندى- كما لو كانت عاصمة ضخمة، أو كأنها «بابل» توشك أن تدخلها! وتميل على نافذة، معتمدة على كلتا يديها، لتعب من النسيم، وتأخذ الجياد الثلاثة في الركض على الأرض المرصوفة بالأحجار والتي يكسوها الوحل، والعربة ترتج، و«هيفير» يحيي عن بعد العربات التي تجرى في الطريق، بينما ينحدر الأهالي الذين قضوا ليلتهم في غابة (جيوم)، على السفح في هدوء، مستقلين عربات أسراتهم.

✦✦✦

وتقف العربة عند السياج، فتخلع «إيما» الوقاءين اللذين يحيطان بحذاءيها، وترتدي قفازيها، وتسوي من شالها، ولا تلبث أن تغادر «العصفورة» فإذا المدينة تنفض عنها السبات، وعمال المتاجر ينظفون -في قلنسواتهم- واجهات الحوانيت، وبعض النسوة قد حملن سلالاً اسندنها إلي اردافهن، ورحن ينادين بأصوات جهورية عند ناصيات الشوارع في فترات. وتسير «إيما» لصق الجدران، وقد نكست عينيها، وراحت تبتسم في غبطة تحت قناعها الأسود. ولم تكن تسلك أقرب الطرق -في العادة- خشية أن يراها أحد، بل كانت تضرب في الحواري المعتمة، حتى تبلغ نهاية شارع (ناسيونال) -على مقربة من النافورة-

وهي تتصبب عرقا. كان ذلك حي المسارح، والحانات، والغانيات، وكم من مرة كانت تمر بها عربة بداخلها منظر منكرا بينما ينهمك خدم المشارب -في مراولهم- في نثر الرمل على البلاط، بين الشجيرات الخضراء، والجو يعبق بروائح الكحول، والسيجار، والمحار.

وتنحرف إلى أحد الشوارع، ثم تعرفه بشعره المجعد المنساب من تحته قبعته. ويسير «ليون» على الرصيف، وهي في أثره، حتى الفندق، فيصعد، ويفتح الباب، ويدخل ويا له من عناق! ثم تنساب الكلمات دافقة بعد القبلات، ويحدث كل منهما الآخر بمتاعب الاسبوع، وهواجس القلب، واللهفة الى الخطابات. على أن كل شيء كان لا يلبث أن يغدو منسياً، ويروح كل منهما يحملق في وجه الآخر، وينطلق في ضحكات داعرة، ويناديه بأرق الأسماء!

وكان السرير واسعاً، من خشب المهوجاني، على شكل قارب، والستائر من حرير الشرق الأحمر، تنسدل من السقف، وتنتفخ كثيراً وهي تقترب من رأس الفراش الشبيه بالناقوس، وما كان في الدنيا ما هو أجمل من شعر «إيما» البنى وبشرتها البيضاء، وسط هذا اللون القرمزي -الذي تضفيه الستائر- عندما تثني ذراعيها العاريتين في حركة مستحيية لتخفي وجهها في راحتيها، وكأنما كانت الحجرة الدافئة - بستائرها السميكة، وزخرفها البهيج، وضوئها الهادىء- قد خلقت للخلوات المشبوبة! وكانت القصبات التى علقت إليها الستائر، والتي كانت تنتهي من الطرفين بسهمين، والحلقات النحاسية، والكرتان الكبيرتان المعلقتان فوق المدفأة، تبرق فجأة حين تتسلل الشمس إلى الغرفة. وبين الشمعدانين القائمين على رف المدفأة، كانت ثمة محارتان كبيرتان من ذلك النوع الذي يخيل للمرء، إذا ما ألصقه بأذنه، أنه يسمع خرير البحر! ما كان أقوى حبهما لهذه الحجرة الغالية، المفعمة بكل هذه البهجة، رغم روائها الخابي! كانا دائماً يجدان قطع الاثاث في اماكنها المعهودة، بل كانا أحيانا يجدان دبابيس الشعر التي تكون قد نسيتها في يوم الخميس السابق، عند قاعدة الساعة. وكانا يتناولان الغداء إلى جوار المدفأة، على منضدة صغيرة مستديرة، مرصعة بخشب الورد. وكانت «إيما» تقطع اللحم، وتنقل قطعاً إلى طبقه، بكل ألوان الحركات الخليعة، وترسل ضحكات رنانة منغومة إذا سال زبد الشمبانيا من الكوب إلى الخواتم التي تحيط بأصابعها. وكان كل منهما ينتشي بقرب الآخر، حتى ليخال أنه في بيتهما، وانهما سيعيشان معاً حتى الموت، كقرينين كتب لهما الشباب ابدا! وكانا يرددان في أحاديثهما: «غرفتنا»، و«سجادتنا»، بل كانت تقول «خفي»، وهما خفان اهداهما إليها «ليون»، فكانت تشعر بلذة في انتعالهما. كانا من الحرير الوردي، يحيط بكل منهما إطار من زخارف نقشت على شكل البجعة، وكانت إذا ما جلست على ركبتيه، تتدلى ساقاها في الهواء -لقصرهما في هذا الوضع- فلا يمسك الخف الأنيق، إلى قدمها العارية، سوى أطراف أصابع القدم!

أما هو، فقد نعم للمرة الأولى بألوان اللطف الأنثوي التي لا سبيل الى وصف

عذوبتها، أبداً لم يصادف من قبل هذه اللغة الرقيقة! ولا هذه الألوان من الثياب المستترة، ولا هذه الأوضاع التى يمليها عليها الطيش في نعاسها. وكان يعجب بما تزخر به نفسها من غواية، وما يزدان به قميصها من «دانتيلا»! ثم، ألم تكن سيدة مجتمع وزوجة! وعشيقة صادقة، أخيرا؟

ويتباين مزاجها -من مزاج ورع، إلى مرح، إلى ثرثار، إلى صامت، إلى منفعل مشبوب، إلى مستهتر- ايقظت فيه ألف رغبة، وأثارت الغرائز والذكريات. كانت تمثل العشيقة في كل رواية، والبطلة في كل مسرحية، و«هى» الغامضة، المبهمة، في كل دواوين الشعر. وعلى كتفيها، تراءى له ذلك اللون الكهرماني الذي كان قد رآه في لوحة «جارية في الحمام»! ورأى في جسدها ذلك الخصر الطويل الذي كان طابع سيدات القصور في العصور الاقطاعية، كما كانت تشبه «حسناء برشلونة الشاحبة». على أنها كانت فوق كل هذا! «الملاك»! وكثيراً ما كان يخيل إليه، وهو يتأملها، أن روحه تنطلق نحوها، فتنتشر كموجة حول حدود رأسها، ثم تهبط مجذوبة إلى نحرها. وكان يركع أمامها على الأرض، ويعتمد بمرفقيه على ركبتيها، ويروح يتطلع إليها بابتسامة، مشرئباً بعنقه! وكانت هي تنحني عليه، وتغمغم والنشوة تخنقها: «أواه، لا تتحرك! لا تتكلم! انظر إلى! من عينيك تنبعث حلاوة تنعشني!».. وكانت تدعوه بالطفل، فتقول: «أو تحبني يا طفل؟» ولم تكن تسمع جوابه، إذ تسرع بإلصاق شفتيها بشفتيه!

وكان فوق الساعة تمثال برونزي لكيوبيد مبتسماً، وهو يثني ذراعه تحت غصن ذهبي. أنهما كثيراً ما ضحكا لمظهره، ولكنه كان يبدو لهما إذا حانت ساعة الفراق، حزيناً عابساً!.. وكان يرددان وهما يقفان متقابلين، لا يحيران حراكا: «إلى الخميس القادم، إلى الخميس!» وكانت تحتوى رأسه بين راحتيها فجأة، وتطبع قبلة متعجلة على جبينه، وتصيح: «وداعا!» ثم تندفع إلى السلم، فتيمم شطر شارع (لا كوميدي)، لدى حلاق ينسق لها شعرها. ويهبط الليل، فيوقد مصباح الغاز في حانوت الحلاق، وتسمع جرس المسرح المواجه يدعو الممثلين إلى الظهور، وترى رجالاً ذوي وجوه بيضاء، ونساء ذوات زينة خابية، يلجون خلال الباب المفضى إلى «الكواليس». وكان الجو حاراً في ذلك الحانوت الصغير ذي السقف الشديد الانخفاض، حيث كانت المدفأة -التي توقد بغاز الاستصباح- تئز وسط الشعور المستعارة والدهون. وكانت رائحة ملاقط كي الشعر، مع رائحة اليدين الملطختين بالزيوت واللتين تعالجان شعرها، لا تلبثان أن تخدراها، فتغفوا قليلاً، تحت يدي الحلاق. وكثيراً ما كان الرجل يقدم لها -وهو ينسق شعرها- تذاكر لحفلات رقص تنكرية!

وكانت تنصرف بعد ذلك، فتجتاز الطرق حتى تبلغ فندق الصليب الأحمر، حيث تكون «العصفورة» في الانتظار، فتحيط حذاءيها بالوقاءين اللذين دستهما تحت المقعد في الصباح، وتندس في مجلسها بين المسافرين النافذي الصبر. وكان بعضهم يبارح العربة أسفل التل، فتبقى «إيما» وحيدة، وأضواء البلدة تزداد جلاء كلما مضت العربة في طريقها

فوق السفح، فتبعث غلالة كبيرة منيرة فوق البيوت المعتمة وتركع «ايما» فوق الوسائد، وترسل بصرها يحوم فوق الأضواء المتألقة، وتبكي، وتنادي «ليون»، وتبعث إليه مع الريح -بأرق المناجاة وأعذب القبلات. وكان ثمة متسول مخبول يهيم على السفح، ضارباً بعصاه بين عربات البريد، تغطي منكبيه كومة من الأسمال، ويخفي وجهه وراء قبعة من جلد كلب البحر، تبدو كوعاء مقلوب فإذا رفعها، كشف في مكان الجفنين عن ثقبين غائرين ملطخين بالدم، وقد تمزق لحمهما أرباً حمراء تتدلى وتتنزى بسوائل تنساب في خط أخضر على طول الأنف الذي كانت فتحتاه تختلجان في حركات تشنجية! ولكي يتحدث إليك، كان يطوح رأسه إلى الخلف في ضحكة مخبولة، ثم يدور إنسانا عينيه -الضاربان إلى الزرقة- في حركة مستمرة، مندفعين نحو صدغيه، على حافة الجرح المنكوء، وكان يردد وهو يتبع العربات أغنية قصيرة: «دفء الأيام الجميلة كثيراً ما يوحي إلى العذارى بأحلام الهوى». ويدور باقي الأغنية حول الطيور، والشمس المشرقة، وأوراق الشجر الخضراء.

وكان -في بعض الأوقات- يظهر فجأة وراء «إيما» وهو عاري الرأس فتجفل صارخة، ويسخر منه «هيفير» وينصحه بأن يستأجر خيمة في مهرجان «سان رومان» أو يسأله ضاحكاً عن صحة عشيقته! وكثيراً ما كانت العربة تتحرك، فإذا قبعته تندفع إلى داخلها بحركة مفاجئة من يده، خلال النافذة الصغيرة، بينما يتعلق بذراعه الأخرى بحافة العربة، بين العجلات التي تنثر الوحل، وينبعث صوته في البداية واهناً، مرتجفاً، ثم يزداد حدة، ويدوى في الليل كأنين غامض ينبعث من شخص محزون، وقد أوتي رنينا ينطلق إلى مدى بعيد بين دقات الأجراس، وحفيف الأشجار، وقرقعة العربات الفارغة، فيثير الاضطراب في نفس «ايما»، ويتغلغل إلى أعماقها، كاعصار في هوة سحيقة، ويحملها إلى مفازات من الأسى لا حدود لها! ولكن «هيفر» كان لا يلبث أن يشعر بثقل في مؤخرة العربة، فيلهب الأعمى بسوطه، ويمس طرف السوط جراحه، فيهوى في الوحل صارخاً. ولا يلبث أن ينتهي الأمر بركاب «العصفورة» إلى النوم، فمنهم من يفغر فاه، ومنهم من يحني ذقنه على صدره ويرتكن إلى كتف جاره، أو يدس ذراعيه خلف حزام العربة، ويروح يهتز مع ارتجاجاتها، وضوء المصباح الذي ينعكس متذبذبا على كفل الجواد القريب، ينساب إلى داخل العربة خلال الستائر المصنوعة من خيش بني، فيلقي ظلالاً دموية على أولئك الجامدين في أماكنهم جميعاً. وكانت «إيما» المستغرقة في أساها، ترتجف تحت ثيابها، وتحس بقدميها تزدادان برودة باطراد، وبالموت يجثم على نفسها!

✦✦✦

ويكون «شارل» في انتظارها في البيت. وكانت «العصفورة» تتأخر دائما في أيام الخميس، وتصل السيدة إلى دارها أخيراً، فتقبل طفلتها في أزورار، ولا يكون العشاء معداً، فلا تحفل، بل تلتمس للخادم عذراً، فقد أصبحت الفتاة تتصرف كما يحلو لها!..

وكثيرا ما كان زوجها يسألها -إذ يلاحظ شحوبها- عما إذا كانت تحس وعكة، فتقول: «لا». ويرد قائلاً: «ولكن شكلك غريب الليلة!» فتجيب: «آه، لا شيء! لا شيء!» بل كانت في بعض الأيام لا تكاد تلج الدار حتى تصعد إلى مخدعها. وقد يكون «جوستان» هناك مصادفة، فيروح ويغدو في هدوء، مبادراً إلى خدمتها خيراً من أفضل وصيفة، فيضع الثقاب والشمع وكتاباً في متناول يدها، ويسوي قميص نومها، ويقلب أغطية السرير. ولا تلبث أن تقول: «كفى! تستطيع أن تنصرف!»، إذ كان يظل واقفاً، ويداه متدليتان إلى جانبيه، وعيناه مفتوحتان على وسعهما، وكأنهما مشدودتان إلى خيوط لاعداد لها تنبعث من طيف باغتها!

وكان اليوم التالي يفد فظيعاً، والأيام التي تعقبه أشد منه وطأة، بسبب الضيق الذي يستبد بإيما لحرمانها من السعادة. وكان الشوق المتأجج، الذي تذكيه صور تجارب الماضي، ينطلق من أساره في اليوم السابع، في أحضان «ليون». أما هو، فكانت وقدة شبقه تتوارى خلف فورات العجب والشعور بالجميل. وكانت «إيما» تتذوق غرامه في رزانة واستغراق واستيعاب، وتستبقيه بكل حيل حنانها وفنون عواطفها، وترتجف خشية أن تفقده فيما بعد وكثيراً ما كانت تقول له بصوتها العذب الشجي: «آه! لسوف تهجرني يوماً! لسوف تتزوج، وتفعل ما يفعله الآخرون!».. فيسألها: «أي آخرين؟» وتجيب: «عجباً، ككل الرجال». ثم تردف وهي تصده بحركة واهنة: «إنكم جميعا أرذال أنجاس!»

وفيما كانا يتحدثان متفلسفين عن ألوان الخيبة التي تصيب الأوهام في الدنيا، إذا بها تنبئه بأنها -فيما مضى- كانت موضع حب شخص آخر، قبله، وكأنما أرادت أن تختبر غيرته، أو لعلها كانت منساقة وراء قوة لا قبل لها بمقاومتها، تدفعها إلى أن تفضي بدخيلة قلبها. ثم أردفت مسرعة: «لم يكن على شاكلتك». وراحت تقسم برأس ابنتها على أنه لم يجر بينهما شيء! وصدقها الشاب، ولكنه مع ذلك راح يسألها ليعرف شيئا عنه. فقالت: «لقد كان ربان سفينة يا عزيزي!» أفلم يكن هذا رادعاً عن كل تساؤل، محققا لها في الوقت ذاته مكانة رفيعة، لكونها استطاعت أن تفرض سحرها على رجل كان ولابد ذا فطرة محاربة، وكان معتادا أن يتلقى الاكرام والولاء، لا أن يقدمهما!

✦✦✦

إذ ذاك شعر الكاتب بضعة مركزه، وتاق إلى الأشرطة التي تزين اكتاف الضباط، وإلى الصلبان، والألقاب. كل هذا لابد أن يسرها، فهكذا أدرك من عاداتها المبنية على الاسراف! ومع ذلك، فقد كانت تخفي كثيراً من نزواتها المبذرة، كرغبتها في أن تقتني عربة خفيفة زرقاء، تقلها إلى (روان)، ويجرها جواد انجليزي، ويقودها حوذي يلبس حذاءين من النوع ذي العنق العالي. وكان «جوستان» هو الذى أوحى إليها بهذه النزوة، إذ راح يتوسل اليها ان تلحقه بخدمتها كوصيف. وإذا كان الحرمان من هذه الرغبة لم يقو

على أن يقلل من سرورها بوصولها إلى موعد اللقاء في كل مرة، إلا أنه كان يضاعف من أساها في العودة. وكثيراً ما كانت تغمغم حين يتحدثان عن باريس: «آه! شد ما نسعد إذا عشنا هناك!» فيجيبها «ليون» متسائلاً في رفق، وهو يدس يديه في شعرها: «أو لسنا سعيدين؟» فتقول: «بلى، حقا. أنني مجنونة. ألا قبلني!».

وازدادت تلطفاً إلى زوجها عن ذي قبل، فأصبحت تصنع له «الكريمة بالفسق»، وتعزف له ألحان «الفالس» بعد العشاء، حتى خال نفسه أسعد الناس حظاً. وظلت «ايما» تعيش دون ما شيء يثير قلقها، حتى كان ذات مساء، إذ سألها فجأة: «إن مدموازيل لامبرير هي التي تلقنك الدروس، أليست هي؟» قالت: «بلى!» فأردف قائلا: «حسناً! لقد قابلتها منذ هنيهة، في منزل مدام «ليبجار»، وحدثتها عنك، فلم تعرفك!» وكأنما انقضت عليها صاعقة، ولكنها مع ذلك أجابت في هدوء طبيعي: «آه، لاشك أنها نسيت اسمي». قال الطبيب: «أو لعل هناك أكثر من مدموازيل لامبرير واحدة، يدرسن الموسيقى في روان!» فبادرت قائلة: «ربما! ولكني احتفظ بالايصالات هنا. انظر!» وسارت إلى المكتب، فنقبت في كل أدراجه، وبعثرت الأوراق، ثم جن جنونها أخيراً حين لم يرجها شارل -في الحاح- ان لا تزعج نفسها بأمر هذه الاتصالات. وقالت: «آه، سأبحث عنها».

وقد كان، فبينما كان «شارل» يدس قدمه في أحد الأحذية التي كانت في الخزانة المظلمة التي اعتاد أن يحفظ فيها ثيابه، إذا به يشعر بقصاصة ورق بين جوربه وجلد الحذاء، فتناولها، وقرأ فيها: «تسلمت مبلغ ثلاثة وستين فرنكا عن دروس موسيقية لثلاثة أشهر، وعدد من القطع الموسيقية -فيليسى لامبرير، معلمة موسيقى».

- كيف بحق الشيطان، قدر لهذا أن يكون في حذائى؟ فأجابت: «لابد أنه وقع من الصندوق الورقي القديم الذي نحتفظ فيه بأوراق الحساب، والذي نضعه على حافة الرف».

✦✦✦

منذ تلك اللحظة أصبح وجودها مجموعة متصلة من الأكاذيب، التي كانت تلف فيها هواها، كما لو كانت أقنعة تخفيه. كان الكذب ضرورة، بل هواية، بل لذة يحلو المضي فيها إلى درجة أنها إذا قالت إنها سارت في اليوم السابق على الجانب الأيمن من الطريق، وجب على المرء أن يدرك أنها سارت على الجانب الأيسر! وذات يوم خميس، بدأت السماء تمطر جليداً على حين غرة، بعد خروجها في ثياب خفيفة كعادتها، وبينما كان «شارل» يرقب الجو خلال النافذة، لمح الأب «بورنيسيان» في عربة السيد توفاش الخفيفة، في الطريق إلى (روان)، فهبط وأعطى القس شالاً سميكاً سأله أن يسلمه إلى زوجته بمجرد وصوله إلى فندق «الصليب الأحمر». فلما بلغ السيد «بورنيسيان» الفندق، سأل عن زوجة طبيب (ايونفيل)، ولكن ربة الفندق ذكرت له أنها نادراً ما تفد على نزلها. ومن ثم فان القس

حين رأى مدام «بوفاري» في «العصفورة» -في ذلك المساء- أنبأها عن ورطته، وإن لم يبد عليه أنه علق على الأمر أهمية كبيرة، إذ لم يلبث أن تحول يطري واعظاً كان يفعل العجائب في الكاتدرائية، وأصبحت السيدات جميعاً يحرصن على سماعه! وإذا كان القس لم يطلب منها أي تفسير، إلا أن غيره قد يكون أقل منه رزانة، فيما بعد. ومن ثم اعتزمت أن تنزل في فندق «الصليب الأحمر» في كل مرة، حتى لا يرتاب أحد من أهل قريتها إذا رأوها على سلمه!

غير أن السيد «لوريه» التقى بها يوماً وهي تغادر فندق «بولوني»، متكئة إلى ذراع «ليون»، فجزعت إذ ظنت أنه لن يلبث أن يشي بها. ولكنه لم يكن حيواناً «مجردا من العقل»! ومع ذلك فقد زارها في غرفتها بعد ثلاثة أيام، وأغلق الباب، ثم قال: «إنني في حاجة إلى نقود» فصارحته بأنها لا تملك ان تعطيه شيئا، فانفجر يكيل لها اللوم، ويذكرها بكل ما أبداه لها من مراعاة ومعروف. إذ أن «إيما» لم تكن قد سددت -حتى ذلك الحين- سوى قيمة سند واحد من السندين اللذين وقعهما «شارل»، أما السند الثاني، فقد قبل التاجر -برجاء منها- أن يستبدل به آخر، جدد بدوره إلى أجل بعيد. وما لبث أن أخرج من جيبه قائمة بسلع لم تدفع ثمنها، هى الستائر، والسجادة، وقماش لكسوة المقاعد الوثيرة، وعدة أثواب، ومجموعة من أدوات الزينة.. وكانت أثمانها تبلغ ألفي فرنك! ونكست «إيما» رأسها، وهي تسمع حديثه! «ولكن، إذا لم تكن لديك نقود حاضرة، فأنت تملكين عقاراً». وذكرها ببيت صغير متداع تعس في (بارنفيل) -على مقربة من (أومال)- لم يكن ذا قيمة تذكر، وقد كان فيما مضى جزءاً من مزرعة صغيرة باعها السيد «بوفاري» الأب، لكنه استبقاه لنفسه من دونها، فورثه ابنه عنه، وهكذا، كان «لوريه» يعرف كل شيء، حتى مساحة الأرض بالهكتار، وأسماء الجيران!

وما لبث ان استطرد قائلاً: «لو أنني في مكانك، لخلصت نفسي من الديون، وحصلت فوق ذلك على مبلغ من المال». فأشارت إلى صعوبة العثور على مشتر، ولكنه أوحى إليها بالأمل في أن يعثر على واحد، فاستفسرت منه عما تفعله لتتمكن من البيع. وسألها: «أليس لديك تفويض؟» وهبت عليها الكلمة الأخيرة كنسمة عليلة، فقالت: «دع لي قائمة الحساب». وأجاب لوريه: آه، انها ليست ذات بال»! وما لبث أن عاد في الاسبوع التالي، وراح يزهى بأنه -بعد كثير عناء- قد وقع أخيراً على سيد من آل «لانجلوا»، كان يرمق العقار منذ زمن طويل، ولكنه لم يعرض بعد ثمنا. فصاحت: «لست أحفل بثمن معين!» على انهما اضطرا -على العكس- إلى أن يتريثا، ليتعرفا مدى استعداد ذلك الرجل. وكان الأمر يستلزم رحلة، ولما لم تكن تملك القيام بها، فقد عرض «لوريه» أن يذهب إلى الموقع ليراه مع «لانجلوا». وحين عاد، ذكر أن المشتري عرض أربعة آلاف فرنك، فأشرق وجه «إيما» للنبأ، وعقب لوريه قائلا: «واعتقد صراحة أنه ثمن طيب!».

وحصلت على نصف المبلغ فوراً، فلما همت بأن تسدد حسابها، قال لها التاجر! «إنه

ليحزنني -بشرفي- ان أراك تحرمين نفسك من مبلغ كبير كهذا في التو!» ونظرت إذ ذاك إلى الأوراق المالية، وراحت تحلم بالخلوات التي لا حصر لها، والتي يمكن أن تتيحها هذه الفرنكات الألفان وقالت متلعثمة: «كيف؟ كيف؟»، فضحك متظاهراً بالطيبة، وقال: «آه! إن المرء يستطيع أن يضيف إلى قوائم الحساب كل ما يريد! أو لست أعرف كيف تدبر البيوت؟» ورمقها بنظرة لا تحيد، وهو يمسك بورقتين طويلتين راح يعبث فيهما بأظافره، ثم فتح حافظته في النهاية، وبسط أربعة سندات «تحت الطلب»، قيمة كل منهما ألف فرنك، وقال: «وقعي هذه، واحتفظي بالمبلغ». فشهقت في استنكار. فقال في وقاحة: «إذا أعطيتك كل ما يفيض عن الدين، أفلا أكون قد أديت خدمة؟» وتناول قلماً، فكتب تحت قائمة الحساب: «تسلمت من مدام بوفاري أربعة آلاف من الفرنكات».

– الآن، من يملك أن يزعجك، ما دمت ستتقاضين خلال ستة أشهر ما تبقى من ثمن كوخك، وما دمت سأرجئ موعد استحقاق السند الأخير حتى تتسلمي المبلغ؟

وازداد ارتباك «إيما» بالعمليات الحسابية، وسمعت طنيناً في اذنيها كأنه رنين العملة الذهبية التي تنساب من أكياسها متناثرة حولها عل الأرض. وأخيرا، أنبأها «لوريه» بأن له صديقاً حميماً يدعى «فانكار» -صرافاً في (روان)- على استعداد لأن يدفع قيمة السندات الأربعة مقدماً، وإذ ذاك سيسلمها ما يزيد على قيمة الحساب.

ولكنه بدلا من احضار الألفى فرنك، لم يحضر سوى ألف وثمانمائة، لأن صديقه «فانكار» -وكأنما كان صادقاً في زعمه- قد اقتطع مائتى فرنك كعمولة وفائدة عن الخصم. ثم طلب منها -في تظاهر الاكتراث- أن تكتب له ايصالا، وهو يقول: «انك تدركين، انه في المسائل التجارية... أحيانا...». ثم استدرك: «...اكتبي التاريخ من فضلك، التاريخ».

✦✦✦

تفتح أمام «إيما» أفق من الأهواء التى يمكن تحقيقها! على أنها كانت من الحكمة بحيث استبقت -من قبيل الحيطة- ألف دينار[1]، استطاعت أن تدفع منها السندات الثلاثة الأولى.. على أن الرابع استحق الدفع فى أحد أيام الخميس -مصادفة- فراح «شارل» ينتظر بصبر نافد، واستياء بالغ، عودة زوجته ليسألها أيضاحا للأمر. وقالت له -حين عادت- إنها إذا لم تك انبأته بأمر هذا السند، فانما لتجنبه الشواغل المنزلية.. وجلست على ركبتيه تعانقه، وتداعبه، وتعدد له - في قائمة طويلة- كافة الأشياء التي

(١) تكرر ذكر «الدينار» في الكتابين الأول والثاني من ترجمة الرواية، حيث غدا من حق القاريء ان يعرف شيئا عن أصل هذا التعبير. فالدينار ترجمة لكلمة écu، وكانت تطلق على عملة فرنسية قديمة تعادل ثلاثة فرنكات، فالاف دينار قيمتها ٣٠٠٠ فرنك.

لا غنى عنها، والتي اضطرت إلى أن تحصل عليها بالنسيئة. وقالت: «خليق بك أن تعترف أنها -بالنسبة للكمية- لم تكن جد باهظة!».. ولم يجد «شارل» حيلة، سوى أن يسرع إلى الاستنجاد بلوريه الخالد، الذى تعهد بأن يسوى الأمور، إذا وقع «الدكتور» سندين لأمره، أحدهما بسبعمائة فرنك تستحق الدفع بعد ثلاثة أشهر. ولكي يدبر قيمة هذا السند، كتب «شارل» إلى أمه خطاباً مؤثراً، ولكنها بدلا من أن ترسل له ردا، حضرت بنفسها.

وعندما أرادت «إيما» ان تعلم ما إذا كان قد حصل على شيء منها، قال: «أجل، ولكنها تريد أن ترى الحساب». وما إن طلع الصباح التالى، حتى هرعت «إيما» إلى «لوريه» تتوسل إليه إن يكتب قائمة أخرى للحساب، لا تزيد قيمتها على ألف فرنك، إذ كان لابد -إذا أطلعتها على القائمة ذات الأربعة آلاف فرنك- أن تذكر انها سددت ثلثيها، وأن تعترف -إذ ذاك- ببيع العقار، وبأن المفاوضات في هذا الصدد قد تولاها ببراعة. ولم تظهر قيمة جهوده فيها الا أخيراً (حين خرج من الصفقة بنصيب الأسد).

وجاءت الساعة المحتومة التي تعين أن تناقش فيها الحماة زوجة ابنها الحساب!

وعلى الرغم من السعر الزهيد الذي كتب أمام كل سلعة، فإن الحماة كانت خليقة بأن ترى إسرافا في الإنفاق: «أو لم يكن من الممكن أن تستغنى عن السجادة؟ ولماذا أعددت كسوة المقاعد؟ لقد كانوا يكتفون -في أيامي- بمقعد وثير واحد فى البيت، للمسنين. أو هكذا كان الأمر في بيت أمي، وأؤكد أنها كانت امرأة صالحة. ليس في وسع الناس جميعاً أن يكونوا أغنياء! فليس لثروة من بقاء ازاء التبديد! انني كنت خليقة بأن أخجل، لو انني ذللت نفسي كما تفعلين، مع أنني مسنة، وفي حاجة إلى عناية! ثم، ما هذا؟ عجبا! إصلاح أثواب! تبذيرا عجبا! حرير للبطانة، في حين أن بوسعك الاكتفاء بقماش من «الشيت» بعشرة سنتيمات، بل بثمانية!» وكانت «إيما» تجيب في هدوء، وهي مضطجعة على أريكة: «آه! كفى يا سيدتي! كفى!» ولكن الأخرى مضت تلقي عليها محاضرة، متنبئة بأنهما سينتهيان إلى ملجأ! واستطردت قائلة إن الذنب -مع ذلك- كان ذنب «بوفاري»، وأنه وعد لحسن الحظ بأن يلغي التوكيل الرسمى. فهتفت إيما: «كيف؟» وقالت الحماة: «آه! لقد أقسم لي أن يفعل!» ففتحت «إيما» النافذة، ونادت «شارل». واضطر الابن المسكين إلى أن يعترف بأن أمه انتزعت منه الوعد. فغابت «إيما»، ثم عادت مسرعة، وهي تقدم لها في شمم صفحة من ورق سميك، فقالت العجوز: «شكرا لك». وألقت بعقد التوكيل الرسمى إلى النار!

وانطلقت «إيما» تضحك، ضحكة حادة، منكرة، متواصلة، إذ تولتها نوبة انفعال عصبي، وصاح شارل بأمه: «أواه، يا الهي! آه! انك لعمر الحق قد أخطأت! افتأتين إلى هنا لكي تتشاجري معها؟!» فهزت أمه كتفيها قائلة إن هذا كله لم يكن سوى تمثيل! ولكن شارل تمرد على أمه -للمرة الأولى- وطفق يدافع عن «إيما» حتى اضطرت مدام «بوفاري»

الأم إلى أن تعلن عزمها على الرحيل. وبالفعل سافرت في اليوم التالي مباشرة. وقالت عند الباب، إذ حاول أن يثنيها: «لا، لا! انك تحبها أكثر مما تحبني، ولك الحق، فهذا طبيعي! أما فيما عدا هذا، فأنت وشأنك، وسوف ترى. أتمنى لكما العافية! إنني غير مستعدة لأن آتي فاثير معها شقاقاً، كما قلت!» وعلى الرغم من ذلك، بقي «شارل» في خجل شديد من «إيما»، التي لم تخف ما كانت تكنه من ضغينة لضعف ثقته فيها. وكان لابد من توسلات طويلة، قبل أن توافق على تولي الوكالة عنه مرة أخرى، بل لقد صحبها إلي السيد «جيومان» لتوثيق عقد آخر، يشبه الأول تماما!

وقال موثق العقود: «إنني أدرك أن رجل العلم لا يملك أن يشغل نفسه بدقائق الحياة العادية!» وشعر «شارل» بارتياح ازاء هذه الفكرة المريحة، التي خلعت على ضعفه مظهر الانشغال بجلائل الأمور، مما أثار غروره!

ويااللفورة التي اشتعلت يوم الخميس التالي، في حجرتهما بالفندق، حين اجتمعت «إيما» بليون! ضحكت وبكت، وغنت، ورقصت، وطلبت شراباً، ورغبت في أن تدخن السجاير، ولاحت له مسرفة، ولكنها رائعة، متألقة البهاء. ولم يدر أية انفعالات -في كل كيانها- كانت تدفعها لتتردى في ملذات الحياة، أصبحت محمومة، نهمة، داعرة، ومضت تجوس الطرقات معه رافعة الرأس، دون ما خوف من أن تعرض نفسها لأية فضيحة، كما قالت. على أنها كانت في بعض الأوقات ترتجف حين يخطر ببالها فجأة أنها قد تلتقي برودولف، إذ كانت ترى أنهما وإن افترقا إلى الأبد، إلا أنها لم تتحرر تماماً من خضوعها له!

✦✦✦

وفي إحدى ليالي الخميس، لم تعد إلى (ايونفيل)، فجن «شارل» لفوط القلق، وأبت «بيرت» الصغيرة أن تأوى إلى فراشها دون أن ترى أمها، وبكت حتى كاد صدرها ينشق، وانطلق «جوستان» في الطريق على غير هدى، بل لقد ترك السيد «هوميه» صيدليته، وأخيراً، لم يعد «شارل» يقوى على الاحتمال، فشد -في الساعة الحادية عشرة- جواده إلى عربته الصغيرة، وقفز إليها، وساط الجواد، فبلغ فندق «الصليب الأحمر» في نحو الساعة الثانية صباحاً. لكنه لم يجد اثراً! وخطر له ان «ليون» ربما رآها، ولكن أين يقيم؟ واغتبط إذ تذكر عنوان رئيسه، فهرع إليه لسأله. وكان النهار قد انبثق، فاستطاع أن يتبين اسمه عل أحد الأبواب، وطرق الباب، فصاح شخص من الداخل يجيبه إلى طلبه -دون أن يفتح- مضيفاً بضع اهانات لأولئك الذين يقضون مضاجع الناس في منتصف الليل!

ولم يكن للبيت الذي كان «ليون» يقطنه جرس، ولا مقرعة، ولا بواب، وراح

«شارل» يدق مصاريع النوافذ بكلتا يديه، إلى أن قدر لأحد رجال الشرطة أن يمر، فخاف وانصرف، محدثاً نفسه: «إنني غبي! لابد أنها تأخرت في العشاء لدى السيد لورمو» ثم تذكر أن لورمو لم يعد يقيم في (روان)! فقال لنفسه: «لعلها مكثت لتعتني بمدام دوبروي.. ولكن، كيف؟ لقد ماتت مدام دوبروي منذ عشرة شهور. اذن فأين تكون؟» وخطرت له فكرة، فولج مقهى وطلب الدليل، وأسرع يبحث عن اسم مدموازيل «لامبرير»، فإذا بها تقيم في رقم ٧٤ شارع (دولارينيل ديه ماروكانيير)، وإذ بلغ الشارع، ظهرت «إيما» بنفسها في الطرف الآخر منه، فألقى بنفسه عليها في تهالك أكثر منه عناق، وصاح: «ما الذى أخرك بالأمس؟».

- كنت مريضة.

- بماذا؟ كيف؟ أين؟

فضغطت جبينها بيدها وقالت: «لدى مدموازيل لامبرير».

- كنت متأكد من ذلك! كنت ذاهباً إليها.

فقالت إيما: «آه، لا داعي. لقد خرجت منذ لحظات، ولكن لا ينبغي في المستقبل أن تقلق، فلن أحس بأنني حرة إذا علمت أن أقل تأخر يزعجك بهذا الشكل، كما ترى!» كانت هذه إحدى الحيل التي تتذرع بها لتحظى بحرية تامة في انطلاقاتها، وكانت تستغل هذه العلل بكل بساطة، وإلى أقصى مدى، فاذا استبدت بها الرغبة في مقابلة «ليون»، انتحلت أية حجة، وإذا لم يكن «ليونش يتوقعها في ذلك اليوم، سمعت إليه في مكتبه، وكان يغتبط بهذا في البداية، ولكنه لم يعد -بعد قليل- يقوى على كتمان الحقيقة. فلقد شكا رئيسه كثيراً من هذه الزيارات التى تصرفه عن عمله، وكانت تقوله له: «آه، ياه! هيا!» ولكنه كان يتملص. ولقد طلبت إليه أن يكون كل ما يرتديه أسود، وأن يطلق لحية مدببة ليبدو كصور الملك لويس الثالث عشر. ورغبت في أن ترى مسكنه، فلم يرقها ووصفته بالفقر، وتضرج وجهه، ولكنها لم تلاحظ ذلك، ثم أشارت عليه بأن يبتاع ستائر حمراء، كستائر مخدعها، فلما اعترض بأنها تبهظه، قالت ضاحكة: «آه! آه! أتتشبث بدنانيرك؟» وكانت تضطره فى كل مرة إلى أن يروي لها كل شيء فعله منذ لقائهما الأخير. وسألته أن ينظم بعض الأشعار، أشعاراً عنها، «قصيدة غرام» تكريما لها. ولكنه لم يفلح قط في الوصول إلى كلمة للبيت الثانى تنسجم مع القافية، وانتهى به الأمر إلى أن نقل قصيدة من أحد الكتب، لا ليرضي غروره، وإنما رغبة في إرضائها. ولم يكن يناقش آراءها، كما كان يرضى بكل أذواقها، حتى أنه أصبح «عشيقها» أكثر مما هي عشيقته! كانت لها كلمات ناعمة وقبلات تبهر روحه وتثير نفسه. ترى، أين تعلمت هذا الفساد الذي كان يصل في دنسه وفجوره إلى درجة غير عادية!

الفصل السادس

وكان «ليون» -كلما حضر إلى (ايونفيل) خصيصاً ليراها- يتناول العشاء في بيت الصيدلي في أكثر الأحيان، فلم يلبث أن أحس بأنه مضطر إلى أن يدعوه بدوره، رداً لجميله وقد أجاب السيد هوميه: «بكل سرور! إذ لابد لي من أن انعش ذاكرتي، التي أخذت تصدأ هنا. سنذهب إلى المسرح، وإلى المطعم، ونلهو!» فغمغمت مدام «هوميه» في رفق وقد خشيت عليه من الأخطار المبهمة التي قد يعرض لها نفسه: «آه، يا صديقي الطيب!».

- آه! ماذا؟ أو تظنين أنني لا أقضي على صحتي بالاقامة هنا وسط الروائح التي تتصاعد من الصيدلية باستمرار! ولكن هكذا النساء دائماً! انهن يغرن علينا من العلم، ويغرن علينا في الوقت نفسه من أبرأ ألوان اللهو! لا يهمك الأمر، بل اطمئني إلي! لسوف أهبط في أحد الأيام على (روان)، فننطلق معاً على هوانا!

وكان الصيدلي يحرص -فيما مضى- على أن لا يستعمل مثل هذه التعبيرات، ولكنه أصبح ينهج نهجاً مرحاً و«باريسيا»، إذ خال أن هذا هو خير ذوق. وأخذ -كجارته، مدام بوفاري- يسأل الكاتب في فضول عن عادات العاصمة، بل لقد أخذ يتكلم باللهجة العامية الباريسية، ليبهر أنظار أهل القرية! وهكذا دهشت «إيما» إذ قابلت -في أحد أيام الخميس- السيد «هوميه» في مطبخ «الأسد الذهبي»، وقد ارتدى ثياب السفر -أو بالأحرى قد التف في معطف قديم لم يدر أحد أنه كان يمتلكه- وحمل في إحدى يديه حقيبة، وفي اليد الأخرى صندوقاً من حانوته ليدس فيه قدميه يدفئهما، ولم يكن قد أفصح عن نواياه لأحد، خشية أن يثير قلقاً عاماً بغيابه!

وليس من شك في أن التفكير في رؤية المكان الذي قضى فيه صباه، أثار انفعاله، إذ لم يكف طيلة الرحلة عن الكلام. وما ان وصل حتى قفز من العربة مسرعاً، وانطلق يسعى إلى «ليون». وعبثاً حاول الكاتب أن يتخلص منه، فقد جره السيد «هوميه» إلى مقهى «لانورماندى» الكبير، فدخله في تعاظم، دون أن يرفع قبعته، ظنا منه أن تعريه الرأس في مكان عام، عادة ريفية!

وظلت ايما تنتظر ليون ثلاثة أرباع الساعة، ثم أسرعت أخيراً إلى مكتبه، وحين لم تجده تملكتها الهواجس: إنه لا يكترث بها! ولامت نفسها على ضعفها.. وقضت ما بعد ظهر ذلك اليوم وهي ملصقة وجهها بزجاج النافذة (في غرفتهما بالفندق). أما هوميه وليون، فكانا حتى الساعة الثانية جالسين إلى إحدى الموائد، وكانت القاعة الكبيرة قد بدأت تخلو، كما كانت ثمة مدفأة على شكل نخلة، تنشر أوراقها -المصنوعة من المعدن البراق- بعرض السقف الأبيض، وخارج النافذة القريبة منهما قامت -تحت أشعة الشمس

الساطعة- نافورة تنفث الماء في حوض أبيض، حيث كانت ثلاث من جراد البحر (الجمبري) الكبير تتمطى بين نباتات الرشاد والهليون، محاولة أن تصل إلى بعض طيور السمان المتجمعة في أحد الأركان. وكان «هوميه» مغتبطاً، وإن كانت نشوته قد انبعثت عن الترف أكثر منها عن النفقات الباهظة، ومع ذلك فان نبيذ التفاح شحذ كل براعته وذكائه، فلما ظهر البيض المطهو بالروم على المائدة، شرع يعرض نظرياته غير الخلقية عن النساء. كان الشيء الذي يستهويه أكثر مما عداه في المرأة هو: «الأناقة! كان يعجب بالزينة المتقنة الأنيقة، في مسكن حسن الرياش، أما من الناحية البدنية، فلم يكن يكره الفتيات اللاتي في صدر الشباب! وأخذ «ليون» يرقب الساعة في قنوط، والصيدلي ماض في الشرب، والأكل، والحديث.

وفجأة، قال هوميه: «لابد انك تعاني وحدة قاسية في (روان).. ولو أن عشيقتك لا تقيم على بعد كبير» فتضرج وجه الآخر.

- هيا، كن صريحا. هل تنكر أن في (ايونفيل)... .

وتمتم الشاب متلعثماً، بينما استطرد الصيدلي:

- في منزل مدام بوفاري، كنت تغازل... .

- من؟

- الخادم!

ولم يكن مازحاً، ولكن الغرور يغلب كل حكمة، لذلك راح «ليون» يحتج على الرغم منه، زاعماً أنه لم يكن يحب سوى السمراوات. فقال الصيدلي: «إنني أقرك على هذا، فهن أشد شهوة!» وهمس في أذن صديقه، مشيراً إلى بعض الأعراض التي يستطيع بها المرء أن يعرف ما اذا كانت المرأة شهوانية، بل انه أوغل في الحديث عن بعض الصفات الشاذة لدى الأجناس: فالألمانية هوائية، والفرنسية متطرفة في الخلاعة، والإيطالية متقدة العاطفة. وتساءل الكاتب: و«الزنجية؟» فقال هوميه: «إنها مزاج الفنان! أيها الساقي، إلينا بقدحي قهوة!» فتساءل «ليون» أخيراً، وهو نافد الصبر: «هل ننصرف؟» فأجابه بالإنجليزية: «أجل!».

على أنه رغب -قبل الانصراف- في أن يقابل صاحب المكان وأن يقدم إليه بعض التحيات. وإذ ذاك زعم الشاب - كي يخلو إلى نفس- أن لديه بعض أعمال، فقال هوميه: «آه، سأصحبك». وظل طيلة سيرهما في الشوارع، يتحدث إليه عن زوجته، وأطفاله، ومستقبلهم، وأعماله، وبين له كيف كانت تلك الأعمال في أسوأ حال في الماضي، وإلى أية درجة من الكمال ارتقى بها. وإذ بلغا فندق «بولوني»، تركه «ليون» فجأة، وركض طاوياً درجات السلم، فألفى عشيقته في انفعال بالغ، وما إن ذكر اسم الصيدلي، حتى انفجر غضبها. على أنه راح يسرد لها مبررات مقنعة، فلم يكن الذنب ذنبه، أو ليست تعرف

«هوميه»، فهل تصدق أنه يؤثر صحبته؟ بيد أنها أشاحت عنه، فاجتذبها إليه، وركع على ركبتيه مطوقاً خصرها بذراعيه، في تهالك مفعم بالشبق والضراعة.

وكانت واقفة، وعيناها الواسعتان المتوقدتان ترقبانه في عبوس، بل في قسوة. ثم غامت عليهما الدموع، وهبط جفناهما الورديان، وأسلمته يديها. وفيما كان «ليون» يلصقهما بشفتيه، أقبل خادم ينبيء السيد بأنه ثمة من يسأل عنه. فسألت «إيما» صديقها وهو يهم بالخروج، «أعائد أنت؟».

- أجل.

- ولكن، متى؟

- في الحال!

✦✦✦

قال الصيدلي حين رأى ليون: «لقد أرسلت إليك الخادم لأقطع حبل الزيارة، التي لاح لي أنها تضايقك، لنذهب فنتناول زجاجة من «الجارو»[1] عند بريدو». فأقسم «ليون» أن لابد له من العودة إلى مكتبه، وإذ ذاك راح الصيدلي يمازحه معلقاً على مذكرات المحامين التي تقلب الباطل حقاً، وعلى الدعاوي، قائلا: «دع كوجا وبارتول[2] وشأنهما برهة، يا للشيطان! من الذي يمنعك؟ كن جريئا! هيا إلى جانة بريدو! سترى هناك كلبه، إنه عجيب جداً» ولكن الكاتب ظل يصر على الانصراف، فقال له: «سأذهب معك، فأطالع الصحيفة في انتظارك، أو أقلب صفحات مجموعة القوانين!» واحتار ليون بين غضب إيما، وثرثرة هوميه. ولعل الغداء اتخمه، فلم يقو على أن يبت، لا سيما وقد راح الصيدلي يغريه قائلاً: «لنذهب إلى بريدو، إنه قريب من هنا، في شارع مالبالو» وما لبث الشاب -تحت تأثير الجبن أو الغباء، أو تأثير ذلك الشعور الذي يعز وصفه والذي يجرنا إلى أدعى التصرفات للاستهجان- ما لبث أن ترك نفسه يقاد الى حانة «بريدو»، الذي الفياه في الساحة الصغيرة يشرف عليه ثلاثة من العمال راحوا يلهثون، وهم يديرون عجلة ضخمة في آلة من آلات تحضير ماء سلتزر (كماء الصودا). وألقى اليهم «هوميه» ببعض الارشادات، ثم احتضن «بريدو»، وتناولوا بعض «الجارو». وحاول «ليون» عشرين مرة أن يفلت، ولكن صاحبه كان يمسك بذراعه قائلاً: «سأنصرف حالا! سنذهب إلى صحيفة «فنال دو روان» لنرى الزملاء، سأعرفك بتوماسان».

على أن ليون ما لبث أن وفق إلى التخلص منه، فانطلق مسرعا إلى الفندق. ولم تكن «إيما» هناك، كانت قد انصرفت لتوها ساخطة. لقد أصبحت تكرهه، وبدا لها هذا الاخفاق منه في الوفاء بموعدهما الغرامي اهانة، فراحت تحاول أن تنقب عن أسباب أخرى

(١) «الجارو» شراب هو مزيج من القرفة والزعفران وجوز الطيب. (٢) اثنان من فقهاء القانون.

لتنفصل عنه. كان عاجزاً عن الاتيان باية بطولة، كما كان ضعيفاً، مبتذلاً، يفوق المرأة في الاستخذاء! فضلاً عن أنه كان بخيلاً، جباناً! ثم هدأت ثورتها، فتبينت أنها ولا ريب قد افترت عليه في غيبته. بيد أن اقدامنا على النيل ممن نحب، لابد أن يباعد بيننا وبينهم بعض الشيء، فينبغي أن لا نمس أصنامنا المعبودة، لأن طلاءها لابد أن يعلق بأصابعنا!

✦✦✦

وبمضي الأيام، أخذ حديثهما يزداد اتجاهاً إلى الموضوعات الخارجة عن نطاق غرامهما، وأصبحت «إيما» تتحدث -في الخطابات التي ترسلها إليه- عن الأزهار، والأشعار، والقمر، والنجوم، موارد ساذجة لوجد منطفئ يناضل للبقاء مشتعلاً، مستعيناً بكافة الأسباب الخارجية! وكانت لا تفتأ تمني نفسها بهناءة غامرة في رحلتها التالية، ثم لا تلبث أن تعترف لنفسها بعد الرحلة بأنها لم تشعر بشيء غير عادي. ولكن سرعان ما أدت خيبة الرجاء إلى أمل جديد! فعادت «إيما» إلى فتاها أشد وقدة، وأعتى لهفة مما كانت في أي يوم! صارت تخلع ثيابها في عنف، ممزقة أربطة مشدها (الكورسية) الرفيعة، التي كانت تحيط بردفيها كثعابين متسللة! وكانت تسير على أطراف أصابع قدميها، حافية، لتستوثق مرة أخرى من أن الباب مغلق، ثم تنطرح على صدره في رجفة طويلة، وهي شاحبة، واجمة، لا تتكلم، ولا تحير حراكاً. مع ذلك، فقد ظل «ليون» يرى في ذلك الجبين المتفصد عرقاً باردا، وفي تلكما الشفتين المرتعشتين، وفي العينين الضاريتين، وفي توتر هاتين الذراعين، شيئا غريباً، غامضاً، رهيباً، يقوم جامداً بينه وبينها، وكأنه يفصل كلاً عن صاحبه!

ولم يجرؤ على أن يسألها، ولكنه كان -إذ يرى فنونها البارعة- لا يملك إلا أن يشعر بأنها ولابد قد خاضت كل تجربة من تجارب الألم واللذة! وما كان يفتنه من قبل، بات يخيفه الآن بعض الشيء! فضلاً عن أنه بدأ يتمرد على ما كان يزداد كل يوم ظهوراً، من انطوائه في شخصيتها أصبح ينقم على «إيما» بسبب هذه الغلبة المستمرة عليه، بل إنه راح يجاهد ليكف عن حبها، ولكنه كان لا يلبث -إذا سمع صريف حذاءيها- أن يتحول إلى جبان هياب، كمدمني الخمر إذا ما رأوا شراباً قوياً! والحق أنها لم تهن في اضفاء كافة ألوان الاهتمام عليه، من أطايب الغذاء، إلى خلاعة الرداء، إلى النظرات المستضعفة المتذللة. وكانت تدس وروداً من (ايونفيل) بين ثدييها، لتلقيها في وجهه، وكانت قلقة بصدد صحته، تنصحه دائماً بما ينبغي أن يفعل. ثم عمدت -لكي تزداد اطمئناناً إلى احتفاظها بسلطانها عليه، وأملا منها في أن تنحاز السماء لصفها- عمدت إلى إحاطة عنقه بصورة للعذراء!! وكانت تسائله -كأم تقيه- عن أقرانه، وتقول له: «لا تلقهم! لا تخرج! لا تفكر إلا في كلينا فقط! أحبني!» وكم ودت لو أنها استطاعت أن تراقب حياته كلها؛ بل لقد

خطر لها أن ترسل وراءه من يتتبع خطاه في الطرقات، فقد كان بجوار الفندق دائماً شريد متسكع يتمسح في المسافرين، وما كان ليرفض القيام بمثل هذه المهمة، ولكن كبرياءها تمردت، فقالت لنفسها: «باه! وما أهمية هذا الأمر! فلينصرف عني! ما الذي يهمني؟ كأنما أنا مبقية عليه!»

✦✦✦

وفي ذات يوم، افترقا في ساعة مبكرة. وفيما كانت تسير وحدها في الطريق، لمحت جدران الدير الذي تعلمت فيه، فسارعت تجلس على مقعد عام تحت إحدى شجرات الدردار. ما كان أهدا الفترة التي قضتها في الدير، وما كان انعمها! كم كانت تتوق إلى تلك العواطف الجياشة التي كانت تحاول أن تتصورها على ضوء الكتب! ثم تذكرت أول عهدها بالزواج، وتلك النزهات في الغابة، والفيكونت الذي راقصها على أنغام «الفالس»، و«لاجاردى» وهو يغني. كل هذه الرؤى تتابعت أمام ناظريها، ثم رأت «ليون» فجأة بعيداً، وهتفت لنفسها: «ومع ذلك فأنا أحبه!» لا بأس! لم تكن سعيدة، وما كانت أبداً سعيدة! فمن أين هذا الإجداب الذي يشيع في حياتها؟ هذا الانهيار العاجل لكل شيء تستند إليه؟!

ولكن، إذا كان يوجد -في مكان ما- ذلك الكائن القوي، الجميل، كائن ذو فطرة جسورة، زاخرة بالسمو والطهر معاً، قلب شاعر في جسد ملاك، قيثارة ذات أوتار رنانة ترفع إلى السماء قصائد مشجية، فلماذا لا يسوقها القدر إلى هذا الكائن؟ أوَاه! يا له من مستحيل! فضلاً عن أن شيئاً ما لا يستحق عناء البحث عنه، فكل شيء ليس سوى زيف كاذب! كل ابتسامة إنما تخفي تثاؤباً مملولاً، وكل غبطة ليست سوى لعنة، وكل لذة تنطوي على الشبع منها، وأشهى القبلات لا تخلف على شفتيك سوى شوق إلى غبطة أعظم، لا سبيل إليها!

وانبعثت في الجو رنات ثقيلة، وسمعت أربع دقات من ساعة الدير، الساعة الرابعة! ومع ذلك فقد خيل إليها أنها مكثت في مكانها، على هذا الوضع، دهراً، فإن المشاعر الفياضة التي تبدو كأن لا نهاية لها، قد تضغط في دقيقة، كما يحشد جمع في فضاء صغير!

✦✦✦

وعاشت «إيما» بعد ذلك منطوية على نفسها، وأصبحت -كالأرشيدوقات- لا تحفل بشئون المال مطلقاً، على أنه لم يلبث أن جاء إلى البيت - في أحد الأيام- رجل زري الهيئة، محمر الوجه، أصلع الرأس، قال أنه موفد من لدن السيد «فانكار» من (روان).

وانتزع الدبابيس التي كانت تحكم الجيوب الداخلية في سترته، وبعد أن ثبتها في كمه، قدم إليها ورقة، فاذا بها سند بسبعمائة فرنك، يحمل توقيعها، وقد حوله «لوريه» إلى «فانكار» رغم عهوده. وأوفدت خادمها إلى «لوريه»، ولكنه لم يكن قادراً على المجئ. وإذ ذاك، قال الغريب -الذي ظل واقفاً، يوزع نظرات فضولية ذات اليمين وذات الشمال- من تحت حاجبيه الكثيفين: «أي رد أحمله إلى السيد فانكار؟» فأجابت «إيما»: «آه، قل له إنني لا أملك المبلغ، سأدفعه في الأسبوع القادم، فلينتظر! أجل، إلى الاسبوع المقبل! وانصرف الرجل دون أن ينبس بكلمة، بيد أنها تلقت في الساعة الثانية عشرة من النهار التالي، إنذاراً، وازعجها منظر الورق الذي كان يحمل عدة أختام كتب عليها بحروف كبيرة: «الأستاذ هارنج، محضر محكمة بوشي» فهرعت مندفعة إلى بائع الأقمشة، فوجدته في متجره يعد طرداً.

قال: «خادمك! أنا تحت أمرك!» ومع ذلك فقد استأنف «لوريه» عمله، تعاونه فتاة في نحو الثالثة عشرة من العمر، محدودبة الظهر قليلاً، كانت تساعده في عمله وفي تدبير منزله في آن واحد. وأخيراً تقدم مدام «بوفاري» -وقبقاباه يقرقعان على الأرض الخشبية- صاعدا إلى الطابق الأول، وادخلها حجرة ضيقة، حيث قام مكتب ضخم من خشب صلب، يحمل بعض سجلات، يحتجزها قضيب عريض من حديد، أمتد في وضع أفقي، وثبت بقفل. وإلى جوار الحائط -تحت بعض «فضلات» من القماش الخشن- لمحت «إيما» خزانة حديدية، ذات حجم يوحي بأنها تضم -إلى جانب المستندات والنقود- شيئاً آخر، فقد كان السيد «لوريه» يمارس الاقراض مقابل رهون، وفي هذه الخزانة أودع سلسلة مدام «بوفاري» الذهبية، مع أقراط «تيلييه»، الكهل المسكين، الذي اضطر في النهاية الى بيعها له، واشترى متجراً هزيلاً للبدالة في (كنكامبو)، حيث كان يحتضر -تحت وطأة الربو- بين الشموع التي كانت أقل صفرة من وجهه! وجلس «لوريه» في مقعد كبير من الخيزران وهو يقول: «هل من جديد؟» فهتفت: «اليك»! وأطلعته على الورقة، فقال: «حسناً، وكيف استطيع أن اساعدك؟» فاشتد غضبها، وراحت تذكره بالوعد الذي قطعه على نفسه بأن لا يحول سنداتها، واعترف بذلك قائلاً: «ولكنني كنت مضطراً، كانت السكين على عنقي». فقالت: «وما الذي سيجري الآن؟».

- آه، أمر سهل جداً. حكم من المحكمة، ثم توقيع الحجز.

وقاومت «إيما» نفسها حتى لا تصفعه، وتساءلت في لطف عما إذا كانت ثمة وسيلة لاستمهال السيد «فانكار».

- آه! بديع! استمهال فانكار! انك لا تعرفيه، فهو أكثر شراسة من أي وحش كاسر!

ومع ذلك، كان لابد للوريه من أن يتدخل. «اذن، اسمعي! يبدو لي أنني كنت مفرط الطيبة معك، حتى الآن» وفتح أحد هذه السجلات، قائلاً: «انظري!» واجرى أصبعه في الصفحة قائلاً: «لنر. لنر الثالث من أغسطس مائتا فرنك، السابع عشر من يونيه: مائة

وخمسون، الثالث والعشرون من مارس:أربعة وستون في أبريل... ». وأمسك، وكأنه خشى أن يخطئ، ثم قال: «ولست اذكر السندين اللذين وقعهما السيد «بوفاري»، أحدهما بسبعمائة فرنك، والآخر بثلاثمائة، أما حساباتك البسيطة، مع الفوائد، فلا نهاية لها. إن الإنسان ليتوه فيها، ومن ثم لن أتورط أكثر من هذا»! وبكت إيما، بل راحت تلقبه بعزيزها السيد لوريه الطبيب! ولكنه كان دائماً يلقي المسئولية عليّ «ذلك الوغد فانكار»، فضلاً عن أنه لم يكن يملك سنتيماً واحداً، فان أحداً لم يعد يدفع له نقوداً، بل كانوا، «يأكلون الصوف على ظهره»! وما كان لتاجر فقير مثله أن يقرض الناس. وصمتت «ايما»، ولا ريب أن السيد لوريه -الذي كان يعض زغب ريشة الكتابة- أحس بقلق لصمتها، إذ استأنف كلامه قائلاً: «وما لم أحصل في يوم من هذه الأيام على ايراد، فقد... ».

وقاطعته إيما قائلة: «ثم أن بقية ثمن عقار (بارنفيل)..» فهتف: «ماذا؟» وما إن سمع أن «لانجلوا» لم يدفع بعد، حتى اشتدت دهشته، ثم قال في لهجة معسولة: «اذن، اتفقنا، أليس كذلك؟».

- آه! على أي شيء تريد أن نتفق؟!

فأغمض عينيه مستغرقاً في التفكير، وكتب بضعة أرقام، ثم أعلن أن المسألة ستكون جد عسيرة، لأنها محفوفة بالشك، وهو قد مني بخسائر فادحة. ثم كتب أربعة سندات، قيمة كل منها مائتان وخمسون فرنكا، وتستحق في أربعة أشهر متوالية، وقال: «هذه هي سسبيل التسوية، لو أن «فانكار» قبل وساطتي. ومع ذلك، فاعتبريها قد سويت، فأنا لا أراوغ، أنني صريح للغاية!» ثم عرض عليها -في غير اكتراث- عدداً من السلع الجديدة، ولكن أيا منها لم تكن في رأيه يليق بالسيدة.

- كلما فكرت في أن قماشاً -كهذا- يباع المتر منه بسبعة سنتيمات، وألوانه ثابتة! ومع ذلك فهم يقبلون على شرائه بنهم! انك بالطبع تدركين أن المرء لا يصارحهم حقيقته.

وكان يرجو بهذا الاعتراف بعدم أمانته مع الآخرين، أن يقنعها بوفائه لها. ثم ناداها -إذ انصرفت- ليريها ثلاث ياردات من قماش التقطه في «أوكازيون» منذ عهد قريب، وقال: «أو ليس جميلاً؟ إنه الآن رائج الاستعمال لصون ظهور المقاعد، أنه النوع الشائع!» وبأسرع من «الحاوي» لف القماش في ورق أزرق، ودفعه إلى يدي إيما، فقالت «ولكنني أريد أن أعرف على الأقل... » فأجاب وهو يولي عنها: «آه! في وقت آخر».

✦✦✦

في ذلك المساء، استحثت «إيما» زوجها على الكتابة لأمه يسألها أن ترسل إليه بأسرع ما يمكن بقية ميراثه. وأجابت الحماة بأنه لم يعد لديها باق، وأن التصفية قد انتهت، ولم يبق له -بعد (بارنفيل)- سوى دخل قدره ستمائة فرنك، سترسله إليه في موعده.

فسارعت مدام «بوفاري» إلى الكتابة لاثنين أو ثلاثة من المرضى تذكرهم بحسابهم -قبل موعده- وتوسعت في استغلال هذه الطريقة التي كانت دائماً موفقة. وكانت تحرص دائماً على أن تردف المطالبة بهذه العبارة: «أرجو أن لا تذكر الأمر لزوجي، فأنت تعرف مدى اعتداده بكرامته. ولا تؤاخذني. المطيعة.» وتسلمت بعض احتجاجات متذمرة، فأخفتها عن زوجها، وشرعت -كي تحصل على نقود- في بيع قفازاتها وقبعاتها القديمة، وكثير من الأشياء المهملة. وكانت تساوم في براعة، وقد اسعفها أصلها الريفي. وكانت -خلال رحلاتها إلى المدينة- تبتاع بأزهد الأسعار، الأشياء المستعملة التي كانت واثقة من أن السيد «لوريه» سيشتريها منها ليغش بها الغير ابتاعت ريش نعام، وخزفاً صينياً، وحقائب للسفر. وأخذت تقترض من «فيليسيتيه»، ومن مدام «لوفرانسوا»، ومن صاحبة فندق «الصليب الأحمر»، ومن كل شخص، أينما كانت. ودفعت -من النقود التى تسلمتها من (بارنفيل) أخيراً- قيمة سندين، ثم حل موعد الألف وخمسمائة فرنك الأخرى، فجددت السندين. وهكذا ظلت السندات مستمرة.

وكانت تحاول -في الحق- أن تقوم بعمليات حسابية في بعض الاحايين، ولكنها كانت تتبين أن النتائج باهظة إلى حد لم تكن تصدق أنه ممكن، فكانت تشرع في الحساب من جديد، فسرعان ما ترتبك، ثم تنفض يديها من الأمر، فلا تعود تشغل بالها به! وأصبح البيت كئيبا جداً، فكان الباعة يشاهدون -وهم يبرحونه- وعلى وجوههم امارات الغضب، والمناديل ملقاة حول المدفأة، و«بيرت» الصغيرة ترتدى جوارب مثقوبة، الأمر الذي كانت مدام «هوميه» تستنكره، وكانت «إيما» -إذا نبهها «شارل» في تحرج وخجل- تجيب في جفاء بأن الذنب ليس ذنبها، فلم كانت هذه الثورات والفورات؟ كان «شارل» يعزو كل شيء إلى مرضها العصبي القديم، ويتوق إلى أن يحتويها بين ذراعيه، ولكنه كان يقول لنفسه: «آه، لا! إنني قد أضايقها!» ويمسك عن ابداء عاطفته. وكان بعد الغداء يتمشى في الحديقة وحيداً، ثم يجلس «بيرت» على ركبتيه، ويبسط صحيفته الطبية، محاولاً أن يعلمها القراءة، ولكن الطفلة التي لم تتلق قط أى درس، كانت لا تلبث أن ترفع إليه عينين واسعتين، حزينتين، ثم تنخرط في البكاء، وإذ ذاك كان يسري عنها، ويبادر فيحمل اليها ماء في دلوها لتنشىء به انهاراً في الدرب الرملي بالحديقة، أو يقطع بعض فروع من النباتات النامية على السياج، لتغرسها في الأحواض، وما كان هذا ليلحق كثير ضرر بالحديقة التى انتشرت فيها -إذ ذاك- الأعشاب الفطرية، إذ كانا مدينين لليستيبودوا بأجر أيام كثيرة!

ولا تلبث الطفلة أن تشعر بالبرد، فتطلب أمها. وكان «شارل» يقول لها: «نادي مربيتك يا صغيرتي، فأنت تعلمين أن أمك لا تحب إزعاجاً!»

وكان الخريف قد أقبل، وتساقطت أوراق الشجر. ها قد انقضى عامان منذ مرضت «إيما»! ترى متى سينتهي كل هذا؟.. وكان «شارل» يذرع الحديقة مفكراً، ويداه

معقودتان خلف ظهره، والسيدة في مخدعها، الذي لم يكن يدخله أحد، كانت تمكث فيه طيلة النهار، فاترة الهمة، تكاد تكون عارية، تحرق من وقت لآخر بعض البخور المعطر، الذي ابتاعته من متجر عربي باحدى جزائر (روان). وكانت قد نجحت أخيراً -بحيل بارعة- في إقصاء «شارل» إلى الطابق الثاني، حتى لا ترى «هذا الرجل» مستلقياً إلى جوارها بالليل. وأخذت تنصرف -حتى الصباح- إلى قراءة كتب إباحية، مليئة بالرسوم الخليعة والمواقف المثيرة، وكثيراً ما كان الخوف يستولى عليها، فتصرخ، ويهرع إليها «شارل»، فتقول له: «آه! انصرف» أو يشتد اكتواؤها بذلك اللهب الداخلي الذي كان الفسق يذكيه، فتسرع الى النافذة تفتحها وهى تلهث، وترتجف، وقد استبدت بها الشهوة! وتروح تستنشق الهواء البارد، وتطلق خصلات شعرها الغزير للريح، وتتأمل النجوم، وهى تصبو إلى أن يعشقها أمير! وكانت تفكر في «ليون»، فتود إذ ذاك لو تنزل عن أي شيء في سبيل لقاء من تلك اللقاءات التي كانت تروى ظمأها!

وأقبلت أيام المهرجانات، فشاءت أن تنعم بها على أروع وجه. ولما كان «ليون» لا يملك أن يضطلع وحده بالنفقات، فقد أخذت تسد النقص بسخاء، في كل مرة على وجه التقريب. وحاول أن يقنعها بأن في وسعهما أن ينعما بصحبتهما في مكان آخر، فى فندق أكثر تواضعاً من فندقهما، ولكنها كانت تجد دائما حججاً للمعارضة. وفي ذات يوم، أخرجت من حقيبتها ست ملاعق فضية -كانت هدية «روو» الأب بمناسبة زفافها- وسألته أن يبادر برهنها بالنيابة عنها، فأطاع «ليون»، وإن ساءته هذه المهمة، إذ كان يخشى أن يورط نفسه. وما لبث أن هداه التفكير إلى أن تصرفات عشيقته كانت تزداد غرابة، وأن من المحتمل أن أصدقاءه لم يكونوا مخطئين حين أرادوا أن يفرقوا بينه وبينها. إذ حدث أن أرسل بعضهم إلى أمه خطاباً طويلاً -لا يحمل توقيعاً- ينذرها بأنه «يدمر حياته مع امرأة متزوجة!» فأسرعت السيدة الصالحة -إذ لمحت لفورهاذلك الشبح الذي يؤرق الأسرات، ذلك الجني، الوحش الذي يسكن في أعمق أغوار الحب! وكتبت إلى الأستاذ «ديبوكاج» -رئيسه- الذي تصرف خير تصرف، إذ استبقاه ثلاثة أرباع الساعة يحاول أن يبصره، وأن يحذره من الهوج التى يتردى فيها، فإن مثل هذه العلاقة غير المشروعة قد تلحق به أبلغ الضرر فيما بعد، حين ينشيء لنفسه مكتباً. وأخذ يرجوه أن يقطع صلاته بعشيقته، وإذا لم يشأ أن يقدم على هذه التضحية لمصلحته الخاصة، فليفعلها على الأقل من أجله هو، من أجل «ديبوكاج»!

✦✦✦

أقسم «ليون» في النهاية بأن لا يعود إلى لقاء «ايما»، وكان لا يفتأ يلوم نفسه لأنه لم يف بوعده، ويقدر مدى المتاعب والأقاويل التي تعرضه لها هذه المرأة، فضلاً عن الدعابات التي كان زملاؤه يتفكهون بها حين يجتمعون حول المدفأة في الصباح! ثم إنه كان

موشكاً أن يغدو على رأس الكتيبة عما قريب، ومن ثم رأى أن الوقت قد حان ليستقر، وانه يتعين عليه أن ينبذ موسيقاه، وعواطفه المشبوبة، والخيال. فكل رجل من أبناء الطبقة المتوسطة، يؤمن في فورة صباه -ولو ليوم واحد أو دقيقة واحدة- بأنه قادر على العواطف العارمة، وعلى جلائل الأعمال، وأكثر العابثين اعتدالاً، يحلم بالسلطانات و(الحريم)، وكل موثق للعقود يحمل في أعماق شخصيته اطلال شاعر! وأصبح «ليون» يضيق بإيما، حين تبكي فجأة - وهي منطرحة على صدره- وغدا قلبه شبيهاً بأولئك الذين لا يحتملون من الموسيقى إلا قدراً معيناً، ثم يغالبهم النعاس. غدا قلبه يغفو على صوت حب لم يعد يستمريء لذاذاته! فلقد أصبح كل منهما يعرف الآخر تماماً، ومن ثم لم يهتز لتلك النشوة التي تترتب على المضاجعة فتضاعف بهجتها مائة مرة. وكانت «إيما» من ناحيتها قد سئمته بقدر ما ملها، فقد عادت تجد في الفسق كل ما في الزواج من استرسال رتيب! ولكن، ترى كيف تتخلص منه؟!

وكانت لا تلبث، رغم شعورها بالخسة لوضاعة هذه الغبطة، أن تتشبث بها، نزولاً على حكم العادة، أو بدافع الفساد. وأخذت تزداد استنزافاً لها في كل يوم، مرهقة كل متعة في الرغبة، إلى أقصى الحدود. وأخذت تلقي على «ليون» ذنب آمالها الخائبة -وكأنه كان يخونها- بل لقد راحت تتمنى كارثة تعجل بفراقهما، مدام قد عز عليها أن تجد الجرأة للبت في الأمر. ومع ذلك، فقد ظلت تكتب له رسائل الهوى، وفقاً للرأي الذي يوجب على المرأة أن تكتب لعشيقها باستمرار، ولكنها كانت -حين تكتب- تتمثل رجلاً آخر، طيفاً تصوغه من أكثر ذكرياتها استعاراً، ومن أرق ما قرأت، ومن أقوى شهواتها، وما لبث هذا الطيف أن أصبح يبدو لها حقيقة أليفة سهلة المنال، بدرجة كانت تجعلها ترتجف مبهورة، وإن لم تستطع أن تتصور هذا الطيف في صورة واضحة، إذ كان أشبه بإله يتوارى خلف صفاته الجليلة! كان يعيش في عالم لازوردى -تتدلى من شرفاته سلالم حريرية- بين أنفاس الزهور، وفي ضياء القمر. كانت تحسه قريباً منها، ولن يلبث أن يوافيها، فيحملها بعيداً في قبلة! وكانت لا تلبث أن تتهالك منهوكة القوى، فإن هذه النوبات من الهوى المبهم كانت أشد إرهاقاً لها من الفسق السافر!!

وأصبحت تشعر بآلام دائمة تشغل كل جسمها، وكثيراً ما كانت تتسلم إنذارات، وأوراقاً تحمل اختاماً رسمية، فلا تكاد تنظر إليها. وباتت تتمنى أن لا تكون على قيد الحياة، أو أن تروح في سبات دائم! وفي مساء اليوم الذي انتصف فيه الصوم الكبير، لم تعد إلى (ايونفيل)، بل ذهبت إلى حفلة راقصة تنكرية، وقد ارتدت سروالاً (بنلطونا) من المخمل، وجوربين أحمرين، وشعراً مستعاراً، وقبعة ثلاثية الجوانب، مائلة على إحدى اذنيها، وظلت ترقص طيلة الليل، على أنغام الأبواق الصاخبة، وقد التف حولها القوم. وألفت نفسها -في الساعات الأولى من الصباح- على درجات سلم المسرح، مع خمسة أو ستة من الراقصين المتنكرين في ثياب حمالى الميناء، والملاحين، كانوا زملاء «ليون». وأعربوا عن رغبتهم في طعام، وكانت المقاهي القريبة ممتلئة بالرواد، ولكنهم عثروا في

الميناء على مطعم متواضع، قادهم صاحبه إلى غرفة صغيرة في الطابق الرابع، وأخذ الرجال يتهامسون في أحد الأركان، وكانوا ولا ريب يتشاورون في أمر النفقات، وكانوا: كاتباً، واثنين من طلبة الطب، ومستخدماً في أحد المتاجر، يا له من وسط تأنس إليه! أما النساء، فإن «إيما» سرعان ما أدركت من لهجتهن أنهن ولابد ينتمين إلى أدنى طبقة في الغالب، وإذ ذاك جزعت، ودفعت بمقعدها إلى الوراء، وغضت بصرها.

وشرع الآخرون يأكلون، أما هي فلم تصب من الطعام شيئاً. كان جبينها متقداً، وجفناها ملتهبين، وبشرتها في برودة الثلج، وخيل إليها أنها تحس بأرض المرقص تهتز تحت الضجيج المنتظم الناشيء عن آلاف الأقدام الراقصة، وما لبثت الرائحة المنبعثة من الجماعة، ودخان السجائر، أن اصاباها بدوار، ثم أغمي عليها، فحملوها إلى النافذة. وكان النهار ينبثق، وقد أخذت بقعة كبيرة من اللون الارجواني تنتشر منبعثة من الأفق الشاحب فوق تلال «سانت كاترين»، وكان النهر يرتعش بفعل الريح، وليس على الجسور عابر واحد، ومصابيح الشوارع تخبو. واستردت «إيما» رشدها، فشرعت تفكر في «بيرت» النائمة بعيداً، في غرفة الخادم. ثم مرت عربة محملة بقضبان من الحديد، محدثة صوتاً معدنياً يصم الآذان. وتسللت «إيما» فجأة إلى الخارج، فخلعت ثياب التنكر، وانبأت «ليون» بأنها يجب أن تنصرف.

وخلت إلى نفسها أخيراً في فندق «بولون». لقد أصبح كل شيء -حتى نفسها- لا يطاق. وتمنت لو كان لها جناحان كالطيور، فتنطلق طائرة إلى مكان ما، إلى اصقاع بعيدة، طاهرة، ترتد فيها إلى الشباب ثانية!

✦✦✦

وخرجت، فاجتازت الطريق، وميدان (كوشواز)، والضاحية، حتى بلغت أخيراً طريقاً واسعة تفضي إلى بعض الحدائق. وكانت تمشي مسرعة، وقد سرى عنها الهواء المنعش، وأخذت وجوه الحشد، والأقنعة، والراقصون، والأضواء، والمائدة، وتلك النسوة، أخذت كل هذه تتلاشى رويداً كضباب يتشتت حتى إذا بلغت فندق «الصليب الأحمر»، ألقت بنفسها على السرير في غرفتها بالطابق الثاني، حيث كانت ثمة صور تمثل مناظر (توردونك).

وايقظها «هيفير» -سائق العصفورة- في الساعة الرابعة. فلما بلغت دارها، أطلعتها «فيليسيتيه» على ورقة سمراء، كانت خلف الساعة. وقرأت فيها: «إنذار بالحجز تنفيذاً لحكم قضائي». أي حكم؟ الواقع أن ورقة أخرى حملت إليها في الليلة السابقة، فلم تكن قد أطلعت عليها بعد. وبهتت لهذه الكلمات: «باسم الملك، والقانون، والعدالة... إلى مدام بوفاري». ثم أغفلت بضعة أسطر وقرأت: «في خلال أربع وعشرين ساعة، لا غير...» ماذا «ان تدفع ثمانية آلاف فرنك». ثم في النهاية: «... وإلا أجبرت بكافة الطرق

القانونية، وأخصها توقيع الحجز على اثاثها وممتلكاتها » ترى ما الذي يمكن عمله؟ في أربع وعشرين ساعة. أي غداً! وخطر لها أن «لوريه» ربما أراد أن يرهبها، فقد خبرت كل حيلة، وأدركت الغاية التي كان يسعى إليها بما كان يبديه من إكرام! وكان أكثر ما أكد لها ذلك، ضخامة المبلغ. على أنها بالاقتصار على الشراء دون الدفع، وعلى الاقتراض، وتوقيع السندات، وتجديد هذه السندات التي كانت تزداد في كل مرة، قد انتهت إلى تكوين رأس المال الذي كان السيد «لوريه» يرتقبه بصبر نافد لتحقيق مشروعاته!

وولجت داره، وقد كظمت غيظها، وبادرته قائلة: «لعلك تعرف بما جرى لي؟ أنها ولاشك حيلة!».

- لا.

- وكيف ذلك؟

فاشاح عنها ببطء، وبسط ذراعيه قائلاً لها: «أظننت يا سيدتي الشابة أنني سأظل إلى الأبد اقرضك وأقوم بمهمة الصراف لك، لوجه الله؟ من حقي أن استرد الآن ما قدمت، ألا كوني عادلة، منصفة!» فعارضت في قيمة الدين، ولكنه قال: «آه! على رسلك! لقد اقرته المحكمة! هناك حكم قضائي! وقد أخطرت به! ثم أن هذا ليس ذنبي، وإنما ذنب فانكار».

- أو ليس في وسعك. . .

- آه!. . . ليس بوسعي شيء على الاطلاق.

- ولكن هذا لا يمنع أن نتدبر.

وشرعت تجس نبضه، قائلة أنها لم تكن تعرف شيئاً عن الأمر، بل فوجئت به. فقال «لوريه» منحنياً في سخرية: «وذنب من هذا؟ انك تستمتعين بأطيب الأوقات، بينما أعمل أنا كالعبد المسخر!».

- آه! لا داعي للمواعظ.

- أنها لا تضر أبداً.

وأخذت تتذلل، وتضرعت إليه، بل إنها ربتت بيدها الجميلة، الغضة، البيضاء ركبة التاجر.

- لا دعيني! إن من يرانا يقول انك تسعين إلى اغوائي!

فصاحت: «انك لتعس!» فأجاب ضاحكاً: «آه، آه! هات ما عندك!».

- سأفضح أمرك. سأقول لزوجي.

- لا بأس! وسأريه من ناحيتي شيئا ما.

ثم أخرج «لوريه» من خزانته ايصالاً بالألف وثمانمائة فرنك التي اعطاها اياها عندما

خصم «فانكار» السندات، وعقب قائلاً: «أو تظنين أنه لن يفهم سرقتك البسيطة هذه؟ يا لهذا الرجل العزيز المسكين!».

وانهارت، أكثر تداعياً مما لو كانت قد ضربت بفاس! بينما راح هو يسير بين المكتب والنافذة، مردداً طيلة الوقت: «آه! سأريه!» ثم اقترب منها قائلاً في صوت متلطف: «أعرف أنه ليس بالأمر السار، ولكن المعركة بغير قتلى، على أية حال، وبما أن هذه هي الطريقة الوحيدة التى بقيت لك كي تدفعي مالي...» فصاحت وهي تشد ذراعيها: «ولكن، أين أجد لك مالا؟».. قال: «آه! باه! عندما يكون لامرىء مثلك أصدقاء!» وأخذ يتفرس فيها بنظرات حادة، مزعجة، أرسلت رجفة سرت إلى أعماقها. وعادت تقول: «أعدك بأن أوقع».

- عندي ما يكفيني من توقيعاتك.

- ولسوف أبيع أيضاً.

قال وهو يهز كتفيه: «دعك من هذا، فليس لديك ما يباع».

ثم صاح خلال الكوة المطلة على المتجر! «آنيت، لا تنسي الفضلات الثلاث المتبقية من القماش رقم ١٤». وأقبلت الخادم، فأدركت «إيما» اشارته، وسألته عن المبلغ الذي يطلبه لوقف الاجراءات. فقال: «لقد فات الأوان!».

- ولكن، إذا أحضرت لك عدة آلاف من الفرنكات، ربع المبلغ، ثلثه، ربما كله؟

- آه! لا، لا جدوى.

ودفعها برفق صوب السلم، فقالت باكية: «اتوسل إليك يا سيد «لوريه»، أمهلني بضعة أيام أخرى!»

- آه! جميل، دموع!

- انك تدفعني إلى اليأس.

فقال وهو يغلق الباب: «ليس هذا من شأني!»

الفصل السابع

تجلدت «إيما» في اليوم التالى، حين أقبل على دارها الأستاذ «هارنج» -المحضر- واثنان من الشهود، لتوقيع الحجز. وبدأوا بحجرة عيادة «بوفاري»، ولكنهم لم يثبتوا في سجلاتهم الجمجمة التي اعتبرت من «أدوات المهنة». أما في المطبخ فقد أحصوا الصحاف وأوعية الطهو، والمقاعد والشمعدانات، كما أحصوا في غرفة النوم كل التحف التي كانت علي الرف، وعاينوا أثوابها، والملابس الداخلية، وحجرة الزينة -الملحقة بالمخدع- بل وكان ما كان على جسمها -إلى أدق الثياب الداخلية!- وكأنها جثة تحت التشريح، أمام عيون الرجال الثلاثة!. وكان الاستاذ «هارنج» -في سترته السوداء المحكمة حول جذعه، ورباط عنقه الأبيض، وحذاءيه بسيورهما المحكمة حول قدميه- يردد بين آن وآخر: «أتسمحين يا سيدتي؟ اتسمحين؟» وكان يهتف أحياناً: «ما أبدع هذا! ما أجمله!» ثم يعاود الكتابة غامساً ريشته في محبرة حملها في يده اليسرى. حتى إذا فرغوا من الحجرات، صعدوا إلى غرفة المخزن (التي تحت السقف المحدودب). كانت «إيما» تحتفظ فيها بمكتب أودعته خطابات «رودولف» وكان لابد من فتحه، وقال الأستاذ «هارنج» في ابتسامة وقحة: «آه! مراسلات! ولكن، اسمحي لي! إذ لابد أن أتأكد من أن الصندوق لا يحتوى على شيء آخر!» وطرق الأوراق بخفة، وكأنه كان يرجو أن تسقط من بينها دنانير نابليونية. وإذ ذاك، اشتد غضبها إذ رأت تلك اليد الغليظة، ذات الأصابع الحمراء، الرخوة، تمس تلك الصفحات التي خفق لها قلبها!

وانصرفوا أخيراً، وعادت «فيليسيتيه»، التي كانت «إيما» قد أرسلتها لتعوق «بوفاري» عن المجيء. وبادرتا إلى حمل الرجل -الذي ترك للحراسة- على الصعود إلى المخزن العلوي، حيث أقسم أن يبقى.

✦✦✦

بدا «شارل» في تلك الليلة لإيما مهموماً، فراحت ترمقه بنظرة خائفة، متوجسة، وهي تخال في كل خط من تجاعيد وجهه اتهاماً. وكانت إذا طاف بصرها بالمدخنة المزدانة بحاجز صيني منقوش، وبالستائر العريضة، والمقاعد الوثيرة، كل تلك الأشياء التي خففت من مرارة حياتها، لا تلبث أن تشعر بالندم أو بالأحرى، بأسف بالغ، يهيج عواطفها، بدلاً من أن يسحقها! وراح «شارل» يحرك النار في فتور وبعقل شارد، مسنداً قدميه إلى حافتي المدفأة.

وحدث أن صدرت عن الرجل -المختبيء في المخزن- حركة طفيفة، إذ ضاق ولاشك

بحبسه، فقال «شارل»: «هل هناك من يسير في الطابق العلوي؟» فأجابت: «لا، أنها نافذة تركت مفتوحة، فأخذ الهواء يعبث بها!»

وكان اليوم التالى من أيام الأحد، فسعت إلى (روان) لتطوف ببعض الصيارف الذين كانت تعرف اسماءهم، فاذا بهم في نزهات أو رحلات خارج المدينة. ولم يثبط هذا من عزيمتها، فاستطاعت أن تقابل عدداً منهم، وتطلب منهم المبلغ، قائلة أنها فى حاجة إليه، وانها لن تلبث أن تسده، وضحك بعضهم منها دون حياء، ورفضوا جميعا، حتى إذا كانت الساعة الثانية، هرعت الى منزل «ليون» وطرقت بابه، فلم يفتح لها، وما لبث أن ظهر في النافذة!

- ماذا أتى بك؟

- أفهكذا أزعجك؟

- لا، ولكن.

وصارحها بأن صاحب البيت لم يكن يحب استقبال «نساء» في داره. فقالت له: «لابد لي من أن أتحدث إليك». وإذ هم بأن يدلي بالمفتاح إليها، استوقفته قائلة: «آه، لا، هناك في حجرتنا». ومن ثم ذهبا إلى «حجرتهما» في فندق «بولونى». وما إن وصلا، حتى شربت كوبا كبيراً من الماء، وكانت شديدة الشحوب، وقالت له: «ليون، هل تسدي لي خدمة؟» وأمسكت به في قوة، وهزته قائلة: «اسمع، أنني بحاجة إلى ثمانية آلاف فرنك».

- ولكنك مجنونة!

- لا، لم أجن بعد!

وروت له قصة الحجز، مبينة له محنتها، فقد كان «شارل» يجهل كل شيء وحماتها تكرهها، والأب «روو» لا يملك لها عوناً، ولكنه هو -ليون- يستطيع أن ينطلق بحثاً لها عن هذا المبلغ الذي لم يكن عنه غنى.

- كيف تريدين...؟

فصاحت: «ما أنذلك!»

✦✦✦

وما لبث ليون أن قال مهوناً: «انك تبالغين في تصوير الشر، فربما أمكن بألف دينار استمهال صاحبك». وكان هذا ادعى لأن يحاول أن يفعل شيئاً، فمن المستحيل أن يعجزا عن العثور على ثلاثة آلاف فرنك، فضلاً عن أن «ليون» قد يستطيع ابرام الصفقة لأنه «أضمن» منها.

- أمض! حاول! يجب عليك! أجر. آه، ألا أسرع، أسرع! لسوف ازداد لك حباً!

وانصرف، ثم عاد بعد ساعة، فقال بوجه مكتئب: «ذهبت إلى ثلاثة أشخاص، دون أن أوفق». وظلا بعد ذلك جالسين متقابلين، إلى جانبي المدفأة، لا يحيران حراكاً، ولا ينبسان بكلمة. وما لبثت «ايما» ان هزت كتفيها، ودقت الأرض بقدمها، وسمعها تغمغم: «لو كنت في مكانك لاستطعت أن أجد المبلغ سريعاً!»

- ولكن من أين؟

- من المكتب الذي تعمل فيه!

وحدجته بنظرة، فاذا بجرأة متهورة تطل من مقلتيها المتقدتين، بينما استرخى جفناها في اغراء داعر، وتشجيع، حتى أحس الشاب بنفسه يزداد عجزاً أمام أرادة هذه المرأة التي كانت تستحثه على ارتكاب جريمة. على أنه خاف. ولكي يتفادى أي حوار في هذا الصدد، ضرب جبينه براحته صائحاً: «من المقرر أن يعود موريل الليلة! وهو لن يرفض لي طلباً على ما أرجو!» (وكان هذا من أصدقائه، ابناً لتاجر عظيم الثراء) واستطرد قائلاً: «وسأحضر لك المبلغ هناك غداً».

ولم يبد على «إيما» أى استعداد لأن ترحب بهذا الأمل الذي صوره لها. افتراها تحدس أنه يكذب؟ وعاد يقول متضرج الوجه: «وفي الوقت ذاته، إذا لم تريني خلال ساعات، فلا تمكثي في انتظاري يا حبيبي، إذ لا بد لي من الانصراف، فاسمحي لي، وداعا!».

وضغط يدها، فأحس بها فاترة، إذ لم تبق لايما قدرة على أية عاطفة أو احساس، وظلت حتى دقت الساعة مؤذنة بالرابعة، فنهضت لتعود إلى (ايونفيل) في انصياع، كجهاز آلي يعمل بدافع العادة.

✦✦✦

كان الجو بديعاً، إذ كان اليوم من أيام مارس الصافية، الصحوة، التي تتألق فيها الشمس في سماء بيضاء. وكان فريق من أهالي (روان) يتنزهون مغتبطين، وبلغت «إيما» ميدان «بارفي»، فإذا الناس منصرفون بعد صلاة الغروب، وقد تدفقت جموعهم خلال أبواب الكاتدرائية الثلاثة، كفيض ينساب تحت ثلاثة عيون لأحد الجسور. ووقف الحارس السويسري في الوسط لا يريم حراكاً، كأنه الجندل! إذ ذاك، تذكرت اليوم الذي أقبلت فيه مضطربة، وأمل يملأ نفسها، فولجت هذا الفناء الفسيح الذي بدأ أمامها أقل اتساعاً من حبها.

وواصلت سيرها وهي تبكي تحت قناعها، مترنحة، تحس بالأرض تميد تحت قدميها، وتوشك أن تقع مغشياً عليها. وصاح صوت انبعث من بوابة قصر فتحت لتنطلق خلالها عربة: «انتباه!» فوقفت لتخلي الطريق لجواد أسود، راح يصك الأرض، بين ذراعي عربة خفيفة يقودها رجل في فراء أسمر، ترى من هو؟ إنها تعرفه، ومرقت العربة كالسهم،

واختفت ولكن، إنه بعينه، الفيكونت! وانحرفت إلى شارع مقفر، واشتدت بها الحيرة اليائسة، والحزن، حتى اضطرت إلى أن تستند إلى جدار، لتتلافى السقوط على الأرض! وخيل إليها أنها ضلت طريقها، وإلا، فهي لم تكن تعرف شيئا! كل ما فيها، وكل من حولها، كان يهجرها، وأحست بأنها مضيعة، تائهة، تتخبط على غير هدى، في مفاوز لا نهاية لها. وداخلها الفرح إذ لمحت - عند وصولها إلى «الصليب الأحمر» - هذا الرجل الطيب «هوميه»، يرقب رفع صندوق مليء بالمواد الكيماوية والأدوية إلى «العصفورة»، وقد أمسك في يده منديلاً أودعه ستة أرغفة من النوع المستدير كالعجلة، ابتاعها لزوجته -فقد كانت مدام «هوميه» جد مشغوفة بهذه الأرغفة الصغيرة، الثقيلة، الشبيهة بالعمامة، التي تؤكل في الصوم الكبير مع الزبد المملح، آخر شكل لنوع من الوجبات القوطية التي قد يرجع العهد بها إلى عصر الصليبيين، والتي كان المتعصبون من أهل نورماندیا يستعيدون بها الماضي، ويوهمون أنفسهم بأنهم يرون على المائدة- تحت ضوء الشموع الصفراء، وبين دنان «الهيبوكرا»[(١)] وكتل اللحوم الكبيرة الحجم -رؤوس الصرب معدة ليلتهموها. وكانت زوجة الصيدلي تقضم هذا الخبز الجاف، كما اعتاد القدامى أن يفعلوا، رغم أسنانها المتداعية. ولهذا لم يكن «هوميه» لينسى قط -كلما ذهب إلى المدينة- أن يحضر لها عددا من هذه الأرغفة يبتاعها من المخبز الكبير في شارع «ماساكر».

وقال الصيدلي: «يسعدني أن أراك!». ومد لإيما يداً يساعدها على الصعود إلى «العصفورة»، ثم علق أرغفته في حبال الشبكة، واستقر عاري الرأس، معقود الذراعين، في وضع يوحي بالتفكير والعظمة! ولكنه هتف، حين ظهر الرجل الأعمى عند بداية التل كالمعتاد: «لست أدري لماذا تتساهل السلطات ازاء هذه الشعوذة الاجرامية؟ يجب حبس المنكودين الذين على هذه الشاكلة، واجبارهم على العمل. لعمرى، أن التقدم ليحبو بخطى سلحفائية! أننا نخوض حمأة من البربرية والتأخر!» فبسط الرجل الأعمى قبعته التي راحت تهتز على حافة باب العربة، كأنها جيب في كسوة الباب الداخلية سقطت المسامير التي تثبته إليه، وقال الصيدلي: «هذه عاطفة خنزيرية!».

ومع انه كان يعرف الشريد المسكين، إلا أنه تظاهر بأنه كان يراه للمرة الأولى، وراح يتمتم ذاكراً شيئاً عن «قرنية العين»، و«القرنية المعتمة»، و«تيبس العين»، ثم سأله في لهجة أبوية: «هل أصبت بهذا المرض الفظيع من زمن طويل يا صاحبي؟ خليق بك أن تعنى بتغذية نفسك بدلا من أن تسكر في الحانة!» وراح ينصحه بأن يتناول النبيذ الطيب، والجعة الجيدة، واللحم المشوي، والأعمى سادر في أغنيته. وكان فوق هذا يبدو معتوهاً. وأخيراً، فتح السيد «هوميه» كيس نقوده قائلاً: «هاك (سو)[(٢)] خذ نصفه، وأعد لي

---

(١) «الهيبوكرا» صنف من الشراب يتألف من العسل المخمر والماء

(٢) السو جزء على عشرين من الفرنكات، أي أقل من مليمين بسعر العملة في ذلك الوقت!

النصف.. ولا تنس نصائحي، فلن تلبث أن تشعر بتحسن» فجهر السائق ببعض الشك في جدواها، ولكن الصيدلي قال إنه على استعداد لأن يعالجه بنفسه، ببلسم مسكن للالتهابات من تركيبه، وأعطى الرجل عنوانه قائلاً: «السيد هوميه، بالقرب من السوق، ستجده معروفاً». فهبط الأعمى على ردفيه، ملقيا رأسه إلى الخلف، وهو يحرك عينيه الضاربتين للخضرة، ويهز لسانه خارج فمه، ويفرك بطنه بيديه، مرسلاً نوعاً من الصراخ الاجوف كعواء كلب جائع. وفاض بإيما التقزز، فألقت إليه من فوق كتفها بقطعة من العملة ذات الخمسة الفرنكات، وكانت كل ثروتها، فعن لها أن من المستحسن أن ترميها هي الأخرى.

✦✦✦

كانت العربة قد استأنفت سيرها، حين أطل السيد «هوميه» فجأة من النافذة وصاح: «لا تتناول أغذية تصنع من الدقيق أو الألبان، والبس صوفاً على الجلد مباشرة، وعرض الاجزاء المريضة لدخان حبوب العرعر!»

وما لبث منظار الأشياء المألوفة التي تتابعت أمام عيني «إيما» أن شغلتها رويداً عن همومها الراهنة. واستبد بها تعب لا قبل لها به، وبلغت دارها مشتتة، خائرة، تكاد أن تكون نائمة. فقالت لنفسها: «ليحدث ما لابد من حدوثه!» ثم، من يدري؟ لم لا تتوقع أن يحدث بين لحظة وأخرى حدث غير عادي؟ بل ربما مات «لوريه»!

واستيقظت في الساعة التاسعة من الصباح التالي، على ضجيج أصوات في الميدان. كان ثمة حشد تجمع أمام السوق لقراءة إعلان كبير ملصق على أحد الأعمدة، ورأت «جوستان» يتسلق على حجر، ويجذب هذا الاعلان فيمزقه ولكن الحارس الريفي أمسك بتلابيبه في تلك اللحظة. وخرج السيد «هوميه» من الصيدلية، وبدت الأم «لوفرانسوا» وسط الزحام وكأنها تخطب في القوم.

وأقبلت «فيليسيتيه» صائحة: «سيدتي! سيدتي! هذا شنيع!» وأسلمتها الفتاة المسكينة -وهي في أبلغ حالات التأثر- ورقة صفراء انتزعتها لتوها من علي باب الدار. وقرأت «إيما» بنظرة واحدة إن كل متاعها سيباع، ثم رمقت كل منهما الأخرى في صمت. لم يعد بين الخادم والسيدة سر تكتمه إحداهما عن الآخر، وقالت «فيليسيتيه» أخيراً، وهي تتنهد: «لو كنت مكانك يا سيدتي، لذهبت إلى السيد جيومان»، فقالت: «هل تظنين...؟»

وودت بهذا السؤال أن تقول: «انك لتعرفين أسرار بيته عن طريق خادمه، فهل تكلم السيد عني أحياناً؟»

ـ أجل، اذهبي إليه. لسوف تحسنين صنعاً!

فتهيأت للخروج، مرتدية ثوبها الأسود، وقلنسوتها المزركشة بالخرز. ولكي لا يراها أحد -إذ كان الميدان يعج بالناس دائماً- سلكت الطريق المحاذية للنهر، خارج القرية، وبلغت باب دار موثق العقود، وقد تقطعت أنفاسها. وكانت السماء مكفهرة، والجليد يتساقط رذاذاً. وظهر «تيودور» -على رنين الجرس- عند السلم في «صديري» أحمر، ثم أقبل وفتح الباب في غير ما دهشة أو كلفة، وكأنه يفتحه لزائرة مألوفة. وقادها إلى قاعة المائدة، وكانت ثمة مدفأة من القيشاني تتلظى النار فيها، تحت فروع الصبار التي ملأت فجوة في الحائط كالمحراب، وفي إطارين أسودين على الجدار المكسو بورق مموه بلون شجر البلوط، كانت لوحتا ستيوبان: «أزميرالدا»، وشوبان: «بوتيفار». وكانت المائدة المعدة، وصفحتان فضيتان للمصطلى، ومقابض الأبواب البلورية، والأرضية الخشبية المصقولة، وقطع الأثاث، كانت كلها تلمع في نظافة انجليزية أنيقة. وكان زجاج النافذة مزدانا بقطع من الزجاج الملون في الأركان، فقالت «إيما» لنفسها: «ها هي ذي قاعة طعام من النوع الذي يليق بي!»

✦✦✦

دخل الموثق الحجرة، يضم «ثوب الغرفة» -الروب دو شامبر- الموشى برسوم النخيل، إلى صدره بذراعه اليسرى، بينما أخذ بيده اليمنى يرفع -ثم يخفض بسرعة- قلنسوة بنية من المخمل، كان يميلها، من قبيل الأناقة، إلى الجانب الأيمن من رأسه، حيث كانت تنسدل ثلاث خصلات من الشعر شدت في مؤخر رأسه، لتكسو حافة جمجمته الصلعاء. وبعد أن قدم لها مقعداً، جلس يتناول فطوره، معتذراً عما في هذا من مجافاة للذوق.. فقالت: «إنني أناشدك يا سيد جيومان....» وبادر مجيباً. «ماذا يا سيدتي؟ إنني مصغ!» فراحت تصارحه بالموقف وكان السيد «جيومان» على علم به، إذ كان يستتر وراء تاجر الأقمشة الذي كان يجد عنده المال للقروض التي كان يطلب إليه عقدها بضمان مرهونات، ومن ثم كان يعرف -بل كان أكثر منها معرفة- قصة السندات التي بدأت صغيرة، تحمل أسماء مختلفة لأشخاص كانت تحول إليهم، وتواريخ طويلة الأجل، ثم كانت تجدد باستمرار حتى جمعها التاجر كلها يوماً، وسأل صديقه «فانكار» أن يتخذ عنه الاجراءات اللازمة، رغبة منه في أن لا يبدو كوحش ينهش لحوم بنى بلدته.

وكانت «إيما» تخلط قصتها بالشتائم تهيلها على «لوريه». شتائم كان الموثق يجيب عنها -بين وقت وآخر- بكلمات لا معنى لها، وهو يمضغ قطعة من لحم الضان «الكوستليتة»، ويحتسي الشاي، مخفضاً ذقنه حتى تستقر على ربطة عنقه ذات الزرقة السماوية، التي كان يرصعها دبوسان ماسيان تصل بينهما سلسلة ذهبية صغيرة. وكانت شفتاه تنفرجان عن ابتسامة غريبة، ابتسامة معسولة، ومبهمة. وإذ لمح أن قدميها كانتا مبتلتين، هتف: «ألا اقتربي من المدفأة. ارفعي قدميك إلى حافة القيشاني». ولكنها

خشيت أن تلطخه، فصاح الموثق في لباقة: «إن الأشياء الجميلة لا تتلف شيئاً». وإذ ذاك، حاولت أن تؤثر على أوتار قلبه، وقد جاشت أشجانها، فشرعت تحدثه عن فقر دارها، وعن همومها، وحاجاتها. وقال إنه يدرك ذلك، ورثى لها! وبدون أن يكف عن الأكل، استدار نحوها تماماً، حتى مست ركبتاه حذاءيها اللذين تقلص نعلاهما فانثنيا بفعل حرارة الموقد. ولكنه زم شفتيه حين سألته أن يقرضها ألف دينار، وما لبث أن صارحها بأنه جد آسف لأنه لم يتول أمر ثروتها من قبل، وقد كانت هناك مئات الطرق الملائمة -حتى للسيدات- لاستثمار الأموال، وكان في الوسع المساهمة بها في مناجم (جروسفل)، أو في أراضي (الهافر)، دون ما مجازفة، بل ربما كانا قد استطاعا أن يقدما على بعض المضاربات الرائعة. وتركها تتحرق أسفاً وحسرة على المبالغ الخيالية التي كان بوسعها أن تحصل عليها. واستطرد قائلاً: «كيف حدث أنك لم تأتي إليّ؟» فقالت: «لم أكن أعرف».

– لماذا بالله؟ أفكنت أخيفك إلى هذا الحد؟ على النقيض، أنا الذي كان ينبغي أن يشكو. إننا لا نكاد نكون متعارفين، ومع ذلك فأنا شديد الوفاء لك. آمل أن لا ترتابي في هذا؟

ومد يده فتناول راحتها، وغمرها بقبلات منهومة، ثم استبقاها على ركبته، وراح يعبث بأصابعها في رفق، وهو يغمغم بألف نجوى ناعمة. وكان صوته الخافت ينساب كخرير جدول، وقد راحت عيناه تومضان خلال عدستي نظارته اللامعتين، وزحفت يده على كم «إيما» لتضغط ذراعها، وشعرت بأنفاسه المتهدجة تلفح خدها. كان هذا الرجل يثقل عليها بدرجة فظيعة! فقفزت عن مقعدها وقالت له: «سيدي، إنني انتظر!»، فقال الموثق الذي اشتد شحوبه فجأة: «وماذا تنتظرين؟»

– هذا المبلغ.

– ولكن!

ثم أنصاع لجيشان شهوة عارمة، فقال: «حسناً. أجل!» وجر نفسه نحوها على ركبتيه غير عابيء بثوبه، واستطرد: «ألا امكثي بحق الرحمة، انني أحبك!» وأمسك بخصرها، فاحتقن وجه مدام «بوفاري»، وتراجعت وهي ترمقه بنظرة قاسية، وصاحت: «انك تنتهز فرصة ضائقتي فتستغلها أشنع استغلال. سيدي، انني جديرة بأن يرثى لي، لا بأن أباع!» وانصرفت! وظل الموثق مشدوهاً، وقد علق بصره بخفيه البديعين الموشيين بأشغال الابرة، كانا هدية غرام، وقد وجد في رؤيتهما عزاء، فضلاً عن أنه فطن إلى أن المغامرة التي كان مقدماً عليها، كانت خليقة بأن تورطه إلى حد بعيد.

وراحت تقول لنفسها وهي تطوي درجات السلم في خطى منفعلة وتنطلق في الطريق تحت أشجار الحور: «يا له من نذل»! وأدى الاستياء المترتب على إخفاقها، إلى مضاعفة اعتزازها بعفتها المهانة، وخيل إليها أن العناية الإلهية كانت تلاحقها بما يثيرها، فالتمست من كرامتها وكبريائها تقوية، ابدا لم تشعر من قبل بمثل هذا التقدير لنفسها، ولا بمثل هذا

السخط على الغير. وأحست بروح الصراع تتملكها، فودت لو أنها صفعت جميع الرجال، وبصقت في وجوههم، وسحقتهم جميعا. ومضت في طريقها مسرعة لا تلوي على شيء، شاحبة، مرتجفة، ثائرة، تتطلع إلى الأفق بعينين مغرورقتين بالدموع، وكأنما وجدت في ذلك الحقد الذي كان يخنقها، نوعاً من التسرية. وما أن لمحت بيتها حتى غشيها خور، فأحست بأن ليس في وسعها أن تمضي إليه، ومع ذلك كان من المحتوم أن تمضي، فإلى أين المفر؟

بادرتها «فيليسيتيه» التي كانت في انتظارها لدى الباب: «حسنا؟» فأجابت «إيما»: «لا». وظلت كلتاهما ربع ساعة تستعرضان أسماء مختلف الأشخاص الذين قد يستطيعون أن يمدوا يد العون، من أهل (ايونفيل). ولكن «إيما» كانت تعقب على كل اسم تذكره «فيليسيتيه»: «أمن الممكن؟ لن يقبل!»

- والسيد الذي لن يلبث أن يعود!

- أعرف هذا جيدا. فدعيني أخلو إلى نفسي!

وكانت قد بذلت كل محاولة، فلم يبق ما تفعله. وإذا ما عاد «شارل» فعليها أن تقول له: «عدا إن البساط الذى تطأه لم يعد لنا. أنك لا تملك في بيتك قطعة أثاث، ولا إبرة، ولا قشة! وأنا السبب في خرابك أيها الرجل البائس!» وتعقب ذلك دمعة كبيرة، فيبكي في غزارة، ثم، تنقشع المفاجأة، ويغفر لها! وتمتمت وهي تصر على أسنانها: «أجل، سيصفح عني، وهو الذي لو قدم لي مليوناً لأغفر له كونه عرفني. لما غفرت! ابدا! أبدا!» وغاظتها هذه الفكرة الموحية بسمو «بوفاري» عليها، انه لن يلبث أن يعرف بالنكبة، عما قريب، أو في الحال، أو غداً، وسواء اعترفت له أو لم تعترف، ومن ثم فعليها أن تنتظر هذا الموقف الرهيب، وأن تتحمل وطأة مروءته ونخوته (حين يدرك ما فعلت به ثم يصفح عنها).
وتملكتها الرغبة في أن تعود إلى «لوريه»، ولكن ما الجدوى؟ هل تكتب لأبيها؟ لقد تأخر الوقت كثيراً. ولعلها كانت قد بدأت تندم على أنها لم تستسلم لذلك الرجل -«جيومان»- حين سمعت وقع سنابك جواد في الحارة التي تقع خلف دارها. كان هو: «شارل»، كان يفتح البوابة، وجهه أشد بياضاً من الجبس، واندفعت تهبط السلم، وهرعت إلى الميدان، ولمحتها زوجة العمدة -التى كانت تتحدث إلى «ليستيبودا» أمام الكنيسة- وهي تدخل عند محصل الضرائب، فأسرعت لتنبيء مدام «كارون»، وصعدت السيدتان إلى المخزن الذي يقع تحت سقف المبنى، فكمنتا وراء قماش نشر على «المور»، وتهيأتا لتطلا على غرفة «بينيه» في وضع يريانها فيه بأسرها.

✦✦✦

كان «بينيه» وحيداً، وقد انهمك في صنع تحفة من تلك التحف الخشبية التي لا وصف لها، والمؤلفة من أهله (جمع هلال) ذات محيطات مجوفة يتداخل كل منها في

الآخر، بحيث تستقيم القطع في مجموعها كالمسلة، وإن لم يكن لها أي نفع! وكان قد شرع في آخر قطعة! أوشك أن ينتهي إلى هدفه. وفي الضوء الخافت الذي كان في الورشة، كان الغبار الأبيض يتطاير من الآلات كرذاذ من الشرر ينبعث من تحت سنابك جواد يخب في جريه، وكانت عجلتا المخرطة تدوران، وتبعثان زئيراً، و«بينيه» يبتسم، وقد نكس ذقنه، وتفتحت طاقتا أنفه، وبدا -بإيجاز- مستغرقاً في إحدى تلك المتع الكاملة التي لا تتأتى إلا من الأعمال العادية، والتي تجعل العقل يستعذب المصاعب البسيطة! وتشبع سعادة أخرى، فوق كل ما يمكن للعقول أن تحلم به!

وهتفت مدام توفاش: «آه، ها هي ذي!». ولكن، كان من المتعذر أن تسمعا ما كانت تقوله «إيما»، وسط ضجيج المخرطة. وحدست السيدتان في النهاية أنهما سمعتا كلمة «فرنكات»، فهمست مدام «توفاش» بصوت خفيض: «انها ترجوه أن يمهلها في دفع ضرائبها»، فأجابت الأخرى: «هكذا يبدو!» وابصرتاها تروح وتغدو، متفحصة مشاجب المنشفات، والشمعدانات، والأسجية (الدرابزينات) الخشبية التى كانت مسندة إلى الجدران، بينا كان «بينيه» يتحسس لحيته في رضى. وقالت مدام توفاش: «أترينها تريد أن تكلفه بصنع شيء لها؟»، فقالت الأخرى: «كيف؟ انه لا يبيع شيئاً».

ولاح أن محصل الضرائب كان يستمع وقد فتح عينيه، كمن لا يفقه، و«إيما» ماضية في ضراعة ناعمة، واقتربت منه وصدرها يتهدج، ولم يعودا يتكلمان وقالت مدام توفاش: «أترينها تعرض عليه بعض الأجر مقدما؟» وكان الدم قد تصاعد في وجه «بينيه» حتى أذنيه، فأمسكت بيده.

- آه، هذا كثير جداً!

ولابد أنها كانت تعرض عليه أمراً بشعاً منكراً، فإن محصل الضرائب كان رغم كل شيء، عفيفاً، لقد حارب في (بوزان) و(لوتزان)، وخاض الحملة الفرنسية بأسرها، ورشح للفوز بوسام «اللجيون دونير»، ومن ثم، فانه لم يلبث فجأة أن تراجع إلى أبعد ما استطاع، وكأنه رأى أمامه حية، وصاح: «سيدتي، ماذا تعنين؟» وهمست مدام «توفاش» لصاحبتها: «إن أمثال هذه المرأة يجب أن يضربن بالسياط». فقالت مدام «كارون»: «ولكن أين هي؟» إذ كانت «ايما» قد اختفت أثناء هذه الهمسات ثم لمحتاها تمضي في الشارع الرئيسي، وتعرج إلى اليمين وكأنها متجهة إلى المقبرة. وشغلتا عنها بالحدس والتخمين!

وقالت «إيما» إذ بلغت دار المربية: «دادة روليه.. انني اختنق افتحي صدر ثوبي». وارتمت على السرير منتحبة، وغطتها المربية «روليه» بـ «جونلة» وظلت واقفة إلى جوارها. ثم انسحبت المرأة الطيبة إذ لم تتلق من الأخرى جواباً، وتناولت مغزلها وراحت تغزل كتاناً. وغمغمت «إيما» إذ خالت أنها تسمع صوت مخرطة «بينيه»: يآه! هلا انتهيت!» فقالت المربية لنفسها: «ترى ما الذي يزعجها؟ لماذا جاءت هنا؟» كانت «إيما» قد اندفعت إلى

هناك، مسوقة بنوع من الخوف كان يدفعها بعيداً عن دارها، وفيما كانت مستلقية على ظهرها، بلا حراك، وقد جمدت مقلتاها، أخذت ترى الأشياء في غير وضوح، وإن حاولت أن تستبينها في إصرار أبلةا وحدقت في طلاء الحائط المتساقط، وفي قطعتي الخشب اللتين كان طرفاهما المتقاربان يبعثان دخاناً في المدفأة، وفي عنكبوت يزحف فوق رأسها، في شق خلال الخشب. وأخيرا، شرعت تجمع شتات أفكارها، تذكرت يوماً كانت فيه مع «ليون»، أواه، ما أبعد ذاك اليوم! وكانت الشمس تسطع متألقة على صفحة النهر، ونبات «الداليا» يؤرج الهواء.. وما لبثت أن شرعت تتذكر اليوم السابق -الأمس- وكأنما جرفها سيل طاغ. فتساءلت: «كم الساعة؟» وخرجت الأم «روليه»، فرفعت أصابع يدها اليمنى في وضع عمودي على ذلك الجانب من السماء الذي كان أكثر ضياء من سواه، ثم عادت في تؤدة، قائلة: «حوالى الثالثة».

- آه! شكراً! شكراً!

إن «ليون» ولابد قد أتى، إنه لابد آت طبعاً، ولابد أنه وفق إلى بعض المال، بل لعله هناك الآن فعلاً، فما كان ليحدس أنها هنا. ومن ثم أمرت المربية بأن تسرع إلى دارها وتحضره، وأهابت بها: «أسرعي!» فقالت: «ها أنذي ذاهبة يا سيدتي العزيزة، ذاهبة!»

✦✦✦

وعجبت «إيما» من نفسها، كيف لم يخطر ببالها أن تفكر فيه من البداية؟ لقد وعدها بالأمس، وما كان ليحنث بوعده، وراحت تتمثل نفسها وقد ذهبت إلى «لوريه»، فبسطت ثلاث ورقات مالية على مكتبه. ثم تعمل على ابتكار قصة تشرح بها الأمور لبوفاري، ترى أية قصة؟ وطال غياب المربية. ولما لم تكن في الكوخ ساعة، فقد خشيت «إيما» أن تكون قد بالغت في تقدير طول الزمن الذي انقضى وأخذت تجوس خلال الحديقة في تؤدة، ويممت شطر الدرب المجاور للسياج، ثم عادت مسرعة، أملا منها في أن تكون المربية قد عادت من طريق أخرى. وأخيراً، أثقلها الانتظار، وأخذت تراودها المخاوف -التي جهدت في أن تصدها عن نفسها- ولم تعد تدري ما إذا كانت قد مكثت في المكان قرناً أو لحظة، فجلست في أحد الأركان، واغمضت عينيها، وسدت اذنيها. وما لبث ان انبعث من الباب صرير، فقفزت واقفة، وقبل أن تتكلم، قالت لها الأم «روليه»: «ليس في دارك أحد!» فهتفت: «كيف؟»

- آه! لا أحد! والسيد يبكي، ويناديك، إنهم يبحثون عنك!

ولم تجب «إيما»، بل شهقت وهي تجيل بصرها حولها، بينما ارتدت الفلاحة إلى الخلف بحركة غريزية، وهي خائفة، إذ توهمت أنها جنت. وفجأة، دقت «إيما» جبينها، وصرخت. فقد أومضت في أعماقها ذكرى «رودولف»، كلمح البرق في ليلة مظلمة، لقد كان مفرط

الطيبة، والرقة، والكرم! وبجانب ذلك، فإنها خليقة بأن تعرف -إذا تردد في أداء هذه الخدمة- كيف توقظ في لحظة واحدة غرامهما الضائع! ومن ثم انطلقت صوب مزرعة (لاهوشيت)، غير مدركة أنها إنما كانت تسرع لتقدم نفسها إلى ذلك الذي خيب آمالها من قبل، وغير مرتابة أتفه ريبة في تأثير خلاعتها!

الفصل الثامن

وساءلت نفسها وهي منطلقة: «ماذا تراني قائلة؟... من أين أبدأ؟» وأخذت في طريقها تتذكر الأحراش، والأشجار، وأعواد الخيزران البحري النامية على السفح، ثم القصر. وألفت نفسها تعود إلى أحاسيس حبها الأول فتفتح قلبها المسكين، النابض بالألم، لهذا الحب، ولفحتها نسمة دافئة، وبدا الجليد يذوب ويتساقط قطرة فقطرة من البراعم إلى الأعشاب. ودخلت، كما اعتادت في الماضي، خلال باب البستان الصغير، وسعت إلى الطريق المحفوفة بصفين من أشجار الزيزفون الوارفة، التي كانت تهز أغصانها الطويلة في حفيف، ونبحت الكلاب في حظيرتها نباحاً متواصلاً، فترددت ضوضاء نباحها، دون أن يظهر أحد. وصعدت «ايما» السلم الأيمن، ذا «الدارابزين» الخشبي، المفضي إلى ردهة مرصوفة ببلاط مغبر، يمتد فيها صف من الأبواب المفتوحة، وكأنها تقوم في دير، أو في فندق، وكانت غرفته في النهاية، في الطرف الأقصى، إلى اليسار.

وإذ وضعت أصابعها على مقبض الباب، زايلتها قواها فجأة، وغشيها خوف أوشكت معه أن تتمنى لو أنها لم تكن هناك، رغم أن هذا كان أملها الأوحد، فرصتها الأخيرة للنجاة! واستجمعت شتات فكرها لحظة، وتذرعت بالشعور بحاجتها الملحة، ثم ولجت الغرفة، فاذا به أمام المدفأة، وقد رفع قدميه إلى حافتها، وأخذ يدخن غليونه، وما إن رآها حتى نهض في عجلة قائلاً: «عجبا! أهذه أنت؟»

– أجل، هذه أنا يا رودولف. أحببت أن استعين برأيك.

وعلى الرغم من كل جهودها، فقد استحال عليها ان تفتح فمها. وقال: «انك لم تتغيرى، مازلت فاتنة كالعهد بك!» فأجابت بمرارة: «آه، أنها مفاتن حزينة يا صديقي، مذ نبذتها!» وعندئذ، شرع فى شرح طويل لمسلكه، مبرراً تصرفه بعبارات مبهمة، إذ عجز عن أن يبتكر مبررات أفضل. وتقبلت كلماته، متأثرة بصوته وشكله، فتظاهرت بأنها صدقته، أو لعلها فعلاً صدقت الحجة التي قالها معللاً قطيعتهما، إذ زعم فى الأمر سراً يتوقف عليه شرف –بل حياة– شخص ثالث!

وقالت متطلعة إليه في أسى: «لا بأس! لكم تألمت!» فأجاب متفلسفاً: «هكذا هي الحياة!» فعقبت قائلة: «افتراقنا كانت مواتية لك –أنت على الأقل– منذ فراقنا؟».

– لم تكن بالطيبة، ولا بالرديئة.

– لعله كان من الأفضل لو أننا لم نفترق!

– أجل، ربما.

– أو تظن ذلك؟

وازدادت منه اقتراباً، وزفرت قائلة: «أواه يا رودولف! ليتك كنت تعرف، كم أحببتك!» وإذ ذاك، تناولت يده، ومكثا برهة وقد اشتبكت أصابعهما، كما كانت في أول يوم، حين زارا المعرض. وأخذ يقاوم في كبرياء جيشان عواطفه، ولكنها تهالكت على صدره قائلة: «كيف أردتني على أن أحيا بدونك؟ إن المرء لا يستطيع أن يسلو السعادة التي تعودها! لقد كنت يائسة، بل ظننت انني لابد ميتة! لسوف أروى لك كل شيء، ولسوف ترى بنفسك، أما أنت أنت، فقد هربت مني!»

كان قد تفاداها طيلة السنوات الثلاث في حرص، بسبب ذلك الخور الغريزي الذي يمتاز به الجنس الأقوى. واستطردت «إيما» في حركات مغرية من رأسها، وفي معابثة تفوق معابثات القطة العاشقة: «انك ولابد تحب أخريات.. اعترف! أواه! انني لأدرك ذلك حقاً! ولكنني اعذرهن، فأنت ولابد أغويتهن كما أغويتني! انك رجل، فيك كل ما يجعل الأنثى تحبك! ولكنا سنبدأ من جديد، أليس كذلك؟ سيحب كل منا الآخر، ألا انظر! أنني أضحك، أنني سعيدة! كلمني!»

وكانت متعة للرائي، بعينيها اللتين كانت الدموع ترتعش فيهما، كماء مزن يسقط في كأس زرقاء! وأجلسها على ركبتيه، وراح يمسح بظهر يده، في تدليل، شعرها الناعم الذي انعكس عليه -في العتمة الخفيفة التي شملت الغرفة- شعاع من فلول أشعة الشمس الغاربة، فبدا كما لو كان سهما ذهبياً وأحنت رأسها، وما لبث أخيرا أن قبل في لطف جفنيها بأطراف شفتيه، وتساءل! «ولكنك كنت تبكين، لماذا؟» وانبثق دمعها مدراراً، فخيل لرودولف أنها فورة من فورات الحب، فلما لم تنبس ببنت شفة، فسر هذا الصمت بانه آخر مظاهر التمنع والدلال، فهتف: «اواه! ألا اغفري لي! أنت الوحيدة التي تروق لي، لقد كنت غبياً وقاسياً، انني أحبك، وسأظل أحبك على الدوام، فماذا بك؟ ألا قولي لي!» وركع في تلك الأثناء إلى جوارها.

– آه، لقد قضى على بالخراب يا رودولف! هلا اقرضتني ثلاثة آلاف فرنك؟

قال وهو ينهض في تؤدة، وقد استولى عل أساريره وجوم: «ولكن، ولكن...»
فبادرت قائلة بسرعة: «إنك تعلم ان زوجي عهد إلى موثق للعقود بكل ثروته ليستثمرها، فهرب، ومن ثم اضطررنا للاقتراض، والمرضى لا يدفعون، كما أن تصفيه الميراث لم تتم بعد، ولم نلبث أن تحصل على نصيبنا، على أننا اليوم محجوز على متاعنا لعجزنا عن دفع ثلاثة آلاف فرنك، لابد من دفعها فوراً، في هذه اللحظة، فجئت لائذة بصداقتك!»

قال «رودولف» لنفسه وقد شحب وجهه: «آه! إذن فلهذا جاءت!» وقال أخيراً في هدوء: «لست أملكها يا سيدتي العزيزة»! ومضى يقول إنه لم يكن يكذب، لو أنه أوتي المبلغ لما تردد في أن يعطيه لها، وإن كان من غير المستحب -عادة- التورط في مثل هذه الأمور الدقيقة، فإن المطالبة بالمال هي أبرد الرياح التى تهب على الحب وأشدها قضاء عليه! وظلت «إيما» تتطلع إليه لحظات، وهي تردد: «ألست تملكها؟» ألست تملكها؟ كان خليقاً

بي أن أجنب نفسي هذا الخزي الأخير، إنك ما أحببتني أبداً، أنك لست بأفضل من الآخرين». كانت تفضفض عن نفسها، وقد فقدت اتزانها، وقاطعها «رودولف» قائلا إنه هو الآخر في «ضائقة»، فقالت «إيما»: «آه! أننى أرثي لك، اجل، أرثي لك جداً!» وراحت ترمق طبنجة موشاة بالفضة، وقد أخذت مؤخرتها تلمع خارج قرابها. واستطردت: «ولكن المرء إذا كان فقيراً إلى هذا الحد، لا يبدد نقوده في كسوة كعب طبنجته بالفضة، ولا يشتري ساعة مرصعة بالصدف» وأشارت إلى ساعة مطعمة بالنقوش الصدفية، واستطردت: «ولا مقابض مطلية بالفضة لأسواطه» ومست هذه المقابض «ولا تحفاً يعلقها إلى سلسلة ساعته، أواه! أنه لا يحرم نفسه شيئاً! ولا رف الخمور في حجرته! انك تحب نفسك، ولذا تعيش منعماً، لك قصر، ومزارع، وغابات، وتخرج للصيد، وتسافر إلى باريس، عجباً، أي شيء من هذه...» وصاحت وهي تتناول زرين من أزرار الأقمصة الذهبية المرصعة من فوق رف المدفأة: «إن أتفه هذه الصغائر تكبد المرء مالا أواه! لست أريدهما، احتفظ بهما!» وألقت بالزرين بعيداً، فتفككت السلسلة الذهبية التي تتوسطهما، إذ ارتطما بالجدار، ثم أردفت «ايما» تقول:

– أما أنا، فقد كنت قمينة بأن أعطيك كل شيء. ما كنت أتردد في أن أبيع كل ما أملك، وأن أعمل بيدي من أجلك، كنت استجدي على قارعات الطرق ابتسامة، نظرة، كي أسمعك تقول: «أشكرك!» أما أنت فتجلس هنا ناعماً في مقعدك الوثير، كأنك لم تسبب لي ما يكفيني من العذاب! لولاك –وإنك لتعلم هذا جيداً– لعشت سعيدة. ما الذي حملك على أن تدخل حياتي! أكان رهاناً؟ ومع ذلك فقد أحببتني، ولقد اعترفت بذلك، بل قلتها منذ لحظة. آه! كان من الخير لو انك طردتني، إن يدى لا تزالان ساخنتين. من قبلاتك، ولا يزال على البساط آثار ركبتيك وأنت تقسم على خلود حبك! جعلتني أصدقك، استبقيتني عامين في أبهى وأحلى الأحلام! آه! اتذكر الخطط التي رسمناها لرحلتنا؟ أواه! وخطابك! خطابك! لقد مزق قلبي! وبعد ذلك، عندما أعود إليه –إليه، وهو الغني، السعيد، الطليق– أناشده معونة لا يحجم أى غريب عن تقديمها. الآن إذ أضرع إليه، وأعيد إليه كل حبي وحناني، يردني، لأن كل هذا لا يساوي عنده ثلاثة آلاف فرنك!».

قال «رودولف»، بتلك الرزانة التامة التي يتوارى خلفها الغضب المكظوم، كما لو كانت درعاً: «لست أملك المبلغ!» فخرجت «إيما»، كأنما كانت الجدران تترنح، والسقف ينقض عليها، ورجعت ادراجها سالكة الدرب الطويل، متعثرة في أكوام ورق الشجر الجاف الذي كانت الريح تذوره، وبلغت أخيراً السياج النباتي الذي يقوم قبل الباب الخارجي، واتلفت أظافرها وهي تعالج قفل الباب ملهوفة على فتحه، ثم وقفت بعد مائة خطوة، وقد تعثرت أنفاسها، وأوشكت أن تنهار. وما لبثت أن تلفتت خلفها، وتطلعت مرة أخرى، إلى القصر المنيع، مع البستان، والحدائق، والأفنية الثلاثة، ونوافذ الواجهة.

ومكثت حائرة، مذهولة، لا تشعر بنفسها إلا خلال نبض عروقها الذي خالته منبعثاً

في قوة، كموسيقى تصم الآذان، وتنتشر في الحقول جميعاً. وكانت الأرض تحت قدميها أكثر تداعياً من البحر، وشقوق الحرث تلوح لها كأمواج تتكسر مزبدة. وانطلق كل شيء في رأسها -من ذكريات، وآراء- كصواريخ نارية تتفتت في الفضاء إلى ألف قطعة: تمثلت أباها، وحجرة المكتب الضيقة بدار «لوريه»، وحجرة نومها وزوجها في البيت، ومناظر أخرى، كان الجنون يطبق عليها، واشتد بها الخوف، وجاهدت لتتمالك نفسها، ولكنها في الواقع كانت مرتبكة! فما كانت لتذكر شيئاً عن السبب الحقيقي في حالها الرهيبة هذه، وهو طلب المال! إذ لم تعد تتعذب إذ ذاك إلا من غرامها، وأحست بأن روحها تفارقها في هذه الذكرى، كالجرحى إذ يشعرون -وهم يحتضرون- بحياتهم تتسلل خلال جراحهم. وكان الليل يرخي سدوله، والغربان تحوم، وفجأة خيل إليها أن ثمة كرات ملونة من لهب تنفجر في الهواء -كالصواريخ حين تنطلق- ثم تلف، وتلف، تذوب في النهاية في الصقيع، بين أفنان الشجر، وفي وسط كل كرة، كان وجه «رودولف» يلوح، وتكاثرت الكرات وأخذت تقترب منها، وتنفذ خلالها، ثم تلاشت كلها، إذ تبينت أنها إنما كانت تحملق في أضواء البيوت المتألقة خلال الضباب!

إذ ذاك، عاد موقفها يتجلى لها كهوة سحيقة، وكانت تلهث وكأنما قلبها يوشك أن ينفجر. ثم، وفي نوبة من نوبات البطولة -جعلتها في شبه غبطة- اندفعت تهبط السفح، وتجتاز معبرة البقر فوق النهر، وتنطلق مجتازة الشارع، والحارة، والميدان، حتى وصلت إلى الصيدلية، وكانت خالية، وهمت بالدخول، ثم خشيت أن يرن الجرس فيخف إلى الحانوت أحد، وتسللت خلال الباب الجانبي للحديقة، وهي تمسك أنفاسها، ثم تلمست سبيلها بجوار الجدار الى باب المطبخ، حيث كانت ثمة شمعة مشتعلة فوق الموقد، وكان «جوستان» هناك بدون سترته، وقد حمل إحدى الصحاف، فقالت: «آه! انهم يتناولون عشاءهم، لننتظر!»

✦✦✦

ورأته يعود إلى المطبخ، فطرقت النافذة في رفق، وخرج إليها، فهمست له: «المفتاح، مفتاح الحجرة العليا، حيث توجد...»، فتساءل: «ماذا؟» ورمقها مشدوها لفرط شحوب وجهها، الذي بدا بياضه جليا وسط ظلمة الليل، وبدت له في جمال وبهاء غير عاديين، وكأنها طيف. وأحس بنذير مرعب، وإن لم يفهم ما كانت تبغي، ولكنها عادت تقول بسرعة، في صوت خافت، عذب، يذيب القلوب: «انني أريده. اعطنيه!» وإذ كان الجدار الذي يفصل المطبخ عن بقية البيت رفيعاً، فقد كانت جلبة الشوكات على صحاف الطعام -في غرفة المائدة- مسموعة. وزعمت «إيما» أنها بحاجة إلى قتل بعض الجرذان التي تحرمها النوم.

- يجب ان استأذن السيد.

- لا! انتظر!

ثم اردفت في غير اكتراث: «آه! الأمر لا يستحق لن ألبث أن أقول له! هيا! أنر لي السلم!» ودلفت في الردهة المفضية إلى باب المعمل. وكان ثمة مفتاح معلقاً على الجدار، يحمل بطاقة كتب عليها «كفر ناحوم». وفي تلك اللحظة صاح الصيدلي بصبر نافد: «جوستان!». فهتفت «إيما»: «لنصعد!» وتبعها، ودار المفتاح في القفل، وسارت فوراً نحو الرف الثالث، مهتدية بذاكرتها، فتناولت القنينة الزرقاء، وانتزعت سدادتها عنها، ودست فيها يدها، ثم أخرجتها ممتلئة بمسحوق أبيض، شرعت تلتهمه! وصاح الفتى وهو ينقض عليها: «توقفي!»

- صه! وإلا جاء أحد.

وتولاه اليأس، فود لو يصرخ، ولكنها قالت له: «لا تقل شيئاً، والا وقعت المسئولية على مخدومك!» ثم عادت إلى دارها وقد غشيتها سكينة مفاجئة، وداخلتها طمأنينة من أدى واجبه.

✦✦✦

عندما عاد «شارل» إلى بيته مهموماً لأنباء الحجز وإعلان البيع، كانت «إيما» قد خرجت، فطفق يبكي مجهشا، وأغمى عليه. ولكنها لم تعد! ترى أين يحتمل أن تكون؟ أوفد «فيليسيتيه» إلى دار آل «هوميه»، وإلى دار السيد «توفاش»، ودار «لوريه»، و«الفندق الذهبي»، وكل مكان. وفي فترات الهدوء التي تخللت أحزانه، كان يتمثل سمعته المضيعة، وثروتهما المبددة، ومستقبل «بيرت» المضعضع، بأي سبب؟ لم تكن ثمة كلمة واحدة تهديه! وظل ينتظر حتى الساعة السادسة مساء، وأخيراً لم يعد يطيق صبرا. خيل إليه أنها ذهبت إلى (روان)، فانطلق في الطريق المفضية إليها، وقطع ميلاً، دون أن يلتقي بأحد ومرة أخرى، أخذ ينتظر، ثم عاد إلى البيت، وكانت قد عادت وجلست الى مكتبها فكتبت رسالة، ثم أحكمت إغلاقها في بطء، واثبتت عليها التاريخ والساعة، ثم قالت في صوت ينذر بالجلل: «لك أن تقرأ هذه غداً. حتى ذاك الوقت، أرجو أن لا تسألني، ولا سؤال واحد!»

- ولكن.

- أواه. دعني!

واستلقت «إيما» على فراشها، وانتابتها غفوة استيقظت منها على طعم مرير في فمها، ورأت «شارل»، فعادت تغمض عينيها، وأخذت تدرس نفسها في فضول، لتستبين ما إذا كانت بمنجى من الألم. ولكن لا! لم يكن ثمة ألم بعد، وسمعت دقات بندول الساعة، وأزيز النار في المدفأة، وأنفاس «شارل» وهو واقف إلى جوار السرير معتدل القامة، وقالت

لنفسها: «آه! ما أهون الموت! لن ألبث أن استغرق في النعاس، ثم ينتهي كل شيء!» وتناولت جرعة من الماء ثم ادارت وجهها نحو الحائط وعاودها الطعم البغيض، كأنه طعم المداد! وتنهدت قائلة: «انني ظامئة. آه! لشد ما أنا عطشانة!» فقال «شارل» وهو يناولها كوبا من الماء: «ماذا بك؟» فقالت: «لا شيء! افتح النافذة. إنني أختنق!» ودهمها غثيان مفاجئ حتى أنها لم تكد تجد وقتا لتسحب المنديل من تحت الوسادة. وقالت في عجلة: «خذه بعيدا. القه بعيداً». وراح يحدثها، ولكنها لم تجب، وظلت راقدة بلا حراك، تخشى أن تؤدي أتفه حركة إلى التقيؤ من جديد. ولكنها ما لبثت أن أحست ببرودة جليدية تزحف من قدميها نحو قلبها وغمغمت: «آه! هذه هي البداية!» فقال: «ماذا قلت؟» فأخذت رأسها من جانب إلى آخر في حركة خفيفة مفعمة بالألم، وهي لا تنى تفتح فمها، وكأن شيئاً ثقيلاً يجثم على لسانها. وفى الساعة الثامنة، عاودها القيء، ولاحظ «شارل» في قاع الحوض قطعاً من مادة بيضاء، لاصقة بجوانب القيشاني، فأخذ يردد: «هذا غريب. جد غريب!» ولكنها قالت في صوت حازم: «لا. انك تخطئ». وما لبث أن مد يده في رفق، بل وفى تطلف، متحسساً بطنها، فأرسلت صرخة حادة، وتراجع مذعوراً!

وما لبثت أن أخذت في الأنين، بصوت خافت في البداية، وتولتها رجفة شديدة كانت كتفاها تهتزان لها، وأخذت تزداد شحوباً حتى فاقت في البياض تلك الأغطية التي كانت أصابعها تتشبث بها وتغوص فيها. وما لبث نبضها غير المنتظم أن وهن حتى أوشك أن لا يكون محسوساً، وتفصدت قطرات العرق من وجهها الذي غدا أزرق اللون، والذي بدا كما لو كان جامداً تحف به غلالة من أبخرة معدنية. وأخذت أسنانها تصطك، وعيناها الواسعتان تجولان فيما حولها بنظرات مبهمة، ولم تكن تجيب عن أى سؤال الا بهزة من رأسها، بل انها ابتسمت مرة أو اثنتين، وأخذ أنينها يشتد ارتفاعاً شيئاً فشيئا، ثم انبعثت منها صرخة جوفاء، وتظاهرت بأنها أحسن حالاً، وأنها لن تلبث أن تنهض. بيد أنها ما لبثت أن أخذت تختلج في تشنج وصرخت: «آه! يا الهي! هذا فظيع!»

وهبط راكعاً إلى جوار سريرها قائلاً: «نبتينى! ماذا أكلت؟ أجيبى بحق السماء!» وأخذ يتأملها وعيناه تفيضان بحنان لم تر مثله قط، فقالت بصوت واهن: «حسنا! هناك!» وانقض على المكتب، وفض الرسالة، وقرأ بصوت مرتفع: «لا تتهموا أحدا».. وأمسك، وفرك عينيه، ثم عاد يقرأ من جديد، وما لبث أن صاح: «ماذا؟ النجدة! النجدة!» ولم يتمالك ان راح يردد كلمة «مسمومة! مسمومة!» وهرعت «فيليسيتيه» إلى «هوميه» الذي أعلن النبأ بصياحه في الميدان، حتى سمعته مدام «لوفرانسوا» في «الفندق الذهبى»، وقام البعض من أماكنهم ليحملوه إلى جيرانهم، وظلت القرية مستيقظة طيلة الليل.

وكان «شارل» يطوف بالحجرة مخبولاً، مضطرباً، مترنحاً، يتخبط في قطع الأثاث، وينتف شعره، وما كان الصيدلي ليصدق قط أن سيقدر له أن يرى مثل هذا المنظر الرهيب،

فعاد إلى داره ليكتب إلى السيد «كانيفيه» وإلى الدكتور «لاريفيير». وكان مشتت الفكر، حتى أنه كتب أكثر من خمس عشرة مسودة، وذهب «هيبوليت» إلى (نيوشاتل)، وراح «جوستان» يلكز جواد «بوفاري»، حتى تركه متقطع الأنفاس، بل شبه ميت، بجوار غابة (جيوم). وحاول «شارل» أن يستشير قاموسه الطبي، ولكنه لم ير شيئاً، إذ كانت السطور تتراقص. وقال الصيدلي: «اهدأ.. ليس أمامنا سوى أن تعطيها جرعة قوية مضادة للسم. أي سم كان؟» فأراه «شارل» الخطاب. كان زرنيخاً. وقال هوميه: «حسنا. لابد من أن نجري تحليلا». فقد كان يعلم أن لابد من اجراء تحليل في حالات التسمم. وأجاب الآخر وهو لا يفقه شيئا: «آه، فليكن! ليكن! انقذها!».

ثم عاد إليها فتهالك على البساط، وظل مستلقيا هناك مسندا رأسه إلى حافة السرير، وهو يبكي. فقالت له: «لا تبك! لن أعود أزعجك عما قريب!».

- لماذا؟ من الذي دفعك إلى هذا؟

فأجابت: «كان لابد منه يا عزيزي».

- أفلم تكوني سعيدة؟ أكان هذا ذنبي؟ لقد بذلت كل ما في وسعي!

- أجل، هذا صحيح. انك طيب!

ومسحت بيدها على شعره ببطء. وضاعف عذوبة هذا الشعور من حزنه. أحس بكل كيانه يذوب في القنوط إذ خطر له أنه سيفقدها ولابد، في الوقت الذي كشفت فيه عن حب له يفوق كل ما أبدت من قبل. ولم يجد في رأسه فكرة. كأنما لم يكن يعرف شيئا، أو يملك شيئا. كانت الحاجة الماسة إلى قرار عاجل، ضربة قاضية أكملت اضطراب فكره.

وفكرت «إيما» في نفسها: إذن فقد قضت على كل الخيانة، والخسة، والشهوات التي لا حصر لها، والتي كانت تعذبها. لم تعد تكره أحدا. وبدأت تخيم على أفكارها عتمة مضطربة. ولم تعد «ايما» تميز من كل ضجيج الحياة شيئا سوى النحيب المتقطع المنبعث من ذلك المسكين الطيب، والذي بدا لها كأصداء لحن يموت في الفضاء. فقالت وهي ترفع جسمها مستندة إلي مرفقها: «أحضر لي ببرت:» فسألها «شارل»: «انك لم تعودي مريضة. إليس كذلك؟، فقالت: «لا، لا!».

وجاءت الطفلة على ذراع الخادم، وقدماها العاريتان تبرزان من تحت ذيل ثوب النوم الطويل. واجمة المحيا، ولا تزال شبه نائمة! وتأملت الحجرة المرتبكة في دهشة، وطرفت أهدابها إذ بهرها ضوء الشموع التي كانت مشتعلة على المنضدة، ولابد أن هذا ذكرها بأيام رأس السنة، أو منتصف الصيام الكبير عندما كانت تستيقظ من نومها مبكرة على ضوء الشمعة، وقد اعتادت إذ ذاك أن تسعى إلى سرير أمها لتتلقى هداياها ومن ثم هتفت فجأة! «أين ماما إذن؟» وإذ وجم الجميع، قالت: «ولكنني لا أرى جوربي الصغير!» وحملتها «فيليسيتيه» إلى السرير، وهي لا تزال تنظر إلى رف المدفأة، وتساءلت: «هل أخذته المرضعة؟».

وكأنما أثار ذكر «المرضعة» في نفس مدام «بوفاري» ذكرى فسقها ومصائبها، فأشاحت وكأنما غشيت نفسها بمفعول سم أقوى من ذلك الذي أخذته. وكانت «بيرت» في تلك الأثناء قد جلست على السرير، فهتفت: «آه! ما أكبر عينيك يا ماما! وما أشد اصفرارك! يا لحرارتك!» ونظرت إليها أمها، فإذا بها تنكمش قائلة: «انني خائفة!» وتناولت «إيما» يد الصغيرة لتقبلها، فتملصت. وعندئذ صاح «شارل» الذي كان يبكي عند رأس السرير: «كفى! انصرفوا بها!»

وما لبثت الأعراض أن توقفت قليلاً، وبدت «ايما» أقل تململاً من ذي قبل، وأخذت تبدو أهدأ حالاً عند كل كلمة غير ذات قيمة، أو كل نفس يتهدج به صدرها، فعاود الأمل «شارل». وما إن وصل «كانيفيه» أخيراً، حتى ارتمى على صدره باكياً، وهو يقول «آه! أهلاً أنت! شكراً! ما أطيبك! على أن كل شيء يسير نحو التحسن، ألا أنظر إليها» على أن الزميل لم ير رأيه، ولم يشأ -كما عبر بنفسه- أن «يسير على غير هدى»، بل وصف دواء مقيئاً، ليفرغ المعدة تماماً. وما عتمت أن أخذت تتقيأ دما. واشتد التصاق شفتيها، وراحت أطرافها تتلوى متشخبة، وامتلأ جسمها كله ببقع سمراء، وتوتر وريدها تحت اصابعها كخيط مشدود، أو كوتر قيثارة يوشك أن ينقطع، ثم شرعت في صراخ منكر. وراحت تلعن السم وتسبه، ثم تتوسل إليه ان يعجل بقضائه، وتدفع عنها بذراعين متصلبتين كل ما كان «شارل» يحاول أن يحملها على تناوله، وهو أكثر منها توجعاً وعذاباً. وكان يقف، ضاغطاً منديله إلى شفتيه، باكياً، ينشج في بكائه بدرجة تهز كل جسمه، وقد تحشرج صوت أجش في حلقه. وكانت «فيليسيتيه» تجري في الغرفة، هنا وهناك، و«هوميه» لا يحير حراكاً، ويرسل زفرات ثقيلة، وظل السيد «كانيفيه» متمالكاً جأشه، ثم بدا يشعر بقلق.

- يا للشيطان! لقد تقيأت كل ما في بطنها، ومن اللحظة التي يكف فيها السبب....

فأكمل «هوميه»: «يجب أن يكف المفعول. هذا جلي».

وهتف بوفاري: «الا انقذوها!»

وهم «كانيفيه» بأن يعطيها ترياقاً، غير منصت للصيدلى الذي كان لايزال يقترح افتراضات: «لعل الأزمة تشتد لتزول»، وإذا بهم يسمعون فرقعة سوط، واهتزت كل النوافذ، وأقبلت من خلف السوق عربة خفيفة تجرها ثلاثة جياد لطخت بالوحل حتى آذانها ووصل الدكتور «لاريفيير»، ولو ان إلها تجلى، لما أحدث مثل الأثر الذي حدث إذ ذاك، رفع «بوفاري» يديه، وأمسك «كانيفيه» عما كان يهم به، وخلع «هوميه» قلنسوته الاغريقية قبل أن يصل الطبيب بفترة طويلة.

كان «لاريفيير» ينتمى إلى المدرسة العظيمة للجراحة، التى أخذت عن «بيشا»، إلى ذلك الجيل الذي لم يعد له وجود، جيل الأطباء المتفلسفين، الذين أحبوا فنهم في

شغف متهوس، ومارسوه في تحمس وحكمة. كان كل شخص في مستشفاه يرتجف فرقاً إذا غضب، وكان تلاميذه يكبرونه إلى درجة أنهم كانوا -بمجرد أن يشرعوا في ممارسة مهنتهم- يحاولون أن يقلدوه ما وسعهم، حتى أنهم كانوا يشاهدون -في كل المدن- مرتدين، على شاكلته، معاطف طويلة من صوف «المارينوس» الخفيف، مبطنة، وسترات «فراك» سوداء، تستطيل اكمالها ذات الازرار حتى تمس الأكف. وكانت يداه بديعتين، لم تعرفا القفازات قط، وكأنما كانت متأهبة دائما لتغوص في الآلام. وكان يزدري الأوسمة، والألقاب، والدرجات العلمية، كواحد من أولئك الفرسان الأطباء الذين كانوا يقفون حياتهم في الماضي على تخفيف آلام الجرحى، كما كان كريماً، يعطف كالأب على الفقراء، ويفعل الخير دون ما رجاء. حتى لقد كان من الممكن أن يعتبر قديساً، لو لم يكن ارهاف روحه قد جعله مهيباً وكأنه طاغية! وكانت نظراته أكثر نفاذاً من مبضعه، فهي تنفذ في نفسك مباشرة إلى الأعماق، وتشرح كل أكذوبة تتوارى وراء المزاعم والأسرار التي يكتمها الحياء. وهكذا مضى في حياته، مفعماً بتلك الهناءة الجليلة التي تنبعث من الشعور بعظمة مواهبه، وبمكانته، وبحياة دامت أربعين عاماً حافلة بالدأب والجد، خالية من كل شائبة.

وعبس بمجرد أن اجتاز الباب، إذ رأى وجه «إيما» في شحوب الموتى، وهي مستلقية على ظهرها، فاغرة الفم، وبينما كان ينصت إلى «كانيفيه» في اصغاء، وراح يمر بسبابته تحت طاقتي أنفه، مردداً: «هذا حسن. حسن!» على أنه هز كتفيه في حركة بطيئة، لمحها «بوفاري».. ونظر كل منهما إلى الآخر، فاذا هذا الرجل -الذي ألف رؤية الألم- لا يملك أن يحبس دمعة سقطت على ياقة قميصه. وحاول أن يصحب كانيفيه إلى الغرفة المجاورة، ولكن «شارل» تبعه قائلاً: أنها جد مريضة، أليست كذلك؟ لو وضعت «لزقة خردل»؟ أي شيء! ألا فكر لها في شيء، فكم أنقذت من نفوس!»

وطوقه «شارل» بذراعيه، وراح يحملق فيه في حيرة وتوسل، حتى ليكاد يرتمي على صدره مغمى عليه، فقال له الدكتور «لاريفيير»: «تجلد يا زميلي المسكين. تشجع! لم يعد هناك شيء فوق الذي عمل من قبل». وتحول، فهتف شارل: «امنصرف أنت؟» قال: «سأعود». وخرج ليلقي امراً إلى حوذيه، ومعه السيد «كانيفيه» الذي لم يعد يحفل إذا ما ماتت «إيما» تحت يديه! ولحق بهما الصيدلي في الميدان، فما كان بطبعه ليقوى على أن يكون بمنأى عن العظماء! ومن ثم رجا السيد «لاريفيير» أن يوليه الشرف فيقبل تناول الفطور على مائدته. وبادر فأرسل إلى «الفندق الذهبي» في طلب بعض الحمام، وإلى القصاب في طلب كل ما كان عنده من لحم افخاذ الضأن، وإلى «توفاش» يطلب قشدة، وإلى «ليستيبودوا» يطلب بيضاً، وتولى بنفسه المساهمة في اعداد المائدة، بينما كانت مدام «هوميه» تقول وهي تشد رباط سترتها: «ألا اعذرنا يا سيدي، ففي بلدتنا التعسة، إذا لم يخطر المرء في الليلة السابقة...».

وهمس «هوميه»: «أقداح النبيذ!».

– لو اننا كنا في المدينة، لوجدنا على الأقل مورداً لدى الباعة المتجولين.

– اسكتي! إلى المائدة يا دكتور!

ورأى -بعد اللقمات الأولى- أن من المناسب أن يدلي ببعض تفصيلات الفاجعة. فقال: «لقد ظننا في البداية أنه تصلب في الحلق، ثم آلام لا تطاق في أعلى المعدة، ثم قيء وإسهال، ثم غيبوبة...».

– ولكن، كيف سمحت نفسها؟

– لست أدري يا دكتور، بل إنني لا أعرف كيف استطاعت أن تحصل على حامض الأرسنيك (الزرنيخ).

✦✦✦

وكان «جوستان» قد أقبل إذ ذاك يحمل صفاً من الأطباق، فانتابته رعشة، وقال له الصيدلي: «ماذا بك؟» وترك الفتى -عند هذا السؤال- الأطباق تهوي إلى الأرض، متهشمة في ضجيج، فصاح «هوميه»: «غبي! شرير! مغفل! حمار!» ولكنه تمالك نفسه تواً، واستأنف حديثه الأول: «لقد اردت يا دكتور أن أجري تحليلاً، فبدأت بإيلاج أنبوبة...» فقال الجراح: «كان من الأفضل أن تدك أصابعك في الحلق». وكان زميله مخلداً إلى الصمت، إذ تلقى قبل ذلك -على حدة- درساً قاسياً عن دوائه المضاد للسم. وبقدر ما كان «كانيفيه» مهتاجاً، لاذع النقد يوم جراحة قدم الأعرج، بدا اليوم متواضعاً للغاية، وراح يبتسم دون انقطاع، معلناً موافقته على طول الخط.

واستغرق «هوميه» في نشوة الشعور بأنه صاحب الوليمة، كما ساعدت صورة «بوفاري» المحزون على سروره، بطريقة مبهمة، بتأثير أناني! وما لبث وجود «الدكتور» أن رده إلى الواقع، وراح يعرض مدى علمه، متحدثاً -في غير ما تناسق- عن الذباب الهندي، والأشجار السامة، والأفاعي. ثم استطرد قائلاً: «بل انني قرأت أن أشخاصاً عديدين وجدوا أنفسهم يعانون من أعراض التسمم، وظهر للدهشة البالغة، أن ذلك نشأ عن خبز تعرض لدخان شديد. لقد ورد هذا على الأقل في تقرير جديد بديع، وضعه واحد من أقطابنا في الصيدلة، واحد من أساتذتنا: «كاديه دو جاسيكور المبرز...».

وظهرت مدام «هوميه» مرة أخرى، تحمل موقداً يشعل بالكحول الأحمر، إذ كان «هوميه» يحب أن يعد قهوته على المائدة، فيحمص البن، ويصحنه، ويمزجه بنفسه. وقال مقدما السكر: «سكر يا دكتور؟» وتعمد ان ينطق اسم السكر باللاتينية! ثم دعا كل أبنائه إلى الهبوط، تواقا إلى أن يعرف رأي الطبيب في تكوينهم البدني. وإذ هم السيد «لايفيير» بالانصراف -أخيراً- طلبت مدام «هوميه» رأيه في حال زوجها، إذ كان يحرص في كل مساء على أن ينام بعد العشاء، مما يجعل دمه كثيفاً. فقال الطبيب: «آه! ليس

الكثيف هو دماً» وفتح الباب وهو يبتسم ابتسامة خفيفة للنكتة التى لم ينتبه إليها أحد. على أن حانوت الصيدلي كان قد ازدحم بالناس، وعانى كثيراً حتى تخلص من السيد «توفاش» الذي كان يخشى أن تصاب زوجته بالتهاب الرئتين، إذ اعتادت أن تقعد على رماد نيران المدفأة، ثم من السيد «بينيه» الذي يشعر أحياناً بنوبات جوع شديد، ومن مدام «كارون» التي شكت من التهاب في الجلد، و«لوريه» المصاب الدوار، و«ليستيبودوا» الذي يعانى من روماتيزم، ومدام «لوفرانسوا» التي شكت من حموضة في المعدة وأخيراً، انطلقت الجياد الثلاثة تجر «لاريفيير»، وأجمع القوم بعد رحيله على أنه لم يكن لطيفاً!

واسترعى انتباه الجمع ظهور الأب «بورنيسيان» الذي كان يجتاز الميدان حاملاً الزيت المقدس. وشبه «هوميه» القساوسة -وفقا لمبادئه- بالصقور التي تجتذبها رائحة الموت. كان منظر أي واحد من رجال الدين من الأمور التي لا تروقه، إذ كان المسوح يذكره بالكفن، وكان يكره الواحد منهما خشية أن يجلب له الآخر! ومع ذلك، فانه لم يحجم عما أسماه «رسالته»، فعاد إلى دار «بوفاري» بصحبة «كانيفيه» الذي عنى السيد «لاريفيير» -قبل رحيله- بحثه على أداء هذه الزيارة، ولولا معارضة زوجته، لاصطحب «هوميه» ولديه الصغيرين، ليألفا المناسبات الكبيرة، وحتى يكون هذا لهما درساً، مثالا، صورة لحدث يبقى في ذهنهما طويلا!

وكانت الغرفة -حين ولجاها- مفعمة بوجوم حزين. وعلى نضد التطريز -الذي غطى بمفرش أبيض- كانت ثمة خمس أو ست كرات صغيرة من القطن، في طبق فضي، مقربة من صليب كبير بين شمعتين موقدتين. وكانت ذقن «ايما» ملصقة بصدرها، وعيناها مفتوحتين في اتساع غير عادي، ويداها الكليلتان تتحركان على الأغطية تلك الحركات الرهيبة، الخفيفة التي تصدر عن المحتضرين، وكأنهم يودون أن يعجلوا بسحب الأكفان على أجسادهم. وكانت في شحوب التمثال، وعيناها في حمرة اللهب، ووقف «شارل» عند مؤخرة السرير، في مواجهتها، وقد كف عن البكاء، بينما ركع القس على ركبة واحدة، وأخذ يتمتم بكلمات خافتة.

✦✦✦

وأدارت وجهها في بطء، وبدا أن فرحاً تولاها حين رأت فجأة الجلباب الكهنوتي (البطرشيل) البنفسجي، إذ وجدت من جديد ولاشك - في غمرة السكينة غير العادية التي غشيتها- البهجة التي افتقدتها، والتي تولدت من نزواتها التصوفية الروحية الأولى، مع رؤى التطويب الأبدي الذي ابتدأ، فقد نهض القس ليتناول الصليب، وإذ ذاك، اشرأبت بعنقها كشخص برح به العطش، والصقت شفتيها بتمثال المسيح -على الصليب- وبكل قواها المضمحلة، طبعت أعظم قبلة غرامية صدرت عنها في حياتها. ثم أخذ القس يتلو مزمور الرحمة، وغمس إبهام يده اليمنى في الزيت، وشرع يقوم بعمليات الدهان. فبدأ

بالمسح على العينين اللتين غرب عنهما كل زهو دنيوي، ثم على طاقتي الأنف، اللتين كانتا تنشقان في نهم النسائم الحارة، وأريج الهوى، ثم على الفم الذي كان ينطق بالأكاذيب، والذي كان يقلب شفتيه في غرور، ويصرخ في شبق، ثم على اليدين اللتين كانتا تستمتعان باللمسات الشهوانية. ثم -أخيرا- على باطني القدمين اللتين كانتا فيما مضى سريعتين إذا ما هرعتا لارضاء شهواتها، واللتين لم تعودا تسيران.

ومسح القس أصابعه -ثم ألقى بقطعة القطن المبللة بالزيت إلي النار، وتحول فجلس إلي جوار المرأة المحتضرة، ليوصيها بأن تخلط آلامها بآلام يسوع المسيح، وأن تسلم نفسها إلى رحمة الرب. وإذ فرغ من وصاياه، ومواعظه، حاول أن يضع في يدها شمعة مباركة، رمزاً إلى المجد السماوي الذي لن تلبث أن تحاط به، ولكن «ايما» في ضعفها البالغ، لم تستطع أن تطبق أصابعها، فكادت الشمعة أن تقع على الأرض لولا أن تداركها الأب «بورنيسيان». على أنها لم تعد شديدة الشحوب، واكتسى وجهها بسكينة مطمئنة، وكان المسح بالزيت قد شفاها، ولم يغفل القس أن يشير إلى ذلك، بل أنه راح يذكر لبوفاري أن الرب أحياناً يطيل اعمار الأشخاص إذا رأى ذلك ملائماً لخلاصهم. وتذكر «شارل» اليوم الذي تناولت فيه القربان المقدس حين كانت قد أوشكت على الموت، فعلل نفسه قائلاً: «لا داعي لليأس».

والواقع أن «إيما» أخذت تجول ببصرها فيما حولها ببطء، كمن يستيقظ من حلم، ثم طلبت بصوت واضح مرآتها، فظلت برهة منحنية عليها، إلى أن تساقطت من عينيها دموع غزيرة، فتحولت عنها، متنهدة، وتهالكت على الوسائد. وسرعان ما أخذ صدرها يتهدج بسرعة، وبرز لسانها بأكمله من فمها، وراحت عيناها تزدادان شحوباً، وهما تجولان في محجريهما، كلهب مصباح يحتضر، حتى لقد كان يخيل للمرء أنها ماتت، لولا الحركة العنيفة التي انتابت ضلوعها بتأثير نفسها الشاق المتعسر، كأنما كانت الروح تناضل كي تتحرر.

وركعت «فيليسيتيه» أمام الصليب، وتطلع السيد «كانيفيه» بنظرات شاردة إلى الميدان، وشرع «بورنيسيان» في الصلاة من جديد، وقد انحنى وجهه علي السرير، وانتشر مسوحه الأسود خلفه في الحجرة. وكان «شارل» جاثياً في الجانب الآخر من السرير، باسطاً ذراعيه نحو «ايما»، وقد تناول يديها وأخذ يضغطهما، مرتجفاً لكل خفقة من قلبها، وكأنه يرتعش لخراب منقض. وإذ اشتدت حشرجة الموت، ازداد اسراع القس في صلاته، وأخذت دعواته تمتزج بشهقات «بوفاري» المكتومة. وكان كل شيء يغيب أحياناً في التمتمة المختنقة بالمقاطع اللاتينية التي بدت كأصداء متلاشية لجرس.. وفجأة، سمعت على رصيف الشارع جلبة نعلين خشبيين، ودقات عصا. وانبعث صوت، صوت مبحوح يغني: «العذارى في قيظ أيام الصيف يحلمن بالحب، والحب دائما». ورفعت «إيما» جسمها وكأنها جثة سرت فيها نسمة عابرة من الحياة، وقد تهدل شعرها، وجمدت عيناها محملقتين، بينما

واصل صوت المغني الذي يتسكع في الشارع غناءه المبحوح: «لكي تجمع سريعاً، السنابل التي حصدها المنجل، سارت حبيبتي نانيت، منحنية نحو الأرض التي منحتنا أياها».
وصاحت «إيما»: «الأعمى!» ثم انطلقت في ضحكات نابية، متهوسة، قانطة، وهي تتمثل الوجه البشع الذي أوتيه ذلك التعس المسكين، وقد انتصب في الظلمات الأبدية كنذير بالشؤم، بينما كان الرجل ماضياً في أغنيته: «كانت الريح تهب قوية في ذلك اليوم، فطارت «الجونلة» القصيرة!» وتهالكت «إيما» على الفراش، واختلج جسمها، واقتربوا جميعاً منها، ولكنها كانت قد فارقت الحياة!

الفصل التاسع

يعقب وفاة أي أمريء -عادة- نوع من الذهول، يتعذر معه ادراك هذا العدم الوافد، وحمل النفس على تصديقه. على أن «شارل» لم يكد يتبين أن «إيما» لم تعد تتحرك، حتى ألقى بنفسه عليها صائحاً: «وداعاً! استودعك الله! وجره «هوميه» و«كانيفيه» إلى خارج الغرفة قائلين: «تجلدا» فقال: «نعم، سأكون هادئاً، ولن أفعل شيئا. الا أتركاني! أريد أن أراها! انها زوجتي!» وأخذ يبكي، فقال الصيدلي: «أبك. دع نفسك على فطرتها، فإن هذا يسري عنك!» وتركهما يقودانه إلى قاعة الجلوس وقد غدا أضعف من طفل. وما لبث السيد «هوميه» أن انصرف. والتقى في الميدان بالأعمى الذي تلمس طريقه إلى (ايونفيل) أملاً في الحصول على البلسم الذي يقضى على الالتهاب، وراح يسأل كل مار عن مسكن الصيدلي، فقال هذا له: «ألا أغرب الآن! كأنني لا أجد مشاغل سواك! الا دعني الآن، وعد فيما بعد!» ثم ولج الصيدلية على عجل. كان عليه أن يكتب رسالتين، وأن يعد جرعة مهدئة لبوفاري، وأن ينسج اكذوبة للتستر على التسمم، ويصوغ النبأ في مقال لصحيفة «الفانال»، غير حافل بالأشخاص الذين كانوا في انتظاره ليتلقوا منه النبأ. وعندما استوثق من أن أهل (ايونفيل) جميعاً سمعوا قصته عن الزرنيخ الذي ظنته «إيما» سكراً، وهي تصنع «كريمة بالفانيليا» عاد مرة أخرى إلى «بوفارى»، فألفاه وحيداً -إذ كان السيد كانيفيه قد انصرف- جالساً في مقعد مريح إلى جوار النافذة، محملقاً بذهول في بلاط الحجرة. فقال الصيدلي: «يجب أن تحدد الآن، وبنفسك، موعد الطقوس». فتساءل: «ماذا؟ أية طقوس؟»، ثم استدرك في لهجة متلعثمة، جزعة: «أواه! لا! ليس هذا، لا! انني أحب أن أراها هنا».

ولكي يتمالك «هوميه» نفسه، تناول ابريقاً من الرف ليروى زهور «الجيرانيوم» فقال «شارل»: آه! شكرا!، ما أطيبك!».. ولكنه لم يقو على اتمام عبارته، إذ اختنق صوته تحت فيض الذكريات التي أحياها في ذهنه تصرف الصيدلي. وإذ ذاك رأى «هوميه» -ليشغله عن هذه الذكريات- أن يتحدث قليلاً عن فلاحة البساتين، فأنواع النبات تحتاج إلى بعض الرطوبة.. ونكس «شارل» رأسه في موافقة صامتة. وما لبث الصيدلي ان قال: «إن الأيام البديعة لن تلبث أن تأتي!» فقال «بوفاري»: «آه!» إذ نضب معين الصيدلي، عمد إلى ازاحة الستائر الصغيرة في لطف عن ألواح الزجاج، ثم قال: «ها هو ذا السيد توفاش في الطريق»، فردد «شارل» كالآلة: «السيد توفاش في الطريق».

ولم يجرؤ «هوميه» على أن يحدثه ثانية عن اجراءات الجنازة. وكان رجل الدين هو الذي هيأه لتقبلها، فاحتبس نفسه في غرفة العيادة، وتناول ريشة الكتابة، وبعد أن بكى فترة، كتب: «ارغب في أن تدفن في ثوب عرسها، وحذاءين ابيضين، وطاقة ورد، وأن

ينشر شعرها على كتفيها، وفي ثلاثة توابيت: أحدها من خشب البلوط، والثاني من المهوجني، والثالث من القصدير. ولا يقولن أحد لي شيئا، فلن ألبث أن استرد قواي، ولتوضع -قبل كل شيء- على قطعة كبيرة من المخمل الأخضر. هذه رغبتي، فلتنفذ!».

وذهل السيدان للأفكار الشاعرية التي ابداها «بوفاري»، فبادر الصيدلي إليه قائلاً: «يبدو لي أن المخمل زيادة لا داعي لها.. ثم إن النفقات..» فصاح «شارل»: «وهل يعنيك هذا؟ دعني! انك لم تكن تحبها. اخرج!». وتأبط القس ذراع شارل وخرج به إلى الحديقة يتمشيان. وراح يحدثه عما في المظاهر الدنيوية من لغو باطل، وعن أن الله كبير، ورحيم، فخليق بالانسان أن يتقبل قضاءه دون ما تذمر، لا بل بالشكر والحمد. فانفجر «شارل» مجدفاً: «انني اكره الهك!» وتنهد رجل الدين قائلاً: «لا تزال روح التمرد مسيطرة عليك!» وكان «بوفاري» قد ابتعد، وراح يسير بخطى واسعة، في محاذاة الجدار، على مقربة من الخميلة، وهو يصر على أسنانه، ويرفع بصره إلى السماء بنظرات ساخطة، ولكنها لم تحرك ورقة واحدة في شجرة! وتساقط المطر رذاذا، فلم يلبث «شارل» -الذي كان عاري الصدر- أن أخذ يرتجف، ودخل الدار، فجلس في المطبخ، حتى إذا كانت الساعة السادسة، سمعت ضوضاء. كقطع من حديد تصطك، كانت «العصفورة» عائدة. وظل واقفاً أمام زجاج النافذة، يشهد نزول الركاب واحداً بعد آخر، ثم فرشت له «فيليسيتيه» حشية في قاعة الجلوس، فارتمى عليها، ونام.

✦✦✦

كان «هوميه» يحترم الموتى، رغم فلسفته، ومن ثم لم يحقد على «شارل»، بل عاد ثانية في المساء، ليسهر إلى جوار الجثة، حاملاً معه ثلاث كتب، ومفكرة ليدون فيها ما يعن له. وكان الأب «بورنيسيان» هناك، وقد أقام عند رأس السرير شمعتين كبيرتين موقدتين، استجلبتا من مخزن الدار. ولم يلبث الصيدلي -الذي لم يكن ليحتمل الصمت- أن شرع يصوغ بعض عبارات الرثاء لتلك «الشابة المنكودة»، فأجاب القس بأنه لم يبق ما يفعل من أجلها سوى الصلاة! فقال «هوميه»: «أحد أمرين: إما أنها ماتت وهي مستمتعة بالعفو الرباني -كما تقول الكنيسة- وفي هذه الحال لا حاجة بها إلى صلواتنا، وإما أنها رحلت حاملة خطاياها -وأظن أن هذا أيضاً هو التعبير الديني- وفي هذه الحال...» فقاطعه «بورنيسيان» قائلاً في جفاء إن هذا لا يحول البتة دون الصلاة. ومضى الصيدلي في معارضته! «ولكن، مادام الله يعلم كل حاجاتنا، فما جدوى الصلاة والدعاء؟» فصاح رجل الدين: «كيف! الصلاة! أو لست إذن مسيحياً؟»

قال هوميه: «عفوا! انني أكبر المسيحية، فهي أولا قد حررت الرقيق، وادخلت على الدنيا قانوناً خلقياً...»

-ليس هذا موضوع النقاش. كل الكتب الدينية... .

-آه! آه! أما عن كتب الدين، فارجع إلى التاريخ. من المعروف انها زيفت على أيدي الجزويت.

ودخل «شارل»، فتقدم صوب السرير، وازاح الستائر في بطء. كان رأس «إيما» مائلاً صوب كتفها اليمنى، وقد بدا ركن فمها -الذي كان مفتوحاً- كثغرة سوداء في القسم السفلي من وجهها. وكانت اصبعاها السبابتان مطويتين في راحتيها، وقد تناثر على أهدابها شيء من غبار أبيض، وبدأت عيناها تغيبان في تلك الطبقة الشاحبة اللزجة المائعة التي رانت عليهما، وكأنها نسيج العنكبوت. وكان الغطاء ينخسف فيما بين صدرها وركبتيها، ثم يعلو فوق أصابع قدميها. وخيل لشارل أن كتلاً لا نهاية لها، أن حملاً ثقيلاً كان يجثم عليها.

ودقت ساعة الكنيسة معلنة الثانية، وكان بوسعهم أن يسمعوا خرير النهر المنساب في الظلام، عند أقصى الحديقة، وأخذ الأب «بورنيسيان» يمخط بين آن وآخر، بصوت مسموع، وصرير قلم «هوميه» على الرق ينبعث، وقال أخيراً: «هيا يا صديقي الطيب! انصرف فان هذا المنظر يفتت كبدك!». وما إن انصرف «شارل»، حتى استأنف الصيدلي والقس نقاشهما. قال احدهما: «اقرأ فولتير. اقرأ دولباش. اقرأ دائرة المعارف!»، فقال الآخر: «بل اقرأ رسائل بعض اليهود البرتغاليين». اقرأ «معاني المسيحية» بقلم نيكولا، المأمور القضائي السابق». واشتد الجدل حرارة واحتداماً، وأخذ يتكلمان معا، دون أن ينصت أحدهما للآخر. وكان «بورنيسيان» يستنكر هذه الجرأة، و«هوميه» في دهشة من هذا الغباء، وأوشكا أن يسب كل منهما الآخر، وإذا بشارل يظهر فجأة، كأنما كان ثمة سحر يجتذبه، فكان كلما غادر المخدع لا يلبث أن يعود إليه.

✦✦✦

وقف «شارل» في الطرف المقابل لها، ليراها بجلاء، واستغرق في أفكار نسى في عمقها الألم، تذكر قصص داء التصلب، ومعجزات الاستهواء المغناطيسي، فخيل إليه أنه ربما وفق إلى إحيائها من جديد، لو أنه ركز كل قواه في هذه الرغبة، بل لقد انحنى مرة نحوها، وناداها بصوت خافت: «إيما! إيما!» وكانت انفاسه القوية تدفع لهب الشمعتين نحو الحائط.

ووصلت مدام «بوفاري» الأم مع مطلع النهار، وما ان احتضنها «شارل» حتى انفجر بسيل جديد من الدموع.. وحاولت -كما حاول الصيدلي من قبل- أن تعلق على نفقات الجنازة، فإذا به يغضب إلى درجة جعلتها تصمت. بل أنه أوفدها إلى المدينة فوراً لتبتاع ما كان لازماً، وبقي وحيداً طيلة عصر ذلك اليوم، إذ كانت «بيرت» قد حملت إلى دار «هوميه»، بينما لاذت «فيلدسيتيه» -مع الأم «لوفرنسوا»- بالحجرة في الطابق العلوي.

وفي المساء، وفد إليه بعض الزوار، فنهض وصافحهم وهو عاجز عن الكلام. ثم جلسوا متقاربين مؤلفين نصف دائرة أمام المدفأة، بوجوه منكسة، وقد راح كل منهم يؤرجح احدى ساقيه علي ركبة الساق الأخرى، وهو يرسل الزفرات الحرى علي فترات. كان كل منهم يشعر بسأم غير معهود، ومع ذلك فلم يشأ أي منهم أن يكون الأول في الانصراف.

وعندما عاد «هوميه» في الساعة التاسعة -ولم يكن يشاهد سواه في الميدان منذ يومين- كان مثقلاً بكميات من الكافور، والبنزين، والأعشاب العطرية.. كما كان يحمل جرة مليئة بماء الكلور، للتخلص من أية رائحة عفنة. وكانت الخادم، ومدام «لوفرانسوا»، والأم «بوفاري» يتحركن حول «إيما» وهن يلبسنها آخر ثيابها. ثم نشرن عليها خماراً من قماش متيبس، غطاها من رأسها حتى آخر حذاءيها الحريريين.. وكانت «فيليسيتيه» تردد منهنهة: «أواه، يا سيدتي المسكينة! يا سيدتي المسكينة!» فتنهدت ربة الفندق قائلة: «ألا أنظر إليها. انها لا تزال جميلة! من ذا الذي لا يقسم على أنها لن تلبث أن تهب ناهضة بعد دقيقة!» ثم انحنين عليها ليضعن اكليل الزهور، واضطررن إلى أن يرفعن رأسها قليلاً، وإذا بسائل أسود ينساب من فمها، وكأنها تتقيأ. وصاحت مدام «لوفرنسوا»: «آه! يا الهي! حذار أن يتسخ الثوب!» وقالت للصيدلي: «تعال لتساعدنا! أم تراك خائفاً؟» فهز كتفيه قائلاً: «أنا أخاف؟ آه! صحيح!؟ لقد شهدت الكثير في المستشفى حين كنت ادرس الصيدلة! لقد كنا نصنع شراباً مسكراً في قاعة التشريح، إن العدم لا يخيف فيلسوفاً، بل انني -كما اعتدت أن أقول- اعتزم أو أوصى بجثتي للمستشفيات، لتكون -فيما بعد- في خدمة العلم!»

وإذ وصل القس سأل عن صحة السيد، وما إن أجابه الصيدلي حتى قال: «لعلك تدرك أن الصدمة لا تزال قريبة العهد». إذ ذاك غبطه الصيدلي على أنه ليس معرضا كسواه لفقد شريكة الحياة الحبيبة، وتبع ذلك نقاش حول عزوبة القساوسة. فقال الصيدلي: «الواقع أن من المجافاة للطبيعة أن يعيش القس بدون امرأة! كم من جرائم...» فصاح رجل الدين: «ولكن، كيف بالله تتوقع من قس متزوج أن يصور أسرار الاعتراف مثلاً؟» فهاجم «هوميه» الاعتراف، وانبرى «بورنيسيان» للدفاع عنه، متوسعاً في سرد آثار الاصلاح والارشاد التي تترتب على الاعتراف. وذكر قصصاً مختلفة عن لصوص انقلبوا فجأة رجالاً أمناء، وعن رجال عسكريين انقلبت القيم والمقاييس فى نظرهم منذ مثلوا أمام محكمة التوبة. «ففي (فريبور) مثلاً، كان ثمة وزير»... وتبين القس فجأة أن زميله قد نام، ثم لم يلبث أن أحس أنه يوشك أن يختنق فى جو الحجرة الراكد، ففتح النافذة، وإذ ذاك استيقظ الصيدلي فقال له: «إليك قبضة من السعوط.. خذها فانها تنعشك»!.. وسمع نباح متواصل عن بعد، فقال الصيدلي: «أتسمع كلباً يعوي؟» فقال القس: «يقال إن الكلاب تشم رائحة الموتى. إنها كالنحل تترك خلاياها عند وفاة الأشخاص».

✦✦✦

لم يعلق «هوميه» على هذه الترهات، إذ كان قد عاد للنعاس. أما السيد «بورنيسيان» فكان أقوى منه احتمالاً، ومن ثم ظل بعض الوقت يحرك شفتيه في تمتمة خفيفة، وما لبث -دون ما شعور منه- أن خفض ذقنه، وأفلت كتابه الأسود الضخم، وشرع يغط. وكان يجلسان متقابلين، وقد برز بطناهما، وانتفخ وجهاهما، وعبست أساريرهما، وقد وحد بينهما -بعد كل هذه الخلافات- نوع واحد من أنواع الضعف البشري، ولم يعودا يتحركان، تماما كالجثة التي كانت إلى جوارهما، والتي لاحت هي الأخرى نائمة، ولم يوقظهما دخول «شارل». وكانت هذه آخر مرة، فأقبل يودعها. وكانت الأعشاب العطرية لا تزال تحترق، ودخانها المائل إلى الزرقة، والمتصاعد في خيوط حلزونية، يمتزج عند حافة النافذة بالضباب الوافد. وكانت ثمة نجوم قلائل، والليل لطيف الجو، والشمع الذائب يسيل من الشمعتين متساقطاً على أغطية الفراش في قطرات كبيرة. وتأملهما «شارل» وهما تحترقان، حتى غشي بصره لطول تحديقه في لهبهما الأصفر.

وكانت تموجات الثوب الحريري تلمع بيضاء كضوء القمر، وقد اختفت «إيما» في وميضها، فلاح له أنها اذ تحررت من كيانها، قد امتزجت بكل شيء حولها، بالسكون، وبالليل، وبالهواء العابر، وبعبير الرطوبة المتصاعدة من الأرض. ثم راح يتمثلها بغتة في حديقة داراهما في (توست)، على مقعد خلف السياج الشوكي، أو في (روان)، في الطرقات أو على عتبة دارهما في الفناء في (برتو). وخيل إليه أنه يسمع ضحكات الأولاد السعداء يرقصون تحت أشجار التفاح فرحين، وقد امتلأت الغرفة بأريج شعرها، واحتك ثوبها بذراعيه في حفيف بعث في كيانه مساً كهربائياً (كما حدث ليلة الزفاف) إنه عين الثوب الذي ترتديه الآن! وهكذا ظل فترة طويلة يستعرض أفراحه الضائعة، وتصرفاتها، وحركاتها، وجرس صوتها، وكل أسى يعقبه آخر، متتابعة، لا تكف ولا تهن، كأنها أمواج بحر مزبد. وتولته رغبة قاسية، فرفع الوشاح في بطء، بأطراف أصابعه، وهو يلهث. ولكنه سرعان ما أطلق صرخة ايقظت الآخرين، وجرى إلى قاعة الجلوس، وسرعان ما جاءت «فيليسيتيه» تقول إنه يريد بعضاً من شعرها. فقال لها الصيدلي: «قصي بعضا!»

ولما لم تجرؤ، تقدم بنفسه والمقص في يده، وكان يرتجف حتى أنه شق جلد الجبهة في عدة أماكن. وأخيرا، قاوم «هوميه» مشاعره، واقتطع خصلتين أو ثلاثا على غير هدى، تركت رقعاً بيضاء خلال هذا الشعر الفاحم الجميل.

✦✦✦

وعاد الصيدلي والقس يستغرقان في حوارهما، وأن لم يحل هذا دون أن ينعسا بين آن وآخر، وكل منهما يتهم الآخر بالنعاس كلما استيقظ هو، على التوالي! ثم نثر السيد «بورنيسيان» الماء المقدس في الحجرة، فنثر «هوميه» بعض من ماء الكلور على الأرض!

وكانت «فيلسيتيه» قد عنيت بأن تضع كل منهما على صوان الملابس الداخلية زجاجة «براندي»، وبعض الجبن، ورغيفاً كبيراً، فتنهد الصيدلي -الذي لم يعد يحتمل الجوع- في حوالي الساعة الرابعة من الصباح، وقال: «لعمري! انني لأسر بتناول (تصبيرة)» ولم يحتج القس إلى الحاح. ولكنه خرج لصلاة الصباح، ثم عاد، وإذ ذاك أكلا، وشربا، وهما يضحكان قليلاً، دون ان يدريا لذلك سبباً، وإنما حملتهما على الضحك تلك الغبطة المبهمة التي تتولانا بعد فترات الحزن. وعند الكأس الأخيرة، قال القس للصيدلي وهو يضربه على كتفه: «لسوف ننتهي إلى تفاهم!».

وفي ردهة الطابق السفلي، التقيا بأعوان ناقل الموتى، الذين وصلوا إذ ذاك. وما لبث شارل أن قضى ساعتين يعاني العذاب وهو يسمع المطرقة تدق الخشب. وفي النهار الذي تلا ذلك، وضعوا الجثة في التابوت البلوطي، الذي هيئ ليوضع في التابوتين الآخرين. وإذ كان التابوت الخارجي واسعاً، فقد اضطروا إلى أن يملأوا الفراغ بصوف من حشو إحدى الحشيات، وإذ سحجت الأغطية الثلاث بالمساج (الفارة)، ووضعت فوق التوابيت، وثبتت بالمسامير، ولحمت بالقصدير، حملت التوابيت إلى خارج الغرفة، ثم فتح البيت، فبدأ أهل (ايونفيل) يتدفقون.

وما لبث الأب «روو» - ولد «إيما» -ان وصل، فأغمى عليه في الميدان حين رأى اشارة الحداد السوداء.

الفصل العاشر

لم يكن قد تسلم رسالة الصيدلي إلا بعد انقضاء ست وثلاثين ساعة على الوفاة، وكان السيد «هوميه» -ترفقاً بمشاعره- قد صاغها بحيث يتعذر عليه أن يدرك حقيقة الأمر، ومع ذلك، فإن الشيخ المسن وقع في بداية الأمر. وكأنما أصيب بالسكتة القلبية، وعندما قرأ الرسالة ثانية، فهم أن ابنته لم تمت، ولكنها ربما كانت موشكة، وأخيراً، استطاع أن يرتدى قميصه، وأن يتناول قبعته، ويثبت المهمازين إلى حذائيه، ثم انطلق على جواده في أقصى سرعة. وكان الأب «روو» طيلة الطريق نهبة للهواجس، يلهث، بل لقد اضطر مرة إلى أن يترجل إذ غشيه دوار، وخيل إليه أنه سمع أصواتاً حوله، فخشى أن يكون موشكاً على الاختبال.

وإذ طلع النهار، رأى ثلاث دجاجات سوداء نائمة فوق إحدى الأشجار، فارتجف منزعجاً من هذا النذير المشئوم. ثم نذر للعذراء المباركة ثلاث حلل من ثياب الكهنة للكنيسة، وأن يسير حافياً من مقبرة (برتو) إلى كنيسة (فاسونفيل). وإذ دخل قرية (ماروم) راح يصيح في أهل فندقها، ودفع الباب بكتفه فانفتح، ثم انقض على كيس من الشوفان لجواده، وأفرغ له زجاجة من شراب التفاح الحلو في المذود. وما لبث أن عاد يمتطي الحصان الذي أخذ الشرر يتطاير تحت سنابكه. وراح يعلل نفسه بأنهم ولابد سينقذون ابنته، وان الأطباء سيهتدون إلى دائها بالتأكيد، وتذكر كل المعجزات العلاجية التي كانت تحكى له. ثم تمثلها أمامه ميتة. كانت موجودة، تحت عينيه، مستلقية على ظهرها في عرض الطريق، فشد عنان جواده، وإذا الطيف يختفي!

واحتسى في «كينكاميوا» ثلاثة أقداح من القهوة تباعاً، كي يشدد عزمه، وصور له الوهم أنهم أخطأوا في الاسم الذي كتبوه، فبحث عن الرسالة في جيبه، وتحسسها، ولكنه لم يجرؤ على فتحها، وأخذ يفكر -أخيراً- في أن الأمر كله مزاح، وسيلة من شخص ما للانتقام، أو دعابة من سمج، ولو أنها كانت قد ماتت، لعرف. ولكن، لا! لم يكن في الريف شيء غير عادي، فالسماء زرقاء، والأشجار تتمايل، ومر بقطيع من الغنم، ثم لمح البلدة، وشوهد مقبلاً وقد انحنى على جواده، يكيل له الضربات بعصاه، والدم يقطر من سيور ركابه.

✦✦✦

وإذ عاد إلى وعيه، سقط بين ذراعي «بوفاري» باكياً، وهو يردد: «يا ابنتي. إيما! يا طفلتي! أرو لي ما حدث.» فأجابه الآخر منهنها بالبكاء: «لست ادري! لست أدري! انها

نقمة!» وفرق بينهما الصيدلي قائلاً: «هذه التفصيلات المؤلمة لا تجدي. سأطلع السيد على كل شيء. أما الآن، فها هم أولاء القوم مقبلون، شيئا من الوقار! هيا! شيئا من الفلسفة!» فحاول «شارل» المسكين أن يتجلد، وراح يكرر مراراً: «أجل! الجلد! الشجاعة!» أما الشيخ فصاح: «آه! سأتجلد! سارافقها حتى النهاية!».

وبدا جرس الكنيسة يدوي، وتأهب الجميع، إذ آن لهم أن يشيعوها. وفي الكنيسة، جلسوا جنباً إلى جنب في إحدى المقصورات، ورأوا المرتلين الثلاثة -الذين أخذوا يرددون المزامير- يمرون أمامهم جيئة وذهاباً باستمرار، وراح الأرغن يرسل أنغامه بأقصى قوته. وكان الأب «بورنيسيان» في كامل زيه يرتل بصوت حاد، ويحيي بيت القربان المقدس، ويرفع يديه، ويبسط ذراعيه. وراح «ليستيبودوا» يطوف بالكنيسة حاملاً عصاه المصنوعة من عظام الحوت. وكان التابوت قد وضع على مقربة من منبر قراءة الكتاب المقدس، بين أربعة صفوف من الشموع. وأحس «شارل» برغبة تحفزه على أن ينهض فيطفئها. وحاول أن يشغل نفسه في تلك الأثناء، بإذكاء الشعور بالتقوى في نفسه، وأن يستغرق في الأمل في حياة مقبلة يجتمع فيها بإيما ثانية، وأخذ يصور لنفسه أنها سافرت في رحلة طويلة، بعيدة، لأمد طويل، ولكنه كان إذا ما تذكر أنها موجودة هناك، وان كل شيء قد انقضى، ولن يلبثوا أن يغيبوها في الأرض، تولاه سخط مهتاج، حزين، يائس، وكان أحياناً يخال أنه لا يشعر بشيء على الاطلاق، فيستمريء فتور ضناه هذا، ويروح -في الوقت ذاته- يلوم نفسه!

وسمع على البلاط وقع عصا ذات نهاية حديدية، تدق الأرض في فترات متساوية، منسابة من الطرف الأقصى للكنيسة، وما لبثت أن توقفت عند نهاية مقاعد المصلين، وركع في عناء، رجل في سترة بنية خشنة، كان «هيبوليت» سائس «الفندق الذهبي»، وقد استخدم ساقه الجديدة.

ودار أحد الشمامسة يجمع التبرعات، فأخذت قطع العملة النحاسية يرتطم بعضها ببعض على الصفحة الفضية. وصاح «بوفاري» مغضباً وهو يلقي إليه بقطعة من فئة الفرنكات الخمسة: «ألا اسرع، فإنني اتعذب!» فشكره رجل الكنيسة بانحناءة طويلة، وانشدوا، وركعوا، ثم وقفوا، كأنما هذه الطقوس لا تنتهي! وتذكر أنه و«إيما» حضرا الصلاة في الكنيسة مرة -في باكورة استقرارهما في القرية- وانهما جلسا في الجانب الآخر، إلى اليمن، بجوار الحائط. وشرع الجرس يدوى من جديد، وانبعث جلبة من المقاعد، ودفع حاملو التابوت عصيهم الثلاث تحته، وغادر كل امريء الكنيسة.

وظهر «جوستان» إذ ذلك لدى باب الحانوت، ثم دخل ثانية، فجأة، وهو يترنح، وقد شحب وجهه. وكان الناس في النوافذ يشهدون الجنازة، وقد سار «شارل» في المقدمة منتصب القامة، متظاهراً بالجلد، محيياً بهزة من رأسه أولئك الذين كانوا يخرجون من الحواري، ويقفون وسط الجمع. وإلى جانبي التابوت، سار ستة رجال -ثلاثة إلى كل

جانب- في خطى وئيدة، لاهثين قليلاً، وكان القساوسة، والمرتلون، واثنان من الشمامسة يرددون الكلمات الأولى من مزمور الرحمة (المزمور ١٣٠)، فتتردد أصواتهم فوق الحقول، مرتفعة ومنخفضة في تماوج. وكانوا أحياناً يتوارون في منعرجات الطريق، ولكن الصليب الفضي الكبير كان يظهر دائماً بين الأشجار.

وكانت النساء يسرن بعد هؤلاء، في معاطف سوداء، ذات قلنسوات مقلوبة، وقد حملت كل منهن في يديها شمعة كبيرة موقدة. وأحس «شارل» بقواه تزداد وهناً لاستمراره في ترديد الصلوات، وبسبب اللهب، ورائحة الشمع الطاغية، ومسوح الرهبان. وأخذت نسمة عليلة في الهبوب، وكانت نباتات الجويدار واللفت مخضوضرة، وعلى الأسيجة الشوكية -على حافة الطريق- كانت قطرات الندى المحمرة ترتجف. وكانت كافة الأصوات المرحة تملأ الهواء، فعقعقة عربة تجري بعيداً، في الأخاديد، وصياح ديك أخذ يتردد مراراً، وصهيل فرس صغيرة ترتع تحت أشجار التفاح. وكانت السماء الصافية موشاة بسحب وردية، وعلى الأكواخ المغطاة بالسوسن، رأت ضباب ضارب للزرقة. وكان «شارل» وهو مار بأفنية الدور يتعرف على كل منها، وتذكر أياماً كان يعود فيها من زيارة أحد مرضاه في صباح كهذا، فيمر بهذه الدور في طريقه، إليها!

وكان الغطاء الأسود، الموشى بالخرز الأبيض، يطير من مكانه -بين وقت لآخر- فيكشف التابوت، وتباطأ حاملوا التابوت وقد تعبوا، فكان التابوت يتقدم في هزات مستمرة كسفينة ترتج على كل موجة، ووصلوا إلى المقبرة، فيمم الرجال مباشرة إلى مكان بين الحشائش حفر فيه قبر واصطفوا حوله، وبينما كان القس يتكلم، كانت التربة الحمراء المكومة على جوانب القبر تنهار عند الأركان، حتى إذا أعدت الحبال الأربعة، وضع التابوت عليها وراقبه وهو يهبط، وخيل إليه أنه سيظل يهبط إلي الأبد، ثم سمع صوت ارتطام، وأزيز انبعث عن احتكاك الحبال وهي تشد إلى أعلى، وما لبث «بورنيسيان» أن تناول المعول الذي أسلمه له «ليستيبودوا»، وبينما كانت يده اليسرى لا تكف عن نثر الماء، أهالت اليد اليمنى كومة كبيرة من التراب بقوة، فلما ارتطم الحصى بخشب التابوت، سمع ذلك الصوت الرهيب الذي يلوح لنا كنبرات الأبدية!

وناول القس ناثرة الماء المقدس إلى جاره، وكان السيد هوميه، فهزها في وجوم، ثم ناولها إلى «شارل» الذي جثا على ركبتيه في التراب، وملأ يده بالماء يلقيه صائحاً: «استودعك الله!» وبعث إليها بقبلات، ثم جر نفسه إلى القبر، ليدفن نفسه معها.. ولكنه حمل بعيداً ولم يطل به الوقت حتى هدأ، ولعله شعر كالآخرين، بارتياح مبهم إذ انتهى كل شيء. أما الأب «روو» فقد مضى -في عودته- يدخن غليونة في هدوء، الأمر الذى جعل «هوميه» يحس -في أعماق نفسه- بأنه لا يناسب المقام، كما لاحظ أن السيد «بينيه» لم يكن حاضراً، وأن «توفاش» قد تهلل بعد القداس، وان «تيودور» -خادم موثق العقود- كان يرتدي سترة زرقاء، «كأنما ليس بوسع المرء أن يحصل على سترة سوداء، مادامت هذه

هي التقاليد، يا للشيطان! » ولكي يشرك الآخرين في ملاحظاته، راح ينتقل من جماعة إلى أخرى، كانوا آسفين على موت «إيما »، لا سيما «لوريه» الذي لم يفته حضور الجنازة، والذي راح يقول: «يا للشابة المسكينة! ما أشد ألم زوجها! » فقال الصيدلي: «هل تعلم أنه لولاي لأقدم على محاولة خطرة لنفسه؟ ».

ما كان أطيبها من امرأة! من يصدق أنني رأيتها يوم السبت الماضي، فقط، في متجري؟

قال الصيدلي: «لم أجد وقتا لأنظم كلمة ألقيها على قبرها ».

✦✦✦

ما أن ولج «شارل» داره حتى بادر إلى خلع ثيابه. أما الأب «روو»، فقد عاد إلى ارتداء قميصه الأزرق، وكان جديداً. ولما كان قد جفف دموعه به مرات كثيرات أثناء الرحلة، فقد تركت الصبغة أثراً على وجهه، كما تركت الدموع خطوطاً بين طبقات التراب التي تراكمت عليه.

وكانت مدام «بوفاري» الأم معهما. وساد الصمت ثلاثتهم. وأخيراً، تنهد الشيخ قائلاً: «اتذكر يا صديقي انني زرتك مرة في (توست) عقب فقدك زوجتك الأولى؟ لقد واسيتك إذ ذاك. وجدت ما أقوله! أما الآن... » وفي أنين عال هز صدره، قائلا: «آه! هذه نهايتي. أترى؟ لقد شهدت رحيل زوجتي، وابنى بعدها، وها هي ذي ابنتي اليوم! » ورغب في أن يعود تواً إلى (برتو) قائلاً أنه لا يقوى على المبيت في هذا البيت، كما رفض أن يرى حفيدته، قائلا: «لا، لا! أن هذا يسبب لي حزناً بالغاً! سأكتفي بأن تقبلها كثيراً عني! وداعاً! انك ولد طيب! ثم انني لن أنس قط هذا » وربت فخذه، وقال: «لا تبتئس! ستتلقى دائماً الديك الرومي! ».

ولكن ما ان بلغ قمة التل، حتى التفت وراءه، كما التفت مرة من قبل، في طريق (سان فيكتور) حين ودعها وهي ترحل مع زوجها، وكانت نوافذ القرية تعكس أشعة الشمس الغاربة وراء الحقول، فتلوح وكأن النار شبت فيها، ووضع يديه على عينيه، فرأى عند الأفق سداً من الجدران، وقد قامت الأشجار هنا وهناك، ركأنها عناقيد سوداء بين الأحجار البيضاء، وما لبث أن واصل سيره في خطوة معتدلة، إذ كانت دابته قد أصيبت بعرج.

✦✦✦

ظل «شارل» وأمه ساهرين طويلاً يتكلمان، في تلك الليلة، رغم تعبهما، تحدثا عن

أيام الماضي، وعن المستقبل. لقد عولت على أن تأتي فتقيم في (ابونفيل)، تعنى ببيته، ولا يضرب بينهما فراق قط. كانت لبقة، لطيفة، وقد ابتهجت في قرارة نفسها إذ استردت ثانية ذلك الحب الذي ضل عنها سنوات عديدة، ودقت الساعة معلنة انتصاف الليل، والقرية ساكنة كالعهد بها، أما «شارل» فكان مستيقظاً، لا يكف عن التفكير فيها، في «إيما».

وكان «رودولف» نائماً بسلام في قصره، بعد أن قضى اليوم كله يضرب في الغابة ليشغل باله عنها. أما «ليون»، فكان كعادته، في المدينة! على أن ثمة شخصاً آخر، لم يكن نائماً في تلك الساعة. فعلى القبر، بين شجرتي الصنوبر، كان ثمة فتى جاثياً يبكي، وقلبه الذي أضناه البكاء، يخفق في الظلام تحت عبء حزن هائل، ولكنه أعذب من القمر، ومن الليل الذي لا قرار له! وفجأة، سمع صرير باب المقبرة، كان «لستيبودوا» قادماً ليبحث عن معوله الذي نسيه، فلمح «جوستان» يتسلق السياج منصرفاً، وعرف أخيراً من هو الشرير الذي كان يسرق بطاطسه!

الفصل الحادي عشر

استرد «شارل» في اليوم التالي طفلته. وراحت تسأل عن أمها، فكان يقال لها إنها سافرت، وأنها ستجلب لها في عودتها بعض اللعب. وعادت «بيرت» تتكلم عنها عدة مرات، ثم لم تعد -في النهاية- تفكر فيها، وكان مرح هذه الصغيرة يفتت قلب «بوفاري». وكان عليه بجانب ذلك، أن يتحمل مواساة الصيدلي الملحاحة التي لم تكن تطاق.

وسرعان ما عادت المتاعب المالية تثار، إذ عاد السيد «لوريه» يحرض صديقه «فانكار»، وتورط «شارل» في سندات بمبالغ متزايدة، إذ ما كان ليرضى أبداً بأن يباع أتفه متاع كان لايما يوماً. وانتقدت أمه حاله، فغضب كما لم يغضب من قبل -إذ كان قد تغير تغيراً تاماً- ولم تلبث أمه أن هجرت البيت.

وإذ ذاك، بدأ كل امرىء يستغله. فطالبته مدموازيل «لامبريز» بحساب دروس لمدة ستة شهور، مع أن «إيما» لم تتلق عليها درساً واحداً (رغم ذلك الايصال الزائف الذي أطلعته «إيما» عليه). كان ثمة اتفاق بين المرأتين! وطالب صاحب المكتبة -الذي اعتاد أن يعير الناس كتبه- باشتراكات السنوات الثلاث الأخيرة، وطالبته الأم «روليه» بأجور البريد عن عشرين خطاباً، فلما استفسرها «شارل»، ألهمتها لباقتها أن تجيب «آه! لست أدرى! كان ذلك من أجل شئونها!»

وكان «شارل» كلما دفع ديناً، ظن أنه الأخير، ثم لا يلبث ان يفاجأ بديون أخرى لا تنقطع. وأرسل لمرضاه يسألهم اتعابه، فعرضت عليه الخطابات التي كانت زوجته قد كتبتها لهم، فكان يضطر إلى أن يعتذر! وأصبحت «فيليسيتيه» ترتدي ثياب السيدة، أكثرها على الأقل، فقد احتفظ هو بالبقية، كان يذهب ليتأملها في مخدعها، بعد أن يغلق الباب خلفه، وكانت الخادم في مثل طولها، فكثيراً ما كان «شارل» -حين يراها مدبرة- يتولاه الوهم بأنها هي، فيصيح: «اواه! الا امكثي. امكثي». ولكنها في عيد العنصرة هربت من (ايونفيل) مع «تيودور» بعد أن سرقت من صوان الملابس كل ما كان قد تبقى. وفي حوالي ذلك الوقت، تلقى من الأرملة «ديبوى» رسالة تتشرف فيها باخطاره: «بزواج ابنها السيد «ليون» -موثق العقود في (ايفيتو)- إلى الآنسة ليوكاديه ليبوف من بوندفيل» وقد جاء فيما كتبه «شارل» ليهنئه: «ما كان أحرى زوجتي المسكينة بأن تسعد بهذا!».

✦✦✦

وإذا كان يهيم يوماً في البيت على غير هدى، صعد إلى غرفة المخزن، فأحس تحت

نعله بكرة من ورق رقيق، بسطها فاذا فيها: «تشجعي يا «إيما» تشجعي! ما كنت لأحيل حياتك إلى شقاء» كانت رسالة «رودولف» وقد وقعت على الأرض بين الصناديق، حيث بقيت، حتى طوح بها الهواء الوافد من الكوة نحو الباب. ووقف «شارل» جامداً، محملقاً في نفس المكان الذي وقفت فيه «إيما» من أمد طويل، يائسة -أشد شجوباً مما هو الآن- وقد أخذت فكرة الموت تراودها. واكتشف أخيرا حرف «ر» صغير في نهاية الصفحة الثانية. ما هذا! وتذكر ما كان يبديه «رودولف» من اهتمام بزوجته، ثم اختفاؤه المفاجئ، وما كان يلوح عليه من ضيق وحرج حين التقيا مرتين أو ثلاثا بعد ذلك، ولكن اللهجة الوقور التي سادت الخطاب خدعته، فقال لنفسه: «لعل كلا منهما أحب الآخر حبا عذرياً»! ثم أن «شارل» لم يكن ممن يتعمقون وراء الأشياء، بل إنه أجفل من أن يعثر على أدلة، وتبددت غيرته المبهمة في حزنه الهائل. وراح يعلل نفسه بأن كل امرئ لابد كان يعبدها! بل من المؤكد أن كل الرجال كانوا يشتهونها!! وزادها هذا جمالاً لديه!!! واستولت عليه شهوة باقية هوجاء نحوها، أذكت من قنوطه الذي لم يكن له حد، إذ لم يعد من سبيل إليها.

ولكي يرضيها -وكأنها كانت لاتزال على قيد الحياة- اعتنق ميولها، وآراءها، وابتاع أحذية من الجلد الطري، وأغرم بارتداء ربطات العنق البيضاء، واستعمل الدهون في تنسيق شاربيه، وأصبح يوقع -مثلها- سندات تحت الطلب. كانت «إيما» تقوده إلى الخراب، من أعماق قبرها!

اضطر إلى أن يبيع التحف الفضية قطعة بعد أخرى، ثم باع أثاث حجرة الجلوس، وتعرت كل الغرف، عدا غرفة النوم، غرفتها، فقد بقيت كما كانت من قبل. وكان «شارل» يصعد إليها بعد عشائه، فيدفع المنضدة المستديرة أمام المدفأة، ويجذب مقعدها -ذا المسندين- ثم يجلس أمامه، وفي أحد الشمعدانات المذهبة شمعة تحترق، و«بيرت» إلى جواره تطبع بعض الصور باستخدام اختام محفورة. وكان الرجل البائس يتعذب إذ يراها سيئة الملبس، فحذاءاها بغير رباطين، والثقوب التي تخللت ذراع قميصها امتدت في تمزق وصل إلى ردفها، فان المرأة التي كانت تفد للعناية بالبيت، لم تشغل نفسها بها. على أن الصغيرة كانت لطيفة جداً، رقيقة للغاية، وكان رأسها الصغير ينحني إلى الأمام في رشاقة، تاركا شعرها الأشقر الغزير ينسدل على خديها، فيحس «شارل» بغبطة لا نهاية لها تغمره، وسعادة ممزوجة بمرارة، كتلك الخمور الرديئة الصنع التي يكون لها طعم زيت الخروع. وكان يصلح لها لعبها، أو يصنع لها أشكالاً من الورق المقوى، أو يخيط لها الدمى الممزقة، وكان إذا وقعت عيناه -إذ ذاك- على صندوق الحياكة، أو على شريط ملقى، أو حتى ابرة مستترة في أحد شقوق المنضدة، يستغرق في الأحلام، ويتجلى عليه الحزن، حتى تبدو الصغيرة بدورها حزينة مثله.

ولم يعد يفد لزيارتهما أحد، فقد هرب «جوستان» إلى (روان) حيث أصبح صبياً لدى بقال، وأخذت زيارات أطفال الصيدلي للصغيرة تقل شيئاً فشيئا، إذ لم يعد السيد «هوميه» يعنى باستمرار الود، وهو يرى الفارق في المكانة الاجتماعية بينهم وبينها.

وكان الأعمى -الذي أخفق علاجه بذلك البلسم- قد عاد إلى تل غابة (جيوم) حيث راح يخبر المسافرين بمحاولة الصيدلي الفاشلة، حتى أصبح «هوميه» -إذا ذهب إلى المدينة- يتوارى خلف ستائر «العصفورة» ليتفادى الالتقاء به، بل أنه أصبح يكرهه، ويتمنى -من أجل سمعته- أن يتخلص منه بأى ثمن، فشن عليه حملة مستترة، كشفت عن عمق ذكائه، وعن خسة غروره، فكان المرء يقرأ في «الفانال دى روان» -طيلة ستة شهور متتابعة- نبذا، راح يردد فيها:

«كل قاصد إلى سهول بيكاردي الخصيبة، لاحظ ولابد على مقربة من تل غابة (جيوم) متسولاً مصاباً بجرح فظيع في وجهه. وهو يزعجك في لجاجة، ويطاردك، ويفرض على المسافرين جميعاً جزية حقيقية. فهل مازلنا نعيش في العصور الوسطى البشعة، حين كان يباح للأفاقين أن يعرضوا في المحال العامة ما عادوا به من الحملات الصليبية من جذام وداء الخنازير!» أو «على الرغم من القوانين المكافحة للتشرد، فإن مشارف مدننا الكبرى لاتزال موبوءة بعصابات من المتسولين. ويشاهد من هؤلاء من يطوفون فرادى، ومن يحتمل أن لا يكونوا أقل خطراً من سواهم. فما رأي أعضاء مجالسنا البلدية؟».

ثم أخذ «هوميه» يبتكر الأقاصيص: «جمع بالأمس جواد عند تل غابة (جيوم)...» ثم يردف هذا بقصة حادث نشأ عن وجود الرجل الأعمى. وقد أحكم حملته، حتى حبس الرجل، ولكنه ما لبث أن سرح، وعاد من جديد، فعاد «هوميه» إلى حملته! كانت معركة، قدر لهوميه أن يكسبها، إذ قضى على غريمه بالبقاء في ملجأ طوال عمره.

✦✦✦

وجرأه هذا النجاح! ومنذ ذلك اليوم لم يعد كلب يدهس، أو مخزن للغلال يحترق، أو امرأة في الأبرشية تضرب، إلا وكان يبادر للتو إلى نشر النبأ للرأي العام، يحدوه دائما حب الرقي وكراهية القساوسة! وكان لا يفتأ يقارن بين المدارس الأولية والمدارس الكنسية ليوقع الضرر بهذه، وأعاد إلى الأذهان مذبحة «سان بارتليمى»، من أجل منحة قدرها مائة فرنك قدمت للكنيسة، وحمل على المساوئ، وكشف عن آراء جديدة، كما كان يقول! كان «هوميه» يحفر ويهدم، ومن ثم أصبح خطيراً! على أنه أحس بأنه يختنق في حدود الصحافة الضيقة، ولم يلبث أن وجد أن لابد له من كتاب يؤلفه. وإذ ذاك وضع مؤلفاً في «إحصاءات عامة لمنطقة (ايونفيل)، تتبعها ملاحظات عن المناخ». ودفعته الاحصاءات إلى الفلسفة، فشغل بمسائل كبيرة: المشكلة الاجتماعية، والتهذيب الخلقي للطبقات الفقيرة، وتربية الأسماك والمطاط، والسكك الحديدية، الخ. بل أنه أخذ يخجل من انتمائه إلى الطبقة المتوسطة، فاتخذ لنفسه مظهر أهل الفن، وأقبل على التدخين! وابتاع تمثالين بديعين من طراز «بومبادور» ليزين بهما غرفة جلوسه، بيد أنه لم يهجر الصيدلية على

الاطلاق، بل أنه -على النقيض- ظل مواظباً على متابعة الاكتشافات، فتتبع الحركة الكبرى التى أثيرت بصدد أنواع «الشيكولاته». وكان أول من أدخل «الكاكاو» و«الريفالنسيا» إلى حوض (السين) الأدنى، وتحمس لأطواق «بولفرماشيه» الكهربائية وارتدى بنفسه منها، فكان إذا خلع قميصه الداخلي (الفلانيلا)، ذهلت زوجته لرؤية الوهج الذهبي الحلزوني الذي كان يختفي وراءه، وشعرت بشوقها يتضاعف لهذا الرجل، الملتف في الأطواق كأنه ساحر مجوسى.

وكانت له آراء طريفة بصدد قبر «إيما»، فاقترح في البداية أن يقام عليه عمود أبتر مكسو بالجوخ، ثم اقترح هرماً، ثم معبداً، ثم صرحاً ذا قبة، أو «ركاماً من الأطلال». وكان «هوميه» في جميع هذه المشروعات، لا يتحول عن إضافة نبات الصفصاف الباكي، الذي كان يعتبره رمزاً لابد منه للحزن.

ورحل «شارل» معه إلى (روان) لمشاهدة بعض القبور. لدى أحد صانعي التوابيت، وصحبهما فنان يدعى «فوفريلار» -من أصدقاء «بريدو»- ظل طيلة الوقت يتكلم بالألغاز. وأخيراً، وبعد أن فحصوا حوالى مائة رسم، طلبوا تقديراً للنفقات. ثم قام الصيدلي مع «شارل» برحلة أخرى إلى (روان)، قرر فيها الأخير أنه يؤثر الاكتفاء بضريح مزخرف، يقام علي كل من جانبيه الرئيسيين «تمثال لجنى يحمل مشعلاً لا يخمد». أما الكتابة التى تنقش عليه، فلم ير «هوميه» أجمل من «استريحي ايتها المسافرة» باللاتينية، ولم يزد وأخذ يعصر ذهنه، ويردد باستمرار «استريحي أيتها المسافرة». ثم خطرت له عبارة «خفف الوطأ إنها زوجة محبة» باللاتينية، فاستقر الرأي عليها.

وكانت ثمة ظاهرة غريبة، فبينما كان «بوفاري» يفكر باستمرار في «إيما»، أخذ ينساها، واشتد به الأسى إذ شعر أن هذا الطيف يغيب عن ذاكرته رغم كل الجهود التي كان يبذلها للاحتفاظ به، ومع ذلك فإنه كان يحلم بها في كل ليلة، نفس الحلم. كان يقترب منها، حتى إذا هم باحتضانها، هوت متعفنة بين ذراعيه! وشوهد يتردد على الكنيسة كل مساء، لمدة اسبوع، كما أن الأب «بورنيسيان» زاره مرتين أو ثلاثاً ثم أهمله، لا سيما وان القس المسكين أصبح لا يطاق، وازداد تهوساً، كما قال «هوميه». كان يرغى ويزبد ضد روح العصر، ولم يكف عن أن يذكر في مواعظه -مرة كل اسبوعين- الآلام التي عاناها «فولتير» عند احتضاره، ثم موته بعد عذاب مرير -نتيجة لإلحاده- كما يعرف كل امرئ!

✦✦✦

وعلى الرغم من الاقتصاد الذي انتهجه «بوفاري» فإنه كان أعجز من أن يسد ديونه القديمة، ورفض «لوريه» أن يجدد السندات بعد ذلك، وأصبح الحجز على داره متوقعاً. فتوسل إلى أمه، التي وافقت على أن ترهن عقارها من أجله، ولكن، بعد أن أبدت كثيراً

من اللوم البالغ لما فعلته «إيما»، وسألته في مقابل هذه التضحية، شالا كان لايما وافلت من عدوان خادمتها، فأباه عليها «شارل»، ومن ثم تخاصما، على أنها كانت البادئة بالسعي إلى الصلح، فعرضت أن تكفل البنت الصغيرة، لتساعدها في البيت وتعيش معها. ووافق «شارل» على هذا، ولكن شجاعته خانته عندما حان الفراق، وإذ ذاك حدثت قطيعة نهائية، كاملة.

وكان كلما تبدد وجده لايما، ازداد تعلقاً بحب ابنته، على أنها كانت تسبب له قلقاً، إذ كانت تسعل في بعض الأحيان، وظهرت بقعتان حمراوان على خديها. وفي البيت المقابل، كانت أسرة الصيدلي مزدهرة، مرحة، كل شيء لديها في نماء، فأصبح «نابليون» يساعد اباه في العمل، ونسجت له «أتالي» قلنسوة، وكانت «ايرما» تقص له أقراصاً من الورق لتغطية المواد التي يختزنها، وأصبح «فرانكلين» يقرأ جدول «فيثا غورس» عن ظهر قلب، في نفس واحد. كان «هوميه» أسعد الآباء وأكثر الرجال حظا!

ولكن، لا! كان يقض مضجعه مطمع تكتمه! كان يتوق إلى وسام صليب الشرف (اللجيون دونير). ولم تكن المبررات تعوزه، فأولا: برز في أيام الكوليرا بما كان يبديه من تفان لاحد له، وثانيا: نشر -على حسابه الخاص- عدة مؤلفات ذات نفع عام (وكان يذكر كأمثلة عليها: كتيباً أصدره بعنوان «شراب التفاح: صناعته ومفعوله»، وكذلك ملاحظات عن الحشرة الوبرية أرسلها إلى «الأكاديمية»، ومؤلفه الاحصائي، ويمضي في سرد مؤلفاته حتى يذكر الرسالة التي قدمها للحصول على شهادته في الصيدلة!)، ثم يضيف: «هذا عدا انني عضو في جمعيات عديدة للعلماء» -وما كان عضوا إلا في واحدة! وكان يصيح وهو يدور على رجل واحدة: بالايجاز، انني أهل للوسام، ولو لبلائي في الحرائق فحسب!».

وما لبث «هوميه» أن مال إلى صف الحكومة، فأسدى لمدير الأقاليم -في السر- خدمات كبيرة في الانتخابات، باع نفسه في النهاية، بغى وفجر! بل انه رفع ملتمسا إلى العاهل يناشده فيه أن «ينصفه»، وخاطبه فيه بـ «مليكنا الصالح»، وقارن بينه وبين هنري الرابع. وأخذ الصيدلي ينقض على الصحيفة في كل صباح، ليرى نبأ الأنعام، ولكنه لم ينشر قط! وأخيراً، عجز عن المضي في الاحتمال، وكانت في حديقته بقعة معشوشبة صممت على شكل نجمة الوسام ويتصل بأعلاها شريطان من الحشائش يمثلان شريط الوسام، فأخذ يسير حولها عاقداً ذراعيه، مفكراً في غباء الحكومة، وعدم اعتراف البشر بالفضل لأهله.

ولم يكن «شارل» قد فتح بعد الدرج السري في المكتب المصنوع من خشب الورد -الذي كانت «ايما» تستخدمه عادة- بواعز من الاحترام لذكراها، أو بدافع من لون من اللذة كان يحمله على أن يبطيء في أبحاثه. على أنه جلس ذات يوم أمام المكتب، فأدار المفتاح، وضغط الزر، وكانت كل رسائل «ليون» هناك، ولم يعد ثمة مجال للشك في هذه

المرة، وأخذ يلتهم الرسائل حتي آخرها، ثم مضى ينقب في كل ركن، بل في قطع الأثاث جميعاً، وفي كل الأدراج، وخلف الجدران وهو منهمر الدمع، يجهش بالبكاء، مختبلاً، مجنوناً وعثر على صندوق، ففتحه بركلة من قدمه، وإذا بصورة «رودولف» تقفز في وجهه، وسط خطابات عاطفية مكدسة.

وعجب الناس لانطوائه، فلم يعد يخرج، ولم يعد يقابل احدا، بل إنه أصبح يرفض أن يعود مرضاه، وما لبث أن تردد زعم بانه «يحبس نفسه ليعكف على الشراب»! على أن بعض الفضوليين كانوا -أحياناً- يتسلقون سياج الحديقة، فكانوا يرون -مذهولين- ذلك الرجل الشارد الفكر، الطويل اللحية، الزرى الملبس، الذي كان يجهش بالبكاء بصوت عال وهو يمشي.

وكان في المساء المبكر -في الصيف- يصطحب ابنته ويقودها إلى المقبرة، ثم يعودان حين يرخى الليل سدوله، ولا يبقى في الميدان من ضوء سوى الضوء المنبعث من كوة «بينيه» غير أن لذة حزنه لم تكن كاملة، إذ لم يكن بجواره من يشاطره اياها، فأخذ يزور الأم «لوفرانسوا» راجياً أن يتحدث إليها، ولكن ربة الفندق لم تكن تصغى إليه الا بنصف اذن، اذ كانت لديها متاعبها الخاصة، فقد أنشأ «لوريه» أخيرا عربات لنقل الركاب -تنافس عربتها «العصفورة»- باسم «المفضلة للتجارة»، وأصر سائق «العصفورة» المدعو «هيفير»-الذي اكتسب شهرة كبيرة في اداء عمله- على أن يرفع أجره، وأخذ يهدد بأن يذهب إلى «المنافس»!

✦✦✦

وفي ذات يوم ذهب «شارل» إلى سوق (أرجوى) ليبيع حصانه -آخر مورد لديه- فالتقى برودولف. وشحب كل منهما إذ لمح الآخر، وتمتم رودولف -الذي كان قد اكتفى بأن يرسل إليه بطاقة للتعزية- ببضعة أعذار، وهو متلعثم، ثم واتته الجرأة، حتى أنه مضى في طمأنينته إلى حد دعوته إلى تناول زجاجة من الجعة في الحانة، وكان الجو قائظاً، إذ كان الشهر أغسطس.

ومال على المنضدة أمامه، وأخذ يمضغ سيجاره وهو يتكلم، بينما كان «شارل» غارقاً فى تأمل ذاك الوجه الذي أحبته، هي! وخيل إليه أنه يرى في هذا الوجه شيئاً منها، كان يثير عجبه، حتى لقد ود لو كان هو هذا الرجل!

ومضى «رودولف» يتحدث عن الزراعة، والماشية، والمرعى، وهو يملأ -بعبارات مبتذلة- الثغرات التي كان يعوزه فيها الايضاح. ولم يكن «شارل» مصغياً إليه، ولاحظ «رودولف» ذلك، فتتبع مجرى الذكريات التي كانت تنعكس على وجهه، إذ أخذ هذا الوجه يزداد احتقاناً، وراحت طاقتا أنفه تختلجان بسرعة، وشفتاه ترتجفان، وحانت لحظة أفعم

فيها «شارل» بغضب قاتم، فثبت عينيه على «رودولف»، الذي كف عن الحديث في شيء من الخوف، ولكن، سرعان ما عاد إلى وجه «شارل» ذلك الطابع المضني الحزين، وقال: «لست أحقد عليك!» وبهت «رودولف»، ومضى «شارل» يقول -ورأسه بين راحتيه- في صوت متهدج، وفي لحظة مثقلة بحزن لا حد له: «لا، لست أحقد عليك!» بل إنه أضاف عبارة رقيقة، العبارة الوحيدة من نوعها: «إنها غلطة القدر!».

ورأى «رودولف» -وهو الذي وجه هذا القدر- أن العبارة دمثة، لاسيما من رجل في مثل مركز «شارل» بل ومضحكة، وخسيسة إلى حد ما!

✦✦✦

في اليوم التالي، ذهب «شارل» فجلس على المقعد الطويل الذي كان في الخميلة، وكانت أشعة الشمس تنساب خلال الأفنان، وأوراق الكرمة تطبع ظلالها على الرمل، والياسمين يضوع الهواء بعبيره، والسماء زرقاء، والذباب الهندي يطن محموماً حول الزنبق المزدهر، وأحس «شارل» بأنه يختنق، كما يفعل الشاب المراهق حين تفيض به تيارات الحب المبهمة التي يفعم بها قلبه.

وفي الساعة السابعة، أقبلت «بيرت» الصغيرة -لم تكن قد رأته قط طيلة ما بعد الظهر- تبحث عنه للعشاء، فاذا رأسه مسند إلى الحائط خلفه، والعينان مغمضتان، والفم مفتوح، وفي يده خصلة طويلة من شعر أسود، وهتفت: «هيا يا أبت، تعال!». وإذ ظنته راغباً في مداعبتها، دفعته في رفق، فهوى إلى الأرض. كان قد مات!

وبعد ست وثلاثين ساعة، أقبل السيد «كانيفيه» -برجاء من الصيدلي- فقام بتشريح الجثة، ولم يجد شيئا.

وعندما بيع كل شيء، تبقى أثنا عشر فرنكا وخمسة وسبعون سنتيما، استخدمت في دفع نفقات سفر الآنسة «بوفاري» إلى جدتها.

ثم ماتت الجدة العجوز في نفس السنة. وكان الأب «روو» -والد إيما- قد أصيب بالشلل، فكفلت الفتاة عمة لأمها، كانت امرأة فقيرة، فأرسلتها لتكسب عيشها في مصنع لنسيج القطن.

ومنذ وفاة «بوفاري» تتابع على (ايونفيل) ثلاثة أطباء، واحدا بعد واحد، دون أن يوفقوا، فقد كان «هوميه» يحمل عليهم في عنف، كان عدد عملائه قد تضخم، وأغمضت السلطات اعينها عنه، وتكفل الرأى العام بحمايته.

وقد حصل لتوه عل صليب الشرف، «اللجيون دونير»!

المحتويات

إصدارات شرقيات

دار لنشر الأعمال الإبداعية المتميزة
في إخراج طباعي متميز

✦✦✦

روايات

اللجنة / صنع الله إبراهيم
وكالة عطية/ خيري شلبي
رائحة البرتقال/ محمود الورداني
وردية ليل / إبراهيم أصلان
حجارة بوبيللو / إدوار الخراط
عهدة الصقر / ألان نادو (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)
مدام بوفاري / جوستاف فلوبير (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)

✦✦✦

قصص

السرائر/ منتصر القفاش
الديوان الأخير / عبد الحكيم قاسم
أمواج الليالي / إدوار الخراط
ضوء ضعيف لا يكشف شيئا / محمد البساطي
القمر في اكتمال / نبيل نعوم

✦✦✦

شعر

فاصلة ايقاعات النمل / محمد عفيفي مطر
فقه اللذة / حلمي سالم
لا نيل إلا النيل / حسن طلب
مطر خفيف في الخارج / إبراهيم داوود

✦✦✦

دراسات

من أوراق الرفض والقبول / فاروق عبد القادر
مسرح الشعب / د. علي الراعي
البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث / د. سيد البحراوي

✦✦✦

كاريكاتير

تاجي العلي في القاهرة / ناجي العلي
(بالاشتراك مع دار المستقبل العربي)

✦✦✦

عيون الأدب الأجنبي

يصدر منها

- **عبَدَة الصفر**
ألان نادو
ترجمة: البستاني و البطراوي

- **مدام بوفاري**
جوستاف فلوبير
ترجمة: محمد مندور

- **الكلمات**
جان بول سارتر
ترجمة: خليل صابات

- **الأحمر والأسود**
ستاندال
ترجمة: عبد الحميد الدواخلي

- **المكان**
آني إرنو
ترجمة: أمينة رشيد
و سيد البحراوي

- **كبش الفداء**
رينيه جيرار
ترجمة: هدى جمال الدين

دار شرقيات للنشر و التوزيع

